الأعمال القصصيّة الكاملة

(الجزء الأوّل)

د. سناء شعلان

الأعمال القصصيّة الكاملة

الطبعة الأولى
٢٠٢٠
جميع الحقوق محفوظة للمؤلفة

المؤلّف ومن هو في حكمه	: د. سناء شعلان
عنوان الكتاب	: الأعمال القصصيّة الكاملة لسناء شعلان/ جزء١
بيانات الناشر	: أمواج للنّشر والتّوزيع، عمّان – الأردن
عدد صفحات الكتاب	: ٤٦٨
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنيّة	: ر. أ (٢٠٢٠/٦/١٥٣١)
الرقم المعياري الدّوليّ (ISBN)	: ٩٧٨- ٩٩٥٧- ٥٤٥- ٤٦- ٨
الواصفات	: / القصص العربية// المجموعات القصصيّة// الأدب العربي/

- يتحمل المؤلّف كامل المسؤوليّة القانونيّة عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنيّة أو أي جهة حكومية أخرى.
- تم إعداد بيانات الفهرسة والتّصنيف الأوليّة من قبل دائرة المكتبة الوطنيّة

جميع حقوق الملكيّة الأدبيّة محفوظة للمؤلّفة سناء شعلان ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة هذا الكتاب أو أي جزء منه أو إدخاله على الكمبيوتر أو ترجمته على اسطوانات ضوئيّة إلا بموافقة خطيّة منها.

أمـــــواج للطباعة والنشر والتوزيع
المملكـــة الأردنية الهاشميـــة ـ عمان
تلفاكس: ٠٠٩٦٢٦٤٨٨٨٣٦١/ ٠٠٩٦٢٦٤٨٨٩٦٥١
amwajpub@yahoo. com
www. amwaj- pub. com

الأعمال القصصيّة

الكاملة

د. سناء شعلان

الجزء الأول

الطّبعة الأولى

٢٠٢٠

الفِهْرستْ

كلمة النّاشر...17

(١)

الجموعة القصصيّة "أكاذيب النّساء"

مولانا الكذب ٢٧
أكاذيب النّساء ٣١
أكاذيب العدالة ٥١
أكاذيب مباحة...٥٦
اللّعنة ٥٨
تخريصات..٦١
صهوات الكذب ٧٠
أفراح التّدليس ومصارع الصّادقين ٨٠
يوم صادق مؤسف جدّاً..٨٩
كاذبون بمنتهى الصّدق ٩٥
جارتنا أمّ الخير ١١٠
روايات موضوعة ١١٧
كلّه تمام ١٢٥
أكاذيب الوسط ١٣١
تضارب أقوال ١٥٥
ألف كذبة وكذبة ١٦٣

(٢)

المجموعة القصصيّة "الذي سرق نجمة"

الذي سرق نجمة ١٩٥
منامات السّهاد.. ٢٠١
منام السّلطان ٢٠١
حيثُ البحر لا يصلّي ٢٠٧
الضّياع في عيني رجل الجبل ٢١٨
الاستغوار في الجحيم.. ٢٣٩
جريمة كتابة ٢٤٧
راقصة الطّاغية.. ٢٥٧
أبو دوح ٢٦٣
سحر وداد ٢٦٨
تقاسيم.. ٢٧٣
غالية سيّدة الحكايا ٢٨٤
العيون التّي ترى ٢٩١
حدث في مكان ما.. ٢٩٩
يوميّات إنسان مهزوم ٣٠٣

(٣)

المجموعة القصصيّة "تقاسيم الفلسطينيّ"

تقاسيم الوطن ٣١١
أشجار ٣١١
أقدام.. ٣١٢
إصابة هدف ٣١٢
اغتصاب.. ٣١٣

التّوائم الأربعة ٣١٤
الأمّ.. ٣١٦
الأرجوحة ٣١٧
المؤذّن.. ٣١٨
المحرقة.. ٣١٨
المعجزة ٣١٩
تِيه ٣٢١
تواريخ.. ٣٢١
ثوب زفاف ٣٢٢
حفّار قبور ٣٢٣
القزم... ٣٢٤
الكنعانيّ... ٣٢٥
خائن ٣٢٦
حليب سباع ٣٢٧
جَنين... ٣٢٧
رحيل.. ٣٢٩
تعويض.. ٣٣٠
حَشْر... ٣٣٠
عُقْم ٣٣١
كنيسة... ٣٣١
دواء ٣٣٢
رجال.. ٣٣٣
نضال.. ٣٣٤
حالة خاصّة.. ٣٣٤

ابن أمّه... ٣٣٥
ابتسامة... ٣٣٦
جبال ٣٣٧
خيانة ٣٣٨
زَرْع... ٣٤٠
زهايمر... ٣٤٠
بنطال العيد ٣٤١
حَجَر ٣٤٢
زيتون... ٣٤٣
شجرة... ٣٤٤
الوليد... ٣٤٤
صَمَمْ ٣٤٥
صيد ٣٤٦
القائد ٣٤٧
إسعاف ٣٤٨
أُخوة... ٣٤٨
أُبوّة ٣٤٩
شجرة عائلة... ٣٥٠
شهيد ٣٥١
عروس البحر ٣٥٢
جدار ٣٥٣
خرافيّة ٣٥٤
عانس... ٣٥٤
قُرعة... ٣٥٦

قصّة حبّ.. ٣٥٧
قدمان.. ٣٥٧
فيلم خياليّ ٣٥٨
عيد أمّ ٣٥٩
لُهاث ٣٥٩
مدرسة.. ٣٦١
وجه ٣٦٢
نفق ٣٦٢
نوم ٣٦٣
هديّة.. ٣٦٤
هروب.. ٣٦٤
مقبرة ٣٦٥
معطف.. ٣٦٦
صحفيّ ٣٦٧
صديق ٣٦٨
الكُوفيّة ٣٦٩
معبر ٣٧٠
عِرْض ٣٧٠
صحراء ٣٧١
معرض لوحات.. ٣٧٢
بيت.. ٣٧٢
جملة واحدة ٣٧٣
مسجد ٣٧٣
تضامن.. ٣٧٤

لثام ٣٧٤
انتظار.. ٣٧٥
بحر أسود ٣٧٦
هواية فلسطينيّة.. ٣٧٦
وليّ.. ٣٧٧
جمهورية فلسطينيّة لـمدّة ٩٥ كيلو ٣٧٨
خيال الظّلّ... ٣٨٠
العيد... ٣٨٢
تقاسيم المعتقل ٣٨٣
آمال ٣٨٣
الأسير الرّضيع.. ٣٨٣
إضراب.. ٣٨٤
القصيدة ٣٨٥
دموع ٣٨٦
سجين ٣٨٧
حليب ٣٨٧
أسير ٣٨٨
عيد ميلاد.. ٣٨٩
عُرْي... ٣٩٠
قلب ٣٩١
نُطفة ٣٩٢
تقاسيم المخيّم.. ٣٩٤
الدّرب... ٣٩٤
تلّ الزّعتر.. ٣٩٤

حنظلة ٣٩٥
صور ٣٩٦
دجاجة ٣٩٧
رَكْض ٣٩٨
الحلوة ٣٩٩
عائشة ألوان ٤٠٠
فلسطينيّ ٤٠١
فَخَار ٤٠١
المخيّم ٤٠٢
"كرت" المؤن ٤٠٣
عقوبة ٤٠٥
كماليّات ٤٠٦
كمان ٤٠٦
نهر البارد ٤٠٨
تقاسيم الشّتات ٤٠٩
إقامة ٤٠٩
البحر ٤١٠
الصّفعة ٤١١
الرّسام ٤١٢
سمكة ٤١٣
مقايضة ٤١٣
حذاء أبيض ٤١٤
أجيرة ٤١٥
ابن شهيد ٤١٦

خيمة ٤١٧
قارورة ٤١٧
خرَف ٤١٨
صوت ٤١٩
الصبيّ المحظوظ ٤١٩
طابور ٤٢٠
رسائل شوق ٤٢١
طيران ٤٢٢
قطارات ٤٢٢
غداء ٤٢٣
ولادة متعسّرة ٤٢٤
موت ٤٢٥
قلادة ٤٢٥
مطار ٤٢٦
قرش ٤٢٧
بُقجة ٤٢٨
تقاسيم العرب ٤٢٩
وحش ٤٢٩
دعم ٤٣٠
دماء ٤٣٠
منهاج جديد ٤٣١
صهاينة ٤٣٢
شرف ٤٣٣
عروبة ٤٣٣

جنديّ ٤٣٤
مظاهرة ٤٣٥
لطيم ٤٣٦
تقاسيم العدوّ ٤٣٧
زوجة سارق ٤٣٧
صمت ٤٣٨
أغنية عربيّة ٤٣٨
السّوط ٤٣٩
ثوب ٤٤١
لصّ ٤٤٢
رأفة ٤٤٢
خديعة ٤٤٤
رجل ٤٤٤
آر. بي. جي ٤٤٥
شارون ٤٤٦
عَبْد ٤٤٧
كتاب ٤٤٧
متحف ٤٤٨
هواية صهيونيّة ٤٤٨
وسام ٤٤٩
خُرافة ٤٥٠
نسيان ٤٥١
نبتة عطريّة ٤٥١
طالب ٤٥٢

أوزون ٤٥٣
تقاسيم البعث.. ٤٥٥
تمثال ٤٥٥
الرّيح والكلاب ٤٥٦
المنجل ٤٥٦
وحام ٤٥٧
القيامة ٤٥٧

الإهداء

إلى أمّي سيّدة الكلمات والحكايات

كلمة النّاشر

حرصنا في هذا الكتاب الجامع الكبير الذي يقع في جزأين على جمع القصص القصيرة والقصيرة جدّاً التي صدرت للأديبة الأردنيّة د. سناء شعلان على امتداد عقد ونصف من عطائها الإبداعيّ، وهي قصص نشرت فرادى في المجلّات والصّحف والملاحق الثّقافيّة والمواقع الثّقافيّة، وبعد ذلك نُشرت في مجموعات قصصيّة مستقلّة صادرة عن أكثر من جهة ناشرة.

لقد حظيت هذا القصص بالاهتمام النّقديّ والأكاديميّ والبحثيّ والشّعبيّ والإعلاميّ، وحصلت على أكثر من جائزة محليّة وعربيّة ومحلّيّة، كما حصل كامل إبداعها على الكثير من الجوائز المهمّة، مثل: جائزة المثقّف العربيّ عن مجمل إنتاجها النّقديّ والإبداعيّ، مؤتمر القمّة الثّقافيّ العربيّ التّحضيري الأوّل، وزارة الثّقافة العراقيّة ومؤسّسة جائزة العنقاء والمنظّمة العربيّة لحقوق الإنسان في مصر والشّبكة العربيّة للتّسامح وتجمّع عقول وجامعة ابن رشد في هولندا، ميسان، العراق، ٢٠١٨، وجائزة مؤتمر المرأة العربيّة للعام، جائزة التّميّز الإبداعيّ والأكاديميّ والتّأثير عن مجمل إنتاجها الإبداعيّ والنّقديّ، مؤتمر المرأة العربيّة، مركز التّفكير الإبداعيّ، عمان، الأردن، ٢٠١٢، وجائزة كلاويز التّقديريّة للإبداع عن مجمل إنتاجها الإبداعيّ والنّقديّ، مهرجان كلاويز، مركز كلاويز الثّقافيّ والإبداعيّ، السّليمانيّة، إقليم كردستان العراق، العراق، ٢٠١١، وجائزة الشّيخ محمد صالح باشراحيل للإبداع الثّقافيّ العالميّة في دورتها الثّالثة في حقل الرّواية والقصّة القصيرة عن مجمل إبداعها الرّوائيّ والقصصيّ، السّعوديّة، ٢٠١٠

وهذا يدلّ على مدى أهميّة هذا المنجز القصصيّ التي تميّز بالفرادة والاستثنائيّة والتّجريب وتحطيم الأشكال الإبداعيّة الكلاسيكيّة والمكرورة، حتى غدت د. سناء شعلان مدرسة إبداعيّة خاصّة أغرت الكثيرين لدراسة أعمالها في مقالاتهم ودراساتهم وأبحاثهم وكتبهم ورسائلهم وأطروحاتهم الجامعيّة.

يأتي هذا الكتاب الجامع لقصصها في جزأيه مرحلة أولى في سبيل جمع الإرث القصصي لشعلان، في خطوة أولى في هذا الدّرب في سبيل جمع المزيد منه في المستقبل في أجزاء أخرى؛ لنقدّمه هديّة نادرة للمكتبة العربيّة وللقارئ العربيّ بغية مساعدته في الاطّلاع على هذا الإبداع القصصيّ كاملاً غير مجزوء.

لقد انتهجنا في هذا الكتاب نهجاً خاصّاً لأجل جمع هذه القصص الثّرّة المميّزة، وهذا المنهج قام على ما يلي:

١. هذا الكتاب هو نسخة جامعة مزيدة منقّحة من المجموعات القصصيّة كلّها.
٢. قمنا بحذف المجموعات القصصيّة التي تتشابه في القصص التي تضمّنتها، وأشرنا إلى ذلك في هامش الكتاب ليسهل على المطّلع والباحث أن يدرك هذا الأمر.
٣. قمنا بإدراج القصص القصيرة وفق المجموعات القصصيّة التي وردت فيها وبالتّرتيب ذاته التي وردت به في تلك المجموعات القصصيّة.
٤. هذا الكتاب بجزأيه يحتوي على المجموعات القصصيّة التاليّة:
    ١. المجموعة القصصيّة "أكاذيب النّساء ٢٠١٩
    ٢. المجموعة القصصيّة "الذي سرق نجمة"، ٢٠١٥
    ٣. المجموعة القصصيّة "تقاسيم الفلسطينيّ"، ٢٠١٥

٤. المجموعة القصصيّة "حدث ذات جدار"، ٢٠١٥

٥. المجموعة القصصيّة "تراتيل الماء"، ٢٠١٠

٦. المجموعة القصصيّة "أرض الحكايا"، ٢٠٠٦

٧. المجموعة القصصيّة "الكابوس"، ، ٢٠٠٦

٨. المجموعة القصصيّة "مقامات الاحتراق"، ٢٠٠٦

٩. المجموعة القصصيّة "ناسك الصّومعة"، ٢٠٠٦

١٠. المجموعة القصصيّة "قافلة العطش"، ٢٠٠٦

١١. المجموعة القصصيّة "الهروب إلى آخر الدنيا"، ٢٠٠٦

١٢. المجموعة القصصيّة " مذكّرات رضيعة"، ٢٠٠٦

٥. راعينا في إدراج المجموعات القصصية في الكتاب أن ندرجها مرتّبة ترتيباً زمانيّاً تنازليّاً وفق تاريخ صدورها الميلاديّ.

٦. وضعنا في هوامش الكتاب معلومات ببيليوغرافيّة مهمّة عن المجموعات القصصّية والقصص القصيرة.

نتمنّى أن نكون قد وفّقنا في مسعانا هذا، والله من وراء القصد، ونتمنّى قراءة ممتعة لكلّ من يطلّع على جهدنا الكبير والمخلص في هذا الكتاب في جزأيه.

(١)

المجموعة القصصيّة "أكاذيب النّساء" [١]

١- صدرت المجموعة القصصيّة "أكاذيب النّساء" في طبعتها الأولى عن دار أمواج للنّشر والتّوزيع، عمّان، الأردن، ٢٠١٩

مجموعة قصصية
أكاذيب النّساء
د.سناء شعلان
أمواج

مولانا الكذب

"كلّ من يزعمون أنّهم على خصومة مع مولانا الكذب هم يخرّصون".

لا أحد يجرؤ على أن يسأل عن أصل مولانا الكذب أو حياته أو موطنه أو منبته أو تربة روحه المسروقة منذ الأزل؛ فهو عندما يتجلّى لمريديه وأتباعه وأنصاره يبتلع الأسئلة كلّها، وفي بعض ثورات غضبه الأحمر المأفون يبتلع بعضاً من جسده وأعضائه وأفكاره وكلماته، لم يجرؤ أحد على أن ينسج أيّ قصّة حول تفاصيل حياته وأسرار وجوده وتقاسيم ملامحه وحقيقة خلقه وتكوينه؛ بل لا أحد يملك أن ينظر في وجهه المكرمش حدّ التّثنّي والتّقبّض والتّشمير، فقط الجميع يكتفون بتقبيل رؤوس أصابع قدميه، وهم يسجدون له متضرّعين له ليمطر عطاياه عليهم، ويتثنّون له في زوايا معبده، دون التّجرّؤ على النّظر إلى ما يكشفه ثوبه عن عاري قدميه اللّتين تسكن في مساماتهما الشّوكيّة حشرات متأبّدة لزجة، ويتنزّى منهما قيح مخاطيّ دبق.

الجميع يكتفي بطبع قبلة سريعة على أظافر قدميه قبل أن تنساح روائح العفونة في أنوفهم، وتزكم أعصابهم، وتضرب أعلى أفواههم لتصكّ نافوخ الرّأس بعد أن تتشبّث بتلابيب أعلى سقف الحلق.

لم يجرؤ بشر يوماً على السّؤال عمّن يكون مولانا الكذب؛ ففضحه يعني فضح الجميع، والتّجاوز عليه يعني إهانته التّي لا تُغتفر، وإعلان عبادته جهراً وصراحة هي قوّة وأنفة وعزّة لا يملكها مولانا الكذب ذاته، لذلك يكتفي الجميع بعبادته دون إشهار ذلك، ويلتقي الملتقون في محاريب معابده دون تصافح

أو حديث أو تعارف أو تواصل، بل كلّ ينزوي في ركن بعيد عن الآخر، كأنّه لا يرى أحداً في المكان، في حين يكتفي الجميع ببعض الإيماءات والغمز واللّمز والإشارات لغة بينهم تدلّ على ترحيب أو ترهيب أو انتظار في الخارج أو تذكير بموعد مؤجل أو وعد منتظر أو وعيد قادم.

مولانا الكذب له هيبة كبيرة، وحضور كامل، حتى في الأحلام يراه الأفّاقون، ويزعمون أنّه قد التقى بهم، وصاحبهم، ويقسمون على ذلك بماء العيون، وشهقات النّفوس التّي أتلفها الانتظار والتّمنّي.

مريدو مولانا الكذب لا عدد يحصيهم، ولا رقم يحتويهم؛ إنّهم كثر مثل حبّات الرّمل، وفقاعات مياه البحار، وأنفاس البشر، وقرعات القلوب، لا أحد يعرف متى تتلمذ المريدون على يديه، ولا كيف، ولا بأيّ شكل؛ فمعلومة كهذه تتأبّى على الصّدق، فكيف يدركها الكذب والكذّابون؟ المعلومة الأكيدة أنّ الكذّابين جميعاً تتلمذوا على يدي مولانا الكذب في زمن ما وبطريقة مجهولة، وأنّ حظوظهم في تحصيل الكذب واستغلاله واستثماره تتفاوت وفق اجتهاداتهم ومناسيب رداءة أرواحهم ومقدار موت ضمائرهم ومساحة حجم أحلامهم الشّرّيرة وطموحاتهم الرّحبة وأطماعهم الطّائشة.

لمولانا الكذب صورة وحشيّة مقزّزة يعلّقها مريدوه في تجاويف أرواحهم وظلام أنفسهم، وعندما يحضر مولانا الكذب تتبخّر نوازع الخير، ويتضاءل أساطين العلم، وتتغيّر طبائع الإنسانيّة، ويحشر مولانا الكذب جسده المعلوك في أماكنها جميعاً، ويجلس ضاحكاً مكشّراً بابتسامته عن أتلام فمه، وأشواك شفتيه، وخلوف ريقه؛ فيسارع الجميع إلى عبادته، والسّجود له شكراً على عونه؛ فلولا الكذب ما فاز مريد له، ولا نجح أفّاق، ولا ساد مجرم، ولا اشتهر فاسق، ولا انتصر ظالم، ولا ضاع حقّ، ولا انتشر شرّ أو فساد أو طغيان.

قليل عددهم أولئك الذين يعلنون حرباً رعناء على جبروت مولانا الكذب، ويتمسّكون بالصّدق، وينحازون له، ويرفعون ألوية الصّدق والإصلاح

والعدل والحرّيّة والإخاء، والكثير من الشّعارات البرّاقة النّقيّة التّي تقزّز مولانا الكذب، وتجعله يتبّول على نفسه غضباً، ويتقيّأ على ملابسه النّجسة، ويندفع لصبّ جامّ غضبه على أولئك الخصوم؛ فيحقّد مريديه عليهم، وهم في حقد أنفسهم لا يحتاجون إلى المزيد من الحقد، ولا نيران تحفيز، فتكون نهاية الخصوم من أنصار الصّدق على أيدي مريدي مولانا الكذب، فيبلغونهم المهالك، ويقضون عليهم بعد أن يتكالبوا عليهم تكالب الوحوش على الجيفة؛ فلا مكان للصّدق والصّادقين، والإخلاص والمخلصين في أرض الكذب والنّفاق والشّقاق والنّزاع، حيث يحكم مولانا الكذب عالمه الأسود المقيت.

مولانا الكذب في أوقات فراغه -وقلّما تكون عنده أوقات فراغ لانشغاله بالكذب ثم الكذب- يقدّم خدماته للشّعوب والقادة أفراداً وجماعات ومؤسّسات وهياكل وعصابات؛ فهو سيّد الأماكن والأزمان دون منازع، وعندما يسبّ أحدهم الكذب، أو يلعنه، يسقط مولانا الكذب على قفاه؛ لشّدة ما يضحك ساخراً من كذبة هذه المسبّة؛ إذ يعلم أنّ سبّ مريديه له على الملأ ولعناتهم عليه أمام الجماهير ما هي إلاّ تسبيح بوحدانيته في ملكوت الكذب؛ فهو الرّبّ الأعلى لمريديه ولاعنيه!

مولانا الكذب يتضخّم في كلّ لحظة بفضل أكاذيب مريديه، ويتوسّع في كلّ همسة نفاق ودجل وتلفيق، ويسعد دون انفكاك كلّما شنّف التخّريص أذنيه الذّئبيتين بما يحبّ من كلام، ويقسم بأعضائه التّناسليّة النّجسة أنّ مريديه يتفوّقون عليه كذباً وتلفيقاً وتزويراً، ويتيه أمام نفسه كبراً؛ إذ يدعوه المريدون في كلّ مكان؛ لذلك يحقّ له أن يتربّع على عرش الولاية والوصاية؛ فهو مولى مريديه، ولولاه ما قسموا صحيحاً من رغيف، ولا عضّوا بالأنياب على منفعة أو مصلحة، أو نالوا ظفراً لا يستحقّونه.

أكاذيب النّساء

"مكتوب في سفر النّجاسة: تكذب النّساء كي تتبرّأ من نجاسة المجتمع ودرن ظلمه لها"

"مسطور في سفر الصّمت: تكذب النّساء خوفاً من البوح"

"من أسفار الكاذبين: من كذب فقد نجا؛ ومن نجا بذلك، فقد هلك"

"مرقوم في قانون الغاب: الأضعف عليه أن يكذب كي يعيش"

"الكاذبون في جهنّم الآخرة، والصّادقون في سقر الحياة"

(١)

(أ)

أكاذيب العانس

جلستْ -كعادتها- على دكّة إسمنتيّة صلدة مشبّعة بحرارة شمس النّهار الذي كاد يبتعد عن غرفتها العمياء الصّغيرة كجحر خُلد، حيث تعيش فيها وحيدة منذ زمن.

الشّمس تكاد تسقط في أفق الغروب، وجاراتها اللّواتي ألفن هذا الميعاد للّقاء والجلوس والتّحلق حول فناجين القهوة يتوافدن عليها تباعاً؛ لتروي لهنّ جارتهنّ العانس العجوز قصص شبابها المنصرم، وبطولات أنوثتها الهالكة، وحكايات تجاربها النّادرة.

قدّمت لهنّ قهوتها المرّة على الرّغم من كثرة ما فيها من ملاعق السّكر، وشرعت تلوّح لهنّ بقصّتها الوحيدة التّي باتت إيقونة فخرها الدّائمة؛ إذ تقول لهنّ بلهجتها الفخورة التّي يشوبها تمثيل غير محترف وكبر مصنوع بمهارة أنّها

خدمت أسرتها فرداً فرداً بتفانٍ قلّ نظيره، وأنّها قطّعت عمرها الذي بلي جلّه في خدمة والديها حتى رحلا عن العالم راضيين مرضيين بعد مرض عضال ألمّ بهما لسنوات عجاف جافّة، فكانت البّارّة بهما حياة ومماتاً، وأنّها ربت إخوتها وأخواتها بكلّ محبّة وإخلاص، وأنّها أدارت ظهرها للحبّ والعشق والزّواج ولذات الجسد والرّوح والانتشاء لأجل أن تربّي إخوتها الأيتام.

تخرج – جرياً على عادتها- صرّة قماشيّة من حمّالة صدرها المهترئة، وتفتحها باستعراضيّة حاوٍ يخرج أرنباً من قبعته، أو زينة ملوّنة من فردة قفازه، وتعرض على الجارات ما فيها من أوراق ماليّة مرصوصة بعناية، وتقسم أمام الجميع قسمها اليوميّ أنّها أسعد امرأة في الوجود، وأنّ إخوانها وأخواتها يضعونها في أعلى هرم ما يقدّسون في الحياة، وأنّهم يفتحون لها خزائن أموالهم؛ لتغرف منها ما تشاء، ومتى تشاء دون حساب، وأنّها سلطانتهم المتوّجة على قلوبهم وإراداتهم، وأنّهم يقبّلون يديها ورجليها استرضاء لها كي تقبل أن تعيش في دارة من داراتهم الفسيحة، لكنّها ترفض ذلك كي تعيش على راحتها وهواها.

فتكرّر جاراتها من نساء الحارّة جملتهنّ السّيمفونيّة اللّواتي اعتدن أن يقفلن بها قصّة صديقتهنّ العانس: "ما شاء الله، وكان!"

قد تتبرّع واحدة منهن، فتضيف جملة أخرى لتعلي من حرارة التّأثّر المزور، فتقول بتقدير مبالغ به: "تستحقّين كلّ خير يا سيّدة هدى؛ أنتِ أميرة الأميرات، وسيّدة الصّبايا والعرائس، حتى لو بلغت المائة عام من عمركِ".

فتضحك هدى العانس ضحكتها التّي تقرقع مثل ماء ينزلق في مزراب، وتكشف عن فمها الأدرد، وتقول برضا: "الله يرضى عن إخواني وأخواتي؛

كلّهم باروّن بي"، فتقول جاراتها بصوت واحد كأنّهن في صلاة خلف إمام: "آمين".

(ب)

حقائق العانس

بمجرّد حلول الظّلام، تغادر الجارات جلسة الدّكة الاسمنيتيّة بعد أن احتسين على مهلٍ وتلذّذ قهوة العانس هدى وقصصها هروباً من برد المساء، حتى ولو كان برداً صيفيّاً مداعباً للبشرة والجسد، عندها تجرجر هدى جسدها المتعب بصعوبة؛ لتدسّ به في غرفتها الصّغيرة بعد أن تغلق بابها الخشبيّ المهترئ الذي توسّلت لإخوانها الواحد تلو الآخر كي يصلحوه لها، فما عبئوا برجائها، ولا بخوفها من أن يقتحمه عليها مقتحم، أو يقتلعه من مكانه مقتلع، وكانوا يكتفون بالسّخرية منها؛ لأنّها تخشى على عرضها ومالها، وهي من باتت دون جمال أو شباب يُرتجى، أو مال يُطمع فيه.

تغسل فناجين القهوة على عجل عاجز، وهي تسند بطنها إلى حوض غسيل الأواني؛ إذ قدماها لا تستطيعان حمل جسدها الهزيل المنكود المحروم، ثم تتكوّم في أريكتها السّرير، وتعدّ النّقود التّي استعرضتها أمام جاراتها، وتدسّها من جديد في حمّالة صدرها، وتفتح المصحف الذي تحتفظ به عند مخدّة رأسها؛ لتقرأ فيه حزباً أو اثنين كما اعتادت على أن تفعل كلّ ليلة قبل نومها، وقبل صلاة الوتر التّي تختم بها ليلتها التّي لا يمكن أن تنهيها قبل أن تدعو على إخوتها وأخواتها بالعذاب والوبال والانتقام الرّبّانيّ بعد أن سرقوا عمرها وشبابها ومالها، ثم تخلّوا عنها عندما كبرتْ وشاختْ وضعفتْ وافتقرتْ، وألقوا

بها على قارعة الطّريق، ولولا صدقات المحسنين لماتت جوعاً وعرياً في الشّوارع مثل جرو أجرب لفظه مالكه، ولا تنسى أن تدعو على والدها ووالدتها بعذاب الجبابرة والطّغاة والظّلمة بعد أن منعوها من الزّواج كي تنفق عليهم وعلى تربية أبنائهما الكثر، ثم ماتا على كبر بعد أن أفنت حياتها في خدمتهما في مرضهم العضال الذي نهشهما دون رحمة لسنوات طوال.

تزمّ شفتيها بدعاء طويل حفظته الغرفة وأثاثها لكثرة ما ردّدته، ثم تخرج صورة مهترئة لحبيب من زمن غابر مرّ في قلبها وجسدها، فزرع فيهما بهجة صغيرة، ثم رحل بعيداً عنها عندما لم يقبل أن يحمل معها حملها المثقل بالأب والأم والإخوة والأخوات، والإنفاق عليهم جميعاً من مهنة صغيرة قليلة المال والكرامة.

تقبّل الصّورة قبلة محرورة لا تستطيع الدّموع أن تطفئ لوعتها، وتدسّها تحت مخدّتها، وتنام في انتظار مساء غد حيث موعد فنجان القهوة المعتاد مع جاراتها في الحيّ لتروي لهم قصص سعادتها وبرّ إخوتها بها!

(٢)

(أ)

أكاذيب الخادمة

أخيراً حصلتْ على هاتف نقّال حديث نوعاً ما، لتستطيع عبره أن ترسل الرّسائل والصّور إلى أهلها في ذلك البلد النّائي عن الحضارة والتّوحّش والمال المحدث الذي أفسد كلّ شيء بما ذلك الإنسانيّة والحضارة كاملة.

عانت كثيراً حتى استطاعت أن تجمع ثمنه ممّا يتبقّى لها من نزير مال راتبها بعد أن تحوّل جلّه إلى أمّها التّي ترعى ابنيها وإلى زوجها الذي غلبه المرض، فهدّ رجولته وقدرته على كسب قوت يومه، ثم عانت أكثر لتقنع مخدومتها السّمينة اللّئيمة كي تقبل بأن تقتني هاتفاً نقّالاً لتتواصل عبره مع أسرتها في آخر الدّنيا بما لا يعيق قيامها بأعمالها المنزليّة التّي لا تنتهي ليل نهار، فقبلتْ مخدومتها بذلك بعد أن علا خوارها، وهي تملي عليها شروطاً مذلّة لا نهاية لها مقابل هذا القبول، فقبلت الخادمة بشروطها جميعاً دون جدال كي تحظّى بجهاز اتّصال نقّال يكون ملكاً لها.

الآن باتت تملك هاتفاً نقّالاً جميلاً ورديّ اللّون، تلبسه واقياً بلاستيكيّاً على شكل أرنب أصفر اللّون، وتلتقط به صوراً لها بملابس جميلة ورثتها من بنات مخدومتها، أو تلبسها سرّاً دون أن يرينها في أوقات غيابهنّ الطّويل عن المنزل، فتبتسم ابتسامات ممطوطة ومزوّقة، وهي تضع زينة ملوّنة تجعلها تبدو مثل دمية من دمى مواسم الأفراح والمهرجانات، وتأخذ لجسدها وقفات وزوايا تبديه في فرح وكبرياء وسعادة وصحّة موفورة، وتعمد إلى المناظر الطّبيعيّة

الجميلة والأثاث الفخم في بيت مخدوميها وفي بيوت أقاربهم حيث تُصطحب كي تخدم هناك دون توقّف، فتلتقط صوراً لها وحدها دون بشر أو تفاصيل أخرى، فتبدو ملكة متوّجة، وسيّدة مشرقيّة ذات نفط وأموال وليالٍ بهيجة، وأحياناً تتعمّد أن تحمل سيوفاً ذهبيّة أو تماثيل نحاسيّة أو أوراقاً نقديّة في يديها لتظهر غارقة في أموال الشّرّق ونعيمه وأسراره التّي لم يسمع عنها أهلها في الشّرّق الأدنى المنكوب إلاّ عبر قصص الرّواة، وأحلام صيّادي الثّروات، وكذّابي متعهدي الخدم الذين يسرقون بنات قريتهم لأجل أن يخدموهنّ في قصور الشّرّق النّفطيّ، فإنّ كنّ على جمال مثير الحقّوهنّ بجواري الرّقيق الأبيض، وقدّموهنّ لأحضان الأثرياء سبايا لإرضاء شهواتهم وجنوحهم وشذوذهم وشبقهم الذي لا يعرف إشباعاً، وإنّ كن دون جمال ألقوا بهنّ في آتون الخدمة والاسترقاق والذّل.

تتخيّل بفرح مزهو كم ستفرح أمّها، وهي ترى صورها المشرقيّة عبر جهاز الاتّصال النّقال الذي اشترته بدفعة من دفعات الرّاتب الذي أرسلته ابنتها لها عبر حوالة مصرفيّة مرهونة بتوقيع اسم مشرقيّ مكتوب على عجل، وهو اسم مخدومة ابنتها، فتعرض الصّور بحنان على حفيديها اللّذين يتكوّمان في كوخها مُهمَلين منذ سافرت أمّهما بعيداً في مطاردة بعض المال لأجل حياة يُشتهى أن تكون كريمة وإنسانيّة إلى حدّ ما، ثم تعرض صور ابنتها التّي ترفل في نعيم الشّرّق على جاراتها الفقيرات المنكودات اللّواتي يعملن في حقول الأرز والبطاطا ومصانع السّجاد بأجور تشبه السّخرة لأجل أن يوفرن لقيمات الخبز ورشات الملح.

(ب)

حقائق الخادمة

عندما تضربها مخدومتها، فهي تحرص على أن تهبط الضّربات عليها في أبعد نقطة ممكنة من هاتفها النّقال كي لا ينكسر، وعندما تتمدّد محطّمة في فرشتها في جحرها الصّغير الذي يسمونه غرفة الخادمة، فهي تستعرض الصّور السّعيدة التّي التقطّتها في جهازها في غفلة من معاناتها وألمها وجحيم عملها الموصول ليل نهار، فتتخيّل نفسها أميرة نفطيّة تعيش في نعيم شرقيّ مترف تحفّ بها المباهج والمعازف والمطارف والحشايا والأفراح، وعندها تتعمّد أن لا تنظر إلى جلد جسدها الذي تبقّع وتمزّق وتسلّخ من كثرة ضربها وعملها المضني السّيزيفيّ الذي لا يعرف توقفاً أو انتهاء، وتحاول أن تتناسى صوت اللّهاث الخنزيريّ لمخدومها الذي اعتاد أن يهتك عرضها كلّما لاح له أن يذوق جسداً أنثويّاً هزيلاً، ذلّه الفقر والعوز والخدمة، وأخرسه الخوف والوحدة والضّعف.

تتكوّر في فرشتها، وتتدثّر بدثاره القديم، وتكتب لأمّها في ظلمة غرفتها رسالة المساء بأصابع متعبة تكاد تنسلخ من كفّ يدها، وترسل لها مع الرّسالة صورة لها، وهي تبتسم ابتسامة خيلاء ممتدّة، وتمسك بيدها اليسرى قطف عنب عملاق، وترفع أصبعين من أصابع يديها اليمنى على هيئة علامة نصر مزعوم!

(٣)

(أ)

أكاذيب الزّوجة

لطالما مدح أهلها وزوجها ومعارفها وأنسباؤها حكمتها ورجاحة عقلها وأصالة طبعها ودماثة أخلاقها وسماحة روحها، ولذلك اعتادت أن تكظم غيظها، وأن تبتلع أحزانها وآلامها مهما كانت مرّة علقماً، وما شكت يوماً حزناً لأحد، حتى وإن كان زوجها الذي كانت شريكته في أحمال الحياة طوال أربعين عاماً من التّضحية والإخلاص حتى هدّت السّنون جسدها، وسرق الإخلاص شبابها، ودفنت الحكمة أنوثتها، ولم يتبقَ له منها سوى اسم الزّوجة المخلصّة، وأمّ العيال، وجدّة الحفدة، وما عادت ترى ذكرى أنوثتها إلاّ في صورة زواجها المعلّقة على جدار بارد خلف سريرها، أو في صور شبابها المحبوسة في دفتر الصّور القديم، أو في خاتم زواج ذهبيّ قديم يعلق في إصبعها منذ دهر، ولا يمكن إخراجه من مكانه بعد أن سمن الأصبع، وفاض لحمه على عظمه، وسُدّ طريق الخروج أمام درب خروجه.

أخذت القرارات دون توقّف في مسيرة تاريخ أسرتها؛ فقد أخذت قرارات التّعليم والزّواج والقروض والزّيارات والبناء والانتقال لها ولأسرتها، وأخيراً اضطرّت إلى أخذ قرار تزويج زوجها من امرأة أخرى صبيّة حسناء لتقدّم شبابها وشهوتها لزوجها الذي ما عاد يرى فيها إلاّ هيكلاً آدميّاً أثريّاً مؤسفاً لا يستحقّ إلاّ التّكريم والصّور التّذكاريّة معه، ويورثه الأسى والرّثاء لها ولنفسه.

لقد أخذت هذا القرار بكامل إرادتها ورغبتها بعد أن طال أمد حزن زوجها، وهجر جسدها، وغرق في صمت طويل مقهور، وشرع يتلصّص على صور المراهقات والنّساء العاريات أو شبه العاريات، فاختارتْ له أن يسكن مع زوجته الجديدة في الشّقة الكبرى من شقق العمارة التّي يمتلكها زوجها، ويسكن أبناؤها فيها مع زوجاتهم وبنيهم، واختارت أن تسكن غرفة أرضيّة في العمارة تكفي لها ولضيوف لا يتجاوز عددهم أصابع اليد الواحدة.

شرعت تنفق حياتها بابتسامة لا تفارقها، وبانغماس كامل في العبادة وانتظار الموت ومراقبة زوجها بسعادة ورضا وفرح، وهو يستردّ شبابه وعمره المهدور بصحبة زوجة شابّة حسناء تنهب منه - دون توقّف أو ارتواء- المال والهدايا والتّدليل والحبّ ثمن غنجها اللّذيذ وتأوهاتها المحمومة وحرارة جسدها وعذوبة ريقها وجمال صحبتها، وطراوة جلدها، وبريق عينيها.

(ب)
حقائق الزّوجة

لقد كرهت كلّ ما يربطها بذاتها الطّيّبة الجميلة المحبّة، وكرهتْ كذلك صفات الأصالة والعقل المتّسع والصّدر المتسامح، وألقاب رجاحة العقل ودماثة الخلق وسماحة الرّوح التّي حرمتها من زوجها، وضّيعت شبابها، وكافأتها بالحرمان والنّبذ والوحدة نظير إخلاصها ومحبتها وعطائها، بعد أن اضطرها زوجها إلى أن تدفعه إلى حضن امرأة أخرى ما دام بقاؤه في حضنها يعني تعاسته وذبوله وجفاؤه لها.

كانت تحترق في كلّ لحظة، وهي تراقب زوجها ينهض من شيخوخته ويأسه إكراماً لجسد امرأة أخرى، وتصمت مكرهة لتبتلع كلمات الثّناء عليها من زوجها وبنيها وبناتها ومعارفها وأنسبائها لقاء قهرها، وهي تطعم سعادتها لامرأة غيرها نكالاً لجريمة لم تقترفها، وهي التّقدّم في العمر، وبسبب الإخلاص الكامل لزوجها لأسرتها وواجباتها تجاههما.

كلّ ما تبقّى لها من زوجها وأسرتها عريض احترام لا قيمة له عندها، وهي تنزوي في غرفتها البادرة وحيدة، ولا تملك غير رصيد أموال كثيرة تكوّمت بوفرة في رصيد حسابها بعد سنوات طويلة أدارت فيها حسابات الزّوج والأسرة، لكنّها لا تعنى لها شيئاً مقابل حرمانها من سيادتها على قلب زوجها، ونومها في حضنه متوّجة ملكة على قلبه وإحساسه.

صمتت تراقب واقعها الجديد المؤلم إلى أن لاكها الحزن ولاكته، وأكل من روحها، ولم تستطع أن تقضم منه ولو قضمة صغيرة، ثم قرّرت -على حين غرّة- أن تلقي بأحزانها ووحدتها بعيداً عنها، وأن تستمتع ببقايا أنوثتها، وأن تبعث ما مات منها على يدي ذلك الشّاب الوسيم الذي تعرّفت عليه في نادي اللّياقة البدنيّة؛ فهو يمطرها باشتهائه لها، وهي تمطره بمالها الذي يشتهيه بحقّ.

كلّما رأت زوجها يستردّ شبابه مع زوجته الشّابة الجميلة، طارت إلى حبيبها الشّاب لتفيض عليه بمالها، ويفيض عليها بشبابه وذكورته المتحفّزة وكلمات عشقه المشتراة بباهظ المال، دون أن يفيض عليها بكلمات الثّناء على رجاحة عقلها وأصالتها ودماثتها؛ فتلك كلمات عافتها، كما عافت ما مضى من زمنها المسروق.

(٤)

(أ)

أكاذيب الجميلة

ليست جميلة بأيّ مقياس من المقاييس، وإن صمّمت على أن تقيّم جمالها بهذا الشّكل؛ فهي لا ترقى بجمالها كثيراً على جمال قردة كثّة الشّعر حمراء المؤخّرة، لكنّها على الرّغم من ذلك تصمّم على أن تصف لحبيبها الكفيف جمالها السّومريّ الخالد في كلّ فرصة مواتية لذلك، فتنفرج أساريره كلّما تفنّنت في وصف مفاتنها وسحرها، ويعلوه تيه يشبه احتراق تنين في رأس جبل، وهو يتخيّل أنّ هذا الجمال الآسر هو ملكه وحده دون غيره من البشر.

كلّما قفزت الخيلاء إلى روحه صهل في جسدها حتى أرواها وارتوى، لا ينفك يدخل في مسامها حتى تنقطع أنفاسها شهوة وشبعاً وفرحاً، عندها فقط يشعر بأنّه أدّى واجبه الفحوليّ تجاه جمالها الخرافيّ الذي قلّما يوهب لامرأة، ويندر أن يسعد به رجل ضرير مثله؛ فليست الجميلات من حظّ رجال لا يستطيعون رؤيتهنّ؛ إذ هنّ في الغالب من حظّ اللّئام أو الأثرياء الذين يشترون جمالهنّ بأنهار من المال والجوهر.

عندما يتمدّد عارياً على سريره إلى جانب جسدها الذي تفوح منه رائحة الانتشاء والرّضا والقُبل الملتهبة تحرص على أن تداعب وديان جسده وجباله، وهي تجيّر فحولته العمياء لحساب جمالها السّاحر الذي فاته إن يرى سحره بسبب عماه، فيبتسم لها ابتسامة ملغزة، ويسحبها من جديد إلى جري ممتع في سهوب الانتشاء.

(ب)

حقائق الجميلة

تشكر اللّه الذي ستر قبحها بظلام عيني من تحبّ، ووهب قلبه لها موفوراً كاملاً، فلولا أنّه كفيف البصر ما كان ليرضى بها أن تموء على بابه، لا أن تخلد في جسده وسريره وروحه. أمّا هو فيدرك بقلبه كم هي جميلة الرّوح، وساحرة الإخلاص، وفاتنة الاشتهاء، لكن لو طاوعه نظره لعاف ملامحها الخاروفيّة، ولزهد بها كما زهد بها غيره من الرّجال.

لم تتردّد ولو للحظة كي تكون امرأته المشتهاة عندما طلبها لنفسه على الرّغم من ظلام عينيه؛ فما حاجتها بعيني رجل تدركان مدى قبحها ودمامتها؟ ومنذ تلك اللّحظة تعيش أجمل تفاصيل العشق والحبّ معه؛ فهو ينزلها في نفسها منزلة ربّة الجمال والسّحر، وهي بدأت تصدّق أنّها جميلة بحقّ ما دام هو يلعق جسدها اشتهاء من مفرق شعر رأسها حتى أخمص قدميها.

هي سعيدة بهذا العشق، وتكاد تنسى أزمة اسمها العينين وما تريان من دمامتها مادام حبيبها لا يستطيع أن يبصر قبحها الشّديد، ويفوتها أن تنتبه إلى أنّ حبيبها ليس كفيف النّظر تماماً، بل هو يستطيع أن يرى بوضوح عن قرب، وهو يرى قبحها بشكل جيّد، لكنّه يستطيع أن يرى جمالها الدّاخليّ بشكل كامل، ولذلك يدرك جمالها الحقيقيّ لا الزّائف، ولذلك هي امرأته الجميلة الفاتنة حتى ولو لم تكن جميلة الملامح، لكنّها جميلة الحبّ والرّوح والعشق والشّهوة.

(٥)

(أ)

أكاذيب العروس

ليست سعيدة لأنّها ستترك مدرستها وكتبها وأترابها وبنات الجيران اللّواتي اعتادت على اللّعب معهنّ، لكنّها تحاول أن تفتخر بأمّها وأبيها وأخيها الكبير وثوب زفافها ودورها المقدّس الذي ستقوم به كما تسميّه أسرتها؛ هي لا تفهم تماماً معنى هذا الدّور المقدّس أو حتى معنى كلمة مقدّس، لكنّها تدرك أنّ ما عليها أن تقوم به هو عمل جبريّ يُدخلها الجنّة، ويرضي الرّبّ عنها مثل الصّلاة والصّوم وإطاعة الأبوين والابتعاد عن اللّعب مع الصبيّة الذّكور لا سيما إن كانوا لطيفين ووسيمين، هكذا يكون إرضاء الرّبّ كما أفهمها أخوها بعد أن ضربها يوماً ضرباً مبرّحا بحزام بنطاله لأنّ أحد الصبيّة في الحارّة أهداها زهرة ياسمين فوّاحة، وهمس لها بكلمة إطراء وودّ وإعجاب بوجهها البدريّ البريء.

من يومها باتت تخشى غضب اللّه الذي يحلّ عليها عبر حزام بنطال أبيها أو أخيها الذي يمزّق جسدها، أو عبر عقاب أمّها لها بحجّة أنّها أمّ وطاعتها من طاعة الرّبّ مهما غالت في الطّلب، وبالغت في تعذيبها وإهانتها.

هي لا تفهمهم أبداً، ولا تفهم ربّهم الذي يصورنه لها على شكل قوّة جبّارة مكرّسة للضّرب والتّعذيب والانتقام والبطش، لكن ليس لها إلاّ أن تطيع الجميع، وأن تطيع ربّهم ما دامت ضعيفة وحيدة مهيضة الجناح.

إرضاء للربّ كذلك وافقت على الزّواج من ذلك العجوز الغريب الذي هبط فجأة على حيهم برفقة سماسرة الزّواج، واشتراها بمال جمّ، وحزمها كما تُحزم البضائع في الصّناديق بعد أن سامها كما يسوم نعجة في سوق البهائم، ثم استوقفه فيها بروز كمثري في ثدييها وتكوّر أجاصي في ردفيها، فقرر أن يشتريها ليقضمها وفق ما يشتهي أن يلتهم.

أمّها قالت لها إنّها سوف تُرضي الله ووالديها وأسرتها بهذا الزّواج، وهي تخاف غضب الله عليها إن رفضته، وتخاف كثيراً حزام أخيها إن تجرّأت على الرّفض بعناد، وقالتْ بملء صوتها الطّفوليّ الرّافض: لا.

تخشى أن تتذكّر أختها الكبيرة التّي نحرها أبوها وأخوها كما ينحرون ذبيحة؛ لأنّها أسلمت جسدها لفتى تعشقه. قالوا لها عندها: إنّ أختها الكبرى قد تزوّجت، ورحلتْ إلى البعيد حيث لا رجعة، لكنّها تعرف تماماً أنّهم قد دفنوها مذبوحة في أرض الحظّيرة، وتركوا البهائم تبرطع فوق تراب هِيل على عجل فوق جسدها الرّقيق.

الآن هي سوف تذهب للجهاد مع زوجها في مكان ما، سوف ترضي الرّبّ، وتعيش وفق ما يشاء، هذا ما أخبرتها أمّها به، وهي تهمس في أذنها الصّغيرة قبل أن تسلمها بضاعة مشتراة لزوجها العجوز العجل، وتقول لها: "لا تتعبيه، سلّمي نفسك له بسهولة ويسر كي تدخلي الجنّة، ويرضى الرّبّ عنكِ، ولا تلعنكِ الملائكة".

(ب)
حقائق العروس

لم يطل الأمر بها كثيراً حتى أدركت أنّها عروس لرجال كثيرين، لا عروسه له وحده، وأدركت أنّ الله ليس شريكاً في أيّ معادلة قد أُقحمت فيها رغم أنفها الصّغير المكسور، وما عادت تبالي برضا والديها أو أخيها مادامت هي غير راضية عمّا تعيشه، وما عاد في نفسها أيّ معنى لقدسيّة الجهاد المزوّر إن كان ذلك يعني أن تعمل مومساً بالإكراه، وتبذل جسدها جبراً لرجال متوحشين لا يعرفون الله، ولا يعرفون معنى الجهاد، ولا عاد للشّرف معنى ما دامت قد بيعتْ رقيقاً في سوق نخاسة الزّواج، وما عاد يخيفها سكين والدها أو حزام بنطال أخيها اللّذين يقيسان شرفهما بجسد طفلة ذبحوها لأنّها أحبّت صبيّاً ما، ويسمّون أنفسهم أشرافاً وهم من باعوا ابنتهم الصّغيرة في أسواق نخاسة اللّصوص والمجرمين والقتلة.

الآن هي لم تعد طفلة ولا عروساً ولا خائفة ولا عابدة ولا ذاهبة إلى جحيم أو نعيم، هي الآن مجرّد طفلة سرقوا لعبتها ومدرستها وكتبتها وبراءتها، وباعها أهلها لمن يشتري جسدها بأعلى سعر ممكن، فتناوب عليها رجال وحوش ينهشون جسدها، ويشربون ماء شهوتها ودموعها وعرق خوفها.

الآن تشعر أنّها أصبحت عنقاء مقدّسة عندما ذبحت زوجها القوّاد، وهو يغطّ في نوم عميق مثل خنزير شره، وسمّمت طعام أولئك الرّجال الذين يتناوبون على اغتصابها هي ومجموعة كبيرة من النّساء السّبايا في حروب الزّواج والجهاد والمال.

هم جميعاً يرحلون الآن إلى الجحيم الذي تجزم بوجوده عند إله عادل رحيم لا تعرفه أمّها أو أبوها أو أخوها، ولم يذكروه لها في حكاياتهم الكاذبة عن إله يتواطأ معهم في أعمال الشّرّ والظّلم.

تصرخ بالفتيات اللّواتي حررتهنّ من أسرهنّ ليصلن إلى أبعد نقطة آمنة عن معسكر الرّجال الوحوش الذين سمّمت طعامهم سرّاً، وبصقت في ماء شربهم، وباتت تداعب روحها بأمنية واحدة لا غير، وهي حياة شريفة بحقّ دون خوف أو سياط أو اغتصاب أو إله يقبل بالظّلم وفق حكايات الظّلمة تجّار البشر.

(٦)

(أ)

أكاذيب الحرّة

هي قد حصلّت أرفع تعليم في أعرق جامعات العالم على الرّغم من رفض أسرتها لتعليمها وسفرها؛ فقد كانت أوّل أنثى في أسرتها تقرّر أن تنتفض على منطق خنوع الدّجاج، وتجأر بصوتها معلنة أنّها ليست دجاجة، بل امرأة كاملة الحرّيّة والعقل، ولها حقّ الحياة والاختيار والرّفض وتقرير المصير واختيار مآلات ذاتها.

لم يعجب هذا الأمر أسرتها أو سكّان عالمها، لكنّها تحدّتْ ذلك كلّه، وطارت نحو سماوات الحرّيّة، وأخذت حرّيتها، وحطّمت أغلالها، وباتت كاتبة شهيرة، وحقوقيّة لها بصمتها في المجتمع الدّوليّ، وصوتاً حرّاً له خياره الكامل.

هناك في البعيد بدأت حياتها مثل دجاجة دائخة عرجاء هربت من قنّها على غير هدى، دون أن تعرف أيّ طريق عليها أن تتخذ في دربها، لكنّها سريعاً ما اكتشفت أنّها إنسانة لا دجاجة، وبدأت تكتشف حقوقها وقدراتها، وآمنت بنفسها، وحقّقت كلّ ما حلمت بتجريبه؛ لقد تعلّمت أكثر من لغة، وصرخت في المظاهرات ضدّ قوى الظّلم، وجاعت لتتبرّع للجائعين ببعض طعامها، ورقصت تحت المطر، ورأت الله يتجلّى في العدل والحرّيّة، وقرأت الكتب دون توقّف، وسمعت أصوات المعابد والكنائس والمساجد، وضحكت في الطّرقات دون خوف أو تخويف من عورة أو فتنة أو عقاب أو جلد.

الآن هي حرّة تماماً، حرّة كما أرادت، وحرّة كما يراها كلّ من حولها، ولها أن تصيح متى تشاء، وكيفما تشاء، وفي وجه من تشاء: "أنا حرّة، ولستُ دجاجة في قنّ أيّ ديك كان".

(ب)
حقائق الحرّة

عندما عادت إلى أرض الدّجاج كان كلّ شيء ضدّ إنسانيتها وحرّيتها؛ ذلك الرّجل المشرقيّ الذي أحبّته في عالم البحيرات والحرّيّة، وآمنت بفكره، غدا ديكاً أحمق بمجرّد عودته إلى أرض الدّجاج، وإلى حضن أمّه الدّجاجة العتقيّة السّمينة، فأرادها أن تُختزل في دجاجة مطيعة له، تبيض له بيضات ذهب من وظيفتها، وتسلّمه كلّ قرش تحصل عليه دون اعتراض، فتركته، وتركت بعده رجلاً ثانياً وثالثاً ورابعاً وخامساً... وخمسين؛ لأنّها لا تريد أن تكون دجاجة

سحرّيّة تبيض ذهباً لأيّ ذكر كان لمجرّد أنّه يسافدها، أو له علاقة بها؛ وبذلك أصبحت عانساً، لكن حرّة بشكل كامل.

لكنّها سرعان ما أصبحت دجاجة ولو نسبيّاً في عالم كلّه دجاج أحمق جبان؛ ففي الدّولة عاشت دجاجة راضية بالقمع والاستغلال والاضطهاد، وفي المؤسّسة التّي تعمل فيها عاشت إنسانة حقيقيّة لمرّات كثيرة، وهي تخوض حروباً موصولة لأجل الاحتفاظ بذلك، وعندما تعبت من كثرة الحروب والتّقاتل، قبلتْ بأن تعيش دجاجة بشكل مؤقّت في عملها، على أمل أن تعيش إنسانة حرّة في حياتها الخاصّة والحقوقيّة خارج عملها، لكنّها وجدت نفسها تخسر نفسها جزءاً بعد آخر، وهي تنفق على إخوانها وأخواتها وأسرتها وأقاربها الرّجال كي لا يعترضوا على حرّيتها وسفرها وعملها، وتضمن بذلك الإنفاق عليهم عسى أن يخرس المال أفواههم التّي لا تنفك تطلب المزيد منه، واضطرّت كذلك إلى أن تقبل بدور الدّجاجة في اختبارات كثيرة كي لا تُقتل أو تُعتقل أو تُغتصب أو تُسجن أو تُطرد من عملها ووطنها، أو تلفّق لها فضيحة ما.

الصّراع الطّويل الذي عاشته كي تثبّت حقيقة أنّها إنسانة حرّة لا دجاجة جعلها تنسى بالتّدريج جملتها الشّهيرة التّي ترفعها شعاراً لحياتها، وتقولها بفخر واعتزاز أنثويّ عميق مضمّخ بالرّفض، ومعطّر بالكرامة: "أنا حرّة، ولستُ دجاجة في قنّ أيّ ديك كان".

(٧)

(أ)

أكاذيب السّاحرة

كان من الممكن أن تكون طفلة رتيبة، وامرأة اعتياديّة لو لم تنفث جدّتها السّحر في فيها، ولم تعلّق قلادة رئاسة السّاحرات في رقبتها، ولم تلقّنها تعويذات السّحر الأكبر، وبذلك كلّه ورثت إرث السّحر من جدّاتها السّاحرات، وورثت منهنّ أسرارهنّ وكنوزهنّ وتعاويذهنّ، وباتت تعرف أسرار الوجود والعدم، وتقدر على ما لا يقدر عليه بشر أو جان، وتحكم كما تشاء فيمن تشاء، وتُخفي الكثير من حقائق وجودها عن البشر الفانين؛ فهي متزوّجة من سلطان الجان، ولها تسعون ابناً من فوارس الأرضيّن السّبع، وعندها كنوز لا حصر لها، وتعيش ليلاً في قصر بناه جنود النّبي سليمان، وعاشت فيه بلقيس ردحاً من عمرها، وخلف عجزها وتجاعيد وجهها هناك فاتنة ساحرة يتجلّى جمالها في لباسها المصنوع من الماس واللّؤلؤ عندما تعود إلى قصرها السّرّيّ لتلتقي بزوجها وأبنائها الذين يخدمهم جيش من حور العين وفرسان العالم الأزرق.

أمّا في النّهار فهي تعيش حياة تنكريّة؛ إذ تعيش في هيئة عجوز معدمة، وتسكن كوخاً حقيراً، وتقتات على هدايا من يقصدها لتصنع تميمة له، أو تفكّ عنه سحراً شريراً أصابه؛ فهي أقسمت قسم السّاحرات على أن تعيش حياتهنّ في النّهار، وأن تعيش سلطانها وجبروتها في اللّيل.

(ب)
حقائق السّاحرة

تشيع تلك القصص الوهميّة عن مفارقات نهارها وليلها، وعن جمالها وغناها وسحرها وقدراتها كي تجذب إليها الحمقى من الموهومين والمكروبين والطّامعين والضّعفاء كي تلقمهم شعوذاتها وأوهامها ورقاها الباليّة طمعاً في أموالهم كثرت أم قلّتْ؛ فهذا أفضل من أن تموت جوعاً، وهي العجوز الوحيدة العانس التّي لم تتزوّج، ولم ترث من أحد من سلالتها شروى نقير، ولم تملك أيّ موهبة أو دراية أو مهنة أو حرفة أو وسيلة اعتياش؛ لذلك أشاعت قصصها الموهومة عن إرث جدتها، وعن قدراتها السّحريّة، وباتت تبيع الأوهام للنّاس الذين يقصدونها، وتتمنّى في سرّها لو أنّها تملك بحقّ أيّ قوّة أو سلطان أو سحر يجعلها تعيش العوالم التّي يشيع بين النّاس أنّها تعيشها.

في أوقات فراغها، وكثيراً ما كان عندها أوقات فراغ وملل ووحدة، كانت تبحث دون توقّف عن ساحرة مجيّدة تستطيع أن تعمل لها سحراً يعطيها الجمال والمال والحبّ والحبيب والأبناء التّسعين فرسان الأرضين السّبع!

أكاذيب العدالة

"ليس للعدالة أن يكون لها أكاذيب؛ فهي خُلقت للحقيقة"

(١)
خارج العدالة

هي ترفض الزّواج به، وتلعن صلة الدّم التّي تجعل منه ابن عمّ لها، وتربطه بها بشكل قدريّ، وتزيد من طمعه الكليّ في إرثها المنتظر من والدها عندما يفارق الحياة.

هي ترى في عينيه من الغدر والطّمع والخيانة ما كان يرفض أهلوها أن يروه في عينيه؛ لأنّهم يؤمنون بوشائج الدّم أكثر ممّا يؤمنون بخصال البشر ونوازعهم وتفاوت مشاربهم.

لقد خطبها من والدها وإخوتها لأكثر من مرّة، لكنّها رفضته بإصرار وعناد، وأدارتْ له ظهرها غير آبهة به أو بحبّه المكذوب أو بصلّة الدّم التّي تربطهما بتعس القرابة إلى أبد الأبديّن، محطّمة آماله بأن يضع يديه على حصتها من إرثها من أبيها، لكنّه لم يقبل بهذه الخسارة، أو بهذا الرّفض المهين لرجولته المتضخّمة مثل درن سرطانيّ، وقرّر أن يتزوّجها قهر أنفها المتعالي الجميل، لكنّها رفضته من جديد بإصرار حديديّ أرغم أهلها على الانصياع لرغبتها، والتّسليم

برفضها له، لكنّه لم يـرضَ بـذلك، وقـرّر أن يتزوّجهـا بقـوّة القـانون، وسـطوة الجريمة.

كان الأمر أسهل ممّا تخيّل، اغتنم فرصة بقائها وحدها في بيتهـا، واغتصـبها بكلّ سهولة وسطوة بعد أن استفرد بها، قاومته بشـدّة، لكنّـه كـان أقـوى منهـا جسداً وفتكاً، وبذلك حظّي ببكارتها، وثم سلّم نفسه للشّـرطة معترفـاً بجريمتـه، ومعلناً أنّه على أتمّ الاستعداد للزّواج بها وفق ما يقرّه القانون من حقّ المغتصب بالزّواج ممّن اغتصبها؛ كأنّ القانون مفصّـل بعنايـة لخدمـة المجـرم لا لمعاقبتـه؛ إذ يهب الضّحيّة المغتصبة هديّة مجانيّة لمغتصبها.

(٢)
دون عدالة

رفضتْ بإصرار أن تعيش مع من اغتصبها حتى ولو زفّها القانون له زفّاً، ورفضت أن تنكّس رأسها أمام أهلها خجلى محمّلة بالعار، وهي المُعتدى عليهـا والمغدورة، وصمّمت على أن يأخذ والدها وإخوتها بثأرها من ابـن عمّهـا، وأن يلقوا به في غياهب السّجن جزاء جريمته النّكراء في حقّها.

لكن لا أحد سمع صوتها المنادي بالعدالة؛ فنساء العائلة أسمينها الوقحة ونبذنها، ورجال العشيرة عدّوها وصمة عار في تاريخ عوائلهم، وثمرة اغتصابها باتت تتحرّك في بطنها معلنة عن قدوم طفل غير شرعيّ من علاقة سفاح؛ فبات الجميع يضغط عليها من أجل الزّواج بابن عمّها، ومحو قصّة اغتصابها من ذاكرة تاريخ الأسرة، لكنّها أصرّت على إجهاض هذا الطّفل، وعلى معاقبة ابن عمّها.

عندها اجتمع رجال أسرتها، وقرّروا بكلّ رجولة صدّاحة، وعدالة صارمة أن يذبحوها؛ لأنّها جرّت العار عليهم بحملها السّفاح، ورفضها الزّواج بمن اغتصبها، وخسارة امرأة أهون من خسارة رجل في عرف القبيلة وتعداد الخراف، فقتلوها بدم بارد، ومحوا عارهم بطريقتهم الخاصّة، وخرج ابن عمّها من السّجن يستقبله الأهل، وينعتونه بالحصان الأصيل الفحل الذي أينما اشتهى نطّ!

(٣)

للعدالة وجوه كثيرة

ذلك الموظّف الفقير المسالم كان يعدّ وظيفته المتواضعة كنزه العظيم، ورمز كرامته وكرامة أسرته، وفضلاً عريضاً مَنّ الله عليه به، لم يرد وظيفة أكبر، ولم يطمع في راتب أكبر، ولم يبحث عن أيّ طريقة للانتفاع منها بطريقة غير مشروعة، كان يكفيه أن يعود إلى بيته سالماً آمناً يحمل لأهله القوت الحلال، والصّيت الحسن، لكنّ ذلك المسؤول الفاسد سرق صيته الحسن، وسمعته الطّيّبة، وورّطه في جريمة ملفّقة كي يتخلّص منه، ولا يكون شاهداً عليه في صفقاته المشبوهة، لكنّه ظلّ يؤمن بعظمة العدالة، وصوت القانون، إلى أن ساقته دروب القضاء إلى ذلك القاضي المرتشي الذي باعه بأرخص الأثمان، واشترى بثمنه طوق ماس لعشيقته البغيّ.

عندها فقد الموظّف المُفترى عليه كرامته وحرّيته وسمعته ورضاه وقناعته وقوت بنيه وإيمانه بالعدالة الأرضيّة، ظلّ يبتسم بسخرية وهو خلف قضبان

اللاعدالة، وهو يسمع ذلك القاضي يـردّد في لقـاءات تلفزيونيّـة معـه: "للعدالـة وجوه كثيرة".

(٤)
عدالة اللّصوص

هـو أكـبر لـصّ في الدّولـة، المسـؤولون جميعـاً يعرفـون أنّـه لـصّ؛ لـذلك يتمسّـكون بـه، ويرقّونـه مـن منصـب إلى أرفـع؛ فدولـة اللّصـوص تتمسّـك بلصوصها، وتحتفي بهم، وهو فضلاً عـن ذلـك يملـك أرشـق قلـم موهـوب في مديح العدالة والإخلاص والعفّة والنّزاهة ونظافة الأيـدي والـذّمم والضّـمائر، على الرّغم من أنه مبدع في توسيخ كلّ ما تصل يداه إليه.

قرأ عن تلك المبـادرة الدّوليّـة عـن العدالـة والعفّـة والنّزاهـة، فراقـتْ لـه الشّعارات المقرونة بهذه المبادرة، وطمع في قيمة الجائزة التّي ترافق تلك المبادرة، فكّر قليلاً لا كثيراً كيف يظفر بها، وقرّر ساخراً أن يرصد سرقاته جميعها، وكيفيّة القيام بها على سبيل أنّه يسجّل ضروباً من الفساد والسّرّقة يجب الحذر منها.

لقد قام بذلك فعلاً، وحظّي بالجائزة المرصودة لأفضـل موظّـف نزيـه في دولة اللّصوص!

(٥)

موت العدالة

هامت العدالة على وجهها، صكت وجهها فزعاً وفجيعة، رفضت بإصرار أن تكون لها وجوه متعدّدة؛ فللعدالة وجه واحد، وهو العدالة المطلقة، ولا ينبغي لها أن تملك وجهاً آخر غيره.

عندما صمّموا على يلبسوها وجوهاً متعدّدة، نحرتْ نفسها، وذهبت إلى القبر متمسكّة بوجهها الأزليّ مهما تطاول المتطاولون عليه، وحاولوا أن يزيّفوا ملامحه، أو أن يزيّفوها.

أكاذيب مباحة

(١)

أكاذيب مشرعنة

المسيح الفلسطينيّ

يمدّون أياديهم الصّلفة ليصافحوا اليهود الصّهاينة، يعاهدونهم على مدّهم بالسّلاح والدّعم كي يبيدوا الفلسطينيين الثّوار، يزعمون أنّهم مسيحيون مؤمنون، ويعدّون العدّة لليهود كي يقتلوا مسيحيي فلسطين قبل مسلميها.

يعلنون في الإعلام من البيت الأبيض إنّهم في دعم اليهود الصّهاينة، ويقرعون كؤوس الخمر فرحاً بانتصارهم لقتلة المسيحيين، يديرون ظهورهم لتمثال المسيح الفلسطينيّ الذي يذرف دموعه سخيّة حزناً على قتله من جديد على أيدي مسيحيي العالم، ويظلّ مصلوباً في باحة البيت الأبيض.

في اليوم الثّاني يُعلن عن موت تمثال المسيح الفلسطينيّ الذي تمّ اغتياله من جديد في غرفة من غرفة البيت الأبيض.

بطل

لم يسعَ يوماً إلى أن يكتب اسمه مع الأحياء أصحاب الأضواء؛ لأنّه آمن بفطرته القرويّة النقيّة الأصيلة بأنّ الأبطال يموتون بصمت، ولا حاجة لهم بالضّوضاء والإضاءة الفضّاحة.

الأبطال كلّهم الذين آمن بهم، ورافقهم في درب الدّفاع المسلّح عن فلسطين قد رحلوا بصمت كما يرحل الأبطال جميعهم، إلاّ هو استبقاه الموت بإصرار لسبب يجهله.

يرفض أن يمدّ يده إلى أيّ جهة رسميّة أو إنسانيّة ليقول لهم: "أنا فدائيّ عتيد من الفدائيّين الأوائل، وقد هجرتني صحتي بعد تقدّمي في العمر، ولا مال أو معين لي، وأحتاج إلى راتب أو عون موصول".

يمرّ من أمام بيوتهم الفارهة، هو لم يرَ وجهاً من وجوههم في درب البطولة والفداء، تنبح كلابهم عليهم نبحاً موصولاً، ويدفعه حرّاسهم عن أبوابهم الحديديّة العملاقة، وهو من يمرّ بقصورهم في درب عودته إلى بيته الكئيب الذي يفضّله على مبانيهم المشيدة.

يعاتب يده التّي تفكّر في أن تستجدي، ويهدّدها بالقطع إن فعلتْ ذلك، وينذر صياماً للأبد دون إفطار، ويمضي متعملقاً على الجوع والكلاب والحرب والأبطال الورقيين الذين صنعتهم الأقدار على حين غرّة.

ثمن

كلّ ما فعله في حياته كان لسبب واحد، وهو تحرير وطنه، لكنّه منذ أن أصبح مسؤولاً رسميّاً يلبس البذلات الفرنسيّة، وينتعل الأحذية الإيطاليّة، ويسكن الدّارات ذات المداخل الرّخاميّة، ويركب السّيارات الفارهة المظلّلة النّوافذ بالسّواد الحاجّب، ويتبختر في بلاد الدّنيا على نفقات المعونات العالميّة لتحرير وطنه، ويتاجر بنكبات شعبه المعذّب، غدا يفعل كلّ شيء ليقبض ثمن ما فعله لأجل تحرير وطنه.

(٢)

أكاذيب مشروعة

اللّعنة

قالت العرّافة لأمّها عندما ولدتها: "إنّها مصابة بلعنة لن ترحل"، ثم مضت العرّافة مبتعدة نحو البعيد دون أن تعرّفها بسرّ تلك اللّعنة.

كمنت اللّعنة في الطّفلة الوليدة ذات العينين اللّغز دون حراك إلى أن استيقظتْ مع أوّل كلمة كتبتها في حياتها؛ فأصبحت اللّعنة كابوساً عندما شرعت كلماتها تصبح حقيقة عندما تكتبها؛ كتبت عن الألم والوحدة والجوع والحرمان والعذاب، كما كتبتْ عن الحرّيّة والعدالة والفرح والحبيب والعدل والسّعادة والمحبّة، استيقظت كلماتها جميعاً، امتلأ العالم بالمزيد من الجمال والقبح، وكثرت الصّراعات فيه، لكنّها ظلّت تمارس لعنتها، تكتب دون توقّف

حتى تنتصر الحكايات الجميلة، وفي لحظة رضـا كتبـت نهايـة جميلـة تليـق بهـا، ودخلت إلى قصّتها الحلم، وعاشت فيها منتظرة أن تصبح حقيقة، وظلّت ملعونة بكلماتها.

سِيَر

هو يجيد أن يعيش حياة غيره لا حياته، يحفظ السّير بإتقان، ويخلق منها عوالم لا يمكنه أن يعيش فيها لينسى عوالمه القاتمة؛ يحفظ سيرة بطل خـارق مجيـد لينسى أنّه يُصفع ليل نهار في عمله وبيته ووطنه، يحفظ سيرة شـاعر مجيـد مفـوّه يصطنعه الملوك، وتعشقه الشّعوب؛ لينسى أنّه أبكم نفسه بنفسه كـي ينجـو مـن جرائر السّؤال والجواب، يحفظ سيرة عاشق يتنعم بالحبّ، لينسى أنّه يكسر عينيه أمام أيّ امرأة كي لا تلاحظ ضآلة جسدة، وقتامة فقره، وقلّة حيلته، يحفظ سـير الأنبياء والصّالحين ليتوهّم أنّه مقرّب أثير مـن السّـماء ورضـاها، يحفـظ أوهـام الموهومين لعلّه يظفر ببعض الصّبر حتى ينتقل إلى عالم الموت الـذي يحفـظ سـير أبطاله وأسياده الذين لا ينتمي لهم كذلك.

أقوال مأثورة

حياته مجموعة من الأقوال المأثورة التّي يعلقها على حائط غرفته؛ "الجنون هو منطق العالم المخبول"؛ ولذلك لم يمارس فعلاً واحداً عاقلاً في حياته،"الحيرة هي السّيرة المشتركة للباحثين عن الحقيقة"؛ ولذلك هو يجيد الضّياع والتّسكع،"الفنّ هو صوت الحرمان"؛ ولذلك يحترف رسم أمله على شكل ألوان بهيجة،"ما أعدل الظّلّ؛ إنّه مكان حنون للمنكودين"؛ لذلك يصمّم على الحياة اللّيليّة، ويبتعد عن الضّوء،"الإبداع الحقيقيّ لا يصنعه إلا حبّ عظيم"؛ فيحبّها بصمت،"أن تتألّم كثيراً يعني أنّ قلبكَ كبير أكثر ممّا يجب"؛ يعزّي نفسه بيأسه من القرب من المرأة التّي يحبّها،"جبان من يقبل بغير الحياة التّي يشتهيها" يطلق الرّصاص على نفسه؛ لأنّه أشجع من أن يعيش حياته المهزلة.

تخريصات

"لا قيمة للحقيقة في عالم الكذّابين"

"في رواية كاذبة جدّاً: ذكروا أنّ الكذب منجاة وهناءة وراحة بال"

"حسن كامل هو فقط من يعرف حقيقته"

من صفر إلى صفر
الحقيقة التّي لا يريد أن يصدّقها أيّ مكذّب

"لا يعرف من أسماه حسن كامل، ولا يعرف لِمَ هذا التّركيب العجيب في اسمه، كذلك لا يعرف لماذا يضحك بملء فيه كلّ من يسمعه ينطق اسمه بتلك الطّريقة المهترئة التّي تخرج بصعوبة من بلعومه المختنق بالبلغم والتقرّحات التّي تلازمه، لكنّه يعجز عن أن يشرح لأيّ أحد كم هو حزين ووحيد وموجع وتائه في دنيا لا يعرف فيه أهلاً أو نسباً أو قرابة أو أسرة أو ماض أو مستقبل، كلّ ما يعرفّه أنّه حسن كامل الذي يزدريه النّاس، ويتّخذه الأطفال ألعوبة لهم، ويرمونه بالحجارة والكلمات الجارحة التّي يمطرونه بها كلّما مرّ في الزّقاق والعرصات.

لقد كبر في الشّارع، ولا يذكر إن كان قد وُلد في الشّارع كذلك، ويجهل كلّ شيء عن نفسه سوى أنّ اسمه حسن كامل، ويجهل كذلك –لحسن حظّه ومديد عتهه– أنّه قبيح ومنقوص في تكوينه ووجوده وحظوظه.

عندما يحظى بالقليل من الطّعامالدّافئ الطّازج مع قليل من الماء البارد يشعر بأنّه يملك الدّنيا وما فيها، فينحاز إلى جدار منزو أو ظلّ بعيد أو خرابة

مخفيّة ليأكل طعامه الحنون في عالم قلّما يجود عليه بأيّ حنـان أو رحمـة أو رأفـة، وهو في الغالب لا يفعل ذلك إلاّ عندما تعطيه أمّ ما فائضاً من طعام أبنائهـا، أو يعطيه خادم البواقي من طعام حفل مـا، أو عنـدما يمـرّ بـه مـراد ذلـك الشّـاب الحنون مفتول العضلات متّسع القلب والابتسامة الـذي يشـتري لـه الطّعـام في طريق عودته إلى البيت، ويغدق عليه مـن حنانـه، ويتوقّـف عنـده ليسـلّم عليـه مصافحاً له، حتى ولو كان في رفقة أصدقاء له أو أقارب".

تخريصة من ١ إلى ٢

من المعتوه معسول الأعور إلى مروان ساكن المزبلة

"حسن كامل هذا أكبر دجّال في هذه المزبلة، بل وفي المزابل جميعها في هذا العالم؛ هو ليس مسكيناً كما يزعم، بل هو يخفي خلفه سرّاً عظيمـاً؛ بعـيني هـذه الوحيدة العزيزة عليّ رأيته يلتقي بذلك المشاغب الذي اسمه مراد، فيقـف معـه هناك في الخرابة خلف سوق الخضار القديم، ثم يأخذ منه الطّعام والمال، ويعطيه لفافة من الأوراق المطويّة بعناية".

تخريصة من ٢ إلى ٣

من مروان ساكن المزبلة إلى مأمون فتى الخدمة في مقهى البلدة

"أؤكد لك يا سيّد مأمون أنّ حسن كامل شخصيّة خطيرة، وتخفي أسراراً قاتلة، بعيني هاتين رأيته في أكثر من لقاء مع المشاغب مراد، كانـا عنـدها يتّفقـان على شيء مريب؛ كان حسن كامل عندها تتكلّم بطلاقـة، ولا يتلعـثم كعادتـه،

ويهمس في أذن مراد من وقت إلى آخر بكلام سريّ، ثم قدّم له حافظة إلكترونيّة صغيرة، فيما كان ذلك الرّجل الضّخم الذي يرافق مراد يراقب المكان بقلق، ويخفي عينيه خلف نظّارة سوداء ذات عدسات ضخمة، وإطار معدنيّ كبير".

تخريصة من ٣ إلى ٤
من مأمون فتى الخدمة في مقهى البلدة إلى أمّه جليلة المفترية

"والله العليّ العظيم أنّي أخشى على ابني مأمون من الذّهاب إلى ذلك المقهى؛ فالدّنيا آخر وقت، والأدهى والأنكى من ذلك أنّ واحداً مستهبلاً مثل حسن كامل يزرع الرّعب في المكان، ويخدعنا جميعاً؛ إنّه يتعامل مع رجال فكر متحرّرين يدعون إلى خراب البلاد، وزرع الفوضى بين العباد بحجّة الحصول على الحرّيّة.

من قال له إنّنا نريد هذه الحرّيّة؟ حسبنا الله ونعم الوكيل في مراد الوحش، وحسن كامل الأهبل المستهبل".

تخريصة من ٤ إلى ٥
من جليلة المفترية إلى أم حسونة الخيّاطة

"بصراحة يا أم حسّونة ما عندي أيّ رغبة في شرب قهوة الصّباح سويّاً؛ فأنا مشغولة البال والذّهن، ومنزعجة انزعاجاً يكاد يخنقني؛ ذلك كلّه بسبب الأهبل اللّئيم حسن كامل الذي يتآمر على الوطن والأهل والشّباب ومستقبل

البلد بتعاونه مع عصابة كوّنها الشّاب مراد الذي جاء من المجهول ليجرّ الويلات والدّمار علينا وعلى أبنائنا".

تخريصة من ٥ إلى ٦
من أم حسّونة الخيّاطة إلى جاراتها في العمارة في الاجتماع الأسبوعيّ لأكل الفطائر والمعجّنات

"أقسم بسمعتي المهنيّة وبأصابعي الذّهبيّة هذه التّي خاطت الملابس الجميلة لصبايا الحيّ وعرائسه كلّهن أنّ هذه الفطائر هي ألذّ ما أكلتُ في حياتي.

لكن أخبار الإرهابيّين حسن كامل ومراد ومن معهم في العصابة تمرمر كلّ حلو في فمي؛ فهم جميعاً يدبّرون لمكيدة خطيرة ضدّ الوطن.

لقد سمعتُ ذلك من زوجة أحد المسؤولين التّي تخيط ملابسها عندي، لقد أخبرتني بأنّ تفجيرات مرتقبة من تدبير تلك العصابة الظّلامية سوف تصعق البلدة.

كم قلتُ لكم مراراً وتكراراً إنّ علينا أن نطرد هذا الأهبل النّحس حسن كامل من البلدة، لكنّكم كنتم تتعاطفون معه، وتتهاونون في الضّرب على يديه حتى تغوّل، وأصبح وحشاً يهددنا جميعاً، وكلّ ذلك لأجل الحرّيّة والعدالة التّي يطالبون بها، من قال لهم إنّنا نريد هذه الحرّيّة وتلك العدالة؟"

تخريصة من ٦ إلى ٧
من أم حسّونة الخيّاطة إلى دلال السّايبة خادمة زوجة مأمور الشّرطة في البلدة

"يا سيّدتي، أقسم بشرفي المصون على أنّني أقول لكِ الحقّ الذي كنتُ شاهدة عليه بتفاصيله جميعها؛ ذلك الشّرّير حسن كامل وعصابة مراد المجرم باتوا يسيطرون سرّاً على المناطق السّكنيّة في البلدة القديمة، وهم يؤلّبون الشّباب الصّغار على الدّولة والنّظام، ويقنعونهم بالانتساب إلى ثورتهم المطالبة بذلك الكفر الذي اسمه الحرّيّة والعدالة، وقد حوّلوا المزابل جميعها إلى ثكنات للتّدريب العسكريّ للمنخرطين في صفوفهم من المشاغبين والمخرّبين.

سيّدتي الكريمة، يجب أن تخبري سيّدي المأمور بهذه الوضع الخطير، ولا تنسيني من بركاتكم وعطاياكم؛ فأنتم كرماء، وأنا أستحقّ عطاءكم الموصول، لا حرمنا الله منكم، ولا من رجال الدّولة الميامين".

تخريصة من ٧ إلى ٨
من زوجة المأمور إلى زوجها سند الضّبع

بعد أن أخبرتكَ يا زوجي الحبيب بهذا الخبر الخطير عن عصابة المخربين حسن كامل المستهبل ومراد الوحش عليك أن تشتري لي تلك الأسوارة الذّهبيّة قيراط ٢٤ التّي على شكل أفعوان غاضب، ألا أستحقّها بعد هذه الأنباء المهمّة التّي توازي بأهميّتها أهميّة الأخبار جميعها التّي يأتيك بها رجالكَ العيون على العباد؟"

تخريصة من ٨ إلى ٩

من المأمور سند الضّبع إلى المأفون جميل باشا

"كما تلاحظ يا سيّدي الباشا لقد سيطرنا على المشهد التّخريبيّ كاملاً، والآن عندنا ملفّات كاملة حول عصابة "الحرّيّة والعدالة" التّي يتزعمّها حسن كامل ومراد، وقد طوّقنا البلدة كاملة بطوق حديديّ من الجنود والأسلحة. نحن في انتظار لحظة الصّفر التّي تأمرون بها كي نطبق عليهم، ونسحقهم في أوكارهم المنتنة".

تخريصة من ٩ إلى ١٠

من المأفون جميل باشا إلى كبير الوزراء

"أنا يا كبيرنا وكبير الوطن كلّه، طوع بنانكَ، وأنتظر إشارة منكَ كي نسحق عصابة "الحرّيّة والعدالة"، لقد أمضيتُ شهوراً أتابع هذه القضيّة بشكل شخصيّ وبسرّيّة كاملة لأجل أن نعدّ ملفّاً كاملاً حول أولئك الشّرّذمة من الظّلامين، الآن نحن ننتظر منكَ إشارة الانطلاق من أجل سحقهم سحقاً لا تقوم لهم قائمة بعده.

أنا في انتظار إشارتكم الكريمة، وكذلك في انتظار تلك الوزارة التّي وعدتم مشكورين بتوزيري عليها فور القبض على تلك العصابة عدوة الوطن والمواطن والحضارة والأمن والاستقرار".

تخريصة من ١٠ إلى ١١

! . . . .

تخريصة من ٥٠ إلى ٢٥٠

! . . . .

تخريصة من ١٠٠٠ إلى ٥٠٠٠

! . . . .

تخريصة من الحكومة إلى دول الجوار

! . . . .

تخريصة من دول الجوار إلى الأقمار الصّناعيّة

! . . . .

تخريصة من الأقمار الصّناعيّة إلى العالم كلّه

! . . . .

تخريصة من العالم كلّه إلى التّاريخ

! . . . .

من سكيّر إلى بغي: "هذا الوطن يحميه الرّجال الشّرّفاء كي نعيش في أمن وسعادة وراحة واشتهاء".

من رئيس تحرير مرتشٍ إلى قرّائه: "اليوم انتصر الوطن والقلم على عصابة حسن كامل ومراد اللّذين ثبت أنّهما يحملان جنسيّات دول معادية، ويهدفان إلى تخريب الوطن من خلال دعوات هدّامة إلى أفكار مسمّمة مثل الحرّيّة والعدالة. أيّها الشّعب ابتهج؛ فهذا هو يوم انتصار إرادة السّلام على الأفكار الهدّامة التّي تحاول أن تنهش جسد الأمّة".

من كبير القضاة إلى الشّعب في فتوى عاجلة: "أيّها الشّعب المؤمن، إيّاكم والثّورات والمسيرات والإضرابات والأفكار المسمومة، مثل الحرّيّة والعدالة والمساواة والمساءلة. هذا كلّه من عمل الشّيطان يريد أن يزيغ قلوبكم بعد أن هداكم الله. الثّورة حرام، وهذه فتوتي، والله مولانا، ونعم المولى، ونعم النّصير".

من مخاتير البلد إلى رئيس الوزراء الأفخم: "نرفع إلى مقامكم السّامي التّهاني والتّبريكات لقضائكم على عصابة حسن كامل ومراد، وكلّنا ثقة بكم، سيروا على الدّرب، ونحن في ظهوركم داعمين لكم".

من القصر العالي إلى الشّعب الموقّر: "نشيد بمواقفكم الدّاعمة، وندعوكم إلى المزيد من الحرص من قوى التحرّر الظّلامية".

من رئيس محكمة التّميز إلى القصر العالي: "بعد تجريمنا لعصابة حسن كامل ومراد بعد إدانتهما بجريمة الخيانة الكبرى، وجريمة تشكيل عصابة إرهابيّة، وجريمة التّرويج لأفكار معادية للنّظام الحاكم، وجريمة القدح في مقامات سأمّية، وجريمة القتل العمد لمواطنين أبرياء مع سبق الإصرار والتّرصّد، نرفع إلى مقامكم الأكرم قرارنا بإعدام أفراد العصابة جميعاً رمياً بالرّصاص حتى الموت

في ميدان عام ليكونوا عبرة لمن يعتبر، ونطالب بمصادقتكم العاجلة على هذا القرار القطعيّ الذي لا يقبل الاستئناف أو الفسخ".

من جهة مجهولة إلى القصر العالي: "نوافق، ويُجرى اللّازم على أن يتمّ الإعدام في مدّة أقصاها ٤٨ ساعة من الآن".

من حسن كامل إلى مراد في زنزانة عفنة مظلمة: "هل الموت مؤلم يا أخي مراد؟"

من مراد إلى حسن كامل في زنزانة عفنة مظلمة: "ليس الموت أكثر إيلاماً من أوطاننا المأزومة المتعفّنة حتى النّخاع".

من حسن كامل إلى مراد بحيرة كبيرة: "ما هو النّخاع؟"

من مراد إلى حسن كامل بقهقهات مرتفعة: "هو شيء غير مهم".

تخريصة من . . . إلى. . .
بقلم رئيس تحرير صحيفة "الوطن والأمّة والشّعب"

"اليوم يشهد الوطن مرحلة تاريخيّة وعرساً وطنيّاً بإعدام الإرهابيّ الكبير حسن كامل ومراد الوحش وكافّة أفراد عصابتهما؛ فالوطن قبل كلّ شيء، وجميعنا فداء له".

صهوات الكذب

"الانتشاء والتّحليق حيث صهوات الكذب"

(١)
صهوة الظّلّ

عندما ينظر إلى ظلّه الممتدّ أمامه يشعر بالفخر؛ لأنّه يملك هذا الظّلّ العملاق الطّويل القاتم الذي يسبقه أينما ذهب ملبّياً دعوات الخارجين عن القانون والضّمير والوطنيّة، في حين يلحق به مزهواً ومهرولاً عندما يكون في طريقه إلى حضرات أسياده من اللّصوص والفسدة.

يشعر بأنّه عظيم؛ لأنّه يملك هذا الظّلّ الظّلامي المغرور، ويرقب وجوه من حوله ليرى فيها إجلالاً لذاته التّي تزعم أنّه وطنيّ مصلح، ويأمل أنّهم لا يرون ما في جيوبه من رشوات، وما في جوفه من مال حرام.

هو يركزّ طوال الوقت على ظلّه، ويبتسم ابتسامة عريضة تسمح بظهور أسنانه المصفوفة صناعياً في فمه، وتتخلّلها قواطع من الذّهب الخالص المطعّم ببلورات ماسيّة صغيرة لامعة.

يأمر حرّاسه من ضخام الجثث وصغار الضّمائر بأن يحرصوا على أن لا يدوسوا ظلّه الممتدّ الذي يشكّل الفخر الوحيد في حياته.

(١)
حقيقة الظّلّ

الجميع حوله لا يأبهون بظلّه كما يأمل، ويتوهّم؛ فهم جميعاً ينظرون إلى قامته القصيرة حدّ التّضاؤل بتقزّز وقرف، ويتخافتون بسخرية على طوله القزميّ الذي يقرّبه من مهرّج ممجوج في حفل صيفيّ كئيب شديد الرّطوبة، أمّا أكثر من يشدّهم إلى مراقبته، فهي المهزلة التّي يكونها عندما يتحّدث بصلافة ونزق عن النّزاهة والشّرّف والمبادئ وخدمة الأوطان، يبدو عندها أكثر تقزّماً، وأشدّ قبحاً.

عندها يستغرق الجميع في الضّحك والتّسلّي، وهم يراقبونه يتابع ظلّه أملاً في أن يبدو أطول ولو لشبر واحد.

(٢)
صهوة المرايا

كلّما وقفتْ أمام المرآة شعرتْ بالفخر والفرح والغبطة؛ فالسّنون لم تسرق نور بشرتها، ولا لمعان عينيها، ولا ابتسامات شفتيها، إنّها جميلة رقيقة على الرّغم من كلّ ما كان، هذه المرآة لا تزال تهتف لها متغنّية بجمالها على الرّغم من عذاباتها، المرايا لا تكذب، وهي جميعها تهتف لها بصوت واحد: "أنتِ الأجمل".

كلّما هتفت المرايا بهذا الهتاف النّاعم المداعب لروحها اعتلت صهوة الفرح، وطارت إلى علياء سماء المرايا حيث لا كذب أو خداع؛ فهي تكره الخداع والمخادعين.

(٢)
حقيقة المرايا

"هي تكره الخداع والمخادعين"، كلّما ردّدت هذه المقولة ضحكت المرايا منها بكامل سخريتها، وزعقت بأعلى صوتها: "أنتِ امرأة قبيحة، بل أنتِ المرأة الأشدّ قبحاً في الدّنيا! متى كنتِ جميلة أو محبّبة؟ أيّها الشّرّيرة، أنتِ دون قبح أنثى الشّيطان".

لكنّها لا تبالي بزعيق مراياها، وتكسّرها في سورة من سورات جنونها وغضبها كلّما رأت عيون من حولها تسيطها بعبارة: "امرأة شريرة".

تكسّر المرايا، وتدوس أشلاءها الزّجاجيّة الحادّة بحذائها الإيطاليّ الفاخر، وتجزم بذلك أنّها قد استطاعت أن تقتل حقيقة أنّها امرأة قبيحة الرّوح والأفعال والملامح، وتصمّم على أن يناديها الخدم باسم السيّدة الجميلة!

(٣)
صهوة الحلم

في كلّ ليلة يرى الحلم ذاته؛ يرى السّمين الأحمر الأوداج والبشرة والعينين يفتح له باب السيّارة بذل وطاعة هوان، وهو يركب السيّارة الفارهة منفوشاً كديك روميّ يتمايل أمام دجاجات بلديّة جائعة، فيجلس بفخر دالعاً

كرشه أمامه براحته، وهو يدلقه في بذلته القشيبة الجوّخ الفاخرة، ويرمق ذلك الحارس الأسمر النّحيل بتقزز، وهو يراقب الزّجاج الإلكترونيّ لنافذته يرتفع بشكل ذاتيّ.

يأخذ نفساً عميقاً من سيجاره الكوبيّ باشتهاء بادٍ، ويغرق في وثير جلد سيارته، ويستبرد بلذّة بالهواء البارد المنبعث من مكيّف السيّارة الألمانيّة الصّنع، ويأمر السّائق بإشارة من إبهامه كي ينطلق في دربه، ويغمض عينيه ليسمع الموسيقى المنبعثة من مسجّل السيّارة التّي تعبّ الأرض عبّاً في طريق ذهابها إلى مقرّ الإدارة.

(٣)

حقيقة الحلم

يتمنّى أنّ حلمه اللّيليّ الملازم هو حقيقة حياته، لكنّه عندما يقف بجسده النّحيل وبذلته الرّسميّة القديمة، ويغلق باب السيّارة الفارهة بعد أن يندسّ سيّده السّمين الأحمر فيها، يكاد يتقيّأ من السّخط على واقعه.

يضطر إلى أن يلوّح بيده مودّعاً سيّده الذي لا يأبه به، أو يراه، وعندما تبتعد السيّارة الفارهة، يقفز في سيّارة الحراسة مثل جندب هزيل، ويظلّ طوال الطّريق موزّع النّظرات بين الشّارع وسيّارة سيّده التّي تعبّ الأرض عبّاً أمام سيّارة الحراسة المرافقة التّي يتكوّم في كرسي من كراسيها، ويظلّ بين الغفوة واليقظة يستلذّ بفتات حلمه حيث يكون هو السيّد، والسيّد الأحمر السّمين هو حارسه الذّليل المهين.

(٤)
صهوة الشّرَف

عندما دخلت مستشفى السّلام لعلاج سرطان الأطفال لم تكن تتمايل بعباءتها الحريرية اللّامعة بحجارة الكريستال الرّوسيّة الغالية الثّمن، ولم تتابع الرّجال بنظرات مصنوعة بمهارة للإيقاع بهم، واصطيادهم برموشها الصنّاعيّة التّي تغرقها بالكحل العربيّ الأسود الذي يلفت النّظر إلى محجري عينيها مهوى العشق والشّبق، لم تنتبه كذلك إن كان الممرض المرافق لها قد ناداها بالسيّدة الشّريفة نوّارة أم لا؛ فهي مشغولة عن ذلك كلّه بانتظار نتائج مختبر الخلايا الجدعيّة.

جلستْ إلى طاولة طبيب المختبر تنتظر نتيجة الاختبار كي تعرف إن كان هناك أيّ أحد من أولادها الذّكور الخمس يستطيع أن يتبرّع بنخاعه لابنها السّادس المريض المصاب بالسّرطان وفي أمسّ الحاجة إلى متبرّع بالنّخاع الشّوكيّ لينقذه من الموت الذي ينتظره.

بمجرّد أن تقرأ نتيجة التّقرير، تطويها على عجل وتوتّر، وتدسّها في حقيبتها التّمساحيّة الجلد الوحشيّة السّعر، وتسارع إلى مغادرة المستشفى لا تلوي على ابنها المريض فيه، كأنّها تخشى أن يعلم العالم كلّه أنّ التّقرير يفضحها صراحة، ويعرّي فسادها وزورها، ويجأر أمامها بأنّها ليست أكثر من زوجة رخيصة خائنة أنجبت ستّة ذكور من ستّة رجال مختلفين ليس زوجها أحدهم، وإن كانوا جميعاً ينتسبون إليه، وينفق عليهم من ماله العريض طوال سنين أعمارهم.

عقوبتها على خيانتها أنّ ابنها السّادس المريض سيموت لا محالة؛ لأنّـه لا يملك أخاً شقيقاً واحداً يمكنه أن يهبه خلايا جدعيّة مناسبة.

ترمي نفسها سريعاً في المقعد الخلفيّ لسيارتها، وتشنّف أذنيهـا لسـائقها العجوز المتهالك، وهو يسألها قائلاً: "إلى أين نذهب يا سيّدتنا الشّرّيفة؟"

(٤)
حقيقة الشّرّف

لا أحد يناديها بالسيّدة الشّرّيفة، والكثيرون ممن يلعقون أصابع قـدميها في الخفاء يصفونها بالمرأة الرّخيصة في النّهار، لكنّهـا لا تبـالي بكـلّ ذلـك لإيمانهـا العميق بأنّها سيّدة شريفة الرّوح والإبداع، وهي شـريفة الضّـمير والذّمـة؛ إذ لم تسرق بشراً، ولم تنهب أمّة، ولم تخدع قلباً، هي باختصار تعيش حياتها كما تشاء، تغنّي متى تشاء، وترقص كما تشاء، وتفعل ما تشاء.

لا يعنيها في الدّنيا سوى الغناء والموسيقى ورعاية الفقـراء الـذين ترعـاهم سرّاً دون أن تتبجّح بذلك أمام النّاس، يرضـيها أن تنفـق مالهـا علـى منكـودي الأرض ومستضعفيها، حتى وإن كانوا ممّن يلمزونها بشرفها؛ فهي ترى الشّـرّف كلّه في الإنسـانيّة وحـبّ المستضـعفين، ولا يعنيهـا أن يلـهث الكـاذبون خلفهـا بلقب: سيّدتنا الشّرّيفة!

(٥)

صهوة القلب

قلبه الجديد يدقّ دون توقّف، ويزداد وجيبه عنفاً وصخباً عندما تمرّ تلك الحسناء أمامه في العمل، أو عندما يلتقي بها صدفة في الرّدهات؛ إنّها تشغله عن كلّ شيء سواها.

منذ أن نجا من الموت المحقّق، وتجاوز محنة نقل قلب جديد إلى صدره المأزوم بقلبه المريض الضّعيف، وهو يستمتع بهذا القلب الرّقيق الذي يماشيه في لعبة العشق، ويدقّ دون توقّف لتلك السّمراء النّحيلة شبه العارية التّي تجيد الغنج والتّعرّي واستدرار لعاب الرّجال المشتهين لسمرتها النّدية، وقدّها المنحوت بحرفيّة أنثويّة آسرة.

هذه السّمراء لا تبالي به كثيراً؛ فهي مدمنة على تجميع العشّاق والمعجبين، لكنّه يصمّم على أن يلفت نظرها، وأن يسرق قلبها، كما سرقت قلبه الجديد المرهف؛ فهي تنسيه أيّ ألم في روحه، بل تنسيه تلك الفتاة الرّقيقة التّي كانت تعمل في قسم الاستقبال في الشّركة التّي يعمل فيها، وتراقبه على استحياء دون ملل وكلل، لقد كان آنذاك يستهويه حبّها الصّامت الخجول، وأحزنه خبر موتها انتحاراً لسبب لا يعرفه، ولم يكلّف نفسه بأن يسأل عنه.

لكن ماله ولتلك العاشقة الخجولة الصّامتة؟ لا يعنيه سوى هذه السّمراء المغناج التّي يشعر بأنّ قلبه الجديد كان عاشقاً لها حدّ الموت، وهو في صدر صاحبه الذي وهبه قلبه؛ كي يعشقها من بعده، ولا ينقطع عن تتيمه بها.

(٥)
حقيقة القلب

قلبه الجديد لا يدقّ دون توقّف لتلك السّمراء الرّخيصة التّي تقتات اشتهاء الرّجال واستكلابهم عليها، بل يقرع دون توقّف فرحاً بأنّه يرقد بين أضلاع صدره؛ فهذا ما كان يحلم به منذ زمن حتى عندما كان خارج صدره، ويعيش بين ضلوع تلك الفتاة العاشقة له بصمت موجع، لقد كانت تعرف أنّ من تحبّه سيموت إن لم يجد متبرّعاً له بقلب يهب الحياة له، وهي من قرّرت أن تهبه هذا القلب عندما ساءت حالته، ولزم سرير المستشفى مستسلماً للموت الذي يكاد يهجم عليه، عندها كتبت وصية بأن يتمّ التبرّع بقلبها للرّجل الذي تحبّه، وانتحرت، لتخرج من الحياة، وتهب قلبها لمن تحبّ.

الآن قلبها العاشق يتربّع في صدر من تحبّه، وبين ضلوعه، ويخفق بالحبّ له، وهذا العاشق الأحمق يظنّ أن قلبه يخفق لتلك السّمراء الساقطة، ولا يعلم أنّ هناك عاشقة قد ضحّت بحياتها كي تهبه قلبها، وتنقذه من الموت.

(٦)
صهوة الوطن

يفهم الوطن بمفهوم عمّه مهاوش أبو الفزعات الذي كان قاطع طريق عتيد مشهود له بالغدر والجبن والحقارّة وإيذاء البشر، وهو من علّمه أنّ الوطن

هو المكان الذي يستطيع أن يسرق منه كما يشاء دون أيّ اعتراض من أيّ جهة كانت، ويسمّي الانتماء لهذا الوطن بالهبش، أيّ السّرّقة والهرب بعد الإغارة السّرّيعة والغزو المباغت، عمّه اللّص العظيم كان يتبع أحدث الطّرق في الهبش، ولذلك طوّرها من سرقة المسافرين العزل في الدّروب المعزولة إلى سرقة الوطن من داخله جهاراً في وضح النّهار.

هو تلميذ عمّه ووريثه في لصوصيته؛ فقد سرق اسماً غير اسمه، اختاره اسماً مبجّلاً شريفاً لشهيد من شهداء الوطن، وسرق شهادة دكتوراه في أرقى العلوم، وسرق سيرة مشرّفة من النّضال، وسرق الكثير من بحوث المجدّين وكتابات المبدعين، وأسكتهم جميعاً بسوط الوطن الذي سطا عليه أيضاً، حتى أنّه سرق له عدّة حجّات من مال الزّكاة، وهو يفكّر جدّياً في أن يسرق صفة شهيد وطن من شهيد ما!

(٦)
حقيقة الوطن

لم يظفر من الوطن إلاّ باسم ابن الشّهيد، هذا ما يفخر به في العلن، أمّا في صمته وشطحات روحه، فهو يلعن الوطن الذي ضحّى بأبيه، ولم يردّ له منه سوى قبعته العسكريّة بعد أن وهبه راتباً شهريّاً هزيلاً لا يكفي ليشتري قمحاً لدجاجة جائعة.

حتى أنّ رجلاً ما من رجالات الوطن قد سرق منه منحته الدّراسيّة، وآخر من الرّجالات ذاتهم سرق منه وظيفته التّي كان يجب أن ينالها؛ لأنّه الأوّل في تخصّصه العسكريّ، وبعد سلسلة من سرقات الوطن له من قبل رجالاته الغرّ الميامين، وجد نفسه حارساً ليليّاً على بوابة في معسكر صحراويّ منسي من معسكرات الوطن.

في النّهار يفتح الأبواب للصوص الوطن، وفي اللّيل يقف مشلوعاً على باب المعسكر ليحرس لصوص الوطن الذين يهبشون من الوطن وفق وصايا عمّهم الأعظم وقائدهم الرّوحيّ مهاوش أبو الفزعات.

يظلّ ينتظر أن ينتهي الشّهر ليلقي الوطن له بأوراق نقديّة بخسة راتباً شهريّاً لقاء حراسته للصوصه!

أفراح التّدليس ومصارع الصّادقين [1]

فيما ورد في باب فضائل اللّصوص الشّرفاء

ذكر مولانا المعلّم الأكبر فيما يروي عن الكذّابين والخرّاصين والمدلّسين وأهل الخنا إنّ لصّاً عظيم الشّأن والفتنة والمكر والخبر قد وُليّ أمر العباد والدّواب، وتقلّد مقاليد الحسبة والميزان ثم القضاء، وأنّه قد ملك المشرقين والمغربين بخبثه وسوء مكره وغبن نفسه، وأنّه ما أبقى شيئاً إلاّ سرقه، وادّخره في خزائنه، لكنّه على الرّغم ممّا لحق به من سوء الذّكر، وفحش الأثر، ولعن الفعل، وفضح المؤرخين له بعد أن كشفوا ستره، وسبّوا زمنه، وقدحوا في شرفه وأصله ونزاهته، إلاّ أنّه أبى إلاّ أن يكذّب المكذبين، وينزّه ذمته، وأعلن على الملأ أنّه يعترف بأنّه سارق مجيد، إلاّ أنّه سارق شريف نبيل أصيل؛ فهو قد سرق الحياة والمعاش والأزمان، لكنّه أبى أن يسرق الشّرّف والضّمير والمبادئ؛ ولذلك ترك هذه الفضائل والمكارم موفورة كاملة للعباد الصّالحين كي يتمتّعوا به، ويدركوا بوساطتها كم هو لصّ شريف ابن شريف.

---

١ – الرّوايات تتضارب عن المعلّم الأكبر الذي خطّ لهم كتاب "أفراح التّدليس ومصارع الصّادقين"، الرّاوية الوحيدة المُجمع عليها هي أنّ هذا المعلّم الأكبر العظيم المؤرّخ المربيّ المصلح هو الذي نقل النّفاق والكذب والافتراء من مواهب وهوايات فطريّة إلى أفعال على أساس علميّ، ومنهج دراسيّ، ومبدأ حياتيّ.

المعلّم العظيم الأكبر هو من حوّل الكذب إلى مُلك، والافتراء إلى سلطة، والنّفاق إلى موضة.

هذا الكتاب هو كتاب مقدّس عند المؤمنين به.

أفراح التّدليس ومصارع الصّادقين هو الكتاب الرّسميّ المعتمد عند حضراتهم.

فيما ورد في باب فضل الكذب الكبير على الكذب الصّغير

ذكر مولانا المعلّم الأكبر فيما يروي عن الكذّابين والخرّاصين والمدلّسين وأهل الخنا إنّ الكذب الكبير خير من الكذب الصّغير، وأنّ الكذبات الصّغيرة قليلة الإحسان؛ لأنّها قليلة الإيذاء، في حين أنّ الكذبات الكبيرة مجيّدة مكرّمة عند الخلق والسّاسة؛ لأنّها عملة الكبار والأسياد وعلية القوم، وفي ذلك يرون أنّ عبداً مملوكاً فقيراً كذب سيّده في مسألة حقيرة سأله إيّاه، عندها هبطت منزلة العبد في عيني سيّده، وجدع أنفه، وصلبه في درب العبيد والنّخاسين وأسواق الرّقيق؛ ليكون درساً لمن يكذب على سيّده كذبات صغيرة حقيرة، وهذا ما كان.

أما ذلك الكذّاب الكبير المجيد فقد رُوي في الأثر أنّه رُفع على الأكتاف حتى أصبح سيّد القوم، والمُصدّق عندهم، والرّفيع الشّأن بينهم، حتى أنّهم قدّسوه، ومجّدوه، ثم بنوا له معبداً، وعبدوه، وجعلوا من ملابسه مُتدثراً مقدّساً يتطهّرون به، وبعد أن ألّف لهم كتاباً في مسالك الكذب ودروبه، قدّسوا كتابه، وما انفكوا يكبرونه حتى ألّهوا ذلك الكذّاب الكبير الذي أعدم في الماضي عبداً مستضعفاً مسكيناً؛ لأنّه كذبه في مسألة صغيرة ليست ذات شأن.

فيما ورد في باب مصارع الصّادقين ومهالك الورعين

ذكر مولانا المعلّم الأكبر فيما يروي عن الكذّابين والخرّاصين والمدلّسين وأهل الخنا إنّ شاباً كان قليل الحظّ سيء الطّالع، بلغ من سوء طالعه أنّ انقطع إلى معلّم صالح يعلّمه الصّدق، ويحبّبه به حتى وقع الصّدق في نفسه، وأصبح لا ينطق إلاّ صدقاً، ولا يفعل إلاّ صالحاً، ثم كبر ذلك الشّاب المنكود على هذا الطّبّع المتروك المهجور، لكنّه ما سلك درباً إلاّ أضناه، وما قصد أمراً إلاّ رُدّ عنه

بسبب صدقه، وفي آخر المطاف فتك الفاتكون به، وقتلوه في درب ما وهو عائد من صلاة الفجر، وما وجد له نصيراً، ولا دافع عنه عابر في المكان، فكان عبرة لكلّ من بغى الصّدق، وسلك دروبه، وهي دروب تعسة لا تقود إلاّ إلى الموت؛ فالصّدق في دنيا الأوغاد نهايته سوداء.

فيما ورد في باب اختلاف أقدار الصّادقين والكاذبين

ذكر مولانا المعلّم الأكبر فيما يروي عن الكذّابين والخرّاصين والمدلّسين وأهل الخنا إنّ رجلاً عابداً صالحاً صادقاً أحبّ بغيّاً حسناء، فتزوجها أملاً في أن يدفعها إلى دروب العفّة والشّرّف، لكنّها ظلّت تحنّ إلى الخسّة والخيانة، إلى أن هجرته، وهربت مع تاجر من بلاد بعيدة لا يدركها إلاّ القلّة من جائبي الأقطار وعشّاق الأسفار، وتركت خلفها توأمين ذكرين أنجبتهما من زوجها العابد الصّالح، فتعهدهما الأب العابد الصّالح بحسن التّربية، فشبّ أحدهما على ما ربّاه أبوه عليه من الصّدق والصّلاح، في حين نزعت نفس الآخر إلى ورث من عرق أمّه من الخسّة وسوء الأخلاق.

مات الأب بطاعون حلّ في البلاد، وافترق الأخوان ليطوّفا في الأرض عندما ضاق عليهما بيت واحد لا يتّسع لاختلاف طباعهما؛ فكان نصيب الصّالح الصّادق أن يذوق الويل والقسوة والجوع والحرمان بسبب صلاحه وصدقه؛ إذ هجره النّاس بسبب ذلك، وعاش وحيداً حتى انقصف شبابه، ومات في ريعان عطائه كمداً محزوناً.

أمّا أخوه التّوأم، فقد نالت نفسه من كلّ ما اشتهتْ، وطابت الحياة له، وأقبل عليه المُلك والسّعد والغنى، وعاش حياة مديدة، وخلّف رهطاً من الأبناء

الأشدّاء على الحقّ، المنتصرين للظّلم، وسادوا، وعاشوا قي خير وأمن ونعيم حتى وافاهم هادم اللّذات ومفرّق الجماعات.

فيما ورد في باب التّاريخ لأهل التّدليس

ذكر مولانا المعلّم الأكبر فيما يروي عن الكذّابين والخرّاصين والمدلّسين وأهل الخنا إنّ خير ما يفعله المدلّسون والخرّاصون والكذّابون وأهل النّقائص أن يستعينوا بأهل القلم ممّن باعوا ذممهم، وخانوا ضمائرهم، واستحلّوا كلّ حرام، وتاقوا لكلّ شهوة مهما كان ما فيها من منقصة.

لقد تداعى أهل الفساد إلى البرّ بهذه الوصيّة؛ فأحاطوا أنفسهم بأهل القلم الذين يزورون الحقائق، وينمّقون الأكاذيب، ويحلّون المفاسد، ويصدّقون الكاذب، ويكذّبون الصّادق، وخير من فعل ذلك هو سيّدنا الأكحل الجربان الذي كان لقيطاً منبوذاً، فتحايل لنفسه حتى ارتقى رقاب العباد دون علم أو فضل أو ميزة أو كرم أو خلق، وعندما أجال نظره فيما حوله، وأطال التّأمّل في حاله، وجد أنّه سيرته سوداء، وأنّ التّاريخ سوف ينتقم منه بالتّشهير والتّحقير، في حين أنّ عدوّه الأكبر عالم الأمّة المجاهد النّقي سوف يُخلّد في أسفار الصّالحين، وينحني له التّاريخ تبجيلاً وتقديراً وتعظيماً، عندها قرّر قراراً حازماً، ونفّذه من ساعته؛ إذ أعدم عدوّه العالم الجليل، وأمر خدمه من أرباب القلم بأن يزوّرا التّاريخ، وأن يسلبوا كلّ فضيلة من عدوّه العالم، في حين أمرهم بأن يجنّدوا أقلامهم لأجل تزوير تاريخه القميء؛ ليجعلوا منه سيّد العلم وذا الفضائل، وأمرهم بأن يطلقوا عليه لقب أبي الهمم.

لقد تلكأ أهل القلم في تنفيذ الأمر لصعوبته، لكنّهم طاروا فرحاً عندما أهال عليهم المال ونفائس الجوهر، وفي أشهر قليلة زوّرا تاريخ السّلطنة كاملاً، وغدا الأكحل الجربان أبا الهمم، في حين بات عالم الأمّة المجاهد النّقي الزّنديق الخائن.

وطفق المعلمون الفاسدون يحفّظون السّيرة المزورّة عن أبي الهمم لطلبتهم المخدوعين.

فيما ورد في باب حسن الاغتنام عند أهل الإفك والبهتان

ذكر مولانا المعلّم الأكبر فيما يروي عن الكذّابين والخرّاصين والمدلّسين وأهل الخنا إنّ من أهمّ ما على أهل الفريّة والإفك والبهتان أن يتعلّموه أن يغتنموا الفرص، وأن يسرقوا الفضل من أهله، وأن يندسوا في الخفاء عندما يلجّ الموت، وأن يخرجوا من جحورهم عند الغنيمة، وخير من أتقن هذا الدّرس هو عمران أبو الظّلام الذي كان قد توافر على البلاغة، وتعلّمها من أربابها، ثم جعلها تجارته الرّائجة الرّابحة، حتى غدا شاعر المواخير والقوّادين، ومن بعد أحسن التّسلّق حتى أصبح كبير كتّاب ديوان القضاء، ثم غدا بعد ذلك الكاتب الأكبر للكتّاب، وصاحب الوزارات جميعها، وقطّع عمره في منافقة سادته، والكذب لهم وعليهم، إلاّ أن قامتْ ثورة الصّعاليك الذين عصف الجوع والظّلم بهم، فعصفوا بالحاكم ودولته وقادته ورجاله، عندها تخفّى عمران أبو الظّلام وأعوانه من المدلّسين في ثقوب الأرض وجحورها.

عندما انتصرت ثورة الصّعاليك كان جلّ المدلّسين قد تشرذموا بين الموت والمرض والضّياع في دروب الأرض، وكانت تنقصهم العبارة واللّغة ليحسنوا التّعبير عن أنفسهم، فتبرّع عمران أبو الظّلام ليكون لسان الثّورة بعد أن كان

لسان الاستبداد ويده، وبأقصر الطّرق غدا - من جديد- ذا الـوزارات جميعهـا، ولسان الثّورة، ومُدلّل السّلطة الجديدة الثّائرة على السّلطة الماضية المقوّضة.

فيما ورد في باب مُلح أهل النّفاق والرّياء

ذكر مولانا المعلّم الأكبر فيما يروي عن الكذّابين والخرّاصين والمدلّسـين وأهل الخنا إنّ لأهل النّفـاق والرّيـاء الكـثير مـن المُلـح والطّرائـف التّـي تـبهج الرّوح، وتضحك البائس المحزون، وممّا يروى في هذا الباب أنّ قاضياً أفّاقاً محابيـاً لأهل المال والرّشوة قد نفق حماره الأعرج، فأعلن الحداد عليه، وعطلّ النّظـر في القضايا المعروضة عليه إلى حين يتشافى من آلام فقده لحماره، واعتكف في بيتـه لتقبّل العزاء في حماره الأعرج، فانخلعت أدراج بيته من ليلته تلك لكثرة من أتـاه من معزّين منافقين ودّجالين، فزاد ذلك من غروره بنفسه، فاشـترى حمـاراً آخـر يذكّر الجميع بحماره الفقيد المجيد.

ما مضى شهر إلاّ وخُلع القاضي من منصبه الرّفيع، فمـا كـاد يلـزم بيتـه حتى فُجع بموت زوجته وابنه في حادث حريق في بيت المونة، ففتح بيته للعـزاء، إلاّ أنّ لا أحد من أهل المدينة قصده معزّياً له على الرّغم من فظاعة مصـابه، في حين عزّاه أهل المدينة أجمعون بحماره الفقيد عندما نفق قبل شهر، وعندما سـأل عبداً حصيفاً يملكه عن سبب ذلك، أجابه العبد اقائلاً: "يا سـيّدي، إنّهـم يعـزّون كرسي القاضي بالحمار النّافق، أمّا عنـدما خسـرت الكرسـي مـا عـزّاك أحـد؛ فالنّاس تنافق الكرسي ومن يجلس عليه".

فيما ورد في باب أكاذيب الغواني وترّهات الشّطّار

ذكر مولانا المعلّم الأكبر فيما يروي عن الكذّابين والخرّاصين والمدلّسين وأهل الخنا إنّ رهطاً من الشّطّار كانوا قد تعاهدوا على الانقطاع في الصّحراء لأجل السّرّقة والنّهب، حتى ولو اضطر أحدهم إلى أن ينهب أباه، أو أن يسرق زوجه وبنيه، وقد أخلصوا لذلك، فذاع صيتهم في الصّحراء، حتى خشيتهم الأعاريب، وخافهم النّاس، وهربت من وجوههم الوحوش والضّواري، فاغتروا بأنفسهم، وباتوا يسطون على النّاس إمعاناً في البطش، ورغبة في التّسلية والمباهاة، حتى أنّهم ما وجدوا في أنفسهم حرجاً في قطع الدّروب، وسلب الحجّاج والنّساك لأجل رهان أو مقامرة.

كانوا قد تراهنوا على أن يسطوا على مضارب عشيرة غاب عنها رجالها لذهابهم إلى الحرب، وأن يزنوا بنسائها جميعاً من أجل المفاخرة بفحولتهم بعد أن شبعوا تفاخراً ببطشهم.

ما كادوا يدخلون مضارب القوم حتى قتلوا من فيها من عبيد وغلمان مدافعين عنها، واغتصبوا النّساء جميعاً في خدورهن، وعلى فراش أزواجهنّ وأهليهنّ، فما قاومت إحداهنّ، أو رفضت هدر شرفها، إلاّ امرأة واحدة رفضت ذلّ الاغتصاب، وهدر الشّرّف، وواجهت الشّاطر الذي غشي خدرها حتى نحرته بخنجرها، وخرجت على القوم تتبختر تيهاً، وهي تحمل رأسه بيمينها، وخنجرها بشمالها.

إلاّ أنّ الشطّار خشوا أن تضيع هيبتهم في الصّحراء بسبب شجاعة هذه المرأة الحرّة، وكرهتها نساء عشيرتها اللّواتي خشين أن ينفضحن أمام أزواجهنّ؛

لأنّهنّ فرطن بشرفهنّ بسهولة وذلّ، في حين حافظت المرأة الحـرّة علـى شـرفها، ولم تسمح بأن تُستباح.

فقرّر الشّطار والنّساء المغتصبات أن يتشاركوا جميعاً في قتـل تلـك المـرأة الحرّة كي لا تفضح بشجاعتها وعزّتها ترّهات الشّطار وتفريط النّساء بشـرفهنّ، وتظلّ الصّحراء تترنّم بأكاذيب الشّطار والغواني، وتتكتّم على المصائر السّـوداء للحرائر والصّادقين.

فيما ورد في باب من عشق نساء الخنا وما استطاع أن يعشق غيرهنّ

ذكر مولانا المعلّم الأكبر فيما يروي عـن الكـذّابين والخرّاصـين والمدلّسـين وأهل الخنا إنّ سيّد الرّجال كان يزعم أنّه مسبار الأخلاق في زمنه، حتى أنّه كان يعدم المرأة من قومه وأهله إنْ ثبت له أنّها تنفّست من هـواء تنفّسـه رجـل مـا؛ فقتلّ الكثير من النّساء بتهمة الزّنا دون أن يمسسهنّ بشر أو جان، حتى أنّه لقّـب فيما بعد بـذبّاح النّسـاء، إلاّ أنّ لقبـه الشّـائع في الأوسـط الشّـعبيّة حيـث درك النّاس والأفعال هو صاحب نساء الخنا؛ فقد علـق مـنهنّ عـاهرة مـن عـاهرات الطّريق وعابري السّـبيل وأهـل الجـذام، إذ كانـت مـن الفئـات الوضـيعة مـن العاهرات لتشوّه جسدها، وغلبة ذكورتها على أنوثتها، وفظاعـة صـوتها الـذي يكاد يكون صريراً لا صوتاً بشرّياً، إلاّ أنّها كانت بارعة الفحـش، مجيّـدة لفنـون الوصال، وأشكال الجماع، ولذلك فقد تولّع بهـا زبـائن السّـوقة والرّعـاع مـن النّاس، في حين زهد بها الأسياد والأثرياء ومحبّو الجمال والأنوثة والدّلال.

لكنّ صاحب نساء الخنا تعلّق بصنانها تعلقّاً عظيماً، ووله بجسدها المهصور المشوّه القزم، وألف صوتها الصّرير، وتولّع بفحشها وبراعتها فيه، حتى ما قبلت نفسه غيرها، وما تحرّكـت رجولتـه إلاّ لهـا، فـانقطع لهـا يجامعهـا هـو ورهطـه،

ويقدّمها هديّة ثمينة لزوّاره، ثـم هجرهـا زمنـاً تقـزّزاً منهـا، إلاّ أنّـه عـاد إليهـا مسترضياً لها، وقدّم لها رأس امرأة شريفة من نساء عصره قربان استرضـاء لهـا، فما كان يرضيها إلاّ أن يُراق دم الشّريفات على قدميها ذات الأظـلاف العنزيّـة كي تغفر لحبيبها المارق جفاه وبعده وتقزّزه منها، وتنتقم لنفسها ممّن يملكن ما لا تملكه من العزّة والشّرّف والأنوثة.

يوم صادق مؤسف جدّاً

"كلّ من يزعمون أنّهم على خصومة مع مولانا الكذب هم يخرّصون"

لقد عاد من رحلة الحجّ التّي حصّلها رشوة من أحد المراجعين للدّائرة الضّريبيّة التّي يرأس فيها قسم الجباية من الشّركات والمؤسّسات الخاصّة، وقد قبل بهذه الرّشوة على مضض؛ لأنّه لا يصلّي ولا يصوم، ولا يأبه بتفاصيل العبادات والحرام والحلال، بل إنّه منذ زمن طويل قد قطع علاقته مع السّماء، وكرّس وقته للأرض بمن فيها من شياطين ووحوش وأنصاف بهائم والقليل من البشر، لكنّه لا يمكن أن يرفض أيّ رشوة تقدّم له؛ فهذا منهجه في الحياة الذي يتلخّص في أنّ ما يأخذه خير ممّا يتركه، وهو لا يترك أبداً شيئاً يستطيع أن يأخذه.

لقد حاول بكلّ جهده أن يستبدل هذه الحجّة الرّشوة بأيّ مبلغ نقديّ مهما بخس، لكن صاحب شركة السّياحة والحجّ والعمرة أقسم له أنّه لا يملك من دنياه سوى هذه الحجّات التّي ينوي بيعها، والتّكسب بها بعد أن أصاب الكساد سوق السّياحة الدّينيّة.

كما أنّه حاول أن يبيع تذكرة الحجّ لأيّ من معارفه أو أصدقائه أو أقاربه، لكنّه فشل في ذلك أيضاً؛ إذ إنّه لا يعرف في حياته سوى الخارجين عن الله والإنسانيّة والعمل لغير الدّنيا وملذاتها وركامها الجميل الجذّاب؛ لذلك فقد قرّر أنّ يحج بنفسه كي ينتفع بشكل كامل من هديته الرّشوة.

كان ينوي أن يعقد بعض الصّفقات في الحجّ، لكنّه ما توقّع أن يعقد تلك الصّفقة مع اللّه، فيقرّر أن يعود إليه، وأن يبدأ درب العودة إليه بأن يعلن توبته عن الكذب، وأن يرتدّ إلى درب الصّدق؛ إذ إنّه درب الصّالحين والأبرار والمربّين والمصلحين.

هذا هو يومه الأوّل في عالمه الذي هجره ليحجّ، ثم عاد إليه ناوياً أن يغيّر تفاصيله من ضلال إلى صلاح، وأن يعيد تأثيثه بالصّدق والإخلاص لله.

فتح عينيه على أفراد أسرته الصّغيرة، كانوا متحلّقين حول سريره في انتظار استيقاظه كي يحصلوا على هداياهم التّي عوّدهم على جلبها لهم بسخاء وافر من سفراته المتعدّدة، لكنّه نظر إليهم بحزم، وأخبرهم بقراراته الأسريّة المتعلّقة بالصّدق، الذي أضاء نوره في صدره.

لكنّه ما كاد يخبرهم بقراراته الصّادقة حتى تركوا غرفته غاضبين منكودين، أمّا زوجته، فقد حزمت حقائبها على عجل، وغادرت البيت مزمجرة متوعّدة فور أن أخبرها برأيه الصّادق الحقيقيّ بجمالها المصنوع وطعامها الخبيص وأسرتها المستغلّة له وحفلاتها السّخيفة وعلاقتها البالية وصديقاتها الزّائفات المهمّوزات في أخلاقهن وأموالهن وسلوكيّاتهنّ.

لكنّه لم يبالِ برحيلها أو بغضبها، وقرّر أن يلتزم بالصّدق مهما كلّفه الأمر، وشرع يكتب في أجندته الإلكترونيّة في جهاز اتّصاله النّقال ما ينوي أن يفعله لأجل أن يبيّض سيرته، وينقّي حياته ممّا علق بها من حرام وكذب وكدر.

كانت القائمة طويلة جدّاً، لكنّه كان قد عزم على أن يسير في مخطّطه حتى ولو كان هذا الأمر آخر ما سيفعل في حياته، وأخذ يرتّب في ذهنه ما عليه أن

يفعله لتكون خطواته واثقة وثابتة في درب التّوبة والصّدق، تنفّس الصّعداء بصعوبة، وطفق يحلم بذاته النّقيّة التّي سيعمل جاهداً كي يحصل عليها.

الخطّة التّي اختطّها تحتاج شهوراً طويلة لتحقيقها، لكنّه سيعكف على تنفيذها بصرامة وحزم ومثابرة، وعندما يعود اللّيلة مساء إلى سريره، ستكون هذه اللّيلة ليلته الأولى التّي ينام فيها مرتاح الضّمير، وقد ولج إلى دنيا الحقيقة والنّقاء، وتبرّأ من كابوسيّة الفساد والمفسدين.

كان اليوم صعباً وطويلاً، وعندما صعد درجات السّلّم ليندلق في بيته لم يكن ملكاً قد تحرّر من عبوديّة، أو سيّداً قد اشترى حرّيته باكتفائه واستغنائه عمّا لا يستطيع أن يملكه بالحلال، بل كان محطّماً مثل حيوان أجرب وحيد رجمته الحجارة المدمية طوال النّهار دون نصير أو رحيم أو منقذ؛ لقد كان يوماً قد استنزف روحه وطاقته وإيمانه؛ في الصّباح خسر زوجته وأبناءه بسبب صدقه، وما كادت الظّهيرة تدركه حتى كان قد خسر أنسباءه وأهله؛ فكثير منّهم قد سبّوه، وآخرون شرعوا في إجراءات عدائيّة ضدّه؛ فزوجته هدّدت برفع قضيّة ضدّه، وأولاده أغلقوا الهاتف في وجهه مراراً وتكراراً، ورفضوا أن يسمعوا كلمة واحدة منه، أمّا أخته وشريكته في بعض الشّركات التّي يملك حصصاً سرّيّة فيها، فقد تنكّرت له، وأخبرته أن لا مال له عندها، في حين أعلن أخواه وأمّه وأبوه أنّهم قد حذفوا اسمه من ذاكرة أفراد أسرتهم، وأنّهم لا يريدون أن يعرفوا شيئاً عنه.

رحلته في العمل كانت الأصعب؛ فقد انقلب زملاؤه ضدّه، ورئيسه في العمل حوّله إلى لجنة تحقيق قانونيّة كي تأدّبه بسبب أخطاء ظهرت له فجأة بمجرّد أنّ أخبره بأنّه قرّر أن يعتزل الرّشوة والفساد والتّزوير، وكثير من العملاء والزّبائن هدّدوا بفضح تاريخه معهم ما لم يستمرّ في تقديم خدماته السّوداء لهم.

لقد تحوّل فجأة من مدلّل الجميع في العمل إلى عدوّهم الأكبر، حتى مسعود فتى المشروبات تجاهله تماماً، ولم يقدّم له أيّ مشروب طوال اليوم، وتصامّ عندما طلب منه أن يحضر له كأس ماء بارد بالثّلج كي يخمد به النّار المشتعلة في روحه ممّا يواجهه من زلزال مدمّر بسبب قرار قد صدّقه.

أمّا رجب السّائق الموكل بأن يوصله بسيّارة الشّركة إلى البيت غادر مكان العمل دون أن ينتظره، ولم يردّ على اتّصاله به على جهاز الاتّصال النّقال، فاضطر إلى أن يعود إلى البيت في سيّارة أجرّة لم يعدم اختلاق مشكلة مع سائقها بسبب إصراره على تشغيل عدّاد الأجرّة المعتمد، وإصراره على أن يقود السيّارة ضمن السّرّعة القانونيّة المحدّدة، وعدم رمي النّفايات من نافذة سيارته.

في حين أنّ حارس العمارة قد رفض أن يشغّل المصعد له، وأجبره على أن يصعد درجات السّلّم التّي تنيف عن مائة؛ لأنّه أخبره في الصّباح برأيه فيه بكلّ صدق، ورفض أن يعطيه أيّ أموال لأجل تسديد نفقات خدمات مزعومة للعمارة دون أن يزوّده بوصل شراء معتمد وموقّع؛ ليعرف أين عليه أن ينفق ماله ولماذا؟

كلّ ما يحلم به في هذه اللّحظة أن يفتح باب بيته؛ ليدخل إليه مثل محروق محموم يبغي الماء البارد كي يوقف سيلان ألمه، ثم يهرع إلى سريره البارد كي يدفن فيه حزنه وألمه وجزعه من عالمه المتداعي الذي سقط عليه على حين غرّة عندما قرّر أن يؤوب إلى جادّة الأخلاق، ودرب الحقيقة.

لكن حلمه تمزّق، وتطاير شظايا من مزق سوداء عندما فتح باب بيته، فوجده قد تعرّى تماماً من أيّ أثاث، حتى الثّريات الكريستاليّة التّي كانت تزين

فضاء البيت بأنوار بيضاء مشعّة قد خُلعت من مكانها، فغاص البيت في ظلام مفزع.

لا بدّ أن زوجته قد سرقت أثاث البيت، أو أنّ لصّاً ما قد سطا عليه، اتّصل بصديقه ضابط مخفر المنطقة التّي يعيش فيها، لكنّه لم يردّ على اتّصاله، تساءل في نفسه أعدم الرّد على اتّصاله هو مجرّد صدفة؟ أم أنّ خبره مع القرارات الحياتيّة الجديدة قد وصل إليه، فبادر إلى نبذه والتّنكّر له؟

لم يعنّ نفسه بالتّفكير أكثر، وانهار على رخام الأرض البارد، ثم خلع معطفه الجوّخ الفاخر، وكوّمه إلى جانبه ليوسّد رأسه عليه، وأغلق هاتفه النّقّال الذي تلقّى عبره أكثر من مكالمة تهديد من المتضرّرين من قرار استقامته، وقرّر أن ينام دون أن يصلّي العشاء، وهو من عاهد نفسه في الحجّ على أن لا يهجر صلاته أبداً بعد أوبته إليها، وواسى نفسه بأنّه سوف يقضي صلاة العشاء غداً صباحاً إنْ وجد ماء في صنابير الماء ليتوضّأ به.

حاول أن يغمض عينيه ليهرب من ظلام البيت إلى ظلامهما المؤنس، حاول أن يتجاهل ما صارعه من لؤم البشر على امتداد يومه الصّادق، لكنّ الوحشة ملأتْ نفسه أكثر فأكثر.

حاول جاهداً أن يقنع نفسه بأن تستسلم للنّوم؛ لعلّه يكتشف أنّ يومه هذا مجرّد كابوس كريه سوف يستيقظ منه ليجد نفسه ما يزال يعيش في عالمه مكرّماً هانئاً بعيداً عن ترّهات الصّدق والتّوبة، فما له هو والصّدق وأفاعيله ودروبه؟!

تتنزّى بعض الدّموع من عينيه هاربة من قلبه المتفطّر الذي يتوق بعمق إلى التّوبة واللّقمة الحلال والحياة الصّالحة، فيمسح دموعه سريعاً بطرف قميصه المنقوع بعرقه النّهاريّ المجهد، ويصمّم على أن ينتقم من ذلك الزبّون الذي حوّل

حياته إلى جحيم برشوة الحجّ التّي قدمها له، ويجزم في حوار خفيض مع نفسه – التّي غارتْ في ظلام الغرفة التّي يتقبّض فيها بالقرب من جدار بارد من جدرانها– بأنّ الصّلاح لا يتناسب مع روح هذا العصر، وأنّ الخير والشّرّف قد مضيا بمضي زمان الأنبياء والصّالحين والمعجزات والكرامات، وأنّ عليه أن يعيش الحاضر بفلسفة اللّصوص وقطّاع الطّرق والشّطار والعيّارين والمكدّين.

يشعر بالعطش الشّديد والجوع الذي يأكل أمعاءه، لكن البرد القارس هو من يحتلّ الصّدأرة في تعذيبه، إلاّ أنّه يعجز عن الحركة من مكانه لأجل أن يحرّك ساكناً حيال معاناته هذه، فيقرّر أن يغمض عينيه لينغمس في كوابيسه، ليستيقظ منها بأسرع ما يمكن؛ ليعود إلى عالمه السّعيد الذي أهدره في يوم واحد لأجل الصّدق المأفون الذي أراد أن يعيش في ظلّه.

سريعاً ما تتلقفه الكوابيس، لكنّه يركلها الواحدة تلو الأخرى، فتبتعد جميعها عنه، فيبتسم ابتسامة عريضة منتصرة.

في الصّباح عندما يستيقظ يحاول بإصرار أن ينسى يومه الماضي بما فيه من صدق مؤسف جدّاً، ويفكّر مليّاً في خطتّه الجديدة لأجل تصويب أخطاء صدقه في سبيل استرداد عالمه المخادع المزوّق المريح، فما له والحجّ والصّدق ودروب الصّالحين؟ فهذا العالم يسير وفق مخطّطات الأوغاد واللّصوص.

يردّد أكثر من مرّة بنبرة واثقة جهوريّة: "نعم، هو عالم الأوغاد، وكي أعيش فيه عليّ أن أكون وغداً، وأن أنسى تماماً اليوم الصّادق الوحيد في حياتي؛ فقد كان مؤسفاً جدّاً".

يغزوه حماس مداهم، يفتح جهازه اتّصاله النّقّال، ويطبع على شاشته اسم زوجته ليتصلّ بها، فتكون أوّل من يصالحها في هذا اليوم الذي سيجتهد أن يكون يوماً كاذباً مسعداً جدّاً.

كاذبون بمنتهى الصّدق

"ذكر مولانا الكذب إنّ الإتقان باب من أبواب الصّلاح،
ولو كان إتقان مفسدة، أو إحكام بدعة"
"يروى عمّن لا نعرف من يكونون إنّ الكذب الخالص
هو بمنزلة الصّدق الذي تشوبه نقيصة"

(١)

الحبّ والكذب هما ما يجمعان بينهما؛ هي تعشقه، وهو متيّم بها، هي وُلدت فاقدة لنعمة النّظر، وهو وُلد فاقداً فقداناً كاملاً لنعمة الجمال؛ فجماله لا يفوق جمال سلمندر بريّ أو يرقة قزّ أو دودة الأرض.

إلاّ أنّ لا أحد منهما قد فقد القدرة على الحبّ والتّضحية لأجل الآخر؛ فهو يسعى لإسعادها بأيّ شكل كان، ولذلك هو يكذب عليها، ويخبرها بأنّه أكثر الرّجال وسامة كي تسعد بحبّه لها، وتشعر بفخر بانحيازه لها بكامل جوارحه، كما يكذب عليها دون توقّف عندما يخبرها أنّ فقدها للبصر لم يزدها إلاّ جمالاً وأنوثة وبصيرة، في حين يبذل جهده كاملاً كي يساعدها في التّأنّق وفي إنجاز مهامها كي لا تشعر بمنقصة في روحها.

أمّا هي التّي تُجيد رسم الملامح في ذهنها فور لمسها لجغرافيا الوجه، فتتظاهر بأنّها تصدّق أنّه رجل وسيم، وتبتلع معرفتها لحقيقة دمامته، وتناديه

بصفة حلوي الفاتن، وتصف لصديقاتها مدى وسامته، وتتجاهل همسهنّ سخرية من جهلها لحقيقة قبحه المنفّر.

هي تحبّه، وتكذب مليّاً لأجل هذا الحبّ، وهو يعشقها، ويكذب بإصرار لأجل هذا العشق.

(٢)

جمالها الفتّان المُغيظ كان هويّتها الكبرى في الحياة، لقد اعتادتْ على أن يصفها الجميع بالجميلة، وأن يدور الكلام والهمس حول سحرها القابع في وجهها النّضر وجسدها التّحفة، لكن حياتها انقلبت نكداً وغمّاً عندما تزوّجت حبيبها الشّاب، وانتقلت للعيش معه في حارته القديمة حيث يمتلك شقّة صغيرة تملّكها من أهله الذين اقتطعوها من بيتهم القديم لتكون شقّة له كي يتزوّج فيها، وهو من لا يستطيع براتبه المتضائل أن يكتري شقّة للعيش فيها مع زوجته الفاتنة الجمال، فضلاً عن شراء شقّة مناسبة لهما.

نساء الحارّة جميعهنّ ناصبنها العداء بسبب جمالها الذي لفت نظر أزواجهنّ إلى فظاعة قبحهنّ مقارنة بوجهها الذّهبيّ الصّبوح، أمّا رجال الحارّة، فتمنّوا من أعماقهم أن تنشق الأرض لتبتلعها، فلا يطالعهم جمالها المحرق من جديد، فتبرد نيران شهواتهم، وتنقلع من أرواحهم أشواك حرمانهم من العبّ من سحرها.

آلمها هذا الكره المجّاني لجمالها السّماويّ، ثم آلمها أكبر اللّقب الذي ألصقته النّساء بها؛ إذ أسمينها وفاء البشعة، لكنّ ألمها تحوّل إلى راحة عندما وجدت الكره لها ينحصر بعيداً عنها عندما شاع هذا اللّقب في الحيّ، والتصق بها، ومع

الوقت استعذبته جدّاً؛ فكلّما جأرت النّساء بلقب وفاء الشّنعة سمعت كلمة جميلة في لقبها الجديد، ومع الوقت أصبح لقب وفاء الشّنعة الملتصق بها يعني عند الجميع في الحارّة الجميلة جدّاً.

(٣)

لو كانت الطّفولة تستطيع أن تنطق بطلاقة وبيان لنطقت طفولتها الصّغيرة البريئة ذات الأعوام الثّلاثة السّماويّة، وقالت ببلاغة ووضوح: "أنا أحبّ سمكتي الجميلة الحمراء اللّامعة".

هذه السّمكة الأنيقة التّي حصلت عليها هديّة في عيد ميلادها الرّابع تشدّ انتباهها، وتشغل بالها، هي تتحرّك ببطء في الماء المنقّى الذي تقبع فيه في بلورة زجاجيّة مثبت عليها زينة حمراء، وشريط ذهبيّ مربوط على ورقة صغيرة مكتوب عليها بعض الكلام الذي لا تستطيع أن تتبين حرفاً منه؛ لأنّها لم تتعلّم حرفتي القراءة والكتابة بعد.

تشعر بأنّ سمكتها حزينة؛ لأنّها تكاد تختنق في الماء في هذا الوعاء الزّجاجيّ؛ فأمّها أخبرتها أكثر من مرّة أن تبتعد عن بركة ماء الجيران؛ لأنّها إن وقعت فيها فسوف تغرق، وتموت.

إذن هذه السّمكة الصّغيرة المسكينة تختنق في الماء، ولا أحد يفكّر في إنقاذها. بحركة سريعة تمدّ يدها الصّغيرة في بلورة الماء الزّجاجيّة، وتخرج السّمكة من الماء، وتأخذها إلى حضنها فرحاً بها بعد أن أنقذتها من الموت غرقاً في الماء!

(٤)

ذلك السّياسيّ المحنّك أتقن الكذب والسّرّقة، كما أتقن أن يقوم بهما بحرفيّة مجيّدة؛ فهو يفضّل الأناقة والحرفيّة على عمل الهواة، وتجارب المبتدئين؛ لذلك عندما يكذب، فهو يقدّم الكذب وجبة شهيّة في أطباق ذهبيّة وفضيّة؛ فهو يفضّل الكذب راقياً وحسّاساً وخفيف الظّلّ.

عندما يتحدّث عن إنجازات حزبه السّياسيّ الحاكم للجمهوريّة، يبتسم ابتسامة عريضة تكفي لتشقّ وجهه بالعرض، ثم يقول بثقة طاغية: "إنّنا نفخر بأنّنا لم نسمح لأحد بأن يسرق الغضب من شعبنا الأبي؛ لقد حرصنا على أن نذكي لهم هذا الغضب كي لا يُحرموا من ظلال إبداعه، وأفانين منجزه".

(٥)

لم تكن نموذجاً للجمال والفتنة، بل إنّ رصيدها من إعجاب الرّجال بها كان الأقلّ بسبب نحافتها المفرطة، وصفرة وجهها، وبروز أرنبة أنفها، وشدّة اتّساع فمها، وبروز أسنانها العليا، وشدة ضيق محجري عينيها، وقبح غمازات خديها المتحفّزين في وجهها النّحيف، مثل شقّ خنجر في جذع شجرة جافّة، إلاّ أنّها صمّمت على أنّها مثال للجمال الذي لا يدركه إلاّ أمثالها من البشر.

غابت سنوات عن الأصدقاء والأقارب، ثم عادت من رحلة مجهولة الوجهة، بعد أن قصّرت ملابسها حدّ الكشف عن عورتها، ونصّبت ثدييها

بـ"السّيلكون" حتى كادا يرتطمان بذقنها، ولوّنت شعرها بـاللّون الأشـقر الأرنـبيّ الذي تفضّله النّساء الأرستقراطيات طمعاً في أن ينهين حيواتهنّ بشقرة مزوّرة.

الآن هي مصممة أزياء شهيرة كما تزعم القناة الفضائيّة التّي أسـندت لهـا وظيفة تقديم برنامج شهير عن تصميم الأزياء وتجميل النّساء، وهي أجادت أن تكذّب حقيقة قبحها، وأن تصفع كلّ من وصفها بالقبح، بعد أن جعلـت همّهـا الأكبر منحصراً في تحويل كلّ امرأة تستضيفها في برنامجها لتجميلـها إلى صـورة عنها، فكلّ امرأة تستسلم ليديها تحوّلها على الهواء مباشرة إلى نسخة من ملامحها وقبحها، ولا تتركها إلاّ وهي تملـك نحافتهـا المفرطـة، وصـفرة وجههـا، وبـروز أرنبة أنفها، وشدّة اتّساع فمهـا، وبـروز أسـنانها العليـا، وشـدة ضـيق محجـري عينيها، وقبح غمازات خديها المتحفّزين في وجهها النّحيف، مثل شقّ خنجـر في جذع شجرة جافّة.

(٦)

الفقر والبطالة وأسرته التّي تتضوّر جوعـاً وكثـرة إلحـاح الـدّائنين عليـه، جعلته يقرّر أن يعدم عالمه كلّه لينجو من عذاباته المقيمة في روحه، لذلك قرّر أن يصعد ذلك السّطح في أعلى مبنى في المدينة، وأن يلقي بنفسه منه؛ ليهوي أرضـاً ميّتاً ليتخلّص من قهره وحرمانه.

خطّة انتحاره أسهل من أن تحتاج إلى ترتيب أو تخطـيط، بمجـرّد أنّ يقـف الآن على حافّة الجدار أعلى السّطح، يستطيع أن ينفّذ خطّته بكلّ سهولة، فيلقي بنفسه إلى الهاوية بخطوة واحدة من إحدى قدميه.

هو مستعدّ تماماً لهـذه الخطـوة التّاريخيّـة في إنهـاء وجـوده علـى كوكـب الأرض، لكن أولئك النّاس ورجال الأمن الذين يطوّقون المكان في أسفل البنـاء يطالبونه عبر مكبّرات الصّوت بعـدم الانتحـار، وهـو اضـطر إلى أن يسـتجيب لنداءاتهم بعد مفاوضات طويلة معه، تمخّضت عن وعد حكـوميّ عاجـل بحـلّ مشاكله التّي دفعته إلى قرار الانتحار.

لم يطلْ الانتظار به حتى برّت الحكومة المجيّدة بوعدها لحلّ مشـاكله التّـي دفعته إلى قرار الانتحار؛ إذ أصدرت قانوناً يلزم المباني الخاصّة والعامّـة بـإغلاق أبواب أسطحها، وبذلك ضمنت أن لا يلجأ إليها أيّ يائس ما لأجل الانتحار.

هكذا لم يعد أمامه خياراً للانتحار سوى الانتحار بالقهر والمـوت بذبحـة صدريّة عاجلة.

(٧)

"حتى القتل له أدبياته وأصوله"، هذه هي جملته الذّهبيّة الثّابتة التّي يكرّرهـا على مسمع كلّ من زبائنه الذين ينهالون عليه لأجل أن يؤدّي لهم خدمة واحدة مأجورة، وهي أن يقتل لهم عدّواً أو خصماً أو منافساً.

مقابل هذه الجملة الرّكن في كلّ اتّفاقيّة يأخذ المزيد من المال؛ إذ هو يتقن عمله، ويراقب طريدته المستهدفة بحرفيّة، وفي الوقت المناسب والشّكل المناسـب يحصد رأسها، ويستوفي باقي أجره، ويمضي منتظراً مهمّته المقبلة.

قلّما يجادله الزّبائن في مقدار أجره، أو طريقة تأديته لـه؛ فتحقيـق الهـدف عند غالبيتهم أغلى من أيّ مال مبذول، أمّا زبونـه هـذا، فقـد وعـده بمضـاعفة

الأجر له إن قتل المرأة الهدف في ظرف أسبوع لا أكثر، لكنّه رفض هذا العرض المغريّ، وردّد على أذنيه جملته التّي سنّها قانوناً لعمله"حتى القتل له أدبياته وأصوله"، وصمّم على أن يستوفي وقته كاملاً في دراسة مهمّته المتمثلّة في قتل هذه المرأة، بعد أن يدرس الحالة بدقّة، ويراقب الهدف مراقبة حثيثة وفاحصة؛ فهو لا يقتّل بمنطق صائد الطّرائد في الغابة، بل بمنطق الفنّان الذي يدرس إمكانيّة تشريح الفريسة بشكل فنّي قبل أن يصطادها.

بدأ مهمّته بطريقته، وأخذ يراقب المرأة الهدف ليصطاد اللّحظة المناسبة كي يرديها أرضاً قتيلة، المراقبة في بدأيّتها كانت وظيفيّة خبراتيّة مجرّدة من أيّ حماس أو دافع، لكن مع الوقت أصبحتْ متعة وإشباع فضول، ومن ثم تلبية لرغبة ماسّة في رؤيتها، وسرعان ما تحوّلت المراقبة إلى ولهٍ يدفعه إلى أن يقترب منها، وأن يلتقي بها.

وأخيراً التقاها بطريقة تمثيليّة رومانسيّة مصنوعة بابتكار، وسرعان ما طار قلبها إليه، ولم يطل الوقت حتى عرف منها سبب رغبة ذلك الزّبون في قتلها؛ فهو يعشقها عشقاً آثماً، ويريد أن يجرجرها إلى دنيا الرّذيلة ليقضي وطره منها، فلما صدّته شرّ صدّ، وأهانت كبرياءه المزوّر باحتقارها له، قرّر أن يقتلها ليتخلّص منها، ويطفئ بموتها جذوة الغيرة والحرمان التّي تزداد أواراً كلّما رآها تعبر في حياته كغزال كلّه كبرياء، وتأبّ عليه، ورفض له.

في الوقت المحدّد كان عليه أن يؤدّي مهمّته المُكترى لأجلها، وقد أدّاها بكلّ دقّة وإخلاص، فهو ملتزم بقاعدته الثّابتة"حتى القتل له أدبياته وأصوله"؛ ولذلك فقد حرص على أن يضع أجرته كاملة في جيب زبونه الذي قتله بدل أن يقتل المرأة التّي كلّفه بقتلها، وتركه يزبد متخبّطاً في دمه وروحه تنزع منه، وهو يرقب القاتل المأجور يبتعد متأبّطاً ذراع المرأة التّي أحبّها.

(٨)

ينتقد دائماً السّلوكيّات الذّكوريّة العنصريّة التّي تهبط بالمرأة إلى درك التّحقير، في حين تسمو بمكانة الرّجل ليس إلاّ لأنّه ذكر، يهاجم المجتمع الذّكوريّ بشراسة، وأنصاره من النّساء يفقن عدداً عدد جيش البلاد؛ فهو حلم كلّ امرأة وفتاة بسبب أفكاره المتحرّرة، وطروحاته السّامية التّي جعلته يطوّف العالم، ويمسح الحزن عن قلوب نساء العالم، ويدعوهنّ إلى الإيمان بطاقاتهنّ ومواهبهنّ، والعمل على أن يحظّين بما يستحققن من الفرح والسّعادة والعدالة.

عندما عاد إلى الوطن كانت شهرته قد طبّقت الآفاق، فاستقبلته المؤسّسات النّسويّة باحتفاء منقطع النّظير، وفي أوّل لقاء تلفزيونيّ جماهيريّ معه، سألته مذيعة البرنامج: "سيّدي الكريم، في ختام هذا اللّقاء الممتع التّاريخيّ معكَ، هل تسمح لنا بأن نسألكَ أين مكان زوجتكَ في حياتكَ؟"

ابتسم لها ابتسامة عريضة مديدة بقدر مساحة كاميرا التّلفاز، وردّ عليها قائلاً بعفويّة واندفاع جامح: "مقصوفة الرّقبة مكانها الطّبيعيّ في البيت مع القواعد من النّساء!"

(٩)

لا يخجله أنّه لص محترف شهير؛ لأنّه يصمّم على أن يكون لصّاً شريفاً؛ فهو لا يسرق إلاّ بقدر حاجته الشّخصيّة، ولا يسرق إلاّ ممّن يثبت عنده أنّه لص كبير دون شرف، كما أنّه يحرص على أن يتصدّق بجزء ممّا يسرقه على الفقراء

والمساكين والمعوزين والمحرمين، إذ يتصدّق عليهم من خلف الأبواب كي لا يرى في عيونهم ذلّ العوز، ومهانة مدّ اليد، وكم من مرّة ردّ ما سرقه إلى المسروق منه؛ لأنّه اكتشف أنّه مستور الحال، وفي حاجة ماسّة إلى هذا المال.

لقد ذاع صيته بين النّاس حتى أسموه جابر عثرات الكرام، وما عاد أحد يسمح لنفسه بتلقيبه باللّص، بل إنّ الكثيرين يبجّلونه منذ أن قام بسلسلة من عمليّات الإنقاذ والمساعدة لأناس سطا على بيوتهم ليسرقهم، فوجدهم في حالات تحتاج إلى إنقاذ عاجل أو إسعاف طبيّ سريع، فكان ينقذهم، ويطلب العون لهم، ولا يتركهم حتى يتجاوزوا مرحلة الخطر، ثم يولّي هارباً، وعيونهم تفيض له بالشّكر والتّقدير.

لقد أصبح مصدر فخار للصوص الشّرفاء والشّرفاء اللّصوص، إلاّ أنّه كان يزعج ذلك الضّابط اللّص الذي يريد أن يلقي القبض عليه؛ لأنّه يشاركه عنوة وجبراً في سرقاته من النّاس والمساكين واللّصوص الكبار، فغدا طِلْبته وطِلْبة أسياده من اللّصوص المتنفّذين، وما استطاعوا أن يلقوا القبض عليه إلاّ بشق الأنفس وتآمر الخونة؛ إذ قبضوا عليه وهو يوزّع على الفقراء بعض ما سرقه من اللّصوص الكبار، إلاّ أنّ أحد الفقراء الخونة قد وشى به.

كان الضّابط يسير بكبرياء متبختراً بين الجنود، وهم يكبّلون اللّص الشّريف بالسّلاسل خوفاً من أن يهرب منهم، أمّا اللّص فكان يبتسم بسخرية بادية لأنّ لصّاً وغداً قد ألقى القبض أخيراً على لصّ شريف!

(١٠)

على الرّغم من أنّه وصل إلى الكرسي المنجّد الذي يتشبّث بـه عـبر دغـل من العلاقات المشبوهة والمساعدات المسمومة، إلاّ أنّه يصمّم على أنّ يتمّ تعـيين سائق جديد للوزارة عبر منافسة شريفة وكفاءات عاليـة؛ فهـو يريـد أن يـبرهن للمسؤولين الأعلى رتبة منه وللجماهير المتابعة لعمله أنّـه حيـاديّ وموضـوعيّ ومُجنّد لخدمة الوطن عبر الشّفافيّة والحياديّة والمصداقيّة؛ ولذلك فقد أوعز بنشر إعلان للتّوظيف وفق شروط واضحة ومحدّدة.

في أيّـام قليلـة وصـل عـدد المتقـدّمين لهـذه الوظيفـة المتهالكـة الرّاتـب والامتيازات إلى أكثر من ألفي شاب عاطل عـن العمـل، وكـي يسـتطيع انتقـاء متقدّم واحد لهذه الوظيفة، فقد زاد الشّرّوط شروطاً أخرى أكثر صعوبة ليصـبح من الواجب على المتقدّم لهذه الوظيفة أن يكون مـن حملـة درجـة الـدّكتوراه في تخصّص من التخصّصات العلميّة، وأن يجيد ثلاث لغات عالميّة على الأقلّ، وأن يكون قد نشر أكثر من خمسمائة بحث حول الاتّصالات والمواصلات في مجـلاّت عالميّة محكّمة، وأن يكون له ما لا يقل عن عشرين بـراءة اخـتراع، ولا بـأس أن يكون شهيداً في معركة وطنيّة مشرّفة، ومن المقبول أن يكون قد قاد جيشاً وطنيّاً في فترة تكوينه، ومن الضّروريّ في حالة توفّر هـذه الشّـرّوط جميعهـا أن يكـون صاحب مواهب خاصّة وموثّقة وحاصل فيها علـى جـوائز عالميّـة، ويفضّـل أن تكون أولمبيّة.

لقد أبدى المسؤولون في الوزارة إعجابهم بهذه الشّرّوط الدّقيقة في اختيار سائق جديد للوزارة، وأثنوا على نباهة من وضـع هـذه الشّـرّوط المعجـزة، وفي

النّهاية باركوا اختيار السّائق الذي تمّ اصطفائه عبر متابعة مباشرة من صاحب الكرسي المنجّد الذي فخر بأنّه وجد من تنطبق عليه الشّرّوط كاملة، وهو أحد أقاربه من ناحية عمّة جدّته لأمّه.

كلّما سأله أحد عن الشّهادات التّي يحملها الفائز بهذه الوظيفة، ابتسم وصمت، وتمتم في داخله قائلاً: "إنّه يحمل شهادة تطعيم ضدّ الأمراض السّارية، وشهادة راسب في الثّانويّة العامّة، وشهادة راسب في فحص العيون، وشهادة التصاق الفخذين لإعفائه من الالتحاق بالتّجنيد الإجباريّ".

(١١)

لا أحد يتقبّل إلاّ جملة الحمد لله أنا في خير، جواباً على الأسئلة جميعها حول الأحوال والأفعال والظّروف والمعطيات والرّضا والقبول والارتياح، وهو خير من يستخدم هذه الجملة؛ فهو في دائم الحال شاكر وحامد وفي ألف خير مزعوم، لكنّه لا ينجح في رسم الابتسامة على وجهه أبداً عندما يقول هذه الجمل المزوّرة؛ فذلك فوق احتمال فقره وضنكه وشظف حياته.

منذ بضع سنوات انقطع لحضور الدّروس الدّينيّة التّي تُقام على هامش الجنازات في مسجد المقبرة التّي يعمل قيّماً عليها، وسريعاً ما اكتشف أنّ جوابه المتلخّص أنّه في خير هو ضرب من الكذب؛ لأنّه في حقيقة الحال في شرّ حال، ومنذ ذلك الوقت غدا يكتفي بجملة "الحمد لله" جواباً على أيّ سؤال حول حاله ورضاه، دون أن يلحق بجملته الأولى جملة "أنا في خير".

منذ أن أخذ قراره بأن يكون جوابه على كلّ سؤال يوجّه إليه هـو"الحمـد لله"، باتت عنده عادة تجريب كلّ قـبر قبـل أن يُـدفن فيـه الميّـت، فمـا أن ينتهـي الحفّارون من حفر القبر حتى يتمدّد فيه، ويعـاين ارتياحـه فيـه، ثـم يخـرج منـه حزيناً؛ لأنّه ليس الميّت ليرتاح من هذه الحياة المرهقة، لكن ما يصبّره على لوعـة الخروج من القبر الذي يجد الرّاحة فيه أنّه متأكّد من أنّه سوف يرتاح فيه في يـوم ما مهما طال انتظاره لهذا الارتياح الوحيد في حياته.

كلّما خرج من القبر بعد أن قاسه وجرّبه، ابتسم لمـن حولـه مـن الحفّـارين وعمّال الجنائز، وقال لهم بصرامة دون ابتسامة واحدة: "الحمد لله على كلّ شيء".

(١٢)

جميعهم لا يقبلـون أيّ ابتـذال أو رذيلـة أو منقصـة؛ ولا عجـب في ذلـك، أليسوا جميعاً من الأساتذة الجامعيين أصـحاب الرّتـب العلميّـة الرّفيعـة والسّـير الشّرّيفة، ولذلك كان من الطّبيعيّ أن يغضبوا غضبة رجّل واحد على قلب تقيّ ورع عندما وصلتهم تلك الرّسالة الجنسيّة علـى المجموعـة الجماعيّـة في برنـامج التّواصل المثبت على أجهزة اتّصالاتهم النّقالة، كانت رسـالة غـير متوقّعـة فيهـا مقطع جنسيّ إباحيّ مموسق ومثير وتعلوه التأوّهات المثيرة.

جميعهم -دون تردّد- انسحبوا مـن تلـك المجموعـة المخصّصـة لتـدارس قضايا الأبحاث العلميّة والمؤتمرات المحكّمة بعد أن كتب كلّ واحد مـنهم رسـالة احتجاج على الرّسالة الجنسيّة، وسبّ ولعن مَنْ أرسلتها على المجموعة.

في غضون دقائق تنافسوا سرّاً على التّواصل الفرديّ مع صاحبة تلك الرّسالة الجنسيّة الفاضحة، وطالبوها بالمزيد من المقاطع الإباحيّة التّي على شاكة ذلك المقطع الإباحيّ الذي وصلهم على المجموعة الإلكترونيّة، فألهب مشاعرهم، وأيقظ جوارحهم.

ظلّوا ينتظرون على جمر المقطع المقبل المفترض من صاحبة الرّسالة الجنسيّة التّي أشبعوها سبّاً وشتماً ولعناً على العلن، في حين تحرّقوا في الخفاء على التّواصل معها، ولعق حذاء رضاها.

(١٣)

أشدّ ما يفخر به في دنياه أنّه ابن شهيد، لكنّه كان يبغي من الحياة أن تعوّضه ببعض الكرم عن آلام يتمه وفقره ووحدته وضعفه، لكن السّادة الأوغاد الذين صدفهم –لتعاسته- في حياته علّموه أنّ الحظوظ والأقدار في الحياة جميعها وراثيّة؛ فعندما حاول أن يتعيّن في وظيفة محاضر في الجامعة بشهادته الجامعيّة عرف من العميد أنّ هذه الوظيفة محجوزة لابنته البلهاء؛ فابنة العميد يجب أن تصبح عميدة فيما بعد، وعندما حاول أن يحصل على عمل في السّلك الدّبوماسيّ رُفض، وأُقصي ببشاعة؛ لأنّ هذه الوظائف محجوزة حكراً لأبناء السّفراء والدّبلوماسيين السّابقين؛ فابن السّفير يجب أن يكون سفيراً، أمّا عندما قاتل بكلّ ما أوتي من قوّة ليعمل في مؤسّسة الإذاعة والتّلفاز، وصدّر لهم وجهه البهيّ وصوته الجهوريّ الجميل ولغته الجميلة سخروا منه، وألقوا به خارج المؤسّسة مثل كيس قمامة.

عندها فهم أنّ الإعلاميّ النّاجح يجب أن يكون ابن إعلاميّ شهير ومتنفّذ، ولذلك لم يستغرب أن رفضت دائرة الإفتاء أن يعمل فيها ولو في وظيفة إمام في مسجد في أبعد الأقاليم مسافة عن العاصمة؛ فالشّيخ يجب أن يكون ابن شيخ شهير، ومعمّم له يد طويلة في المؤسّسات الخيريّة والتّطوعيّة وحتى الرّبحيّة الدّينيّة.

لقد باء بخيبة الأمر والإهانة والطّرد وكسر شوكة نفسه مرّة تلو أخرى، إلاّ أنّه لم يجرؤ على أن يصبح مجرماً مرّوعاً للسّادة اللّصوص؛ إذ قال له خبير مختصّ في عالم الإجرام: "إنّ هذه المهنة تحتاج إلى خبرة أسريّة تاريخيّة كي تنجح فيها". وهذا ما يستطيع أن يلخصّه في إنّ المجرم النّاجح يجب أن يكون ابن مجرم عتيد.

استمرّ يجري في عذاب هذه السّاقية الجنّميّة حيث ابن اللّص هو لصّ، وابن المحظوظ هو محظوظ، وابن المدلّل هو مدلّل، حتى ابن المنكود يجب أن يكون منكوداً، وابن الفقير يجب أن يظلّ فقيراً، وابن المطحون يجب أن يقبل أن يُداس بالأقدام، وابن المسحوق عليه أن يسعد بقدره هذا، بل وأن يسعى إليه.

لم يطل المقام به حتى اقتنع مجبراً بأنّ ابن الشّهيد يجب أن يكون شهيداً كذلك؛ فحاول الالتحاق بالجيش؛ لكنّه ما وجد له مكاناً هناك؛ إذ إنّ ابن القائد يجب أن يكون قائداً، لذلك فقد تطوّع مباشرة مع الفدائيين؛ لأنّه أدرك أنّ القدر قد جاد عليه بالبنوّة لشهيد طاهر، ولا يجوز له أن يرث لصّاً أو انتهازيّاً، وبات يحلم في كلّ ليلة بجنّة المنتهى التّي تحلقّ روح والده فيها، ويستعدي الموت كي يلحقه به حيث سماوات والده الشّهيد؛ فالشّهيد يجب أن يمضي ابنه شهيداً كذلك.

(١٤)

إنّه سيّده الجديد، وعليه أن يكون كلبه المطيع كما تطيع الكلاب جميعها أسيادها أيّاً كانوا، لا يروق له هذا السيّد الجديد؛ فهو جلف وبخيل عليه، ويجبره على الرّكض معه في رياضة الصّباح في متنزّه المدينة بشكل يوميّ، أمّا سيّدته الأولى التّي تركته، وسافرت بعيداً، فقد كانت رقيقة كريمة معه، تطعمه اللّحم بسخاء، وتتركه مستلقياً في الظّلّ طوال اليوم دون أن تجشّمه تعب الجري أو الحراسة.

لكن عليه أن يقبل بقدره وحظّه، ويظلّ يركض مع سيّده الجديد الغليظ حتى يجد له سيّداً آخر أرحم منه، وعليه كذلك أن يتمحّك بكلّ سيّدة يقف سيّده معها في المتنزّة، ويحاول استمالتها إليه بالسّماح لها بمداعبة كلبّه الذي يزعم أنّه يعشق عطور النّساء الجميلات، ويهوى مداعبة سيقانهنّ الرّشيقة، ويجري خلفهنّ بإرادته الحيوانيّة الفطريّة، لا بإيعاز من سيّده الذي يهوي اصطياد النّساء في حلبات الجري.

تلك المرأة التّي تقبل نحوهم الآن تروق له، وليتها تكون سيّدة له؛ فهي غاية في الجمال، لكنّها تسارع في الاقتراب من سيّده، فتصفعه بشدّة، وتصرخ في وجهه قائلة بانفعال بادٍ وبأنفاس مقتطّعة: "أنتَ أحقر رجل في الكون، أخيراً رأيتكَ ها هنا بالصّدفة. لماذا اختفيتَ فجأة؟ هل هربتَ منّي كي لا تفي بوعودكَ لي؟ فعلاً أنتَ كلب ابن كلب. لعنكَ الله يا كلب الرّجال".

مرّة ثانية صفعت المرأة سيّده الرّجل، وأكملت هرولتها في المكان، كأنّ شيئاً لم يكن، في حين تسمّر سيّده في مكانه، وهو يربت على خديه، كأنّه يحاول أن يمحو عنهما أثر الصّفعتين اللّتين هبطتا عليه للتو، فيما غرق الكلب في اليأس وخيبة الأمل؛ فقد أيقن أنّ لا أمل له مع تلك السيّدة الجميلة التّي لا تحبّ الكلاب أكانت آدميّة أم حيوانيّة.

جارتنا أمّ الخير

"هي لا تريد إلاّ رضا الله سبحانه وتعالى والإحسان إلى النّاس وحسن الخاتمة"، هذه هي جملتها التي لا بدّ أن تقحمها في أيّ حوار أو كلام أو تعليق تشارك فيه، بل إنّها تجعلها أحياناً مفتاحاً لأيّ حديث منقطع أو حاجة تريد أن تدركها، وفي الغالب تنجح في مسعاها ما دامت تعلّق أقوالها وأفعالها ونياتها بالله والعمل الصّالح والإحسان إلى النّاس وحسن الخاتمة، لا سيما أنّها تؤكّد صلاحها في نفس من تخاطبه حين تتبع جملتها الرّائقة للجميع بالتّسبيح تارة، وبتمتمات مجهولة المعنى تارة أخرى، ثم تستغرق في هلوسات مفتعلة بتسارع واضح يتناغم مع حركة إصبعها، وهو يزحلق حبّات المسبحة التّي تحملها من جهة إلى أخرى، كأنّها منهمكة في ابتهال عميق تناجي ربها به، ولا يمكن أن تخرج من تلك الحالة إلاّ إن كانت تريد أن تزجر طفلاً، أو أن تلعن قريباً، أو أن تنقضّ على طعام أو شراب، دون أن تنسى أن تؤكّد للجميع أن كلّ فعل تقوم به ليس إلاّ في سبيل مرضاة الله تعالى والإحسان إلى النّاس وحسن الخاتمة.

تخفي على الجميع اسمها واسم أسرتها، وتصمّم على أن يناديها الجميع بكنية أمّ الخير، وترفض أن ينادوها بكنيتها الحقيقة، وهي أم شحادّة، وتقول إنّها ترفض أن تُنادى بكنية زوجها الطّبيب المتقاعد برتبة لواء من دولة أخرى؛ لأنّ شحادّة هو ابنه من زوجته الأولى التّي طلّقها منذ أكثر من نصف قرن، أمّا هي فلم تنجب منه؛ لأنّها تزوّجته بعد أن نشف رحمها، وجفّت روحها، وماتت ذكورته موتاً لا بعث له، ولو كانت أنجبت منه عندما تزوّجت به لأسمت ابنها البكر خيراً، ولكانت كنيتها الآن أمّ الخير.

لكن خيراً الابن الحلم لم يأتِ أبداً كما اشتهتْ؛ ولذلك فقد قـرّرتْ أن تتكنّى باسمه حتى يوهب لها في الفردوس حيث المكان الذي تعمل باجتهاد كي تصل إليه، وحتى ذلك الوقت تصمّم على الانتقام من شحادّة وزوجته وطفلتيه الصّغيرتين الشّقراوتين كجـدتهما لأبيهمـا المطلّقـة منـذ دهـر؛ لأنّهـا لـن تغفـر للأرض أو للسّماء أو للبشر أجمعين أنّ عندهم أطفالاً وأبناء، ولـيس عنـدها إلاّ رحمها الجافّ، وأحلام أمومتها التّي لم تتحقّق، ولذلك تكيد له ليل نهار، وتؤذيه ما اسـتطاعت إلى ذلـك سـبيلاً، وتقطـع أوقاتهـا تـدعو عليـه سـرّاً في صـلاتها متضرّعة لله أن ينتقم منه ومن أبيه بجريمة أنّها لم تستطع أن تنجب خـيراً، أمّـا في النّهار والعلن، فتدعو له بالبركة والخير، وتكزّ أسنانها غيظاً عليه، وترقبـه بحقّـد كما غولة تشتهي قرش عظام عدوها بعد نهش لحمـه بأنيابهـا الزّرقـاء، وكلّمـا عاتبها زوجها الطّبيب على إساءاتها لابنه شحادّة ولزوجته ولابنتيـه الصّـغيرتين برمت شفتيها عجباً ممّا يقول، وأقسمت بالله أغلظ الأيمان أنّها لا تبغي إلاّ رضـا الله سبحانه وتعالى والإحسان إلى النّاس وحسن الخاتمة.

جاد القدر علينا، فكان من حسـن طـالعي وأسـرتي أن تكـون أمّ الخـير صالحة الزّمان وقدّيسته جارتنا القدريّة حتى الأبد، وبالغ الحـظّ في الانحيـاز لـي ولأسرتي فجعل أمّ الخير تسكن الشّقة التّي تلصق بشقتنا بواجهة كاملة، وبذلك كان نصيبنا الأوفر في كوكب الأرض في سماع تجديفها وسبابها لزوجها والنّاس في النّهار، وسماع جعيرها اللّيليّ، وهي تبكي طوال اللّيـل طلبـاً لعفـو الله عـن تجديفها النّهاريّ، وتوسّلاً له لينتقم لها من البشر أجمعين؛ لأنّهـا تكـرههم كلّهـم بتهمة حصولهم على أيّ سعادة قد يصيبونها في الحياة؛ وهـي لا تطيـق أن تـرى أيّ بشر يذوق سعادة، ولو كانت بمقدار لحسة إصبع لا غير.

من حسن صنائعها على الجيران جميعهم أنّها تسلّيهم يوميّاً بالجديد من مشاكلها ونكدها وبوائقها المبتكرة في سبّ الجيران، وبالاتّصال بالشّرطة للإبلاغ عن أيّ فرد منهم يبدي فرحاً أو احتفالاً أو يستقبل ضيوفاً أو زائرين أو مهنّئين، أوبضرْب خادمتها الإفريقيّة الطّفلة ضرباً يوجع عظامها، ويدمي قلب كلّ من يسمع صراخها المستنجد دون مغيث، وإن أعيتها الحيلة في إزعاج الجيران والإساءة إليهم، فهي لن تعدم وسيلة في الإساءة إلى أطفالهم الصّغار وترهيبهم وترويعهم، ولو حتى بالدّعاء عليهم بالموت تحت عجلات السّيارات التّي تعبر المكان، وزجرهم كلّما لعبوا بالقرب من بيتها، وسكب الماء عليهم وهم يلعبون الكرة في ساحة العمارة كي تكسر فرحتهم بملابسهم الجميلة، وتنغّص عليهم أوقاتهم، وكم يطربها أن تدخل في شجار عبر النّوافذ مع الجارات عندما تنهر أطفالهنّ! فتغرقهنّ بسيل من الشّتائم، ثم تغرب بعدها في بكاء طويل تتعمّد أن تبتدعه، وهي تجلس على شرفة شقتها كي يسمع الجيران جميعاً قهر آذانهم نهيقها، وهي تبكي، وتحتسب الله عليهم، ثم تلعنهم مراراً، وهي تمنّ عليهم بأنّها لا تريد إلاّ رضا الله سبحانه وتعالى والإحسان إلى النّاس وحسن الخاتمة.

قليل هم سكّان الأرض الذين يستطيعون أن يذبحوا بين يديها أكثر من دقائق من أزمان أعمارهم ليسمعوا كلامها وشكواها ومنّها على العباد الذين تتصدّق عليهم بتالف طعامها، وممزق ملابسها، وقليل إحسانها؛ إذ هي أفضل إذاعة في الكون للمنّ المستمرّ غير المنقطع، فلا أحد مرّ بها في حياته، أو صادفها في سوق أو حفل أو فعاليّة أو مسجد أو شعيرة من شعائر الله من صلوات أعياد أو تراويح أو دروس دينيّة إلاّ ويعرف قصّة كلّ قرش تصدّقت به في حياتها؛ فالجميع يعرف أنّها تتصدّق بعشرة طرود في رمضان توزّعها على الفقراء المنكودين الذين تفضح فقرهم، وتذلّ حاجتهم، ولا يمكن أن تسمح لأحد أن

ينسى أنّها توزّع ملابسها القديمة الممزّقة التّي تصلح أن تكون مّماسح لأرضيّات الحمّامات أكثر من أن تكون ملابس لبشر، فهي أسمال متعفنة يعلوها جلخ تعرّقها المنتن.

أمّا تعاظمها المرضيّ، فيبلغ مداه ومنتهاه في عيد الأضحى؛ فبعد أشهر من تأميل كلّ من تعرف وتقابل بأخذ حصة من الأضحيات، وبعد أن تتشاجر مئات المرّات مع الرّاعي الذي يرعى أضحياتها حتى تكبر، وبعد أن توزّع صور أكباشها على وسائل التّواصل جميعها حتى تغدو أكباشها أشهر من نجوم السّينما؛ فهي تذبحها في كرنفال احتفاليّ تبرز فيه مواهبها في المنّ وتمجيد ذاتها، ثم تشنّ حملة توزيع عملاقة في الحيّ يشارك فيها أطفال الجيران جميعهم مكرهين كي توّزع حصص لحم الأضحيات على الجيران، فلا تعطي أحداً غير قطعة صغيرة واحدة من اللّحم الذي لايكفي لإشباع جوع هرّة وليدة، لكنّه يكفي عندها لتمنّ على من أطعمتهم من الأضحيّة حتى العام المقبل.

ويل لمن تسوّل له نفسه أن ينسى تمجيد قطعة اللّحم التّي أكلها من أضحيتها تمجيّداً موصولاً لعام كامل، فعندها تسبّه وتلعنه، وتلعن من أنجباه، وتطالبه بقطعة اللّحم التّي أكلها، دون أن تنسى أن تمطره بجملتها المعهودة"أنا لا أريد سوى رضا الله سبحانه وتعالى والإحسان إلى النّاس وحسن الخاتمة".

جارتنا أمّ الخير -التّي ألقّبها سرّاً بـجارتنا معدومة الخير- تزعم أنّها أنثى مكتملة الحضور والأداء، وتنسى أن تنظر في مرآتها لترى قامتها الطّويلة مثل قامة ناطور، وتدرك مقدار القبح الذي حفره الحقد في ملامحها، لكنّها تتحسّس دائماً ثديها الذي بتره الأطبّاء كي يمنعوا انتشار السّرطان في جسدها، وتغتنم الفرصة كاملة لتلعن خادماتها الخمس اللّواتي تجزم أنّها أصيبت بالسّرطان بسبب سحر أسود سلّطنه عليها كي ينتقمن منها؛ لأنّها كانت تصمّم على أن

تدعوهنّ إلى الإسلام، وأن تحجبهنّ قهراً، وأن تحفظهنّ القرآن على الرّغم من أنّهن لا يجدن العربيّة أصلاً، ولا يعنيهن من علاقتهنّ بها سوى أن يحصّلن المال كي يبعدن عن أسرهن غوائل الفقر ومكاره الحاجة.

ذكر الخادمات يفتح قريحة جارتنا أمّ الخير كي تعدّ على مسامعنا عدد اللقّم التي أكلنها في بيتها، والملابس المهترئة التّي وهبتها لهنّ من أسمال ملابسها، وعندما تدركها جلالة اللّحظة لا تنسى أن تتفاخر بعدد الصّفعات التّي ألصقتها في وجوههنّ السّمراء الكاسفة، وعدد الرّكلات التّي ركلتهنّ بها، ومقدار الجهد الذي بذلته لصون شرفهنّ متناسية أنّ أحداهنّ هجرت بيتها ليلاً شبه عارية هرباً من ظلمها وجورها وتوحّشها وبخلها لتتلقّفها أيدي تجّار الرّقيق الأبيض، وأنّ أخرى أجبرتها على القبول باغتصاب زوجها المكرور لها كي لا تنفضح القصّة في الحيّ وبين الأقارب والأصدقاء، وأنّ ثالثة طردتها من عملها؛ لأنّها رأتها تنهال بقبلها الحرّى على الحارس النّيجيريّ الذي ينظّف سيّارات العمارة بمكافآة ماليّة أسبوعيّة، في حين كانت تجوّعهنّ، وتجبرهنّ على أكل بقايا طعامها، وتحرّم عليهنّ أكل الفواكه أو الحلويّات أو الحليب أو المكسّرات، لتتبرّع بها للمسجد والفقراء، وتترك الخادمة المسكينة تتضوّر جوعاً وحرماناً.

إنّها فقط تتذكّر أن تؤكّد لنا في جلسة سماعنا الإجباريّة لها "إنّها تبغي رضا الله سبحانه وتعالى والإحسان إلى النّاس وحسن الخاتمة".

لا أحد في الدّنيا يستطيع أن يفهم من جارتنا أمّ الخير لماذا هي على علاقة عداء مع إخوتها جميعاً؟ ولماذا ماتت أمّها غاضبة عليها؟ ولماذا كانت تتحرّش بأبيها لتغيظ أمّها؟ ولماذا هجرها خطيبها الأوّل؟ ولماذا ألصقت جريمة الزّنا بزوجة أخيها كي تسمها بالعار طوال حياتها؟ ولماذا لا صديقة لها في الحياة؟ ولماذا تكره الابتسام؟ ولماذا تكره الصّور الفوتوغرافيّة؟ ولماذا تصمّم على زراعة

الزّهور في شرفتها وهي تبخل عليها بقطرة ما؟ ولماذا تضع زيراً في الشّارع ليشرب المارّة منه، ثم تسبّ كلّ من يشرب منه، وتنهر الأطفال العطاش إذ مرّوا للشّرب منه، وتمنعهم من ذلك؟

لكنّها فقط تجيب عن سبب شجارها الدّائم مع زوجها الطّبيب المتقاعد، وتستقتل كي تفضح معايبه ومخازيه، حتى ما عاد هناك أحد في الكون لا يعرف أنّه بخيل، وأنّه لص مرتشٍ، وأنّه سرق أموال الثّورة، وأنّه تعاون مع عدوّ الوطن، وأنّه هرب من بلده بعد أن ثبتت عليه تهمة الخيانة العظمى، وأنّه قاطع رحم، وأنّه أسلم أحد أخوته الثّوار ليقتله الأعداء، في حين تخلّى عن الثّاني المريض العاجز، وقصر حياته ليكون تابعاً لأخيه الثّالث القاتل المأجور، وأنّه طلّق زوجته الأولى بعدما ضاقت ذرعاً بسوء خلقه بعد زواج قصير أورثها طفلين منه، وأنّه يعيش الآن ليأكل كبعير دون هدف أو عبادة أو صلاح أو خير.

من في الدّنيا لا يعرف أنّ أبا شحادّة زوج جارتنا أمّ الخير يتعمّد أن يتظاهر بالعنّة، ويقصد أن يهجر زوجته جنسيّاً كي يقهرها ويعذبها وفق ما تزعم؟ ومن منّا لم تخبره أمّ الخير أنّها مهوى قلوب الرّجال، ومحطّ شهوة الشّباب والغلمان؟ لكنّها تتعفّف، وتحتسب أمر جوعها الجنسيّ عند الله؛ لأنّها مؤمنة طاهرة شريفة؟

وهي تزعم أنّها لا تكذب أبداً، ومن له أن يشكّك فيما تزعم؟ وهي الغضوب الحقّودة؛ ولذلك يمّثل الجميع أنّهم يصدّقون أنّها نقية كقطرة مطر، وأنّها محبوبة الجماهير، وأنّها تجيد لغات كثيرة، وتتقن علوماً لا حصر لها، وتتوافر على ملكات نادرة، ولو أقسمت على الله لأبرّها من صلاحها.

من له أن يشكّك في قدرتها على قـراءة صـمت البشـر، وإدراك معـاني نظرات عيونهم، وفق ما تزعم؟ لكنّني أستطيع أن أشكّك في ذلك، ولـو بشـكل سريّ، كما أسـتطيع أن أنظـر في عينيهـا بمـلء عـيني دون أن أخشـى أن تسـمع أعماقي التّي تتمّنى من قيعانها العميقة أن تخرس للأبد؛ فلا تسمعها تقول كـذباً وزوراً وبهتاناً: "أنّني لا أريد سوى رضا الله سبحانه وتعالى والإحسان إلى النّـاس وحسن الخاتمة".

روايات موضوعة

"الرّاويات الموضوعة مادّة للكذب الفنّي والمتعة المجّانيّة".

"لا سند ولا متن للرّوايات الموضوعة؛ فجميعها مرفوعة لمولانا الكذب".

(١)
روايتها

روايتها الموضوعة الشّهيرة أنّها أنثى ساحرة، وأنّ زوجها يعشقها حدّ التّتيّم بها، وأنّها أمّ مثاليّة لأولادها الذّكور الثّلاثة، وأنّها معطاءة لكلّ من تعرف ولو كان عابر سبيل أو سرير في حياتها، وأنّها مخلصة لزوجها في غيابه الذي يكاد يغطّي زمن زواجهما كاملاً خلا أشهر قليلة، وتروي روايات منحولة كثيرة عن فضلها على إخوتها، ومحبّتها لوالديها، وتعلّق جاراتها بها، وحسن امتثال أبنائها لتربيتها.

خير وضعيّة لها تتّخذها عندما تروي رواياتها الموضوعة، عندها تنفخ أوداجها، وتأخذ شهيقاً عميقاً، فيمتلئ صدرها بالهواء دافعاً ثدييها المرتجّين مثل قربتي ماء من جلد ماعز قديم، فيبدو ثدياها أكثر تغوّلاً أكثر فأكثر، ويكادان يدانيان ذقنها، أو يرتطمان بشفتها السّفلى التّي تنبرم خارج فمها متلألئة بلميع شفايف من النّوع الفاخر، فتبدو هيئتها مثل من تدلّي ثدييها أملاً في الحصول على قبلة حارّة عميقة من شفتين حارّتين.

في هذه الحالة تتجلّى في نقل رواياتها التّي تصمّم على أن تختمها بخاتمة واحدة مهما اختلف الاستهلال أو العرض، وهي أنّها حمّالة عبء الأهل، وأنّها مقصد الأهل والأقارب، وأنّها ابنة الأصول التّي تصون العشير، وتخدم أهله مهما قست الحياة عليهم، ويطيب لها أن تذكّر صديقاتها المذهولات برواياتها وبثدييها الضّخمين دون توقّف أنّ أغنية "بنت الأصول" تجسّد مكارم أخلاقها.

(٢)
روايته

روايته الموضوعة الشّهيرة أنّه ذكر مثير على الرّغم من أنّ طوله لا يزيد عن متر ونصف، وعندما يقبل مع زوجته التّي هي بطوله تماماً يبدوان مثل قزمين صغيرين قادمين من حكايات الأقزام والأميرة النّائمة.

هو يجيد الزّعم أنّه معبود النّساء، وأنّه يخلص لزوجته على الرّغم من أنّه يغيب عنها طوال أيّام العام مطوّفاً في بلاد الدّنيا ليجني لها المال الذي تحبّ أن تدّخره في البنك باسمها بحجّة أنّها تريد تأمين مستقبل الأسرة، وتخفي عن الجميع ما تملك من قصص مخزية عن خياناته لها، وعن غرامه المرضي بتذوّق النّساء المثيرات اللّواتي لا يملكن أثداء بحجم الجرار الفخاريّة الكبيرة.

لكنّه يتفاخر أمام النّاس بأنّها تحترم أسرته، وتخدمهم، وتقوم بواجباتهم مكمولة غير منقوصة، ويكاد يقسم أنّها ما عرفت رجلاً غيره في حياتها منذ عرفته، ويتجاهل أولئك الأثرياء النّفطيين الذين تتكدّس ذاكرة هاتفها النّقال

بأسمائهم، وتزعم أنّهم زبائنها في العمل، ويتواطأ معها طوعاً على هـذا الـزّعم كي لا يشعر أنّ قامته قصيرة إلى حدّ لا يتجاوز الشّبر.

(٣)
رواية أمّه

الرّاوية الموضوعة الشّـهيرة لأمّـه أنّ كنّتهـا تحترمهـا، وأنّ ابنهـا صـاحب مروءة فضفاضة وشرف دونه إراقة الدّماء، وأنّها مكـان ترحيـب دائـم في بيـت ابنها وزوجته وأبنائهما الثّلاثة، لكنّها تفضّـل أن تعـيش وحـدها هنـا في فنلنـدا حيث البرد والغرباء والوحدة، وذلك كي تعيش حياة مختلفة في شيخوختها بعيداً عن ذكريات عاصمة الجمال والسّحر العربيّ والحضارة حيث وُلدت، وعاشت، وشاخت قبل أن تأتي إلى هنا بقرار من ابنها الوحيد، فيرميها في غرفة باردة تحت الأرض في فنلندا بعد أن صمّمت زوجته الأصيلة بنت الأصول – كمـا تسـمّي نفسها- على أن يخرج أمّه العجوز المعدمة من بيتهما ذي الطّبقات الثّلاث؛ لأنّها تكـره النّسـاء العـواجيز، وتفضّـل أن يكـون بيتهـا مكانـاً لراحتهـا، واسـتقبال صديقاتها التّي تعاملهنّ معاملة قطط الشّوارع؛ إذ تربـت علـيهنّ متـى شـاءت، وتدفع بهنّ إلى الشّارع متى ملّت منهنّ، أو زارهـا عشـيقها سـرّاً في أثنـاء سـفر زوجها.

(٤)

رواية ابنها البكر

الرّاوية الموضوعة الشّهيرة لابنها البكر أنّه يريد زوجة صورة طبق الأصل عن أمّه دون إيّ إضافات أو تحسينات أو زيادات، وأنّه يعشق أنوثة أمّه وطريقتها في الطّهو والتّفكير، لكنّه منذ سافر إلى تلك الدّولة البلقانيّة ليدرس في إحدى جامعاته، وهو يحرص على أن يتذوّق أيّ امرأة أيّاً كانت بشرط أن لا تشبه أمّه، وأن لا يكون لها ثديان كالقربة كما هما ثدّيا أمّه، فلطالما عجب كيف تزوّجها أبوه، وهي في قسمها العلويّ من جسدها تشبه حوتاً يكاد يلفظ ما ابتلعه، في حين هي في قسمها السفليّ من جسدها أشبه ما تكون بماعز شأمّي غزيرة الشّعر.

(٥)

رواية ابنها الأوسط

الرّاوية الموضوعة الشّهيرة لابنها الأوسط أنّ أمّه مثال الشّرّف والعفاف، إنّما ينقصها فقط أن تتحجّب لتكون قديسة أو ناسكّة متعبّدة، ولذلك انبرى يقنعها بأن تلبس الحجاب حتى يستر عريها الفاضح، فيسكت سخرية أصدقائه من لباسها المبتذل، وما استطاع أن يقنعها بذلك إلاّ عندما هاجمتها الشّخوخة ابتداء من تثنّي جلد رقبتها بتقبّض كدر السّمرة.

لكنّه منذ انضمّ إلى تلك الجماعات الدّينيّة المتشدّدة يفكّر دون انقطاع في أن يفخّخ سيّارة والدته، فينثر لحمها في الهواء انتقاماً لأبيه من خياناتها الموصولة له، وتطهيراً لنفسه من عار بنوته لأمّ مثلها.

(٦)
رواية ابنها الأصغر

الرّاوية الموضوعة الشّهيرة لابنها الأصغر أنّه يريد أن يسير على هدي أخويه في سيرتهما الحياتيّة والأكاديميّة، وأن يعيش مثلهما في الغرب ليدرس، ويعمل، ويعاين حياة التّحضّر، دون أن يتخلّى عن تعاليم دينه وقيم مجتمعه وتربية والديه لثلاثتهم.

يصبّر نفسه بصعوبة حتى ينتهي من مرحلة الثّانويّة العامّة، ليلحق بأخويه، ويعبّ ممّا يعبّان منه من المتع التّي يحدّثانه عنها لا سيما النّساء السّهلات المنال اللّواتي يسرن في الشّوارع دون ارتداء ملابس داخليّة.

(٧)
رواية الأقارب

الرّاوية الموضوعة الشّهيرة للأقارب أنّهم يفخرون بالأسرة المثاليّة التّي تتكوّن من تلك الزّوجة المثاليّة التّي تجيد التّشدّق بنجاحاتها في حياتها الأسريّة،

ومن ذلك الزّوج المحبّ المخلص الذي يضع صورة زوجته على واجهة جهاز اتّصاله النّقّال في حين يخفي صور عشيقاته في ملف إلكترونيّ سريّ يفتح ببصمة إبهامه، ومن الأبناء الثّلاثة المثاليين المتفوّقين في دراستهم، والبارّين بوالديهم، والمحافظين على عفّتهم وشرفهم ومبادئهم مهما كانت المغريات التّي تعصف بشبابهم العاتي.

(٨)
رواية الجارات

الرّاوية الموضوعة الشّهيرة للجارات أنّهنّ يحببن مجالسة جارتهم الزّوجة المخلصة ذات الثّديين القربتين، لكنّهنّ لا يجدن الوقت الكافي لذلك؛ لأنّهن مشغولات بإبعادها عن أزواجهنّ الذين يشتطّ لعاب أحدهم عندما يرى جارته المخلصة الفيلسوفة تتمايل مرقصة ثدييها وردفيها بتتالٍ منظّم خبير.

(٩)
رواية الرّاوي

الرّاوية الموضوعة الشّهيرة للرّاوي أنّه يروي على ذمّة من روى، وأنّه بريء من الطّعن أو القذف أو الرّذيلة أو التّحامل على أيّ أحد كان.

(١٠)

رواية المروي لهم

الرّاوية الموضوعة الشّهيرة للمروي لهم أنّهم يكرهون الرّاويات القادحـة بالأعراض والذّمم والأفعال، وأنّهم يتركون العباد لربّهم.

(١١)

رواية الرّاوية

الرّاوية الموضوعة الشّهيرة للرّواية أنّها بريئة من كلّ ما يُروى، ويُقال، وأنّها تريد أن تنام دون وجع ضمير أو تكسير عظام.

كلّه تمام

"عليكم جميعاً أن تقرّوا أعيناً؛ فكلّه تمام"

"مصدر مسؤول صرّح أنّ كلّه تمام"

هو صحفيّ كلّه تمام كما ينعته زملاؤه في العمل سخرية منه، واحتقاراً لولعه المجنون بالتّدليس والتّزوير والملق، لكنّه لا يبالي بنعوتهم وأفكارهم وآرائهم به وبكتاباته وبتغطيته الصّحفيّة وبأخلاقه القزمة؛ طالما أنّه قد استطاع أن يصل إلى السّادة والمتنفّذين، وأن يكون في صدارة الإعلام المأجور الرّخيص الذي يدرّ المال عليه كما يشتهي، ويحلم، وهو المتواضع المواهب، الضّيق الأفق، القاعد في مروءته وأخلاقه وصدقه ونبله.

لكنّه الأسعد في حياته التّي اتّخذ لها منهجاً يمكن تلخيصه في جملة كلّه تمام، وهذا المنهج ينتصر للتّهليل والتّطبيل والتّصفيق للصوص والظّالمين والسّارقين والفاسدين بقدر ما يرشقون وجهه الصّفيق بالمال والعطايا التّي لا يمانع من أن يلتقطها من عند أحذيتهم ما دامت سوف تؤول إلى جيبه البئر الأسطوريّ التّي تبتلع كلّ ما يدخل فيها، دون أن يسمح بأن يُنتشل منها قرش واحد.

اختطّ منهج كلّه تمام في خضرة طفولته، وثم نمّاه في صباه وشبابه حتى أصبح شعاره المقدّس، ودينه وملّته؛ ففي طفولته عرف النّفاق، واستخدمه جيّداً في البيت، وآتى أُكله موفوراً طيباً شهيّاً.

والداه أوّل من تعامل معهما بهذا المنهج الحصيف؛ فتعلّم أن ينـافق أمّـه في كلّ ما تسأل، فكان ابنها المدلّل الذي يمطرها بـالكلام الجميـل المنمّـق المعسـول المنافق؛ فهي وفق نفاقه أجمـل امـرأة، وأعظـم زوجـة، وأفضـل مربيّـة، وسـيّدة النّساء، وجوهرة الأسرة، وأيقونة الأقارب، وجامعة المناقب جميعها، وهي منزّهة عن أيّ منقصة أو خطيئة أو عيـب؛ لـذلك اسـتحقّ منهـا شـتّى أنـواع التّـدليل والاختصاص بالمال والهدايا والطّيّبات والإعفاء من أعباء المساعدة في الأسرة.

فيما بعد اسـتخدم مـنهج كلّـه تمـام مـع أبيـه وأخوتـه ومعلميـه وأقاربـه وزملائه، حتى ما ترك بشراً إلاّ ونافقه، حتـى أنّـه كـان يهـوى نفـاق الأمـوات والشّخصيّات الخياليّة، فيلصق بهم كلّ فضل لم يكن لهم.

لقد طبّق الآفاق بشهرته بالنّفاق، لكنّه ما بالى بذلك؛ ما دامت تجارته رائجة مقبولة، مهما آذى ذلك من بشر، وخـدع مـن آخـرين، وحـرم مسـتحقّين مـن حقوقهم، وضلّل الحقيقة، ونصر الزّور.

في نهاية الأمر أصبح مدرسة قائمة بحدّ ذاتها في النّفاق الذي أجمله في عبارة كلّه تمام، وهذا المنهج جعله يقفز قفزة مستحيلة من صـبيّ خـدمات في مقصـف الصّحيفة الأولى في الدّولة إلى رئيس تحريرها في مدّة زمنيّـة قياسـيّة، لكنّهـا مـدّة زمنيّة ملعونة مزحومة بمقالات وأخبار كاذبة يختمها جميعاً بعبارته اللّغز كلّه تمام، حتى خُصّص له عامود يوميّ في الصّحيفة الوطنيّة التّي يرأس تحريرها تحت هذا الاسم الثّابت، وقد جعله حكراً على مناقشة ودراسات وتعقيبـات علـى أمـور عامّة تشغل الرّأي العام، وكم دلّس في هذا العامود! وجـافى الحقيقـة، وحصـد الفوائد الجمّة مقابل ذلك من الأسياد الذين يصفهم بعبارة أهل فوق، في حـين جنى احتقاراً شعبيّاً يكفي لأن يقتـل جاموسـاً برّيّـاً بطاقـة نظـرات الاشمئـزاز

والاحتقار الموّجه إليه، إلاّ أنّه لم يعدم وجود الكثير من المعجبين بـه، والمقلّـدين له، والسّائرين في دربه السّهل الصّعب في آن.

كم أغرق في الضّحك حدّ الوقوع على قفاه، وهـو يـروي لمريديـه وطلبتـه فنون نفاقه، وأطرف قصص ملقه التّي يصنعها ليصوغ أكاذيـب تكفـي لطمـس الحقائق، وتنتصر للكذب والخديعة والسّرّاب؛ فهو ما يزال يروي بافتخار قصّـته مع النّاس الفقراء الذين يعيشـون في المقـابر لضـيق ذات أيـديهم، وضـيق ذات قلوب البشر الذين لم يرحموا فقرهم وعوزهم، عندها قام بتغطية إعلأمّيـة كـبيرة عن الأمر تحت عاموده اليوميّ كلّه تمام، وعدّ الوضع اعتياديّاً، وفكرة رائدة مـن أجل حلّ مشكلة أزمة السّكن، وتجاوز معاناة أولئك المنكـودين الأحيـاء الـذين يشاركون الأموات مقابرهم عندما ضاقت عليهم قلوب البشر.

عندما كتب عن قضيّة الرّواتب الضّـئيلة للمنتسـبين إلى الجـيش ورجـال الأمن والدّفاع المدنيّ دعاهم إلى قبول فقرهم وعوزهم والتّضـحية بـأيّ رفاهيّـة إنسانيّة قد يحصلون عليها مقابل أن يخدموا الوطن الـذي كـلّ شـيء فيـه تمـام، والمغرضون هم من يحاولون أن يشوّهوا أمنّه عبر زعمّهم أنّ هناك مشكلة ما.

أمّا عندما كتب عن ظاهرة أطفـال الشّـوارع واللّقطـاء فقـد نأشـدّ المجتمـع بإطلاق الرّصاص عليهم بوصفهم كلاب ضالّة تزحم شوارع العاصمة، وتهـدّد أمن الدّولة وحركة السّياحة، ويجب التّخلّص منهم سريعاً وبـأرخص الأثمـان؛ ليعيش الأقويـاء والنّخـب في المجتمـع براحـة، في حـين لا مكـان فيـه للضّـعفاء والعاجزين. وهذا الرّأي البشـع أضـحكه بقـدر مـا أبكـى غـيره مـن الأطفـال المعدمين المنبوذين.

عندما ملأت القمامة الشّوارع لم يهاجم –وفق المتوقع- المسؤولين عن ذلك في دوائر خدمة البلديّات والعاصمة والأقاليم، بل نادى بأن يقوم المواطنون بعمليّة التّنظيف، ونقل قمامتهم إلى مدافنها في الصّحراء، ليتفرّغ السّاسة لحياتهم المرفّهة دون أحقاد الفقراء عليهم، أو اعتراضهم على ملذاتهم المنهوبة من أقواتهم وأعمارهم ومستقبلهم ومستقبل أبنائهم، وشدّد على المطالبة بذلك لا سيما عندما أهداه كبير خدّام دائرة المدينة سيّارة فارهة لم يحصّل أيّ منافق في البلد على واحدة مثلها؛ فلا أحد يملك قدرته على الكذب والرّياء والافتراء وتزوير الحقائق.

لقد ارتقى فيما بعد أرفع المناصب الإعلاميّة والتمثيليّة الرّسميّة عن الجهات المسؤولة عن صنع القرار بفضل منهجه العتيد في النّفاق الذي بروَزه بمقالة خاصّة عن مثاليّة الحياة في عاصمة الوطن؛ وانطباق أحوالها جميعاً على فرضيّة كلّه تمام التّي صنعها من الوهم والافتراء ومدامع المحرومين؛ إذ رأى أنّ تهاوي البنيّة التّحتيّة في المدينة منهج لتكريس فكرة حفاظها على شكلها الموروث لأجل دعم السّياحة، فيما رأى أنّ سقوط المباني لمخالفتها شروط البناء، هو نوع من المفاجآت غير السّارة التّي لا يجوز ملاحقة من قام بها من بنّائين ومقاولين ومهندسين ومالكين ومرخّصين ومتستّرين على التّجاوزات في البناء خوفاً من أن تُهجر البلد من قِبل المواطنين المستثمرين وأصحاب رؤوس المال من المستثمرين إنّ تمّ التّضييق عليهم ومحاسبتهم على الأخطاء الصّغيرة، مثل سقوط المباني على ساكنيها من البشر.

أمّا الجوع والفقر والبطالة والدّعارة المستشرية في الوطن، فهي –وفق رأيه- نوع من أنواع مواكبة الموضة العالميّة، والسّير ضمن موجات القلق

الكونيّـة، وتنشـيط لحركـة السّـياحة، في حـين أنّ مطـاردة العلمـاء والأشـراف والمطالبين بالحرّيات هو تمثيل لإرادة الله في قتل كلّ من يخرج على أمر السّلطان.

لقد أصبح صوتاً للقتل والتّعذيب والتّنكيل بالأحرار، كمـا غـدا عـاموده الصّحفيّ اليوميّ كلّه تمام مثالاً للتّهريج والتّنكيـل بـالوطن والمـواطن، ومؤشـراً صادقاً على احترافه لقلب الحقائق؛ لذلك ظلّ يكتبه لسنين طويلة ما دام يحظـى برضا أسياده الذين عدّوه صوتهم المدوّي المخرس لكلّ غضب شعبيّ، أو سخط وطنيّ، أو اعتراض نبيل من المصلحين والمربّين وأهل الذّمة والصّلاح.

ظلّ يعتقدُ أنّ كلّ شيء تمام ما دام هو في خير وغناء ونفوذ، حتى عندما فتك مرض التّصلّب اللّويحي المتعدّد بجسده، وشلّ يديه فضـلاً عـن شـلّ سـائر أعضاء جسده، وحرمـه مـن المتعـة والشّـهرة والتّـآمر علـى الأبريـاء والشّـرّفاء وأصحاب الحقوق، ظلّ يبتسـم بـذل مبتـذل، ويقـول بتلعـثم واللّعـاب ينـدلق خارجاً من زاويتي فمه: "كلّه تمام".

أكاذيب الوسط

"عندما يتّسخ حيّز ما يسمّونه وسطاً".

"المقدّمة والمؤخّرة ليستا أقلّ كذباً من الوسط"

(١)

باب مغلق

لم يستطع الكاتب الموهوب المبتدئ أن يجد له موطئ قدم في الوسط الذي يريد أن ينتمي إليّه على الرّغم من موهبته الفذّة، وغزارة إنتاجه المحبوس قسراً في مخطوطات لم يُقدّر لسطر منها أن يرى النّور في نشر ما، لكنّه كلّما قصد باباً ثقافيّاً صُكّ في وجهه بمنقصة أنّه لا يملك القدرات المطلوبة للقبول به في ذاك الوسط.

(٢)

تسعة فقط

الوسط يضجّ بجيش من الأعضاء والمنتمين والممثّلين والهواة والمحترفين، لكن لا حاجة لهم في ظلّ وجود أصحاب الوجوه التّسعة الذين يملكون كامل

المواهب والقدرات والخبرات، ويتواجدون بقدرة خرافيّة في كلّ مكان، حتى أنّ الواحد منهم يستطيع في آن أن يزور مكاناً، ويشرف على آخر، ويزور دولة شقيقة، ويمثّل مؤسّسته في مهرجان ما، ويشارك في افتتاح مؤتمر دوليّ، ويكتب قصيدة، ويلاعب أسداً في قفص، ويشارك في مظاهرة، ويستشهد في حرب في لحظة واحدة، ولا عجب في ذلك؛ ف هو وجه من الوجوه التّسعة التّي تستطيع أن تقوم بالعجائب.

(٣)
اختلاف أذواق

عندما يقدم مادّة لنشرها في تلك المجلّة التّي ترأس تحريرها تلك الكاتبة العجوز المتصابية ترفض أن تنظر فيها، ويغمزه أحدهم ساخراً: "هي تفضّل النّساء بعد أن شبعت من الرّجال".

عندما يقدم مادّة لنشرها في تلك المجلّة التّي يرأس تحريرها ذلك الكاتب العجوز المتجعّد يرفض أن يستقبلها منه، وتغمزه سكرتيرته بغنج وتشفٍ به، وهو يجرجر نفسه خارجاً من المكان بانكسار وغيظ: "الرّجال يفضّلونه".

(٤)

أُكسجين

بشهادة الجميع هي مبدعة الوسط، يتحدّثون سرّاً عن أفانينهـا الإبداعيّـة السّرّيّة التّي عاينها الكثيرون بطرقهم الخاصّة، وكي يخلدونها يزرعون شجرة لها في حديقة أدباء الوطن؛ ليتنفّس المواطنون من أكسجين إبداعها العكر.

(٥)

داعم المبدعين

يحاول أن يقنع من يقع في دربه من أغرار المبدعين أنّ الحرّيّة في الفكـر لا بدّ أن تمرّ بالجسد، وعندما يعاينون هذا الطّريق بشكل عمليّ يكتشفون أنّه طريق مفتوح من الجهة الأخرى على المستنقع الذي اسمه وسط.

(٦)

رصيف

بعضهم ينعته بالمتّخلّف؛ لأنّه يغضّ الطّرف إن بدا لـه منكـراً أو كُشـف أمامه ستر ما، وآخرون يسخرون من التزامـه بالصّـلاة علـى وقتهـا، وكـثيرات وصفنه بالعنين؛ لأنّه لا يطأ حرامـاً، وتلـك السّـكّيرة وصـفته بالإرهـابيّ؛ لأنّـه

يرفض أن يقبّل الزّميلات في الوسط، والجميع أجمعوا على أنّ مكانه على الرّصيف بائعاً للملابس القطنيّة للمارة؛ لأنّ لا مكان في الوسط للمتخلّفين بإرادتهم الشّخصيّة.

(٧)
واقعيّة

ينادي بالانطلاق في الإبداع من التّجربة الشّخصيّة، وتعجبّه نساء الوسط اللّواتي يؤمنّ بمنهجه الحياتيّ العمليّ.

(٨)
إبداع

هو أهمّ روائيّ، هي أهمّ شاعرة، وصديقهما المشترك المخنّث أهم ناقد في الوسط، إنّهم فخر للجميع، ومحور اهتمامهم، إبداعهم في تزايد، والجميع في انتظار مزيدهم المبهر، إلاّ أنّ القلّة يعرفون أنّهم لم يكتبوا بعد كلمة واحدة في السّرّد أو الشّعر أو النّقد، لكن عندهم كفاءات أخرى نافعة لمتع غيرهم.

(٩)
قامات عالية

ما يزال إعلاميّاً مبتدئاً لا يعرف من أعراف العمل الإعلاميّ سوى تلك الدّروس الأكاديميّة البحتة التّي تلقّاها في الجامعة، لكن رئيسه الإعلاميّ الشّهير وضّح له أنّ قامات سامقة تعني رجال يلبسون بذلات فاخرة بياقات مرتفعة، ونساء تنتعل أحذية بكعوب أنثويّة مرتفعة.

(١٠)
جلد

قبّلت حبيبها ألف مرّة في الرّاوية التّي كتبتها، وأنجبت من غير زوجها في الفصل الأخير منها؛ لذلك قد قرّر المجتمع أن يرجمها حتى الموت بتهمة زنا المحصنة.

(١١)
عشق

كتب ألف قصّة عشق في حياته، لكن لا قارئ واحد عشق أيّ قصّة من قصصه الألف.

(١٢)
جدّة

إنّها تكتب طلاسم نثريّة عن عجائب جسدها، وسحر شبابها الزّائل منذ دهر، وتدعو علانيّة إلى أن يذوقها كلّ من يشتهيها، لكن عندما يبصرها المدعون إليها يتذكّرون جدّاتهم المتوفّيات ووجوب تأدية صلاة العشاء في وقتها، والتّرحّم الطّويل على أرواح أمواتهم.

(١٣)
مثقّف كبير

هو عاطل عن العمل منذ مدّة طويلة، وأخيراً أشفق عليه عمّه اللّئيم صاحب العلاقات الواسعة، وقرّر أن يعينّه مثقّفاً كبيراً في وسط ما مع مياومات كاملة في سفره خارج الوطن وحوافز صعوبة مهنة.

(١٤)
خبير متابع بشدّة

هو متابع لكلّ جديد يُنتج في الوسط، وغدا خبيراً معتمداً ومتمرّساً في هذا الشّأن، حتى أنّه بات يكتب تقاريره ومقالته عن الجديد الصّادر دون حتى أن يراه، أو أن يطّلع عليه.

(١٥)
ناقد

لم ينجح في أن يكتب قصيدة، أو أن ينسج قصّة، أو أن يكتب عالماً في رواية؛ لذلك قرّر أن يصبح ناقداً ينتقم ممّن استطاعوا ذلك ببراعة واقتدار.

(١٦)
عمل خارق

العمل الإبداعيّ التّافه هو عمل لا يعرف صاحبه، والعمل الجيّد هو عمل إبداعيّ دعاه كاتبه إلى غداء أو عشاء، أمّا العمل الخارق، فهو عمل دسّ صاحبه في جيبه ورقة نقديّة من أكبر فئة؛ ليكتب نقداً عنه.

(١٧)
ناشط في الوسط

يفضّل أن يتمدّد أمام التّلفاز، أو أن يلاعب حفدته، لكنّ زوجة ابنه القاسية تضجر من وجوده في البيت، ولذلك قرّر أن يصبح ناشطاً في الوسط؛ ليجد مكاناً يستقبله في كلّ يوم دون انزعاج من وجوده.

(١٨)
متعدّد المواهب

يفرض نفسه بمنطق التّسوّل على كلّ مكان في الوسط، ويجنى عشرات الرّواتب من عشرات الوظائف المختلفة فيه، حتى أنّه يكتب عاموداً ثابتاً في مجلّة نسائيّة بعنوان "الولادة السّهلة للنّساء"، وهو النّاطق الرّسميّ باسم منظّمة السّناجب السّعيدة، ويكتب خطابات النّساء البرجوازيّات المسنّات المحتجّات لدى المنظّمات العالميّة ضدّ قتل الحيوانات لأجل فرائها.

(١٩)
نقابيّ عتيد

لا أمل له بأن يحظى بأيّ مقعد في انتخابات الوسط؛ فهو في منزلة كلب أجرب عند الجميع لسوء أخلاقه، ولذلك قرّر أن ينتزع المقعد بالتّسوّل الحرّ؛ إذ أقنع الجميع بأنّه يعيش الفصل الأخير والصّغير من حياته بسبب مرض عضال ألمّ بقلبه الضّعيف.

فانتخبه الجميع في الوسط تحقيقاً لأمنيته بأن يكون نقابيّاً إداريّاً ولو لمرة واحدة قبل أن يموت، ويرتاحوا من جربه الملازم له.

(٢٠)

معجب كبير

حدّثها طويلاً عن إعجابه بأدبها وجمالها وثقافتها وسحرها وحضورها وآلاف الأشياء المفترضة فيها، ولم تستطع أن تتخلّص منه إلاّ عندما داينته خمسة دنانير كي يأخذ سيّارة أجرّة، ويعود بها إلى بيته.

(٢١)

إسهال إبداعيّ

تشافى من عدّة أمراض منذ أن حصل على تأمين صحيّ مجانيّ في الرّابطة الثّقافيّة التّي انتمى إليها منذ سنوات، لكن هذا التّأمين الصّحيّ الشّامل لم يستطع أن يشفيه من مرض الإسهال الإبداعيّ الذي يعاني منه، ويجعل الجميع يعانون ممّا ينتجه لهم.

(٢٢)

رواية الصّمت

أصدر رواية كاملة فارغة الصّفحات، وأسماها رواية الصّمت حيث لا كلمة واحدة مكتوبة فيها، وصديقة النّاقد المأفون المنافق كتب دراسة نقديّة عملاقة عن جرس الكلمات في هذه الرّاوية.

(٢٣)

أشجار منتصبة

هو عظيم الثّورة والتّمرد فيما يكتبه قلمه، ويزعم أنّه يؤمن بأنّ الأشجار الأصيلة تموت منتصبة، لكنّه بعيداً عـن الجعـير في أدبـه، فهـو يهـوى الانبطـاح المريح والآمن في الحياة؛ ولذلك يكثر من شراء الأرائك والأسرّة والسّجاد.

(٢٤)

أبو لسان

لا يجيد اللّفظ، ويبصق رشّاشاً من اللّعاب في وجه من يكلّمه، فيهـرب الجميع من الحديث معه كي لا يبلّلهم ببصاقه وهرائه، وكي يبعدوه أكثر ما يمكن عيّنوه متحدّثاً دوليّاً باسم الوسط كي يبلّل الوسط الدّوليّ كلّه ببصاقه.

(٢٥)

ديك المزبلة

كذبته المكرورة هي أن يخبر المرأة التّي تنتمي حـديثاً للوسـط أنّهـا طفلـة كبيرة، تلاعب الموجات، وتجمع الأصداف، وأنّه يشتهي أن يشرب النّبيذ بفـردة حذائها الأنيق.

عندما تضحّك المرأة التّي يقذف عليها كذباته المعتادة، يخبرها بأنّه حسّاس، وأنّه يشعر بها كما لو كان عصفوراً يطير من صدرها، ويدعو في سرّه أنّها لم تسمع -بعد- أحداً من الوسط يناديه بلقبه الشّهير: ديك المزبلة.

(٢٦)

القفل المشلوع

حياته سلسلة من الوضاعة والفشل والإخفاقات والعيش على الهامش، لم يملك منها سوى بعض الشّعر الذي ورثه عن أمّه التّي كانت تعمل لطّامة، وجدّته لأمّه التّي كانت تعمل ردّاحة مأجورة، وكي يقنع البشر أجمعين بأنّه سليل الدّم الأزرق؛ فقد كتب عن نفسه سيرة فروسيّة، واسمها القفل المشلوع.

(٢٧)

قلم كلب

يملك قلماً سيفاً يقطع باتراً إن هاجم به، لكنّه قلم كلب لا يتبع إلاّ من يقدم له عظمة، أو يلوّح له بقطعة لحم.

(٢٨)
غربة

يعيش غربة دائمة في بيته وأهله ووطنه، فقط عندما يكتب الشّعر يعيش الوطن فيه.

(٢٩)
هديّة

هو يكتب لها أشعاره العاشقة بماء روحه، وهي تعيد كتابتها على ورقة بقلم حبرها الأزرق الجافّ، وتثبتها في طاقة الزّهور التّي تهديه بشكل يوميّ لجارها الذي تعشقه منذ سنوات.

(٣٠)
بلاد

يصرّ على أن يستخدم في أمسياته الأدبيّة عبارة أنّ قلبه بلاد لم يعش فيها، وينسى أنّه لم يعش فيها؛ لأنّه كان يعجّ بالنّساء اللّواتي فتح قلبه فندقاً رخيصاً لهنّ.

(٣١)
تأبين

إنّها المرّة الوحيدة التّي أحبّوه فيها بصدق؛ لأنّه مات، ورحل عن العالم مجبراً، وترك الدّنيا لهم؛ فموته جعلهم يسامحونه على تميّزه، وتقدمه عليهم.

الآن فقط لم يعد مزعجاً لهم، ولهم أن يمثّلوا جميعاً أنّهم كانوا أصدقاءه، والأحبّ إلى قلبه المكلوم بكيدهم، وحقدهم عليه، وحسدهم له.

(٣٢)
الجسد

إنّه أهمّ متخصّص في القضايا التّاريخيّة في الوسط، لكن عندما تقع عينيه على الجميلات من الحاضرات يغدو -على حين غرّة- معنيّاً بالجغرافيا.

(٣٣)
كذّاب

إنّه كذّاب بامتياز، ولا يستطيع أن ينطق بجملة دون كذب وتلفيق وتزوير، وعندما يواجهه الآخرون بكذبه، يهزّ منكبيه دون مبالاة، ويزمّ شفتيه الزّرقاوين،

ويقول بثقة: "وَالشّعراءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ، أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كلّ وَادٍ يَهِيمُونَ، وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ".

(٣٤)
رسائل

لقد كانت تكتب الرّسائل له دون توقّف، لكنّها كانت أجبن من أن ترسلها إليه.

عندما تزوج من امرأة أخرى تملك الجرأة لترسل إليه الرّسائل التّي كتبتها له، قامت بجمع ما كتبته له في الزّمن المنصرم المؤلم، ونشرته في كتاب ذي غلاف جريء، وكتبت في صفحته الأولى "قصص من وحي الخيال، لا صلة لها بالواقع".

(٣٥)
قُبح

عنده منهج ثابت في الإبداع؛ إن نجح عمله الإبداعيّ، فهو يتفاخر بأنّه من بنات أفكاره وأحاسيسه وتمرّسه الابتكاريّ، وإن أخفق، وُعدّ عملهُ سقطةً له، تبرّأ منه، وقال إنّ هذا العمل ليس أكثر من مماثلة جريئة لقبح المجتمع.

(٣٦)

مجاملات سيّدي

كانت أموره تسير جيّداً في الوسط، كان محبّباً إلى الذين يديرون الأمور فيه، ويوزّعون مكاسبه بمنطق المحاصصة، إلى أن فقد في حادث مشؤوم موهبته الأصيلة في القدرة الكبيرة على المجاملات، ومنذ ذلك الوقت سار وضعه في الوسط إلى الانكماش والانحسار حتى طُرد من الوسط كلّه؛ لأنّه خسر قدرته العملاقة على المجاملات يا سيّدي.

(٣٧)

ناشطة إلكترونيّة

هي تحتّل رتبة وسطى ما بين الحقيقة والوجود الافتراضيّ في العالم الإلكترونيّ، وتصمّم على أن تسمّي نفسها ناشطة إلكترونيّة، ولا أحد يستطيع أن يحدّد بالضّبط ما قصدها بمصطلح ناشطة إلكترونيّة، لكنّها تغرق صفحته البائسة في "الفيس بوك" بعدد مهول من الهمز واللّمز والإعجابات الإلكترونيّة ذات الإبهام المصفرّ المشرع على أيّ تعليق يكتبه ذلك الأديب المخضرم قليل الودّ والخبرة مع العالم الافتراضيّ.

وتلك النّاشطة الإلكترونيّة اللاصقة في صفحته لا يمضي يوم إلاّ وتكتب عن مدى افتتانها الكبير بشعره الجميل الذي تزعم أنّها قرأته كلّه بيتاً بيتاً،

وشطراً شطراً، وتتوّجه مرّة تلو الأخرى بلقب ملك الشّعراء، وهو يصمت على مضض إكراماً لإعجابها الإلكترونيّ الملحاح، ويخجل من أن يخبرها بأنّه روائيّ، ولم يكتب الشّعر في حياته.

(٣٨)
نسخة على سبيل الإهداء

يضطر إلى أن يدّخر المال من راتبه التّقاعديّ الهزيل كي يشتري نسخاً ورقيّة من ديوانه الشّعريّ الأخير كي يذبّ بها العرق المتصبّب من جبينه خجلاً وانزعاجاً كلّما صمّم قريب أو نسيب أو صديق أو زائر لبيته على أن يستهديه نسخاً من ديوانه الجديد، فيوقعّه له بمداد قهره وغيظه، ويتمنّى له قراءة سعيدة له، وهو من يعرف أنّ ديوانه سيحظى برقدة طويلة على رفّ ما في خزانة مهجورة دون أن يُقرأ، أو يُمسّ، أو يحرّك من مكانه الخالد فيه.

(٣٩)
جيش

يستعرض المرشّح الجديد لمنصب رئيس الوسط قائمة طويلة تضمّ أسماء جيش عملاق من أعضاء الوسط، يشطب بقلمه الحبّر أسماء الذين لم يسدّدوا اشتراكهم السّنويّ، ويسبّهم بأقذع السّباب؛ لأنّهم خذلوه بعدم تسديد

اشتراكاتهم، فأصبح من المستحيل أن يشاركوا في انتخابات الوسط، في حين بدأ يحصي المسدّدين عدداً؛ ليستعين بهم في الحرب الوحيدة التّي يشاركون فيها، وهي حرب الانتخابات السّنويّة في الوسط.

(٤٠)
رحلة ثقافيّة

جهة رسميّة مسؤولة تبنّت إقامة رحلة ثقافيّة موسميّة لأجل احتضان المبدعين في ربوع الوطن لعلّ احتكاكهم المباشر مع سحر طبيعة المكان يفجّر فيهم كثيراً من الإبداع، وبعضاً من الحفنات من الوطنيّة.

الكثيرون من أعضاء الوسط قد شاركوا في هذه الرّحلة الثّقافيّة التّي تبادلوا فيها خبراتهم بشكل عمليّ وعلنيّ عن كيفيّة العراك والتّشاحن والتّخاصم في أحضان الطّبيعة الخلاّبة للوطن.

(٤١)
نزاهة

الجائزة التّي نظّمها الوسط مراهن على نزاهتها وحياديتها، وإمعاناً في الحفاظ على نزاهتها وعدم تدخّل أيّ طرف في عمليّة التّحكيم فيها؛ فقد حدّد

المنّظمون للجائزة أسماء الفائزين بها حتى قبل الإعلان بشكل رسميّ عن ولادتها وشروط الاشتراك فيها.

(٤٢)
تحاميل إبداعيّة

لطالما سمعت أنّ الإبداع في الوسط مصاب بصداع دائم؛ لذلك قرّرتْ أن تبتعد عن الرّأس المصدوع، وأن تكتب تحاميل إبداعيّة سهلة الاستعمال تتكوّن من بضع كلمات في كلّ صفحة، وأسمتها: "دُق بلحي".

(٤٣)
أوراق ميّت

لطالما رأى ذلك العنوان على المخطوطة التّي في يدي ذلك الأديب العجوز المدفوع عن أبواب الوسط؛ لأنّ لا جمل أو ناقة عنده تُرتجى عند متنفّع ما، لقد غاب العنوان عنه منذ زمن، لكنّه يراه من جديد في طبعة قشيبة بدعم من جهات رسميّة كثيرة تكفّلت بنفقات نشره، ومطرّز عليه اسم شخص آخر من الوسط غير اسم ذلك العجوز المبدع الذي طالما حمل هذا العنوان دون أن يُقبل ناشر بنشره له باسمه.

(٤٤)
صالون أدبيّ

كانت صاحبة الصّالون الأدبيّ الشّهير في الوسط بين خيارين لا ثالث لهما؛ إمّا أن تعلن عن حاجتها إلى راع للصّالون يمدّه بالماء والشّراب والحلويّات والفواكه كي لا يفارقه الرّواد الذين يقصدونه طلباً للظّلّ والماء والطّعام، أو أن تحوّله إلى صالون حلاقة مختلط.

بعد دراسة جدوى للحالة أعلنت عن تخفيضات مغرية على أسعار الخدمات في صالون الحلاقة المختلطة الذي ستديره بخبراتها الثّقافيّة.

(٤٥)
سفر

إسهاماته الجليلة في الوسط تنحصر في أخذ مياومات سفر كاملة عن كلّ مؤتمر يحضره خارج البلاد باسم الوطن، ويحطّم فيه الأرقام القياسيّة في الأكل والشّرب والنّوم والزّنا لأجل رفع اسم الوطن عالياً في المحافل العالميّة.

(٤٦)
مفكّر كبير

لقد استهلك المناصب الرّفيعة جميعها الموجود في الوسط، وعندما دخل مرحلة الخرف بسبب تقدّم سنّه، وطول مجاورته للسّخافة والسّخفاء، أنعم الوسط عليه بأرفع لقب يملكه، وهو لقب مفكّر كبير.

(٤٧)
أكاديميّ متخصّص

يصمّم على أنّه قد حصّل شهاداته العليا الأخيرة بنزاهة وشرف خالص، حتى وإن لم يكن هناك وجود على خارطة الجغرافية لجامعته التّي تخرج فيها، وينزل علمه الرّفيع الذي حصّله في تلك الجامعيّة الوهميّة على نظرياته المتخصّصة والشّهيرة في الوسط، وهي نظريات تبدأ من دراسة سيمياء أحذية المسؤولين، انتهاء بالوصول المرجو إلى دراسة تفكيكيّة وتكسيريّة لرؤوس المبدعين الحقيقيّين.

(٤٨)
ملتقى إبداعيّ دوليّ

لا يمكن أن يفوته حضور فعاليّات أيّ ملتقى إبداعيّ دوليّ؛ لأنّه يتضمّن وليمة غداء أو عشاء مفتوحة، أمّا الملتقيات الإبداعيّة الوطنيّة، فهو لا يحضرها أبداً؛ لأنّها تكتفي بتقديم ضيافة هزيلة مكوّنة من القهوة والشّاي والنّوع الرّديء من المعجّنات السّاخنة أو حتى الحلويّات الباردة.

(٤٩)
زوّار سمجون جدّاً

لا يمكن وصفه إلاّ بالسّمج الثّقيل الظّلّ والرّوح؛ فليس فيه خفّة إلاّ في كرامته، لكنّه في إصداره الأوّل يهدي الوسط مؤلّفاً محيّراً بعنوان "زوّار سمجون جدّاً".

(٥٠)
أبو الوسط

بقرار ذاتيّ عيّن نفسه أباً للوسط؛ فهو الكاتب والنّاقد والموزّع والنّاشر والجمهور والقرّاء في آن، وهو خارق في تعدّد المواهب والملكات؛ فهو كاتب

وناقد وممثل ومسرحيّ وإعلأمّي وسياسي ومفكّر ومسجون سياسيّ ومدين للنّاس أجمعين، وهو في الوقت ذاته على أتمّ الاستعداد لتلميع أرضيّة الوسط إن رأى مصلحة له في ذلك.

(٥١)
نظرة الدّيك

المفكّر الشّهير في الوسط يروق له أنّ يفسّر العلاقات الإنسانيّة وفق نظريّة الدّيك التّي ابتدعها، وأشاعها في الوسط؛ إذ الذّكور في الدّنيا –وفق نظريته- هم ديكة حمقاء متطلّعة خائنة، لا يروق لها إلاّ أن تنقر دجاجات الجيران.

(٥٢)
سِيَر

هو فخور بكتابه الجديد الذي ضمّنه سيراً وهميّة لأسماء لامعة شهيرة من الوسط، وجلّ فخره متأتٍ من أنّه استطاع في كتابه الجديد "سِيَر الجياد" أن يصوّر الفئران على أنّهم جياد.

(٥٣)
تخصّص علميّ

هو يدين بالكثير من الفضل للوسط الذي جعله يحوّل موهبته في الكذب من هواية ضالّة إلى تخصّص علميّ وموهبة فريدة.

(٥٤)
حوريّة الكتاب

عنده طريقة واحدة أثيرة في اصطياد النّساء؛ فكلّما راقت له حسناء قاصية عنه، اقترب منها، وقال لها بحركة شكسبيريّة: "ألستِ هاربة من قصيدة من قصائدي الغزليّة؟"

(٥٥)
مرثيّة

لم يكن في يوم من الأيّام سوى شاعر مناسبات من العيار الرّخيص؛ إذ تقتصر أجرته نظير مرثياته على دعوته على عشاء أو غداء لا أكثر.

أمّا هذه المرثيّة، فقد أقسم على أن تكون مجانيّة برّاً بنذره بأن يرثي صديقه الوغد بأسوأ شعر إن هو مات.

(٥٦)
حجّ

كلّما سألته إحدى نساء الوسط المحدثات سنّاً وموهبة ووجوداً في الوسط عن عمره ضحك، وأجابها: "بما يكفي لأن أحجّ".

عندما تسأله بدلع: "هل حججتَ؟" يقهقه قائلاً: "من أدّى مناسك عينيك سهواً أو عمداً، فقد سقطت عنه فريضة الحجّ، بذلك تكون فريضة الحجّ قد سقطتْ عنّي لمئات المرّات في حياتي".

(٥٧)
تشجيع

الجائزة مرصودة سنويّاً لتشجيع المواهب الشّابة في الوسط، لكنّ إدارة الجائزة لهذا العام قد قرّرت سرّاً بأن تشجّع ذاتها، وبذلك أعلنت عن حجب جائزة التّشجيع، وصرفتها مكافآت بدل صعوبة مهمّة لأعضاء إدارة الجائزة وأعضاء التّحكيم في الجائزة الذين وقعّوا على قرار حجب جائزة التّشجيع.

تضارب أقوال

"الورق الرّسميّ لا يعرف إلاّ أكاذيبه المكتوبة"

إنّها السّاعة الثّالثة فجراً، وجسده يتفتّت تعباً وإعياء، لكنّ عينيه متسمّرتان على المحضر الذي أمامه يقرؤه مرّة تلو الأخرى دون أن يستطيع أن يفهم ما يجري معه في هذه اللّيلة الموصولة بنهار جنونيّ لا يستطيع أن يستوعبه، كأنّه يوم جحيميّ لا تفسير له، ولا يخضع لأيّ منطق.

الجميع في مناوبة المساء قد ذهبوا إلى النّوم في مهجع مخفر الشّرطة، أمّا هو فلا زال يمسك رأسه بكفيّه، ويلصق عينيه بأوراق المحضر يقلّبها صفحة تلو أخرى، ولا يجد في ذهنه الصّياغة المناسبة ليقفل المحضر بها تحضيراً لتحويله غداً إلى النّيابة العامّة لتنظر في ملابسات الجريمة، وشهادات الشّهود والتّفاصيل التّي جمعها التّحقيق الأوّلي في الأمر.

ما يحيّره بحقّ أنّ يمناه تأبى أن تغلق المحضر قبل أن يكتب شهادته في هذه القضيّة؛ فهو أيضاً شاهد فيها على ما يظّن، لكنّه لا يستطيع أن يتذكّر أين رأى تلك المرأة التّي عاينها اليوم في مشرحة الطّبّ الشّرعيّ مع الشّهود الذين تمّ استدعاؤهم للتّعرّف عليها، والإدلاء بشهاداتهم حول واقعة قتلها بسمّ قاتل نادر النّوع أدّى إلى توقّف قلبها، ومغادرتها للحياة.

كان يمكن أن يعدّ الطّبّ الشّرعيّ موتها حالة انتحار، إلاّ أنّ التّحليلات المخبريّة أثبتت أنّ السّم وصل إلى جسدها عبر دسّه في فطيرة تفاح، ومن يريد

الانتحار يتجرّع السّم مباشرة لا يصنع الفطائر منه، كما أنّ لا أثر لعلبة السّم في بيتها الصّغير المزروع في بستان صغير شرقيّ المدينة على الطّريق الزّراعيّ.

لا يستطيع أن يصف هذا المحضر الذي أمامه إلاّ بأنّه محضر يعجّ بتضارب الأقوال، وتناقض الشّهادات إلى الحدّ الذي أشعره أنّه يحقّق مع مجموعة من المجانين أو المتواطئين على الكذب وتشتيت الوقائع لأجل إخفاء الحقيقة، والأنكى من ذلك كلّه أنّه مشغول بالقضيّة منذ رأى وجه القتيلة في المشرحة؛ فقد تملّكه –حينئذٍ– حدس مسيطر بأنّه يعرف هذه القتيلة، وانتابه شعور رهيب بأنّه قد شارك في قتلها بشكل ما، وإن كان لا يستطيع أن يتذكّر كيف كان ذلك، وهل عليه أن يوجّه أصابع الاتّهام إلى نفسه في مقتلها لا سيما أنّه قد عجز عن اتّهام أيّ شخص بقتلها على الرّغم من كثرة الوجوه والعابرين في محضر التّحقيق، بعد أن قدّموا شهادات متضاربة حدّ الجنون حول القتيلة، حتى أنّ البعض منهم شهد بأنّها امرأة عجوز، في حين أنّ الآخرين قد شهدوا بأنّها شابّة، وهو يكاد يقسم أنّه لمح القتيلة المسجّاة على بلاطة المشرحة تغمزه على حين غرّة، وتزمّ شفتيها القرمزيتين، وترسل له قبلة صغيرة سرّيّة تصطدم بنهديها المستنفرين بوضوح من تحت غطاء المشرحة الذي يستر عريها، وهو كان عليه أن يبتلع بصمت ما تراه عيناه كي لا يتهمه الموجودون بالجنون، كما يتهمهم هو بذلك، حتى أنّه يتّهم الطّبيب الشّرعيّ بالجنون؛ لأنّه ذكر في تقريره أنّه عاجز عن تحديد السّن الحقيقيّ لهذه المرأة.

تلك الجارة الأربعينية وصفت القتيلة بأنّها عمّة نساء الحارّة، وأنّها كانت تعتاش من العمل في القبالة وتوليد النّساء في البيوت مقابل القليل من المال وبعض اللّحم والطّحين والسّكر ودبس التّمر وبضع فلقات الصّابون، وهي من

ولدّت نساء الحارّة كلّهن، وعلى يديها دلف أولادهنّ إلى الحياة؛ لذلك يلقبونها بلقب بالعمّة الكبيرة.

تذكّر الجارة الأربعينية أنّ القتيلة كانت مشهورة في الحيّ بوضوء الولادة؛ إذ كانت تولّد النّساء بعد أن تتوضّأ بماء الورد؛ لأنّها كانت تعدّ الولادة هي خروج روح طاهرة بريئة من روح أخرى، ولذلك عليها أن تستقبل الرّوح الطّاهرة الوليدة بطهارة، وهي أوّل من تحمّم الوليد بماء الورد، وتكبّر في أذنيه، وتقرأ عليه آيات قرآنيّة حافظة من السّحر والحسد وقسوة القلب.

لذلك لا تتخيّل الجارة أنّ هناك أحداً في الكون قد يرغب في قتل هذه العجوز الطّيّبة المسالمة، إلاّ أنّها تؤكّد أنّها قُتلت على مهل ومراحل مع سبق الإصرار والتّرصّد من ابنها الوحيد الذي هجرها منذ زمن، وعاش في بلد آخر، وقطع أخباره عنها، فقتلها حزناً ووحدة ببطء دون رحمة.

ذلك المزارع الذي يسكن البيت الرّيفيّ المجاور لبيت القتيلة أكّد أنّ جارته القتيلة هي شابة دجّالة تزعم أنّها عرّافة ووريثة أباطرة السّحر والعرافة، وأنّها كانت تبتزّ زبائنها بما تعرف عنهم من أسرار، وأنّها كانت تملك إشعاعاً في عينيها يجعل من يراهما يسقط في شَرَك البوح لها حتى بأكثر أسراره خطورة وحرصاً على كتمانها، وهي كانت تستغلّ ذلك في ابتزازها لهم، ولا بدّ أنّ أحداً ممّن ملّ ابتزازها له قد ضاق ذرعاً بها، وقرّر أن يضع حدّاً لحياتها ليتخلّص من أسرها له.

عندما سأله الضّابط إن كان من زبائنها في يوم من الأيّام، أجاب المزارع الشّاهد بالنّفي، عندها سأله الضّابط من جديد عن مصدر معلوماته حول عمل القتيلة وسلوكيّاتها الابتزازيّة، فأجاب المزارع بأنّ فئران الحقل قد أخبرته بذلك؛

فالقتيلة كانت تهوى الفئران، وتملأ بيتها بها، وتسمح لها بأن تعرف أسرارها، وتقاسمها أفكارها، والفئران اللّعينة كانت تشي بها لكلّ من عنده فضول حول تلك المرأة.

في بيت القتيلة وجدوا مئات ظروف الورقيّة مفرغة من رسائلها، وجميعها كانت تحمل عنوان المرسل إليها دون ذكر عنوان المرسل، وجميعها تحمل ختم مكتب بريد البلدة، ولذلك استدعى الضّابط رجل البريد ليسأله عن الأمر، وذلك الرّجل أحضر معه ساعي البريد الذي كان يوصل الرّسائل لها.

الضّابط سأل ساعي البريد الشّاب بفضول واهتمام: "ماذا تعرف عن القتيلة؟" فأجاب فتى البريد بتعاطف ودموع يكابدها بصعوبة: "هي أرقّ امرأة قابلتها في حياتي؛ لقد كانت تصلها رسالة من جهة مجهولة في كلّ يوم، وهي كانت تنتظرها باهتمام بالغ، وعندما انقطعت الرّسائل عن الوصول إليها، كانت تأتي بنفسها إلى مكتب البريد للتأكّد من وصول أيّ رسالة منها، وفي كلّ مرة تعود مجرجرّة أذيال الخيبة وراءها".

- الضّابط بفضول: هل عندكَ أدنى فكرة عمّن أقدم على قتلها؟
- ساعي البريد بجزم: لقد قتلها انتظار الرّسالة ممّن تحبّ.
- الضّابط: كيف عرفتَ أنّ الرّسائل المرسلة إليها كان يرسلها حبيب ما؟
- ساعي البريد بحكمة مصطنعة: الحبّ وحده من يكسر قلب المرأة العاشقة.
- الضّابط بتشكيك: لكنّها ماتت مسمومة.

- ساعي البريد: لا تصدّق ذلك يا سيّدي الضّابط؛ لقد ماتت بسبب انكسار قلبها العاشق.

ظلّ الضّابط يحدّث نفسه بأنّ هؤلاء الشّهود ليسوا أكثر من مجموعة من المعتوهين، وكلّ منهم يقدّم شهادة أعجب من الأخرى؛ فبائعة الحليب في الحيّ أكدّت له أنّ القتيلة كانت امرأة شاذّة معلّقة بين عالمي الذّكورة والأنوثة، وأنّها كانت تملك جسد امرأة وقلب رجل وصوت فتى مراهق، وهذا الخليط المتعب جعلها تنعزل في بيتها، وتعيش وحدة قاسية، كانت صديقتها الوحيدة هي مَنْ تعيش معها في حياة سرّيّة لا يعرف أحد تفاصيلها، وفجأة اختفت تلك الصّديقة، وبقيت القتيلة وحيدة إلى أن اكتشف الجميع أمر موتها.

لعلّ تلك الصّديقة الرّاحلة عنها هي من دسّت لها السّم في فطائرها كي تدفن معها سرّاً خطيراً من أسرار حياتهما الغامضة.

بائع الخبر في البلدة قال إنّها كانت امرأة خمسينيّة وحيدة وفقيرة تعيش حياة غامضة، ولا يعرف أحد أيّ حقائق عنها سوى أنّها تملك جسداً رشيقاً رائعاً، وأنّها كانت تتمتم بأغانٍ قديمة بصوت عذب حلو؛ لعلّها كانت فنّانة شهيرة في الماضي الجميل من حياتها، ورجل ما هو من أبعدها عن فنّها وعالمها وماضيها، وجعلها تعيش في وحدة اختياريّة في ذلك البيت الرّيفيّ المتواضع، وقد يكون هذا الرّجل المتسبّب في عزلتها هو من لجأ إلى قتلها أخيراً كي يستريح من وجودها في حياته.

تلك البائعة في سوق التّحف الشّرّقيّة قالت: "إنّها شابّة جميلة وماجنة، وتعيش حياة اللّهو بكلّ ما فيها من تفاصيل؛ لذلك من الطّبيعيّ أن تُقتل بهذا الشّكل الغامض".

لكن الشّاب العتّال في السّوق القديمة للخضار والفواكه أكّد أنّها كانت امرأة عجوز وحيدة تعيش في بيتها في عزلة اختياريّة بعد أن توّفيت أمّها، وتركتها وحيدة، وهي من قضت معظم أيّام شبابها في معتقل العدوّ الصّهيونيّ، وعندما خرجتْ منه وجدت في انتظارها أمّها العجوز التّي سرعان ما انتقلت إلى جوار ربّها، وتركتها وحيدة في الحياة، لكنّها لم تنس قضيّة الكفاح الوطنيّ ضدّ الاحتلال الصّهيونيّ، وظلّت تتواصل مع الفدائيين، وتمدّهم بمساعدات خاصّة وسرّيّة.

لا أحد يعرف بالضّبط ماذا كان دورها في التّحرير المسلّح لفلسطين، لكن -لا شكّ- أنّ عزلتها كانت في سبيل ذلك، وأنّ هذا النّشاط بالتّحديد هو ما يفسّر سبب قتلها بالسّم النّادر النّوع من قِبَل الموساد الصّهيونيّ.

أحد الصبيّة في الحيّ ممّن اعتادت على أن تطلب مساعدتهم في تنظيف حديقة البيت والعليّة قال: "إنّها كانت ألطف امرأة رآها في الدّنيا؛ فقد كانت تربّي عشرات القطط في حديقة منزلها، فقد كانت محبّة لكلّ من تقابل من الأطفال، وتقدّم لهم البسكويت المحلّى الذي تصنعه بنفسها، وأنّها كانت امرأة بكّاءة يهزّها أيّ موقف إنسانيّ مهما صغر، ولو كان مشهد احتضان أمّ ما لطفلها الصّغير. لا بدّ أنّها انتحرت لأنّها لم تطق الحياة دون زوج وأبناء".

أمّا عامل النّظافة في المنطقة فقد جزم أنّه يعرفها عن قرب، وأنّ اسمها أم زينة، وأنّ عندها خمس بنات متزوّجات، ويعشن مع أزواجهنّ في أوروبا والخليج والبرازيل، وأنّهن يتواصلن معها من وقت إلى آخر، ويرسلن لها من المال ما يكفي لأن تعيش به حياة كريمة، إلاّ أنّها تزهد بما يرسلنه لها من المال، وتتصدّق به على عمّال نظافة الحيّ وبعض متسوليه، في حين تعتاش ممّا تجني من أجور نظير خدمات كتابيّة تقوم بها.

لعلّها كانت كاتبة أو شيئاً من هذا القبيل؛ فهي كانت تحبّ الأوراق والكتب، وقمامتها تعجّ بالأوراق الممزّقة ومِزق المجلّات الملوّنة والملصقات الدّعائيّة.

هناك أكثر من عشر شهادات أخرى ملبسة في ملف القضيّة، جميعها سمعها بفضول، لكنّها شهادات مجنونة أوصلته إلى الفراغ والتّيه والضّياع؛ إذ ما وجد فيها معلومة واحدة تؤكّد ما سمع منهم سوى أغلفة الرّسائل الفارغة، ولا وجد دليلاً واحداً يكذّب شهاداتهم، ووجهها الغارق في الموت لا زال يلاحقه، وهو مرتبك قلق خائف ووحيد.

يوقّع المحضر، ويكتب ملاحظاته السّرّيّعة عليه، ويضعه في بريد الصّادر صباحاً إلى النّيابة العامّة، ويشرع يمتصّ دخان سيجارته بتيهٍ خانق، ويمضي محاولاً أن يتذكّر اسم تلك العاشقة التّي قابلها في الزّمن الماضي حيث الطّيش والمجون والأنانيّة والشّباب الجامح العطشان.

يبتسم ساخراً من نفسه؛ فما حاجته إلى أن يحاول تذكّر اسمها، وهي تعيش في وجدانه، واسمها يهتف في أعماقه دون توقّف، اسمها منى، وهي حبّ حياته الوحيد، لم يعشق امرأة سواها، ولم يخذل امرأة سواها، لقد عشقته في الماضي عندما كانا يدرسان معاً في الجامعة العسكريّة، فكلاهما كان يبغي أن يتخرّج برتبة ضابط، وأن يخدم وطنه، لكنّه تخلّى عنها، وأنكر أبوّته لجنينها القابع في رحمها، فهربت من وجه فضيحتها، وتركت الجامعة، وانسحبت من حياته وحياة أهليها منذ ذلك الوقت، لقد بحث عنها دون توقّف، لكنّه لم يجدها، وظلّ منذ ذلك الوقت يحلم بوجهها الحمائميّ الطّاهر.

لا يعرف إن كانت ميّتة أم حيّة، ولا تدركه راحة بال وهو من لا يعـرف إن كان له ابن منها، أم أنّ هذا الابن أُجهض عندما تخلّى عنه؟ لكنّه سيستمر في البحث عنها حتى آخر لحظة من حياته، ما دام يراها في كلّ مكان يقصده، حتـى أنّه قد رآها في وجه تلك القتيلة المسـجّاة في مشـرحة الطّـبّ الشّـرعيّ إلى حـين صدور قرار رسميّ بدفنها على نفقة الدّولة.

يبحث عنها في وجوه الأحياء والأموات، ويتمنّى أن يجـدها ولـو كانـت جثّة هامدة دون حياة. أتراها هي ذاتها التّي يحقّق في مقتلها؟ أم هي امرأة أخرى لم يقابلها بعد؟ فإن لم تكن هي، فلمـاذا كانـت تلـك الجثّـة تغازلـه؟ لمـاذا يـرى ملامح حبيبته المخذولة في ملامح هذه المرأة القتيلة؟ بل لماذا يراها في ملامح كلّ امرأة يقابلها في دربه؟ هل هو أيضـاً قـد أصـابه الجنـون؟ أم جميـع مـن قـدّموا شهاداتهم في هذه القضيّة يريدون أن يوصلوه إلى الهذيان والهستيريا؟

في هذه اللّحظة لا يسـتطيع أن يعـرف أيّ شـيء يقـيني سـوى أنّ النّـوم سيأخذه إلى وجه منى؛ لذلك عليه أن يستسلم له ليقبّل وجهها البهيّ الشّهيّ.

ألف كذبة وكذبة

"زعم الرّاوي أنّ عدد الكذبات البشريّة أكبر من أن يُحصى عدداً"

(١)

لولا ذلك المجرم المعتوه الذي يدير هذا المعتقـلّ السّـرّيّ الرّهيـب الـذي يديره بوحشيّة منقطعة النّظير ما وجـد عمـلاً يناسـب رغباتـه ونزعاتـه ومهنتـه المتنكرّة برداء الرّحمة؛ فهو ما خُلق ليكون طبيباً جرّاحاً، لكن والده قهره ليكـون طبيباً، وهو من كان يرغب في أن يكـون لصّـاً أو سـفّاحاً أو مصـارعاً قـاتلاً في أحسن الأحوال؛ فهوايته العظمى ونشوته الكاملة تتجسّـد في لحظـات متعتـه في مراقبة أيّ إنسان يتمرّغ في الألم، ويخبط في دمه حتى يتصفّى أمامه، ولذلك عمله في هذا المعتقل يرضي جوعه للدم والتّعـذيب؛ فوظيفتـه تـتلخّص في أن يعـالج المعتقلين الموشكين على الهلاك تحت وطأة الألم، لـذلك يمنـع المـوت عـنهم كـي يطول تعذيبهم، ولا تنتهي عذاباتهم، ويحظى بأكبر قدر ممكن من المتعة بتعـذيب غيره من البشر.

(٢)

ظنّ أنّ عمله القانونيّ في تلك المؤسّسة العريقة يعني أنّه سوف يتأكّد من أن المؤسّسة تسير وفق قواعد القانون والعدالة والحقّ، لكن سرعان ما أفهمه المسؤول ومعاونته العرجاء القدم والضّمير أنّ عمله القانونيّ في هذه المؤسّسة يعني أن يشرعن فساد المسؤول ومعاونيه، وأن يقونن كلّ مفسدة يقومون بها، وأن يستخدم بنود القانون وثغراته لأجل أن ينتقم قانونيّاً من كلّ شريف أو حرّة لا يجيّداًن القفز كالقرود بين يدي المسؤول من أجل إرضائه ولو على حساب كلّ نزاهة أو شرف أو عدالة.

(٣)

له تعريفه الخاصّ للإعاقة؛ فهو لا يعرّف الإعاقة بمثل ما يعرّفها به معلموه وأصدقاؤه من المختصّين في تعليم الحالات الخاصّة، بل يضحك مليّاً وهو يعرّفها بثقة مثل قرّد يقف عنوة على رأس قرداتي أصلع: "الإعاقة هي عدم القدرة على الكذب والخداع والمداهنة بالقدر الذي يسمح لك بأن تأخذ أمراً ليس حقّك".

(٤)

كيف يمكنه أن يشرح لمعلّمته الرّقيقة مثل الزّهرات الجميلة الصّفراء المزروعة في حوض أزهار أمّه أنّ عليها أن تكفّ عن جهدها الموصول لإخراجه من عالمه الهادئ الجميل الذي اسمه التّوحّد، هي تعتقد أنّه طفل معاق، ويحتاج جهداً عملاقاً ومخلصاً كي يخرج من صمته وانكفائه على ذاته، لينزلق في عالمها المعيش، ويعيش كوارثه وخيباته، أمّا هو فيتمسّك بإصرار بالبقاء في عالمه المتوحّد الخاصّحيث كلّ شيء هادئ وممكن وحنون.

معلّمته المحبّبة تنخرط في بكاء مقهور؛ لأنّها تعجز عن إخراج طالبها الصّغير من عزلته، وتغرب في تنشّقات العويل، فيقترب الطّفل الصّغير منها، ويخرج قليلاً عن صمت عالمه المحبّب، ويطبع قبلة على جبينها، ويقول لها: "لا تبكي يا معلّمتي الحبيبة، أنا في خير".

(٥)

عقوبته القضائيّة قضت بأن يقضي ١٠٠ ساعة عمل تطوّعي في خدمة المجتمع نظير الجنحة التّي قام بها، وقد كان نصيبه في توزيع المحكمة لساعاته عمله التّطوّعيّ أن يرافق الأطفال المصابين بأمراض قاتلة في مستشفى الأطفال، وتلك المشرفة اختارت له أن يكون جليساً مسليّاً لتلك الفتاة الصّغيرة السّمراء حليقة الشّعر والحاجّبين، وهو قبل بعقوبته كي يستطيع العودة إلى عمله في شركة البورصة.

كان يعدّ نفسه لساعات من الملل والدّعم النّفسيّ الطّويل لتلك الطّفلة المريضة بسرطان الدّم، لكنّها هي من اعتادت أن تبهجه بقصصها الحلم عن الحياة الجميلة التّي تنتظرها، وتنتظر أصدقاءها المرضى عندما يشفون جميعاً من أمراضهم، حتى عندما كان الموت يبتلع –على حين غرّة- أصدقاءها المرضى الواحد تلو الآخر كانت تنتصر عليه، وترفض أن يسرقها من إيمانها بقصصها الحلم.

انقضت مدّة محكوميّته بمجالستها طويلاً، وعاد إلى عمله، وظلّت تروي له القصص، لكن ليس وهي مضطجعة على سريرها الأبيض الصّغير في المستشفى، بل وهي تتنطنط أمامه بحيويّة بعد عودتها من مدرستها عندما يذهب لزيارتها في بيت والديها، ويحضر لها السّكاكر والمرّطّبات المحلّاة والقصص المصوّرة الجميلة.

(٦)

عاش حياته يلبس قناع الفرح والسّعادة والابتسامة العريضة الممتدّة من الأذن إلى الأخرى، ويسعد الجميع بنكاته وطرفه وملحه وخفّة ظلّه، لكن عندما قضى نحبه منتحراً وجدوا على وجهه تكشيرة ملبّدة تجعّد ملامحه جميعها، ودمعات طافحة من عينيه، ورسالة مكتوبة على عجل بخطّ يده، يقول فيها: "هذا عالم تعس لا يُطاق".

(٧)

اقترب منه ذلك الصبيّ المدلّل الذي أمر بإيقافه في سجن مخفر الشّرطة إلى حين ترحيله في الصّباح إلى المحكمة بعد أن أطلق الرّصاص ببرود أعصاب على زميله الذي يدرس معه في الثّانويّة العامّة انتقاماً منه لتميّزه، فأرداه قتيلاً على الفور، وقال له بشماتة والشّرطيّ المناوب ينزع الأصفاد عن يديه مكرهاً: "ألم أقل لكَ أيّها الضّابط أنّ القانون خُلق لأمثالكم من البشر الذين يعلقون بسهولة في نسيج بيت العنكبوت، أمّا أمثالي وأمثال أبي من المواطنين، فنحن مثل الغربان القويّة التّي تعصف بنسيج بيت العنكبوت، وترمي به بعيداً".

(٨)

القُبّرة الأمّ وقفت على الغصن إلى جانب ابنتها القبّرة الابنة، وقالت لها بصدق أموميّ حريص: "يا صغيرتي، لا تقتربي من دولة المجانين هذه، حيث العاقل فيها هو المجنون الحقيقيّ المستهدف. إمّا أن تبتعدي عنهم، أو أن تمارسي الجنون مثلهم".

(٩)

السّياسيّ الشّهير الجاهل أراد أن يكسب شعبيّة أوسع تؤهلّه من جديد لغزو البرلمان، والهبش منه؛ لذلك قرّر أن يكرّم عالم الذرّة الشّهير ابن الوطن

الذي تجنّس بجنسية أمريكيّة، ويستقرّ حيث موطن جنسيته، وجاء في زيارة طارئة إلى وطنه الأوّل المنسي.

الميزانيّة المرصودة لتكريمه كانت كبيرة، لكنّ السّياسيّ الشهّير الجاهل مستعدّ للتّضحيّة بالكثير من المال مقابل أن يظفر بأكبر عدد من أصوات المنتخبين، وإن كان يستخسر هذا المبلغ بذلك العالم المشهور بتخصّصه بتلك الذرّة التّي لا تكاد تُرى بالعين المجرّدة، ولا قيمة لها في الكون برأيه العتيد.

ربما كان سوف يحترمه أكثر لو كان متخصّصاً بالصّخور الكبيرة الضّخمة بدل تلك الذّرات غير المرئيّة.

(١٠)

الامبراطور المتعجرف أراد أن يثبت لحكيم الامبراطوريّة العجوز المجرّب أنّه قادر على أن يحطّم أيّ حكمة يصنعها الحكيم كي ينصحه، والحكيم قرّر أن يضعه في أحقر امتحان ممكن؛ ولذلك قال له: "يا مولاي الإمبراطور، ما تراك فاعل بملك عريض قد تتخلّى عنه ببساطة مقابل أن تتبوّل، أو أن تتغوّط، أو أن تخرج ريحاً؟"

الامبراطور التّعس قرّر أن يعاند هذه الصّغائر الثّلاث حتى يكسر حكمة الحكيم، وطال عناده لجسده واحتياجاته حتى انفجرت أحشاؤه، ومات، وأراح الامبراطوريّة من عناده الأحمق.

(١١)

أخبره المريض المخبول الذي أحضروه إليه مكبّلاً بالحديد أنّ جنيّة جميلة حسناء تهواه، وأنّها تسكن جسده، وأنّها تضاجعه في كلّ يوم عشرات المرّات، وأنّها تهدّد كلّ من يحاول إخراجها من جسده بأن تتلبّسه، وتسكن جسده إلى الأبد دون أن تغادره.

منذ علم طارد الأرواح والجنّ بهذا التّهديد، وهو يبذل جهده كي يحرّره منها، وينتظر بشوق أن تحلّ في جسده –وفق تهديدها- ليقبض عليها، فتنزل في جسده دون مغادرة؛ فهو في شوق إلى امرأة جميلة تسكنه دون هجر، حتى وإن كانت جنّية مولعة بالحلول في أجساد رجال الإنس.

(١٢)

هو يفخر بأنّه ضليع خبير في سلالات الخيل والإبل والأكباش، وهو المستشار الأوّل دون منازع في أمورها وطباعها وعاداتها وأخلاقها،؛ لذلك هو يجيد التّعامل معها، وضبط سلوكيّاتها ومشاعرها، لكنّه لا يجيد أن يفهم طباع زوجته أو بناته، كما يجيد فهم أخلاق الخيل والإبل والأكباش.

(١٣)

هي مغنيّة تلبس ثوباً واحداً مرصّعاً بالماس بمليون دولار، في حين أنّ تلك الممّثلّة العالميّة تنفق أموالها على الأطفال الجوعى في الأماكن المنكوبة في الدّنيا، وعندما وجدت ذلك الطّفل الإفريقيّ وحيداً منبوذاً -بعد أن فقد والديه بسبب مرض الإيدز، وتشاءم النّاس منه لأنّه وُلد مصاباً بالمرض ذاته- قرّرت دون لحظة تردّد أن تتبّناه، وأن توليه الرّعاية التّي يحتاجها.

المغنّية السّمينة ذات الأثواب المليونيّة علّقت على هذا التّبنّي بأنّه يثير قلقها حول المستقبل الدّينيّ لهذا الطّفل، ودعت الممّثلّة العالميّة إلى أن تردّ الطّفل اليتيم المريض إلى وطنه ليموت فيه بكرامة، ولو قضى نحبه فيه مرضاً وإهمالاً.

(١٤)

عندما يحبّ شجرة ما، ويرغب في أن يهبها حياة مديدة قويّة؛ فهو يقلّل من سقايتها بالماء، وتقديم الطّعام لها، وبذلك يجبرها على أن تبحث عن الماء والطّعام في أعماق الأرض عبر مدّ جذورها بعيداً، وبذلك تغدو قويّة راسية ثابتة الجذر، على عكس الشّجرة التّي يضعفها الدّلال، ويقصّر جذورها، فتخلعها أيّ ريح ضعيفة عابرة.

(١٥)

أبونا الحجّ عمر ورث عطيّة معالجة المرضى من أجداده الأولياء، يأتيه المرضى من كلّ مكان في الدّنيا، فيربطهم بالسّلاسل، ويعالجهم ببصاقه النّتن المخلوط بالماء السّاخن، وعندما يتلبّسهم المرض الشّديد يعذبهم طويلاً في سراديب أرضيّة حتى يصيبهم جنون كامل ينسيهم المرض والماضي كلّه.

إنّه يجزم -مرّة تلو الأخرى- بأنّ فنون العلاج جميعها موجودة في داخل جوفه، أمّا عندما ألمّ به مرض عابر، فقد سارع إلى بريطانيا للعلاج في أكبر مشافيها الصّحيّة؛ لأنّه يعرف جيّداً أن لا وجود لشيء داخل جوفه سوى للدّيدان والبكتيريا الهاضمة للطّعام.

(١٦)

لقد عاش طوال عمره مشرّداً، يجوب الشّوارع وحيداً، كان طوال الوقت يحلم بحياة الأثرياء، وفجأة عثر على ورقة يانصيب ملقاة في الشّارع، فالتقطها، ليكتشف أنّها فائزة بمليون دولار، ومنذ ذلك الوقت عاش حياة الأثرياء، وهو مستغرق في الحلم بحياة المتشردين.

(١٧)

لقد اكتشف الدّجاج بعد طول معاناة واضطهاد آدميّ له أنّه الكائن الأكثر استعباداً في كوكب الأرض، والأكثر عدداً فيه؛ فقرّر أن يقوم بثورة كوكبيّة ليسحق الإنسان وظلمه.

لقد بدأ ثورته مطالباً بأشكال الحرّيّة والعدالة والإخاء جميعها، وكاد ينجح في تحقيق مطالبه كاملة، إلاّ أنّه لم يحّقق من مطالبة العريضة إلاّ الحصول على أعلاف دسمة وإضاءة لمهاجعه في اللّيل، وذبحه بالطّريقة الإسلاميّة؛ إذ هي الأقلّ إيلاماً له.

هذا التّحقيق الحقير لمطالبه كان لأنّه سلّم قيادة ثورته لدجاجة لم تنس أبداً أنّ الجبن والذّل في الدّجاج طبع، حتى ولو علت على الإنسان، وانتصرت عليه.

(١٨)

القاضي المشهور بخفّة دمه أخبرهم أنّهم يستطيعون الاستمرار في إدارة الدّولة على الرّغم من فسادهم ولصوصيتهم، لكنّه اشترط نظير ذلك أن يقطع يمين كلّ من يسرق منهم من مال الشّعب، وله على الرّغم من ذلك الاستمرار في العمل بيد واحدة.

كبير اللّصوص الأسياد وافق على هذا الشّـرّط؛ فهـو ورجـال جمـاعتهم يكتفون بيد واحدة للاستمرار في النّهب والسّلب.

(١٩)

هو لم يعش حياته كما تمنّى، لكنّه قرّر أن يموت كما يشـتهي، وقـد عمـل جاهداً كي يموت نقيّاً نزيهاً شريفاً، وقد مات كما تمنّى؛ فعاش خالداً في ضـمائر من خلفه من البشر، كما أمّل نفسه دائماً.

(٢٠)

العالم الاجتماعيّ المترف يصرّح بأن الذين يعتاشون على القمامـة هـم لا يعانون من فقر مأساويّ، وإنّما هـم يعيشـون جماليّـات اكتشـاف عـوالم النّـاس الجوّانيّة عبر التّجسّس على نفاياتهم التّي يلقونها في حاويات القمامة.

(٢١)

ابنه الصّغير غير مغرم بأكل شطائر العسل والزّبدة، ولا يرغـب في لـبس قميص مدرسة حريريّ، لكنّه يصـمّم علـى أن يأكـل ابنـه تلـك الشّـطائر، وأن يكسي جسده بملابس الحرير، وكلّمـا رأى ابنـه الصّـغير يأكـل شـطيرة العسـل

والزّبدة ذات الخبر الإفرنجيّ شعر بأنّ ذاته الطّفل المتوارية في أعماقه المحرومة تأكل بمتعة من تلك الشّطائر التّي حُرم منها طوال طفولته بسبب فقر والده.

(٢٢)

ترك لها أسلافها من السّحرة كنزاً من التّعويذات والوصفات السّحريّة وترنيمات الاستحواذ والمسخ والتّحوّل وأسراراً لا تنضب من خلطات الشّرّ والإيذاء والانتقام؛ يمكنها الآن أن تتربّع على عرش السّاحرات الشّرّيرات، وأن تحكم العالم السفليّ كاملاً، لكن ذلك كلّه لا يعنيها؛ فهي معنيّة بذلك الحبّ الذي يملأ أعماقها، ولذلك سوف تهدي البشر أجمعين الحبّ والعشق؛ ولذلك فقد أحرقت كتبها السّحريّة الإرث، وأبقت فقط على وصفة الحبّ، وكلّما قصدها قاصد أو قاصدة كي تصنع له حجاب كره، أو تميمة فراق، خدعتهم عن قصد وتعمّد، وأعطتهم حجاب حبّ، وأرسلتهم إلى دنيا الحبّ مكرهين.

(٢٣)

ما زال تقريره الأمنيّ الشّهريّ يشير إلى أنّ سلوكه مريب؛ لذلك فهو يوصى بعدم تجديد إقامته، وبعدم تمديد عقد العمل معه لسنة أخرى، وهذا يعني أنّه سيعود من جديد إلى الفقر والبطالة، وستعود أسرته إلى الاستدانة من أجل أن تبقى على قيد الحياة.

عليه أن يطيع صديقه السّكير، وأن يحسّن سلوكه وفق ما ذكر لـه، وهـو العليم بمقومات التّقرير الأمنيّ الجيّد أو حتى الممتاز؛ فهو ابـن الرّجـل الأوّل في المخابرات في المدينة.

السّلوك الحسن عند رجال المخابرات الذين يتزّعمّهم والد صديقه يعني عدم الصّلاة جماعة في المسـجد، والغيـاب عـن صـلاة العشـاء، وعـدم حضـور الدّروس الدّينيّة والمهرجانات الإسلاميّة، ويحبّذ أن يكون سكّيراً وزير نساء كـي يحصل على تقرير ممتاز يسمح له بتجديد إقامته، وتمديد عقـد عملـه في المدينـة، وهو مضطرّ للحصول على تقرير أمنيّ ممتاز كي يوفّر لقمة العيش لـه ولأسـرته، مهما كلّفه الأمر.

(٢٤)

المسؤول الأمنيّ يؤمن بالدّيمقراطيّة وحقّ الاختيار والاعتراض؛ لذلك هو يقرّ السّلوكيّات القمعيّة التّي يتّخذها ضدّ الأحرار في البلد، ويذكي عيون زبانيته في كلّ مكان، ويوسّع المعتقلات، ويشلّ وسائل التّعبير عن الـرّأي، وفي الوقـت ذاته يخـرج في صـفوف مظـاهرة احتجاجيّـة ضـدّ سـلوكيّاته القمعيّـة وقراراتـه القهريّة، ويتقدّم الصّفوف، ويرتقي الأكتاف هاتفاً: "فليسقط ظلم القمعيين".

(٢٥)

أخيراً ها هو ذا يرى خصمه اللّدود معلّقاً على عود المشنقة، ورقبته متدليّة على صدره، ولسانه نافر من تجويف فمه، هو الآن لا شيء، مجرّد كومة لحمة وعظم شرعت الغربان تنهشها.

هو الآن السيّد المنتصر الغالب، لكنّه لا يشعر إلاّ بالهزيمة النّكراء؛ فذلك المشنوق ظلماً هو في قلوب الجميع حيّ منتصر، أمّا هو فمجرّد ظالم يقبع خارج قلوبهم، وتعيش سيرته تحت نعال أحذيتهم.

يتمنّى لو أنّه كان المشنوق الذي يحظى بهذا الحبّ والتّعاطف والتّخليد المحتمل له؛ لقد عاش خصمه النّبيل بطلاً، وها قد ساعده على أن يموت بطلاً كذلك.

(٢٦)

كلّما اكتشفتْ عشيقة له خيانته لها، وعلاقته الجديدة مع غيرها، ابتسم ابتسامته الصّفراء ذاتها، ولم يبال بفجيعتها، وقال لها: "ها قد اكتشفتِ إذن ما اكتشفه الشّيطان في سلالتنا الطّينيّة الضّعيفة؛ إنّنا جميعاً نحبّ الخطيئة، وأنا بالتّحديد أحبّ الوقوع في الخطيئة مرّة تلو أخرى".

(٢٧)

كلّف أهل التّاريخ بأن يؤرّخوا لزمن حكمه وحكم سلالته من الظّلمة الغاشمين بكلّ صدق وحياديّة.

بعد سنين انتهى عمل التّاريخ المزوّر للأزمان التّي طلبها، فاكتشف أنّه كان من الصّالحين العادلين، وأنّه ورث عدله عن أسلافه السّادة النّجب، وعندها صدّق ما قرأ، وأمر بقطع رؤوس أولئك المنافقين الكاذبين من المؤرّخين خوفاً من أن يكتبوا ضدّه الكثير ممّا لم يقترفه من أخطاء بعد أن يموت، كما نحلوه الكثير من المكارم التّي لم يقم بها في حياته.

(٢٨)

لطالما هرب من الماء كي لا يقتله؛ في موطنه الأصليّ هرب من العمل في المزارع كي لا تنخر "البلهارسيا" جسده الأسمر الصّغير، وعندما حدث ذلك الانقلاب في بلده هرب عبر قوارب الهجرة غير الشّرعيّة إلى بلد أوروبيّ متوسطيّ لينجو من الماء القاتل الذي كاد يبتلعه في البحر، لكن عندما أصابه ذلك المرض الصّدريّ النّادر لم يستطع أن يهرب من الماء الذي أغرق رئتيه، ليخنقه دون رحمة، ويمضي به إلى تراب مثواه الأخير.

(٢٩)

أخيراً أخبرهم بأنّه وجد المرأة الحلم المستحيل التّي أمضى أربعة عقود من عمره يبحث عنها، وها هو الآن يخبرهم بنبأ عشقهما الجامح، ويدعوهم إلى حفل زفافهما، وجميعهم في شوق وتسابق ليروا تلك المرأة التّحفة التّي لطالما حدّثهم عنها، وهو يبحث عنها.

لا بدّ أنّها منحوتة على شكل تمثال إغريقيّ رخاميّ، ولها عينان سماويتان تتسعان لدفن الأفق فيهما، ولها شفتان ترنيمتان من ترانيم الخلود، وشعرها هالة من هالات الحوريّات المقدّسات، لا بدّ أنّها ربّة من ربّات الجمال الخالد، كما كان صديقهم يصف معشوقته الحلم التّي يبحث عنها.

في حفل الزّفاف وقفوا جميعاً متخشبيّن خرساً، لا ينبس أحدهم ببنت شفة، وهم يرون إيقونته المنتظرة ليست أكثر من امرأة متضائلة الجمال والحضور والأنوثّة، في حين يراها زوجها العروس تحفة من تحف إبداع الله في خلقه.

(٣٠)

حاولتْ دائماً أن تكون صورة عن غيرها، قلّدت كلّ من قابلت في حياتها من صديقات وجارات ومعلّمات وقريبات، حتى ما عادت تذكر ذاتها، وعندما كانت تقف في المرآة كانت ترى عشيرة من النّساء المتوحّشات اللّواتي التّهمن ذاتها، وغالباً ما كان ينتهي مشهد المرآة بنحيب مفجّع على ذاتها التّي فقدتها للأبد في رحلة بحثها عن الأخريات.

(٣١)

علم هندسة الجينات استطاع أن يهندس البشر المثال المميّزين؛ بذلك امتلأ العالم بالنّخب من القادة والفنّانين والمفكرين والفلاسفة والمصلحين وروّاد الفضاء والمبدعين، واختفى من التّاريخ ما اسمه البشر غير النّخب، وغدا العالم في حالة رتابة خانقة، وبطالة قاتلة، وبدأ البشر المثاليون يحلمون بعالم جديد فيه نواقص وشرور وأحلام مشروخة كي ينشغلوا بإصلاحه؛ فيخلقوا هدفاً للعيش من أجله.

(٣٢)

في زمن الحرب يصبح الحبّ والبقاء على قيد الحياة هما الهدفان الأسمى في الحياة، وهدفه الأعظم منهما هو أن يسعد والديه بتحقيق حلمهما في أن يدرس الطّبّ في أوروبا، لكنّه يعلم أن ما يرسلان له من مال هو آخر ما يملكان من مال بعد بيع كلّ ما يملكون كي يستطيع استكمال دراسته للطّب، وهو يدّخر الأموال التّي يرسلونها إليه، ولا ينفق منها أبداً على أمل أن يعود إلى الوطن، ويشتري لهما بيتاً جميلاً فيه بعد انتهاء الحرب الأهليّة هناك، في حين يعمل في مطعم شرقيّ صغير ليعتاش من راتبه منه حتى تضع الحرب أوزارها اللّعينة.

(٣٣)

غريزتها التّي تدعوها للبقاء والحياة وعدم الموت علّمتها أن تحوّل ألمها إلى لعبة؛ فقد حوّلت موت والديها إلى لعبة اختفاء، وصيّرت كارثة تقدّمها في السّن إلى لعبة في التّنكّر، وجعلت من خيباتها في الحياة لعبة توقّعات، وحوّلت وحدتها في الحياة إلى لعبة صبر، وأخيراً استطاعت أن تحوّل الحبّ إلى لعبة من المراحل يجب أن تنتهي بألم يدمي القلب، وفراق سريع، واشتياق جارف إلى الانخراط في قصّة حبّ جديدة، وهي تجيد اللّعبات التّي ابتكرتها.

(٣٤)

لن يكذب على اللّه ولو استلّوا روحه، ولن يخطب في النّاس في صلاة الجمعة إلاّ بالحقّ؛ لذلك اعتاد على أن يذهب إلى صلاة الجمعة، وهو يحمل معه في كيس بلاستيكيّ كبير يحوي فرشة نوم ومخدّة وغطاء سميك؛ لأنّه يعرف أنّه سينام ليلته في السّجن موقوفاً بتهمة تأليب الشّعب على المقامات العليا، وقد ألف المصلّون ورجال المخابرات هذا المنظر، حتى بات المصلّون الشّباب يتسابقون إلى إنزال كيسه البلاستيكيّ من السيّارة ليرافقه في رحلته الأسبوعيّة المعتادة، في حين اعتاد رجال المخابرات المزروعين في المسجد على أن يساعدوا الشّيخ الدّاعية في حمل كيسه حتى يصلوا به إلى سيارتهم المناوبة المناوبة في المنطقة، لينقلوه إلى سجن التّوقيف إلى أن يتمّ التّحقيق الأسبوعيّ المعتاد معه.

(٣٥)

عندما لاحظ النّخاس اليهوديّ اللّئيم أنّه يخاف من الدّم، ويرتاع منه، رغب في أن يسرق متعته الآثمة من خوفه الفطريّ من الدّماء، وبدل أن يبيعه لمزارع يحتاج إلى عبيد أشدّاء كي يعملوا في زراعة أرضه، قرّر أن يحولّه إلى العمل في مجال المصارعة حتى الموت، ودفعه إلى ذلك المرابي على رهانات المصارعين.

المرّة الأولى التّي رأى فيها العبد الشّاب الدّماء، ولم يلتاع، هي عندما أراق دمه في الحلبة أمام جماهير غفيرة من الحيوانات البشريّة التّي أتت للاستمتاع برؤية مصارعتهما إلى حين موت أحدهما، أمّا المرّة الثّانية التّي استمتع فيها عندما رأى الدّم هي عندما شجّ رأس ذلك المرابي بهراوة ذات رؤوس حديديّة، أمّا عندما سحق عظام ذلك النّخاس اليهوديّ الذي وهبه للعذاب والوحشيّة، فقد بدأ يشعر بنداء الدّم له، وحاجته إلى الاستزادة منه دون توقّف.

(٣٦)

اعتاد على أن يقذف باقة ورود حمراء من نافذة منزلها؛ لتجدها على سريرها عندما تنام، كانت تعرف أنّها منه؛ لذلك لم تبالِ بها في يوم من الأيّام؛ لأنّها لا تحبّه، ثم تلقي بها على سرير أختها التّي كانت تحضن الباقة بمحبّة، وتحدّثها عن أسرار الحبّ الحقيقيّ.

في يوم ما توقّف الشّاب عن قذف باقة الورد عبر نافذتها؛ لأنّه عرف أنّها قد هربت نحو البعيد مع الرّجل الذي تعشقه من أعماق قلبها.

لكن الأخت الصّغرى ظلّت تنتظر باقة الورد المشتهاة، ولم يطلْ الانتظار بها حتى اشترت طاقة ورود حمراء تشبه تلك التّي كانت معتادة عن حضنها، وذهبت على عجل إلى من تحبّ؛ فالعاشقة لا تتأخّر عمّن تعشقه بحقّ.

(٣٧)

هي تعشق تلك القصّة المصوّرة للأطفال، تملكها منذ كانت صغيرة، وتؤمن بأنّ الأمير العاشق الوسيم هو شخصيّة حقيقيّة، وأنّه ينتظرها في دنيا القصّة، وتؤجّل أحلامها حتى تدلف إلى عالمه؛ فهو -دون شكّ- في انتظارها منذ طفولتها.

اليوم عادت منكسرة القلب يائسة من دنيا البشر حيث لا مكان لها بين أحقادهم وقسوتهم ولؤم طباعهم.

أخذت حمامها على عجل، ومشّطت شعرها، وتزيّنت، وتعطّرت، وفتحت قصّتها الملوّنة، وآمنت بأنّها قادرة على القفز في عوالمها، وبغمضة عين وجدتْ نفسها قد انتقلت إلى عالم القصّة، ورأت في الأفق أميرها يقترب منها والشّمس في الأفق تداعب شقرة شعرة الذّهبيّ.

(٣٨)

زوجة حاجب السّلطان اعتادت على أن تبتكر له طرقاً شتّى لأجل سحب ما في جيوب أفراد الرّعية، وآخر ابتكاراتها الإبليسيّة كانت ابتكار مشروع "صندوق الفقراء" الذي بدا من اسمه أنّه صندوق لمعونة الفقراء والمساكين

والمعوزين، لكن من تقوده قدماه إلى ذلك الصّندوق، يكتشف أنّه صندوق مخصّص للجباية من الفقراء الذين يفلتون في العادة من دفع المكوس والضّرائب؛ فتمّ تخصيص هذا الصّندوق لأجل عصرهم، وقلع جلودهم عن أجسادهم ليخرج منهم الدّرهم والقرش والفلس.

(٣٩)

أخبرها السّاحر المجوسيّ القادم من أرض النّار أنّ سحره لا يستطيع أن يجلب لها قلب ذلك الرّجل الذي تهواه؛ لأنّه مرتبط بطاقة الحبّ التّي تجمعه بالمرأة التّي يحبّها، ومن المستحيل أن يستطيع سحر -مهما بلغت قوته- أن يحّطم القوّة التّي تجمعهما، وأن يسرق قلبه، وأن يضعه في حضنها.

لكنّه يستطيع بسحره الأسود أن يقتل حبيبها العاشق، وأن يحرق قلبه وقلب من تحبّه.

لكنّها لا تستطيع أن تحرق قلب من تحبّ، ولذلك تطلب من السّاحر المجوسيّ أن ينقل ما في قلبها من حبّ إلى قلب تلك المرأة التّي يعشقها رجلها الذي تهواه منذ سنين؛ ليسعدا بحبّ عظيم لا حدود له؛ فما حاجتها بحبّ قلبها بعد الآن ما دام لن يحبّها في يوم مهما طال انتظارها لذلك.

(٤٠)

الفتى الشّجاع قـرّر أن يسـتلّ سـيفه، وأن يصـعد إلى أعلـى الجبـل ليقتـل الوحش ذا العيون الألف الذي يروّع النّاس بصوت زمجرتهم، ويقطع عنهم مـاء الجبل.

جلّ ما يخشاه في صراعه المقبل معه هي عيونه الألف التّي ستدركه في كلّ مكان يتحرّك فيه، لكنّ حكيم القريّة ودّعه قائلاً: "يا بنيّ الشّجاع، لا عليـك مـن عيونه الألف؛ فالمعوّل عليه هو بصر القلب لا بصر العينين".

(٤١)

مرضه العضال يتمثّل في أنّ لا قلب له في صدره، هو فارغ الدّاخل، والحياة تحتاج إلى قلب نابض كي يشعر بالفرح والسّعادة.

طوّف على أطبّاء الدّنيا ليعرف سبب مرضه، لكنّه لم يفلح في معرفة علّتـه، إلاّ أنّ تلك العجوز الحكيمة المتنسكّة في أرض البحيرات، قد أخبرته أنّ لا قلب له لأنّ لا أمّ له؛ فمن ليس له أمّ، ليس له قلب.

(٤٢)

كان يجب معاقبة ذلك اللّص المبتدئ كي لا تفلت الأمور، ويصبح السّـطو مهنة سهلة أو هواية آمنة لكلّ من يقدم عليها، ثم أنّ أمر الانضـمام إلـيهم هـو

أمر يقرّرونه هم وفق حاجتهم إليه، أمّا أن يتجرّأ ذلك الرّجل العامل في تنظيف المبنى على أن يسرق ذلك القفل القديم الذي كان ملقياً في القمامة، فهذا أمر لا يُغتفر؛ فقد أثبتت التّحقيقات الطّويلة والمعقّدة التّي أجرتها إدارة الأكاديميّة أنّ هذا القفل الصّدئ كان قد أُلقي بالخطأ في حاوية القمامة، وهو من أملاك الأكاديميّة القديمة، ولم يتمّ تقييده في كشوفات الإتلاف، وبذلك يكون أخذه هو سوء ائتمان من عامل النّظافة، وهو اعتداء على ممتلكات الأكاديميّة، ولذا يجب فصل عامل النّظافة من عمله عقاباً له على جريمته النّكراء هذه.

عامل النّظافة المسكين حاول عبثاً أن يبرّئ ساحته من هذه التّهمة الزّور، فكيف كان له أن يعرف أن أخذه لقفل قديم ملقى في حاوية القمامة سيصل به إلى اتّهامه بسوء الائتمان، وطرده من عمله؟

لكنّ إدارة الأكاديميّة أصرّت على طرده من عمله مع حرمانه من كافّة مستحقّاته الماليّة والأدبيّة كي يكون درساً مهمّاً لكلّ لصّ صغير يحاول أن ينافس اللّصوص الكبار في مهنتهم الحبيبة، وهي السّطو والسّلب والنّهب.

(٤٣)

لقد بحثت طويلاً في السّجلات الرّسميّة الحكوميّة الوطنيّة والعربيّة عن اسم أبيها الشّهيد ضمن قوائم الشّهداء في سبيل الدّفاع عن الوطن، لكنّها لم تجد اسمه أبداً، عادت مكسورة القلب إلى حضن أمّها، وهي لا تجد تفسيراً لعدم وجود اسم والدها الشّهيد بين أسماء الشّهداء المنقوشة بماء الذّهب على تلك المسلّة الرّخاميّة العملاقة.

الأمّ الحنون طوّقت بذراعيهاالدّافئتين، وهمست في أذنها اليمنى قائلة: "لا تحزني يا حبيبتي الصّغيرة، فالأبطال الحقيقيّون لم يعودوا من المعركة كـي يكتبـوا أسماءهم بذهبٍ في سجلات الشّهداء والأبطال؛ فمن عادوا من المعركة سـالمين ليكتبوا، ويدوّنوا هم الجبناء، أمّا الأبطال والشّجعان فقد ماتوا –في الغالـب– في أرض المعركة؛ لأنّهم كانوا في الصّف الأوّل في القتال.

(٤٤)

عندما خرج من المعتقل الصّهيونيّ توقّع أن تهبـه الأوطـان العربيّـة وسـام تقدير لدفاعه الطّويل عن فلسطين باسمه وباسم كلّ عربيّ ومسلم وإنسان حـرّ منتصر للعدالة، لكنّ الأوطان العربيّـة قاطبـة لم تهبـه إلاّ وظيفـة عامـل وطـن، وعندما تساءل ما معنى مهنة عامل وطن، ابتسم ذلك الموظّف السّمين مثل بطّـة بلديّة معتّقة، وقال له بشماتة نجسة: "أيّ عامل نظافة".

عندها ابتسم الأسير المحرّر للتّو من أسره الذي طال لأكثـر مـن عشـرين عاماً، وقال له: "فعلاً أوطاننا بحاجة إلى التّنظيف".

(٤٥)

لا تتذكّر ما هي الأحزان والآلام الرّهيبة والقاسية التّي مرّت بها، فجعلتها تفقد ذاكرتها على هذا النّحو المفاجئ، ولا تتـذكّر مـن هـم كـلّ أولئـك الـذين يحيطون بها من رجال ونساء وأطفال، ويجلبون لهـا طبيبـاً تلـو الآخـر لمعالجتهـا

لتستردّ ذاكرتها، فتقوم بمهامها المقدّسة في إدارة أسرتها العملاقة التّي تتكوّن من هذا العدد المهول من الأبناء والبنات والحفدة والأنسباء، ولا يعنيها أن يعتقد من حولها أنّها مصابة بمسّ سحر، أو بلوثة جنون، لكن ما يعنيها بحقّ أنّها تشعر بسعادة غامرة وراحة أكيدة، وهي لا تجد في أعماقها مسحة حزن، أو ماضي معاناة، وتفكّر جدّياً بترك هذا البيت الكبير اللّئيم الذي لا يروق لها، لتترك المهام المعلّقة في انتظار عودتها إلى سابق عهدها معلّقة إلى الأبد، لتسافر إلى فرنسا لتتعلّم فنون الرّسم التّي لم تنسَ أنّها تحبّها بشدّة، بعد أن تطلّق ذلك الرّجل السّتينيّ البليد الذي يزعمون أنّه كان زوجها في حياتها السّابقة التّي نسيتها بشكل مفاجئ، ولا تريد أن تستردّها أبداً.

(٤٦)

لم يستطع أن يفهم معنى سلوك الوطن تجاهه وتجاه ذلك الرّجل الآخر المواطن في الوطن ذاته؛ فالوطن كرّم ذلك المواطن، وأعطاه تقاعداً مبكّراً جدّاً، وراتباً تقاعديّاً طوال العمر بدرجة إصابة عمل من الدّرجة الخاصّة في خدمة وطن، وبذلك حصل على دارة جميلة يسكن فيها، وسيّارة فارهة بسائق مدفوع الأجر من الوطن، وراتب تقاعديّ عملاق، ومنحة دراسيّة لأبنائه جميعاً في أرقى الجامعات العالميّة خارج الوطن، وذلك نظير أنّ باب السيّارة الحكوميّة المصروفة له من الوطن قد انغلق على أصبع سبابته، فجرح السّبابة، وقلع الظّفر من مكانه.

أمّا هو فلم يعطه الوطن إلاّ تقاعداً هزيلاً لا يكفيه لشراء خبز بلديّ لأسرته على امتداد الشّهر، ودرع تقدير صدئ تقديراً له على شجاعته، وخسارته لقدمه اليمنى وهو في مهمّة رسميّة في خدمة الوطن.

(٤٧)

لا تفهم العصافير الجميلة معنى الجملة الحزينة "إنّه موسم اغتيال الأشجار الجميلة"، لكنّها تدرك تماماً أنّ هذه الجملة المكرورة التّي يسمعونها هنا وهناك، تعني أنّه اقترب موعد تنفيذ مشروع قطع أشجار الغابة وبناء مبنى تجاريّ عملاق مكانها، وهذا القرار كاف لأن تترك الوطن، وتهاجر إلى مكان بعيد حيث ما تزال الأشجار مغروزة بثبات في أوطانها.

(٤٨)

لا تستثيره النّساء بنات الحسب والنّسب والأصل العريق، ولا تلفت نظره تلكم النّساء اللّواتي يجدن الحديث المنمّق واتّباع آخر صراعات الموضة، وخريجات الجامعات الرّاقية، إنّما تثيره تلكم الخادمات المستقدمات من الدّول الآسيويّة الفقيرة، فعندما يرى أصابعهنّ الصّغيرة السّوداء تبرز من نعالهنّ البلاستيكيّة الملوّنة تتحرّك غرائزه كإعصار أو نزيف حمم من بركان، فيشتمّ منهنّ رائحة أنوثة فوّاحة، ويسترضيهنّ بكلّ ما يطلبن منه من مال حتى يقبلن هانئات بتسليم أنفسهنّ له، وعندما يقضي أربه منهنّ يشعر أنّه قد ذاق نساء الكون جميعاً في رشفة واحدة، ولا يعنيه إنّ كنّ بنات أصول وحسب ونسب، أم مكدّرات بالعناء والمشقّة وخدمة البيوت، المهمّ عنده أنّ ذكورته تستفحل عند هذا النّوع من النّساء المهجورات غير المشتهيات إلاّ ما ندر.

(٩٩٩)

هو يعشق تلك المرأة المتواضعة الجمال المنكوبة في أنوثتها الأقرب شبهاً إلى أنثى قرد الشّمبانزي؛ فهي كتلة من المشاعر والأحاسيس والفكر والمواهب المتزاحمة، وهي نبيلة الطّبّاع والخصال، لا يستطيع من يعاشرها إلاّ أن يعشقها بكلّ ما في الكلمة من معنى؛ ولذلك هو ملتصق بها منذ أكثر من تسع سنوات، ولا يكاد يشتهي امرأة غيرها في الكون، ويستثمر كلّ لحظة من حياته ليرتشف منها حلو العشق والمعشر والإخلاص له.

لكنّه عندما يفكّر في الزّواج، فلن يتزوّجها أبداً؛ فهو يريد أن يختار أمّاً لأولاده تملك جسداً جميلاً، وملامح حلوة، حتى وإن كانت ابنة الشّيطان؛ فالزّواج عنده صفقة يجب أن تكون رابحة بالأشكال جميعها، أمّا الحبّ فهو رقصة قصيرة في الحياة التّي تختار لكَ الحبيب دون أن تأخذ رأيكَ فيما اختارتْ لكَ.

(١٠٠٠)

أمواله أكثر من أن يستطيع بشر أن ينفقها في حياة واحدة، ولو استمرّت لألف عام؛ لذلك ينفق أمواله ببذخ على ممارسة هوايته الوحيدة والمحبّبة إلى نفسه؛ فهي هواية تملأ نفسه غروراً وكبراً وشبعاً غريباً من كلّ فرح؛ لذلك يمارسها دون توقّف، فأكثر ما يفرحه أن يرى فقيراً أو فقيرة يتذلّل له من أجل أن يجود عليه بقليل المال لينقذه من فاقته وحاجته، أمّا قمّة لذّته فتتحقق إن طرد

فقيراً من بيته، أو نال من عرض فقيرة أو منكوبة لقاء أمواله الّتي يجود بها عليها، أمّا الفقيرات المتعفّفات فهنّ يبدّدن لذّته الوحيدة، ولا يطيق أن يراهنّ، أو أن يقابلهنّ في حياته؛ فهنّ يشعرنه بأنّه فقير حدّ الإفلاس، وأنّه رخيص إلى درجة مقيتة.

(٢)

المجموعة القصصيّة "الذي سرق نجمة" [1]

١- صدرت المجموعة القصصيّة "الذي سرق نجمة" في طبعتها الأولى عن دار أمواج للنّشر والتّوزيع، عمّان، الأردن، ٢٠١٥

د.سناء شعلان
الذي سرق نجمة
مجموعة قصصيّة

الذي سرق نجمة

كلّ شيء في حياته صغير ومحدود ومتواضع، لكنّه على الرّغم من ذلك مولع حدّ التّخليط والمغالاة والكذب بأن يصوّر كلّ شيء على أنّه كبير وعظيم ولا حدود له، ناسياً أو متناسياً حقيقة حياته وظروفه ومعطياته، كثيراً ما يلومه النّاس على هذا العيب الملازم له، وما أكثر ما ورّطه في مشاكل وأزمات وتعقيدات، لكنّه لم يبالِ بهذا كلّه ما دام هذا العيب يورثه رضا عارماً يشبه الشّعور بالشّبع الكامل من ابتلاع حبّة أرز لا أكثر، هو شعور غريب، لكنّه ممتع ولذيذ ومُسعد.

من حسن حظّه أنّ المرأة التّي يعشقها تتعاطى بقبول ورضا مع عيبه الخطير، وهو المبالغة حدّ الكذب، فضلاً عن قبولها بجسده النّحيل الصّغير المتشكّل دون عناية كبيرة، حتى ليوحي منظره بأنّه قد خُلق من بقايا لحم مقّدد كان من المتوقّع أن يُخلق منه قط صغير، لا إنسان بشريّ كامل، هذا إلى جانب تجاهلها لقضيّة نسبه الوضيع الممزّق بين أب مشكوك في نسبه وأمّ تجاهل نسبها خير من تذكّره. امرأته النّادرة تقبل به بعلّاته جميعها، وتفتخر بحبّها له، وتتباهي في كلّ مكان بأنّه أفضل إسكافيّ في المعمورة قاطبة، وتتيه فخراً على النّساء بأنّ رجلها الإسكافيّ الكذّاب يعشقها حدّ العبادة، وهي تعلم علم اليقين أنّ هذه المعلومة هي المعلومة الوحيدة التّي يردّدها الرّجل الذي تحبّه بعيداً عن موهبته الدّاء بالمبالغة والكذب، فهو متيّم بها كما يكون التّتيّم الحقّ الذي يملك على صاحبه جوارحه وإحساسه وتفكيره.

لذلك هو يغضّ الطّرف عن نمش وجهها، وحول عينها اليسرى التّي تتجه بانحراف وئيد نحو أرنبة أنفها، ويغضّ الطّرف كذلك عن ثرثرتها التّي لا تعرف حدّاً أو ضبطاً أو ذوقاً أو كياسة، ويصفها بالمتحدّثة البليغة، في حين يصفها كلّ من يعرفها بالثّرثارة مفشية الأسرار، ولا ينفك يأتمنها على أسراره فتفشيها، وتوقعه في المزيد من المتاعب، وما يزال يبالغ، ويكذب، وتصدّقه، وتأخذ كلامه على محمل الجدّ، وتنقله إلى كلّ من تعرف وتصادف وتقابل بداعٍ ودون داع، فتزيد الطّين بلّة، وتدفعه مرّة تلو أخرى إلى إرباكات تتلوها إرباكات أُخر، ثم هولا يتوب عن البوح لها بمبالغاته وأكاذيبه، وهي لا تتوب عن الثّرثرة؛ فهما متصالحان مع بعضهما على الرّغم من عيوبهما، سعيدان بحاليهما الذي لا يريان فيه ما يفوق طاقتيهما، أو يعكر صفو حياتهما، أو يستدعيهما إلى خطّة عاجلة لتغيير عادتيهما القاتلتين.

ما قال لها في يوم أحبّك إلاّ كان صادقاً معها وهو يعني الكلمة التّي يقولها بكلّ صدق على خلاف عادته في الكذب الزّعاف، وما سمعت كلمته هذه إلاّ أشاعتها في كلّ ناحية شرقاً وغرباً شمالاً وجنوباً في الأجواء المكانيّة والزّمانيّة كلّها مرهونة بتفاصيل سرد هذه الكلمة، متناسيّة أنّها أشاعت هذا الخبر عشرات المرّات على الملأ، حتى ما عاد أحد إلاّ ويعلم بحبّه لها، وبحبّها له.

لكنّه في هذه اللّيلة المقمرة المرصّعة بالنّجمات كان مولّهاً بها بشكل خارق للمعهود، لقد صنع لها حذاء جلديّاً متقن الصّنع، كأنّ عفريتاً سرقه من قصور الجان، كذلك أحضر لها طاقة أنيقة من ورود الأقحوان التّي تفضّلها على الورود جميعها، وبات يغمرها بوافر كلمات العشق والاشتهاء والتودّد، ويشمّها كيفما اتّفق، ويترصّد كلّ حركة تقوم بها بجوع لأدق تفاصيلها وحركاتها وكلماتها، ثم جذبها إليه لتصبّ في حضنه، وقال لها: "أتعرفين يا جميلتي، لقد

قمتُ لأجلك بمغامرة جريئة غير مسبوقة في تاريخ الإنس أو الجان؛ لقد سرقت نجمة من السّماء، وخبّأتها في مغارة في الجبل لأقدّمها هديّة لك في ليلة عرسنا، انظري هناك في السّماء".

- "أين؟" سألته، وهي تجول بعينيها في قبّة السّماء المنيرة الفضفاضة.

- "هناك"، وأشار إلى أقصى يمين نظرها حيث تنحصر النّجوم بشكل واضح عن مكان صغير في عباءة السّماء المطرّزة النّجوم اللآلئ، ثم قال لها: "في ذلك الفراغ كانت تقطن تلك النّجمة التّي سرقتها لأجلك، كانت الأكبر والأجمل، ولذلك اخترتها لكِ دون غيرها، كان أمر انتزاعها من مكانها أمراً ليس بالهيّن أو السّريّع، لكنّني تكبّدت ذلك العناء كلّه وحدي لأجل أن أهبك هديّة عرس تليق بك، وتكون استثناءً تفخرين به إلى أبد الأبديّن، وتورّثينه إلى يوم الدّين لسلالة أبنائنا المنتظرين".

- "أريد أن أراها اللّيلة"، قالت حبيبته بفرح غامر ورجاء بادٍ.

- "هذا مستحيل الآن، لن تريها إلاّ ليلة عرسكِ، من الشّؤم أن ترى العروس هديّة زفافها قبل ليلة انكشافها على عريسها". قال بثقة وصرامة لا تليق بكذبه المكشوف.

نظر في عينيها، فرأى فيهما فرحاً وفخراً أحول يميل بوضوح إلى أرنبة أنفها، امتلأ صدره بالزّهو؛ لأنّه سرق نجمة من السّماء، وسيهديها للمرأة التّي يحبّها في ليلة عرسهما، وكاد يصدّق أنّ النّجمة تقبع هناك في الجبال دفينة مخبّأة في مغارة يعرف وحده الدّرب إليها، أمّا هي فصدّقت الأمر تماماً، وأقنعت نفسها بأنّ هديّته النّجمة في انتظارها، وألفت نفسها تعدّ اللّحظات كي يأتي الصّباح، وتشيع الخبر في كلّ مكان، جازمة بأنّ هذا الخبر هو الأهم فيما نشرت وأذاعت

طوال عمرها، فهي أوّل امرأة في التّاريخ يهديها حبيبها المغامر الشّجاع الفارس نجمة مسروقة من السّماء!

بطيئاً جاء الصّباح، لكنّها سريعاً أشاعت خبر نجمتها الهديّة المسروقة من السّماء، طرافة هذه الكذبة وطريقة سردها الشّائقة التّي قدمتها بها لمحبّي ثرثرتها جعلت الكذبة تغدو طرفة المدينة لأيّام طويلة، تناقلها الكثيرون في أجواء من السّخرية والضّحك والاستخفاف، لكنّه ظلّ فخوراً بهذه السّرّقة المزعومة، وهي ظلّت متباهية بنزق بهذه الهديّة النّادرة الخرافيّة.

أمّا عينا كبير الجند فكانتا ترصدان ردود أفعال النّاس تجاه هذه الكذبة العجيبة، وتنقلان لسيّدها أصداءها في كلّ مكان بعد أن أبدى النّاس اهتماماً غير مبرّر بكذبة سخيفة ممجوجة مثل هذه الكذبة الواضحة الافتراء. وفي غضون أيّام قليلة كانت هذه الكذبة العارية من الصّحة المستحيلة الحدوث مبسوطة باستفاضة أمام السّلطان في تقرير سرّيّ مرصود لفضح رموز الفساد في البلاد، وتجريمهم ومحاكمتهم، وردّ كلّ ما اختلسوه إلى خزينة الأمّة.

اشتمل التّقرير على اسم سارق واحد متّهم، وهو الإسكافيّ الكذّاب، وأشار إلى أنّه قد اختلس أخطر كنز وطنيّ، وهو نجمة في سماء السّلطنة، وهو مطالب بردّها إلى خزينة الشّعب لاسيما أنّه معترف بجريمته النّكراء التّي عليها شهود عدول على رأسهم حبيبته الخطيبة، في حين خلا التّقرير من اسم اللّص الأعظم في البلاد، وهو السّلطان؛ فمن يستطيع أن يومئ له بفساده مغامراً بدحرجة رأسه عن كتفيه؟! كذلك خلا من أسماء أيّ من الوزراء والمسؤولين والنّبلاء والشّرّفاء والمتنفّذين وكبار رجال الدّولة والجيش والسّياسة والأحزاب وحيتان التّجارة وسدنة المال والمصارف والإعلام وتجّار الدّين؛ فجميعهم لصوص كبار مسيّجين بالنّار والحديد والحرس والكلاب والأسوار العالية والسّلطة، ولا أحد يستطيع أن يلوّح لهم بتجريم أو عقاب أو محاسبة أو

قصاص، أمّا صاحب النّجمة فهو أرض حلال على كلّ باغ أو قاصد أو قاطع سبيل مادام ضعيفاً وفقيراً ومنكسراً ولا مال له أو نصير أو نفوذ.

السّلطان اللّص ثار وأزبد غضباً لحرمة السّماء ذات النّجمة المسروقة، وأعلن حكمه العدل في خطاب رسميّ سلطانيّ، وأعلن أنّ النّجمة حق وطنيّ، وتراث إنسانيّ حضاريّ، وعلى الإسكافيّ أن يردّها في التو والسّاعة إلى خزينة الشّعب، وأن يدفع غرامة كبيرة عن هذا الاختلاس فضلاً عن لزومه السّجن مدى الحياة ليكون عبرة لكلّ من تحدّثه نفسه باللّعب بمقدّرات الوطن، ونهب خيراته، والاستهانة بحماه، وقد أيّده الشّعب كلّه في حكمه العادل البائن الحزم! وتغاضوا بذل وتواطؤ عن أنّ النّجوم جميعها مرقومة في أمكانها في السّماء، ولا مفقود منها أو مسروق، وهذه حقيقة بائنة جليّة لتبرّئ الإسكافيّ المتّهم.

عندما سمع الإسكافيّ الكذّاب الحكم المنزل به أُسقط في يديه، واعترف بكذبه ومزاعمّه الملفّقة بسرقة النّجمة، وأوكل مهمّة إشاعة خبر اعترافه بكذبه لحبيبته الثّرثارة، لكن رجال كبير الجند كانوا لها في المرصاد، وكي يأمنوا ثرثرتها في هذا الأمر، فقد قطعوا لسانها، وأراحوها منه إلى الأبد بعد أن حرموها من موهبتها الفذّة المبهجة لقلبها.

في صباح ليلة مقمرة قضاها السّلطان يخطب في شعبه ناعياً لهم النّجمة المسروقة التّي ثبت بالدّليل القاطع أنّ الإسكافيّ قد هرّبها خارج الوطن، وباعها لجهات معادية نُصبت المشنقة للإسكافيّ المجرم عدوّ الوطن والمواطن وسارق النّجمة، ورأفة به فقد سُمح له قبل تنفيذ حكم الإعدام بحقّه بأن يُصلّي ركعتين استغفاراً لله على جريمته البشعة في حقّه وحقّ الشّعب والتّاريخ والسّماء والأرض والسّلطان والنّجوم وجهات أخرى رسميّة وشعبيّة، ثم أُقيم عليه حدّ سرقة النّجمة كما قرّره السّلطان، وقضى نحبه مكلّلاً بعار خيانة الوطن والمليك والشّعب، ثم تُرك طعاماً لجوارح الطّير وسباع الأرض، وبات نسياً منسيّاً.

مناماتُ السّهاد[1]

"أفلح من نام، وتعس من استيقظ" ([2])

(١)
منام السّلطان

سهد السّلطان ثم نام، فرأى في المنام يا سادة يا كرام فيما يرى النّائم أنّ الرّعية خرجت إلى الشّوارع تهتف باسمه، وتدعو له بطول العمر، وتسأل الله بإلحاح أن يأخذ ما في أيديها من عطايا، ويهبها للسّلطان، لينفقها في سبل لهوه، ودروب مجونه وعبثه، عندها خرج إلى شرفة قصره، وشكر شعبه على تقديره الرّفيع لشهيته الشّرّهة للّذائذ والمتع، وفي لحظة مجازفّة متهورة طلب من جنوده أن يفتحوا خزائن قصره للرّعية ليغرفوا منها ما يشاءون، ويمضوا إلى شؤون حيواتهم راضين مرضيين، وعندما بُرّز الجوهر والمال للشّعب، أشاحوا بوجوههم عنه، ورفعوا الأكفّ الدّاعية لله بطول بقاء السّلطان، وصمّموا على

١- حازت هذه القصّة القصيرة على جائزة صلاح هلال الأدبيّة في حقل القصّة القصيرة في الدّورة الـ ١٤ لها في العام ٢٠١٥، القاهرة، مصر.

٢ - ورد في أسفار المجرّبين والصّالحين المهزومين: "النّوم باب من أبواب البركة المستجلبة، وهو مندوب مُستحبّ عند الخاصّة والعامّة، والاستيقاظ باب من أبواب المنقصة -والمعاذ بالله- وهو مكروه، وفي بعض الأسانيد هو حرام لا خلاف في حرمته، والمستبدّون أعلم".

أن يضمّ ما في أياديهم من عطايا وهبات إلى كنوزه المكدّسة في غياهب سراديب قصره المنيف الرّابض على تلّة السّلطنة وعلى صدورهم الممتلئة أحزاناً وآلاماً.

فأسقط في يدي السّلطان من شدّة إلحاح الشّعب عليه بأن يضمّ قليلهم المقطوع من أقواتهم إلى كثيره المكدود من عرق ضنكهم، وتلطّف عليهم بأن تكرّم بقبول هداياهم، وصرفهم بلطف وهم يرفلون بحمده.

راح يرقبهم في منصرفهم غير آبه بأسمالهم التّي بالكاد تستر أجسادهم الهزيلة التّي براها الجوع، وقسمها الذّل، وكبّلها العوز والخوف، وغضّ الطّرف عن عيونهم التّي تزوغ بفضول في قصره تدهش لما فيه من مظاهر الخيلاء، وتحف التّرف، وأطربه دبيب خطى قدم تلك الحسناء الفلاّحة التّي تستر ثدييها برأس طفلها الرّضيع، وتلمّظ بتلاحق يقطّع نياط قلبه وهو يتخيّلها فريسة سهلة تنهشها أظلافه، وأرسل الطّرف لشهواته تلفّعها برغبته.

ما كاد زوج المرأة الفلاحة يلتقط نظرات مولاه السّلطان، حتى هزّه الطّرب، وأدركه الفرح، وزهد بزوجته، ورغب في أن تكون وجبة لذيذة في فراس السّلطان، فشدّ طفله عن صدرها، وهمس في أذنها بجبور، ثم تابع مسيره يحمل طفله يحثّ الخطى للابتعاد، في حين قفلت الزّوجة راجعة تيمّم نحو قصر الحريم لتكون هديّة الشّعب في هذا المساء للسّلطان الهمام!

عندها زاد حبور السّلطان بوفاء شعبه وإخلاصه له، وأمر جنده بأن يؤذّنوا بالنّاس أنّه تقديراً منه لظروفهم وتحميناً لتفانيهم في سبيل إسعاده، فقد قرّر أن يزيد الضّرائب والمكوس، ويشيع المصادرة العرفيّة لأملاك العباد، ويقنّن الأرزاق، ويحرث الجبال على أكتاف الرّجال.

فهلّل الشّهب ابتهاجاً بكرم السّلطان، وشخصت العيون إلى السّماء تسأل الله أن يمدّ في عمر السّلطان الرّحيم الحنون. ([1])

(٢)

منام الشّعب

سهد الشّعب ثم نام، فرأى في المنام يا سادة يا كرام فيما يرى النّائم أنّ الحياة قد صفت له، وأنّ كامل حقوقه قد ردّت إليه بقدرة حجاب فعّال نفث فيه نفر من الجان، وعقد عقده نجل الشّيطان، ورأى السّلطان يجرّ أذياله في الشّوارع والميادين، يتفقّد الرّعية، ويجبر خواطر المكسورين، ويردّ المظالم إلى أهلها، ويوقد نيران القرى للغادي والرّائح. وحوله رجال بطانته من الصّالحين العابديّن الخيّرين الذين لا يخشون بالحقّ لومة لائم، فيشدّون من أزره، ويضربون معه على أيدي الظّالمين، يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر.

بالعدل صفت الوجوه، وزهت العيون، وابتسمت الثّغور، وعمّ الخير، وآتت الأرض غلالها أضعافاً، وطرحت جناها في العام الواحد مراراً، فطهرت القلوب، وعفّت الأيدي والأجساد والذّمم، وعمّ الأمان، وانتشر الخير، وفاضت الهناءة، وما عاد في السّلطنة من ينام حزيناً أو مظلوماً أو خائفاً أو

١ - تتضارب الأقوال عن هذا المنام؛ ففي رواية سيئة السّمعة رُوي أنّ السّلطان أمر بفرمان مستعجل أن يتحوّل منامه إلى حقيقة حتى ولو سفك دماء الأبرياء الذين يرفضون أن يتورّطوا في منامه، وفي رواية ثوريّة ذكر الرّاوي إنّ هذا المنام كان المنام الأخير للسّلطان قبل أن تسفك مناماته جميعها على نصل مقصلة الثّوار.

جائعاً، وغدا همّ المواطن أن يسأل ربّه أن يهبه حسن شكر السّلطان الذي بفضله ازدانت الحياة، وجملت المعيشة. ([1])

(٣)

منامها

سهدتْ ثم نامتْ، فرأتْ في المنام يا سادة يا كرام فيما يرى النّائم أنّها سُميّت فرحاً عند مولدها؛ لأنّ والديها أرادا أن تحمل اسماً يكرّس مشاعر فرحهما العميق بمولد ابنتهما البكر التّي تمنيا دون توقّف أن تكون أنثى جميلة ترفل في الدّمقس والحرير، وتتربّى على العزّ والدّلال، وتملأ حياتهما بهجة وسعادة وغبطة، ولذلك سمّياها فرحاً.

الدّنيا كلّها كانت تفتح ذراعيها لفرح، القبيلة التّي لا ترى الحياة تكتمل إلاّ بمولودة أنثى جميلة كتبت باسمها حصتّها المقنّنة من أراضي المواليد الجدد، وظلّت تاج والديها إلى أن جاء أخوتها الذّكور إلى الحياة؛ فارتقوا بها لتكون جوهرة حيواتهم.

تفاصيل حياتها كلّها جاءت على قدر الأمنيّة، وعلى حجم الأمل، وعلى مساحة الشّوق؛ الدّراسة كانت متاحة أمامها حتى استكفت منها، والوظيفة العادلة ساوتها مع أقرانها من الرّجال العاملين بجدّ والنّساء العاملات بإخلاص، والأمير الوسيم الذي يسكن الغمام، ويحلّق على صهوة مهر أبيض مجنّح خطفها

١- هذا المنام سارٍ بأمر من السّلطان، ولو استيقظ الشّعب لعرف أنّ الأقدار تغيّرها السّيوف لا حجابات الجانّ.

في ليلة حلم، وطار بها إلى السّموات العلا، وأنزلها عروساً له في قصر المرجان في عنان السّماء.([1])

(٤)

منامه

سهد ثم نام، فرأى في المنام يا سادة يا كرام فيما يـرى النّـائم أنّ الأراضـي تهـب جنـى دون أن يزرعهـا، وأنّ تخـوم الـوطن تُـؤمّن دون أن يحرسـها، وأن النّجاح يُحصّل دون تعب، وأنّ الذّكر يعلو دون عمل، وأنّ فتاة الأحـلام تـوافي على السّاعة كما يكـون الأمـل، فيتزوجهـا دون أيّ معـرقلات، وينجـب منهـا فوارس زمنه وجميلات عصره، ويعيش تفاصيل قصّـة سـعادة كاملـة دون كـدر حتى يأتيه هادم اللذّات ومفرّق الجماعات.([2])

(٥)

منام السّعادة

سهدت السّعادة ثم نامت، فرأت في المنام يا سادة يا كرام فيما يـرى النّـائم أنّها قد غدت ماء كلّ شارب، وهواء كلّ متنفس، وقدر كـلّ مخلـوق، فآلـت إلى الرّكون إلى القلوب كلّها، وسارت في الدّروب جميعها، وصاحبت الأقدار جمعاء،

---

١ – حلم أنثويّ لم يعد سرّيّاً بعد أن سقط بالتّقادم.

٢– حلم ذكوريّ ذائع الصّيت، لكنّه عنين.

وأصبحت نصيب البشر كلّهم دون محاباة أو غبن، فهنئت بنفسها، وهنئت بهم.[1]

(٦)

منام الحظّ

سهد الحظّ ثم نام، فرأى في المنام يا سادة يا كرام فيما يرى النّائم أنّه قد أصبح زاد الفقراء؛ فعزّ أكثر وندر ولؤم وشحّ ثم فُقد. [2]

(٧)

منام المنام

سهد المنام ثم نام، فرأى في المنام يا سادة يا كرام فيما يرى النّائم أنّه قد خلص لنفسه، ووهب لذاته لأوّل مرّة منذ تكوينه، فاغتبط بفرصته النّادرة، وقطع ساعاته يحلم بحلم، ويبحث عن مأمول ليقتنصه، فأدركه الصّباح، وفرّ منه إليه، وأُسقط في يديه، وفاته أن يكونه ولو لمرّة واحدة في حياته. [3]

---

١ - يحدث في المدينة الفاضلة المزعومة.

٢ - حظّك هو جزء من حظّك.

٣- هكذا هي الحياة؛ منام لا يدرك مناماً.

حيثُ البحر لا يصلّي [1]

"البحر يذهب للصّلاة" كانت هذه الجملة هي إجابة أمّي الوحيدة والمكرورة والأكيدة عن سؤالنا الطّفوليّ عن مآل موجات البحر التّي تختفي في البعيد، فلا نعود نراها، ونظّنها تخوننا، فتهرب إلى البعيد لتداعب أقدام أطفال آخرين يصادقون البحر أكثر من صبيّة ثلاثة وطفلة صغيرة اعتادوا على أن يعيشوا معلّقين بين السّماء والأرض في أعالي جبال الأطلس حيث لا بحر ولا أمواج ولا موانئ، حسبهم بحيرات رقراقة موغلة في الصّمت والغموض والسّحر الخفيّ، وذلك الغناء الأمازيغيّ الحزين المترع بنبض اللّوعة، المبتلع قصص الحرمان والرّحيل والموت والتّفجّع جميعها، والمخلص لوجوه الجبل الأليفة حيثُ لا غرباء أو كلمات وافدة مجهولة المعنى.

كنّا نصّدق كلمات أمي، ونعلم أنّ الموجات الهاربة نحو البعيد تذكّرنا بإزوف موعد صلاة الظّهر حيث اعتدنا أن نصلّيها جماعة على رمال البحر الذّهبيّة المولعة بحفظ آثار أقدام العابرين والزّائرين، نصلّيها على عجل ممطوط إرضاء لخشوع أمي، لنعدوا بعدها متراكضين نحو بيت الخالة فضيلة حيث ينتظرنا السّمك الطّازج المشوّي وحساء غلال البحر، والخبز المدهون بزيت الزّيتون والشّاي المغربيّ الأخضر ذو الرّائحة النّفاذة التّي تغزو أنوفنا قبل أن ندخل البيت متدافعين لاهثين، ثم نلتفّ قعوداً متزاحمين حول طاولة خشبيّة

---

١ – حازت هذه القصّة القصيرة على جائزة معبر المضيق في دورتها الرّابعة في حقل القصّة القصيرة، مؤسّسة ثقافة ومجتمع الإسبانيّة، بالتّعاون مع إدارة قصر الحمراء وخنيراليف ومؤسّسة البيسين وجمعيّة اليونسكو من أجل النّهوض بالآداب في العام ٢٠١١، غرناطة، إسبانيا.

نخرة بأقدام قصيرة وطلاء مقشور، فتتسابق الأيدي التّي تفوق العشر على الطّعام الذي يبدو قليلاً مهما كثُر، وننسى البحر أصلّى أم لم يصلِّ.

عندما نغادر البحر بعد أيّام صعوداً إلى الجبل برفقة عمّي الذي يأتي ليصطحبنا إلى بيتنا بسيارته العجوز التّي نتكدّس فيها كسمك مملّح حيث تنتظرنا البحيرة والأشجار المثمرة ومقام الحاجّ علي والكسكسيّ الأمازيغيّ وطاجن الضّأن نجد أبي في أوّل القرية يفتح لنا حضنه الكبير الحنون المكرش، ويقبّلنا الواحد تلو الآخر بشارب معشوشب يخزنا بإصرار، فنصبر -على مضض- على الوخز المستفزّ خجلاً وخوفاً منه، ونبتسم، ونولّي نحو البعيد لنروي قصص البحر للجدّة وأبناء الأعمام والجيران، فتصرخ أمّي بنا آمرة بحزم: "صلّوا أولاً"، فنتذكر حينها أنّ البحر يستطيع أن يتهرّب من الصّلاة في غفلة من أمّه -إن كان له أم- أمّا نحن فلا مناص لنا من أن نصلّي الفروض على وقتها؛ فأمّنا التّقيّة العابدة صبريّة، ووالدنا من أسرة تتوارث الصّلاح والإمامة في الجبل منذ مئات السّنوات، وجدّنا الأكبر الحاجّ علي يرقد في مقامه الجليل يرقب الجميع برضا يتفاوت بمقدار النّقود التّي يدسّها الزّائرون على عجلٍ في يد خادم المقام الذي لا يبتسم لغير الأوراق النّقدية ذات الفئات الكبيرة.

هناك في الجبل كانت قصص البحر الذي يصلّي هي هديتنا لمن نؤثر من الأصدقاء والأقارب، نكبر جميعاً، ولا تكبر قصصنا، وتشيخ أمّنا أسرع من جدّتنا، وأبطأ من أبينا، وبحرنا المصلّي صبيّ لعوب لا يشيخ.

الصّلاة على وقتها كانت فرضاً علينا في صغرنا، ثم أصبحت ريحانة نفسي عندما كبرتُ، كنتُ أخالها الأجمل، حتى ذُقت قبلة العشق، فعرفتُ حينها أنّ القلب يجيد صلوات أُخر، وعندما صلّيت في محراب جسد ذلك الصّحراويّ

البرّي الباذخ الرّجولة، أدركتُ أنّ للعاشق ألف صلاة لا يعرفها غير من ذاق حلاوة الإيمان بالهوى.

يقولون إنّ العشق البشريّ فانٍ بفناء اللّحظة، لكن الحقيقة أنّه ممتدّ لا يعرف موتاً أو رحيلاً، وهو طاقة لا تفنى، لكن تتحوّل من شكل إلى آخر، وأجمل أشكاله هو ذلك الوجيب الذي كان يخفق في أحشائي منذ أسابيع، هو معجزة حبّنا العظمى، هذا الجنين المستلقي في غياهب قرار مكين هو الشّهادة الوحيدة على أنّ عشقنا قد ذاق جسدينا، فعطّل عزيز خططنا، وجاء سريعاً قبل أن نرتب أمور زواجنا أو نحمل أوراقاً شرعيّة تجهر بشرعيّة علاقتنا، جاء قبل أن يخطبني أبوه من أهلي كما وعدني، وقبل أن تزغرد أمّي وهي توزّع حساء الحريرة ([1]) والسّكاكر في الحمام المغربيّ ليلة زفافي.

هذا الجنين العاجز المتواري خلف أسابيع قليلة من الوجود أفسد فرحتنا بعشقنا، ووصم أمّه بالزّنا، وكبّل أباه بكلمة الفاجر، وألّب الأهلين علينا، وحاصرنا بالقتل، فهجّرنا بعيداً عن الجبل الذي يكفر بالحبّ وبالعشق وبالجسد، ولا يؤمن إلاّ بالأوراق الشّرعيّة وبالمأذون وبالزّواج، ويصلّي الصّلوات على وقتها، ويلعن العاشقين جهرة وخفية.

حتى البحر كان غاضباً علينا، ولم يتعاطف مع عشقنا العملاق الذي لا يخرّ مهزوماً أمام عشيرة أو موت أو طرد، هناك على ساحله الرّمليّ وقفتُ مع رجلي الصّحراويّ الذي كبر عقداً أو عقدين في شهر من الطّرد والضّياع في زقاق مدينة القصر الصّغير، كنّا نراقب من بعيد تلك الأرض المنساحة بعد البحر على رمال لا تخاف العشق أو الجسد أو الأجنة الذين لا يحملون أوراقاً

١- حساء مغربيّ شعبيّ يُقدّم في المناسبات والأعياد.

شرعيّة من مأذون أو من موظّف دولة، كنّا نحلم بتلك اللّحظة التّي سننزل فيها على ذلك الشّاطىء حيث أرض الأحلام التّي تستقبلنا، وتفتح أحضانها الماطرة المزهرة لجنيننا الذي لا يعرف من دنياه إلاّ أنّه ثمرة صلاة مجوسيّة اسمها العشق.

الضّفّة الشّماليّة هناك تلوّح لنا ببهجة لّماعة بأضواء المنارات والفنارات وواجهات المباني وإنارات الطّرق، وهنا على الضّفّة الجنوبيّة يحدّق بنا الموت الذي ننتظره على يدي أيّ غريب يقترب منّا؛ فلا حياة في عُرف القبيلة في الجبل لامرأة مثلي ولرجل مثل رجلي المعشوق؛ فكلّ منّا قد اقترف خطيئة الجسد، وعليه أن يدفع حياته ثمناً لها، لكن هناك حيث الأضواء اللّامعة في الشّاطىء الشّماليّ المقابل الحياة تُوهب مجاناً للعشق وللجسد وللسّعادة؛ لذلك اخترنا أن نهرب من هذه الأرض التّي تئد أبناءها بخطيئة الحياة إلى أرض النّور وميعاد الحياة، هناك سنتزوّج، وهناك سألد طفلي، وهناك سنكون إيّانا، وهناك سنصلّي الصّلوات جميعها على وقتها، فأنّى كان البحر، فهناك صلاة.

كنّا نحلم بأن ندخل أرض الأحلام يتأبط أحدنا ذراع الآخر مزهواً بفرصته الجديدة للحياة المفاخرة بالعشق وبالطّفل القادم مرهوناً بالبدايات الجديدة، كنّا نحلم بأن تستقبلنا إسبانيا بأردية ورديّة، وبأقداح من عصير العنب وحلوى القرى، أردنا أن تزفّنا أروح العظماء إلى مخدعنا هناك حيث الحبّ مسموح، والجسد مقدّس، والحرّيّة مكرّمة، والكلمة مصانة، أردنا أن نقول بأعلى صوتنا: "البحر البحر من خلفنا، والحياة من أمامنا، نحن لسنا الغزاة، ولسنا الفاتحين، نحن لسنا جيش طارق بن زياد أو موسى بن نصير، ولا فلول الإسبان وجموع البرتغال وفرسان فريناند وإيزابيلا، نحن لا بربر ولا عرب ولا إسبان، نحن ثلاثة لا رابع لهم، نحلم بمساحة صغيرة في هذا الكوكب تتسع لأحلامنا ولرغبتنا في الحياة".

لكنّنا لم نصرح بحلمنا؛ لأنّ إسبانيا لن تسمعنا! ومن لـه أن يسـمع مناجـاة امرأة ورجل هاربين بعشقهما من الأهل والوطن والذّات؟ وحـدهم عصـابات هذه المدينة من لهم السّطوة علينا لمفاوضتنا على أحلامنا، بصعوبة بالغة استطعنا أن نؤمّن لهم النّقود من أجل شراء مكـان لنـا في إحـدى البـاطيرات ([1]) التّـي تتسلّل إلى الشّاطىء الآخر محمّلة بالحالمين الذين يُسمّون باسـم المهـاجرين غـير الشّرعيّين.

أيّام الانتظـار لـدورنا كانـت طويلـة في مكـان يعـجّ برجـال العصـابات وبالسّكارى وببيوت الدّعارة وبالفقراء وبالغرباء وبالحالمين منتظري الدّور، وهم يتأبّطون أسرارهم وحقائبهم الصّغيرة وذكريـاتهم المهرّبـة معهـم نحـو المجهـول، كانت عصيبة لئيمة علينا في محاولات لتوفير المسكن والطّعام والشّراب بأرخص الأثمان؛ إذ نقودنا القليلة المهزولة لا تكفي إلاّ للنزّر الضّـروريّ مـن متطلّبـات البقاء على قيد الحياة.

كان من المفترض أن نسافر في قارب واحد، لكن الأمر تعذّر بسبب تأخّرنا في دفع النّقود، فنفِدت الأماكن، فكان على كلّ منّا أن يسافر في قـارب وحـده، وإلاّ فعلينا الانتظار لأيّام أخر، وهذا ما كنّا نطيق عليه صبرا، فاخترنا أن أسـافرُ أولاً في القارب الأوّل لأنتظر رجلي على الشّاطىء الآخر ليوافيني بعد سـاعاتٍ لا غير في القارب الثّاني.

بقبلة مطروحة على الخدّ على عجل وقلق افترقنا، كـان وجهـه المـذهول الشّاحب منارتي البعيدة التّي بقيت أرقبها من مكاني في القارب حتـى غـاب في الأفق، وغاب معه الوطن، وغـاب معـه المـوت والخـوف والتّهديـد الموصـول،

١- الباطيرات: هي أسماء القوارب الصّغيرة التّي تنقل المهاجرين غير الشّرعيّين إلى سواحل أوروبا.

وجنيني الوجل الذي لا يكاد يتحرّك في أحشائي هو ذخيرتي الوحيدة في هذا القارب حيث الضّيق والوجوه الغريبة التّي يرقص القلق على قسماتها رقصة الاستسلام للقادم أنّى كان.

سابقنا أمواج البحر دون انقطاع، مرات قليلة كنا نسبقها، وفي معظم المرّات كانتْ تسبقنا، وما كنتُ لأحصي ذلك؛ فقد أدركتُ أنّ الموجات لا تذهب للصّلاة كما تقول أمي، بل كانت الواحدة تذهب في إثر الواحدة لتستلقي على الشّاطىء الشّماليّ الذي لاح لنا بعد رحلة عصيبة تحوّلنا بقهر إلى كائنات ضعيفة مغضوب عليها تسابق اللّعنة، لعلّها تنجو منها بمعجزة من إله يقرّر في لحظة رضا نادرة أن يمدّ يده لعباد يُسلقون على مهل في مرجلٍ شيطانيّ آثم، شعرتُ حينها بأنّني حلزونة تتقدّد في ماء مغلي، وكرهتُ لأوّل مرّة في حياتي حساء الحلزون ([1])، ورثيتُ للحلزون المسكين الذي كنتُ أتلذّذ بأكله مسلوقاً، وأدركت متأخّرة معنى تلك الهيئة الكئيبة التّي كان يبدو عليها وهو مسلوق.

توقّف الزّمن في رحلتنا البرزخيّة الملعونة، وعلا الموج المتعالي بتكبّر فوق رؤوسنا، وطغى جبروته على سيرورة المسير، فماد القارب بركّابه في اضطرابٍ هزليّ يكاد يردّه إلى منطلقه الأوّل، وهو يغالب بضعف يكاد يصير بكاءً قدر الغرق، في حين طغى دوار البحر على ذاكرتي وانتظاري، فانسربتُ في دنيا من الأوهام والخيالات التّي تعجّ بالصّور والأصوات والرّوائح والكلمات، وغابت أرض الأحلام عن وجداني، وعجّت بي رائحة الجنس في مخدع العشق، وصوت الشّهقات والزّفرات، ووجه أمّي وهي تأمرني بالصّلاة قبل الأكل،

---

١ - هو حساء شعبيّ مشهور في المغرب، يتكوّن من الحلزون المسلوق في نكهة من الأعشاب المخصوصة لهذا النّوع من الحساء.

وترقرق البحيرة في الجبل، ورائحة البخور في مقام جدي الأكبر الحاجّ علي، وكلمات عربيّة وإنجليزيّة وفرنسيّة وإسبانيّة وأمازيغيّة مفهومة وغير مفهومة فاحشة ومهذّبة ينطق بها غرباء في سكّة الحديد، وفي حافلة الجبل القديمة، وفي النّزل الصّغير في طنجة، وتلوكها عاهرات المرفأ القديم، ويهدّد بها رجال العصابات المارّة، ويبصقها السّكارى وهم يتطوّحون أشباه عراة دون سراويلهم عندما تلفظهم الحانات ودور البغاء في آخر اللّيل عندما تفلس جيوبهم.

العالم كلّه توقّف في لحظة، ثم غاب، وانسرحتُ في دوار لذيذٍ بدأ متقطّعاً ثم غدا موصولاً.

لم أرَ أضواء الشّاطىء الآخر تستقبلني؛ لأنّني استيقظت من دواري اللّذيذ بعد ساعات طويلة من أفول القمر وبزوغ الشّمس التّي بحثت عنها في السّماء التّي تواجه ناظري مباشرة وأنا مسجّاة في مكاني، أزواج ثلاثة من العيون التّي لا أعرفها كانت ترقبني بشفقة وأنا أمسّد على بطني بهلع مضطرب، كأنّني أخشى على كنزي السّاكن في أعماقه من أن تمتدّ إليه يد السّرّقة أو البطش أو القهر أو الهلاك، تكوّره الصّغير النّافر بكبر لذيذ تحت ملابسي المبتلّة المتجعّدة كان إمارة صموده وبقائه، ابتسمتُ مطمئنة راضية، وغبتُ من جديد في دواري اللّذيذ.

لقد ذهبت اللّذة، وبقي الدّوار لا يفارقني، ولا أفارقه، واكتشفت أنّ دوار اليابسة هو أشدّ بأساً من دوار البحر وأعتى أثراً، لاسيما إن كان دوار اليابسة في أرض الأحلام حيث لا أحلام تتحقّق بيسر لغرباء، ولا دعاء بعودة غائب يُستجاب؛ فلا سماء تسمع صوت الغريب في هذه الأرض.

لازمتُ البحر لأيّام أنتظر حضور رجلي، لكنّه لم يحضر، البعض قال إنّه غرق مع الذين غرقوا في القارب الآخر الذي داهمته الرّياح العاتية في البحر،

البعض زعم أنّه نجا مع النّاجين الـذين تعهّـدهم الصّـليب الأحمـر بالرّعايـة ثـم أعادهم إلى المغرب قهر إرادتهم، وكيل العصابة التّي نقلتنا في قاربها أكّد لي أنّـه لم يركب البحر في تلك اللّيلة مع الرّاكبين، وأنّه قفل عائداً من حيث أتى بعد أن انطلق قاربنا نحو مبتغاه، قالوا الكثير، وسمعتُ الكثير، والنّتيجة كانت الانتظـار الموصول لرجل لا أعرف أهو من خذلني أم أنّ البحر غرّر به، وابتلعه على حين غرّة، ثم طواه في النّسيان ليورثني سؤالاً لا يفتر ولا يمـوت، وهـو: "أيـن اختفـى الرّجل الذي أعشقه؟"

هذه الأرض الجميلة أمّ حنون على بنيها، لكنّها زوجة أب شـريرة علـى الغرباء، هنا يهلّلون لحرّيّة الجسد، ويبكـون عنـدما يسـكرون؛ لأنّهـم يفتقـدون العشق الحقيقيّ، هم لا يبالون بأوراق الزّواج الشّرعيّة، لكنّهم يحرّقـون الغربـاء بالمطاردة والتّضييق عليهم في أحوال حياتهم ومعاشـهم جميعهـا في سـبيل أوراق إقامة رسميّة الحصول عليها أصعب من ركوب العنقاء.

هذه الأرض لم تهلّل لي، ولم تمـدّ يـديها لتلقـف صـغيرتي وهـي تنزلـق وحيدة على بلاط جحيمها الموشّى بـروائح نفّـاذة، هـذه الأرض لم تضـمّني إلى صدرها لتشفي جراح فقدي لعشقي وأهلي ونفسي، هذه الأرض لم تبالِ بلهفتي على أن أستلقي على أرضها حيث الحرّيّة والأمن بعيداً عن موطن قـد يغتالـك في أيّ لحظة بتهمة العشق أو التّحرّر أو ممارسة الجسد أو المطالبة بحقّ أو مسـاواة أو في لحظة طيش محموم غير مبرّر الأسباب، هذه الأرض سـرقت حبـيبي مـني، وسرقتني مني، وصادرت قلبي، واستولت علـى جسـدي، وسـجنتني في سـجنها الكبير المسمّى حرّيّة.

حاولتُ بدأبٍ وإصرار أن أجد عمـلاً، لكـن دون جـدوى؛ فـلا مكـان لمهاجرّة غير شرعيّة في هذه الأرض، سعيتُ بصدق وإخلاص كـي أجـد منفـذاً

من أجل الحصول على أوراق الإقامة الشّرعيّة، لكن ذلك يتطلّب الكثير من المال، والعمل المتواصل، والعلاقات المتنفّذة، وإتقان اللّغة الإسبانيّة، ولا مال باقٍ في حوزتي لذلك كلّه، في لحظات جوع كبير تعضّني، وتعضّ جنيني كنتُ أفكّر في العودة إلى موطنيّ حيث البحر يصلّي دون انقطاع، تمنّيتُ أن أُردّ إلى بيتي الجبليّ المعلّق في القمم السّوامق حيث تراتيل زوّار مقام الحاجّ علي، ووشوشات البحيرة، ووجه أمّي المخضّب بالقداسة والقناعة والصّلاح، حتى ولو ذبحني أهلي على بلاط حديقة منزلي لأكون عبرة لكلّ امرأة تحدّث نفسها بالعشق، لكنّني ما كنتُ أملك ثمن العودة للاستسلام لهذه المصير الذي ذرعتُ البحر هرباً منه.

الكلّ تخلّى عنيّ في هذه الأرض: إسبانيا وأهلي وحبيبي وأحلامي، وعشقي، وحرّيتي، وإبائي، حتى عفافي قدّ تخلّى عني؛ قالت لي رشيدة الوادي مديرة بيت الدّعارة في مدينة ملقا إنّ المعدة الخاوية لا تبالي بالجسد العاري، عندها سببتها، وطردتها من جحري حيث آوي مكرهة وحيدة، لكنّني بعد أيّام قليلة من الجوع كنتُ أسلمها جسدي المهزول المتفتّق عن بطنٍ متكوّر على حمل في أشهره الأخيرة، يومها نهقت بضحكاتٍ منضوحة من أعماقها النّتنة المتعفّنة حيث لا تسكن إلاّ النّقود المبتلّة بعرق أفخاذ فتياتها العاهرات اللّواتي تتاجر بأجسادهن ليل نهار، ثم قالت: "سأنقص من أجرك نصفه؛ فقليل من الزّبائن من يرغب في أن يسافد امرأة منتفخة البطن".

لم أفاوضها في ثمن جسدي؛ فمهما دُفع فيه يظلّ المدفوع زهيداً، لكن مع أوّل يد تجرّد الجسد من ستره، وتطرحه في فراش العهر يغدو رخيصاً لا قيمة له أو ثمن، أصبح جسدي دنساً، وكلّما انتهتْ مهمّته الكريهة، أسدر في ضحك

هستيريّ لا ينتهي إلاّ جبراً من أجل أن يقدّم خدماته الإبليسيّة من جديد لزبون آخر مقابل حفنات من الأوراق النّقديّة المدفوعة مسبقاً لرشيدة.

حمقاء أنا، ومنكود جسدي، وملعونة هي أحكام عالمي المعلّق هناك في الجبل، أرادوا أن يسفكوا دمي؛ لأنّي وهبت جسدي للحظات لرجل أعشقه، فها أنا ذا أبذله رخيصاً في هذه الأرض لكلّ باغٍ، فما تراهم سيفعلون أولئك الحفنة من الظّلمة لابنتهم التّي تحترف البغاء في ملقا؟

طفلتي آمال هي تعويذتي المقدّسة الوحيدة في هذه الأرض حيث لاشيء غير دنسي، أطعمها من أثمان جسدي الذي تنهشه كلاب الطّرق دون انقطاع، أتقن أن أواريها سرّاً بعيداً عن يدي رشيدة في دار رعاية خاصّة، وأدّخر كلّ ما أحصل عليه من مال كي أدفعه أقساطاً لتلك الدّار كي تبقى بعيدة عن المستنقع الذي أعيش فيه، قلّما أحظّى بفرصة كي أراها، وأرافقها في رحلة إلى البحر الذي ابتلع أحلامي كاملة، وسرقني منّي، أضمّها عندئذٍ إلى صدري الذي أعتاد على أظلاف الرّجال تخمشه بوحشيّة من يتبرّز على سجّادة طاهرة اشتراها من عبد آبق منكود، أروي لها قصص أرض الأحلام حيث منزل الجبل والبحيرة ومقام الحاجّ علي، وعندما تسألني متى نذهب إلى تلك الأرض، اتّجاهل سؤالها الطّفوليّ الحلو، وأشرع أراقب معها الموجات تتسابق راكضة للانكسار في الأفق، فتسألني آمال بفضولٍ بادٍ: "إلى أين تذهب الموجات؟"

ابتسم لها ابتسامة عريضة، وأقول لها وعيناي تزوغان نحو الشّاطىء الجنوبيّ: "تسافر نحو البحر الذي يصلّي".

فتسألني باستغراب غارق في طهر سنواتها الخمس: "ألا يصلّي هذا البحر الذي تسكنه هنا؟"

أجيبها بحرقة محلاّة بابتسامة مصنوعة بإحكام: "البحر هنا لا يصلّي يا آمال!" تتملّك آمال نظرة حيرى بريئة، وهي تنعم النّظر في قسماتي كأنّها تستبين الصّدق من الكذب فيما أقول، وتسأل بصرامة من ألقى القبض على آثم: "وأنتِ يا أمّي ألا تصلّين؟"

أضمّها إلى صدري سريعاً كي لا ترى دموعي الخائنة لهيئتي المتجمّلة بمبالغة رخيصة: "أمثالي من النّساء لا يصلّين يا آمال، أنا يا آمال..."

يعلو صخب هدير البحر، فيطغى على صوتي، فلا تسمع آمال كلماتي، ولا أجرؤ على أن أكرّرها على نفسي من جديد، فأصمت بذلّ من يبتلع لسانه جبراً، ويظلّ البحر يهدر وآمال تحدّق في الموجات الهاربة نحو البعيد...

الضّياع في عيني رجل الجبل [1]

"له الخيال أن ينسج لقاءك، ولا يمكن أن أقبل بإنكار الـدّاكرة لـذلك؛ لابـدّ أنّني قد قابلتك في زمن ما، في قصّة ما، وهذه قصّة تصلح لهذا اللّقاء".

تحرّضني الكتابة على كتابة الرّجال والأحداث، لكنّكَ وحدكَ دون العـالمين من يهبني دواراً جميلاً يكتب بأريجه الجبليّ حـدثاً كونيّـاً فلكيّـاً ووجوديّـاً لقلـب ينبض فيّ اسمه أنتَ.

تضجّ أصوات الغابـة ونـداءات الطّبيعـة وغريـزة الاشـتهاء في قلـبي إزاء حادث استثنائيّ، اسمه الاقترابُ منكَ، من الممكن أن ألخّص معجزة لقائي بـك من باب الاستحياء أو الجبن أو الهـروب مـن سـحركَ بوصـف الإعجـاب بـكَ وحسب.

لكن لأنّني سأحجم من -دون شكّ- عن إعطائكَ هذه الرّسالة، وبـذلك لن تقرأ ما فيها، فدعني إذن أكتب فيها ما أشاء، ما دمت لن تعرف أبداً بوجـود هذه الرّسالة على الرّغم من درايتـك بـالكثير مـن الخفايـا، لكـن لسـوء حظّـي وحظّك فإنّك ستجهل وجود هذه الرّسالة في الكون، ولن تدري أبداً بأنّ هنـاك امرأة عاشقة لكَ جاءت من زمن المستحيل لتلقاكَ لساعات مسروقة من الـزّمن الآثم، فتهبكَ قلبها دون حول لها ولا قوّة، ثم تستسلم طائعة للنّسيان والابتعـاد ما دامت لا تملك غيرهما، ولن تدري كذلك بأنّ هذه المرأة كتبـت لـكَ في ليلـة

---

١ - حازت هذه القصّة القصيرة على جائزة منظّمة كتّاب بـلا حـدود/ الشّـرّق الأوسـط الثقافيّـة بالتّعاون مع مجلس الأعمال الوطنيّ العراقيّ في حقل القصّـة القصـيرة في العـام ٢٠١٢، بغـداد، العراق.

رحيلها المشؤم عنك ما يتمنّى أن يسمعه أيّ رجل من امرأة عاشقة، وما يجب أن تتمتم به امرأة عاشقة حدّ الجنون مثلي لرجلها المُصطفى.

تبدأ الحكاية من ألف صدفة قادتني جميعها إلى قدر مُشتهى اسمه لقاؤكَ، حيث جئتُ إلى مدينة الجبل العنيد أتوقّع أيّ شيء إلاّ أن ألقاك؛ فلطالما اعتقدتُ بأنّكَ فكرة أو حلم؛ لأنّكَ أجمل من أن تكون حقيقة. لكن عندما طرق صوتكَ أذني في أوّل لقاء لي بكَ أدركتُ أنّ الإله أراد في لحظة خلق جديد لأقداري أن ينحاز إليّ لسبب مجهول كي أسعد بكَ ولو لساعات قليلة، وأقبل بعدها بالموت بعد أن أدركتُ أنّ الأحلام يمكن أن تكون حقيقة.

لقد أدركت أنّ الظّروف جميعها التّي تحالفت ضدّي المرّة تلو الأخرى من أجل أن تمنعني من المشاركة في المهرجان لأكثر من دورة، ثم عادت بخبث للتّكالب عليّ لتمنعني من الحضور حتى في هذه المرّة ما هي إلاّ خدع حقيرة من إله الألم كي أُحرم من مقابلتكَ؛ الظّروف جميعها كانت ضدّ أن نلتقي كما كان الزّمن ضدّنا سلفاً، فمُنعنا من اللّقاء منذ زمن طويل، أمّا الآن فما عاد للأقدار طاقة على حرمانكَ مني، أو حرماني منك، فقد التقينا، وما كان كان، وقد آن زمن العشق، بعد أفل زمن الحرمان والأمنيات المؤجّلة، فاقبلْ نحوي يا مولاي، وأخيراً هزم عشقنا العجيب أقدار البعاد اللّئيمة، فأنا مرسلة إلى الأرض لمهمّة واحدة، وهي أن أحبّك، وأنتَ مخلوق في نظري لمهمّة واحدة، وهي أن تعشقني، فليقم كلّ منا بواجب وجوده، ومعنى كينونته، فقد ضاع منا الكثير من العمر سدى.

أتعرف كم قبلة فاتتنا؟ أتعرف كم مخاصرة حُرمنا منها؟ أتعرف كم مضاجعة لم نقم بها؟ أتعرف كم ليلة ماطرة لم أكن فيها في حضنكَ؟ أتعرف كم شهوة قتلتها في نفسي في انتظاركَ؟ أتعرف كم صبوة نذرتها لكَ؟ أتعرف كم

كلمة من المستحيل نحتّ لكَ؟ أتعرف كم بحثت عنكَ؟ أتعرف كم انتظرتكَ؟ أتعرف أنّ جسدي ودمائي منذورة لكَ؟ إذن عليك أن تقبل نذوري متقبّلاً حسناً، وأن تحرقني في معبدكَ اللّذيذ ما دمت ناراً وإلهاً واحتراقاً، وأنا أشتهي الاحتراق بكَ يا من انتظرتني، أنا متأكدّة من أنكَ انتظرتني طوال عمركَ.

لا قيمة لسنينكَ الماضية وتمرّدكَ وهزائمكَ وغنائمكَ وسلطتكَ ودموعكَ وخطاياكَ وآثامكَ وحسناتكَ ونسائك وكؤوس خمرتكَ دون لحظة تمضيها في قلبي هذا المخلوق الأسطوريّ الهارب من قصص العشق المستحيلة ليهبكَ ذاته، وسعادتكَ القدريّة معي، لا قيمة لكلّ رجولتكَ ولسيفكَ الرّجوليّ المثير إن لم أكن غمده الأبديّ، لا قيمة لكلماتكَ إن لم يحسن ثغركَ الكرزيَ المشهّي تقبيلي، لا قيمة لأنوثتي إن لم تسعدكَ وتفتنكَ، وتمتصكَ حتى آخر قطرة من رجولتكَ التّي أراهن عليها بعمري وجلال افتناني.

صوتكَ المسروق من مراقص الجنّة أوّل من قَبّل حضوري منكَ، وطبع قبلة استوائيّة على قلبي الممطر، وارتدّ إليكَ ليزيّن كمال بهجتكَ الرَجوليّة الباذخة الغارقة في ترنيمة الحياة.

منذ أن وقعتْ عيناي عليكَ اشتهيتكَ كما لا ينبغي لامرأة من زمن الارتحال أن تشتهي رجلاً، وكلانا من زمن لعنته، وخيارات احتراقه. جلستُ أمامكَ أسمعكَ لساعات، حفظتُ قسماتكَ وتنهداتكَ، داعبتُ روحكَ، سكنتُ انعطافات صوتكَ وارتفاعاته وانخفاضاته وأزمانه ومواسمه وجغرافياته. تمنّيتُ حينها أن يختفي العالم كلّه لأستأثر بكَ دون العالمين ولو لدقائق. دختُ بكَ، وتمنّيتُ لو كان في إمكاني أن أحضنكَ لتكفّ الأرض عن الدّوران.

صوتكَ أوّل من تآمر على ضعفي أمام سحر حضوركَ، كنتَ تتكلّم حينها على المنصّة، وكنتُ الضّيفة المتأخّرة التّي جاءت من مكان بعيد قريب لتقف إلى جانب باب القاعة التّي تضجّ بالأصوات والحضور، لا أعرف بعدها ما حصل معي، فقد انتحرتْ ذاكرتي عندها، ونسيت كلّ من معي من أصدقاء، وهدف وجودي في المكان، وكيف حضرتُ إليه، وماذا أفعل فيه، ولماذا أنا دون غيري أغرق في وهيج وجهكَ البهيّ الذي يمطر المكان بقسمات من نور، وبصوت رجوليّ مثير يهزّ المكان بترنيمة مزمار إلهيّ يُعلن موتي وبعثي من جديد.

وها قد متّ فيكَ وبكَ ولكَ منذ أن سمعت صوتكَ، ووقعت عيناي عليكَ، فهل يمكن أن تبعثني يا أنتَ امرأة حيّة تسعى من جديد بعد أن قُتلت قبل قليل فيكَ وبكَ؟ وهل تدري الآن أنّ امرأة جاءت من المستحيل تلبس الأخضر، جالسة مواجهتك تماماً، تفهم كلّ كلمة تقولها بلغتكَ التّي تجهلها، وترفض أن يترجم لها أيّ صديق ما تقول على الرّغم من جهلها بلغتكَ؛ لأنّها تفهمكَ بقلبها الذي أنفق سنينه وانتظاره على مرفأ الاشتياق يرتقّب حضوركَ، الآن ما عاد اللّقاء يكفي لأن يطفئ شوقي، فأيّ شوق يسكن باللّقاء لا يعوّل عليه، وأنا أحترق الآن أمامكَ يا سيّد الكلمات والمواقف والتّاريخ الطّويل من التّمرد والعصيان والغضب النّبيل، هل يمكن أن تتمرّد الآن قليلاً على تمرّدكَ لتبصرني؟ فقد جاء زمن فتحي في قلبكَ، وأنا لن أعود أبداً دون قلبكَ.

كان يكفي أن تنظر في عيني لدقيقة لتعرف أنّنا التقينا منذ ألف عام في ألف حكاية، لنلتقي الآن في حدث جديد اسمه عشقي لكَ.

غادرتُ القاعة بعد انتهاء المحاضرة، وبقيتُ معكَ، وبقيتَ معي، وظلّ دوارِكَ اللّذيذ يصيب روحي بالبلل وكبريائي بالجفاف، وغاب كلّ شيء إلاّ طيفكَ وفحوى إعلان محبوس يجوس في أعماقي، فيخنق مقاومتي، ولا يختنق.

سالتّهم بجهلي الخرافيّ من تكون؟ فقالوا لي إنّ اسمكَ سيّد الجبل، وعرّفوا بكَ طويلاً، لكنّني ما سمعت شيئاً ممّا قالوا، فقد غبتُ في اسمكَ، وراقصته، وضممته إلى صدري، وحفظته، ثم ابتلعته، وأسميّتكَ كما شاء العشق لي: "حبيبي".

الخطوات كانت بيننا معدودة، كان من الممكن أن أقطعها بثوانٍ، لأقول لكَ: "أهواكَ، هل طال انتظاركَ لي؟" كان من الممكن أن أفعل ذلك، فقد رأيت في عينيكَ في العميق السّاحر بارقة رؤية لي تنبئني بزهو بأنّ رسالة عيني وصلتكَ بسلام، وحلّت في نفسكَ برداً وزلالاً، وأنّ روحك تمتدّ أيادي وأكفّاً وأنامل كي تمسّد على روحي، وتدفعني نحو صدركَ الذي ألمح من مكاني العابث بعض شعره الذّكوريّ المثير الذي يثور على هندامكَ الجميل الرّزين، ويندفع من طوق قميصكَ المقلّم المفتوح الزّر العلويّ.

لكنّني عجزتُ عن أخطو خطوة في اتّجاهكَ، وهرعتُ إلى خارج المكان، لأسجّل أوّل هزائمي أمام عينيكَ، أخذتُ نفساً طويلاً لأبارِكَ هروبي، تفرّستُ في اللّوحات الفارسيّة المعروضة في بهو قاعة المهرجان، وأطلتُ النّظر في اللّوحات، وفكّرتُ في أن أقبّلها؛ إذ أطلّت صورتكَ الملائكيّة، وصوتكَ الفردوسيّ من كلّ واحدة منها، فانتحرت التّفاصيل الأخرى في لحظة واحدة، وذابت الألوان والوجوه جميعها، حاولت عندها أن أتلو اسمكَ على نفسي؛ لأستعيذ به منه، لكنّني عجرتُ عن أن أتذكّره، فابتسمت غير مبالية بخطيئة نسياني له؛ فما جدوى أن أحفظه، وأنت لا تدري بوجودي، ولا تعرف منّي

وعنّي غير نظراتي العاجزة اليتيمة التّي لا تملك معكَ ذاكرة سوى ساعات قليلة أمضيتها أسمع عزيف صوتكَ يعرّيني من صمتي، ويغزو جلـديّ، ويطبـع ألـف أمنية على أديمه المسكون بكَ منذ قُدّر عليك ذلك. عنـدها غرزتـكَ في سـويداء قلبي، وناديتكَ باسم حبيبي، فالتفتْ إلى نجواي السّماء والأرض وما بينهمـا مـن خلق سوى البشر. فهل سمعت ندائي لكَ في تلك اللّحظة؟ تمنّيتُ أن تكون قـد سمعت ندائي، وكدتُ أجزم بأنّكَ قد فعلت.

لا أعرف كيف يمكن أن ألقاكَ من جديد في هذا العالم المحموم، كـان اللّقـاء الجماهيريّ مع الضّيوف في ذلك المساء هو أملي الوحيد في أن أراكَ من جديـد، وأصافحكَ، فأزرع ألف قبلة من روحي في راحة يدكَ، لعّل هـذه القبـل تخـبركَ بأنّك بتّ تجري مني مجرى الدّم في الشّريان، كانت فرصـتي كـي تنظـر في عـيني، عندها فقط سوف ترى ما لعلّكَ تبحث عنه طـوال عمـركَ. ولعـلّ الفرصـة لا تواتيني كي أقترب منكَ، فأحترق بكَ من جديد، وأصـبح هبـاء منثـوراً دون أن تعلم أنّ رسولة عشق السّماء قد مرّت بكَ دون أن تلتفت إليهـا، فيحـرم كلانـا من البعث المقدّس في عشق خالد يمكن أن يصبح حقيقـة لـو حضـرتَ إلى لقـاء مدير المهرجان أو حضرتَ العشاء الذي يليه في أسوء الاحتمالات.

ليلتها لبستُ ملابس بيضاء، ورششتُ عطراً أبيض، وحملتُ قلبـاً أبـيض، وعشقاً أبيض، وانتظاراً أحمر لظى، وانتظرتكَ بأنوثتي ورغبتي وعشـقي وخفقـان قلبي، وارتعاشات جسدي، ونداءات روحي، لسـاعات طويلـة انتظرتُـكَ، لم أرَ أحداً من الحاضرين على الـرّغم مـن كثـرتهم، ولم أسمـع أيّ كلمـة، ولم أفـرح بمغازلـة أو معلومـة أو حـديث أو تعـارف أو عشـاء أو موسـيقى أو جمـع مـن الأصدقاء والمعجبين، وكتمتُ في نفسي حزناً أبيض يليق بالتّفجّع على غيابـكَ، واستسلمتُ لحقيقة أنّك لم تحضر اللّقاء أو العشاء، وزجرتُ نفسي الملحاحة التّي

بكت لي متوسّلة طويلاً كي أسأل عنكَ، لكنّني صممتُ أذني دون توسّلاتها الرّعناء، ولم أسأل عنكَ، وغضضتُ الطّرف عن ألمي، وأسئلتي المتكرّرة: "من أنتَ؟ وأين أنتَ الآن؟ ولماذا لم تحضر؟ وهل سأراكَ مرة أخرى؟ وكيف؟ ومتى؟"

رسمتُ ضحكة عملاقة على وجهي، وانتحبتْ أمنياتي طويلاً بصمت جليل، وسلّمت لفكرة غيابكَ لطارئ ما مثلاً، ومنعتُ نفسي من شعوري القويّ بوجودكَ في حفل العشاء على الرّغم من أنّني لا أراكَ أبداً في المكان، وأمّلتَ نفسي بلقاء قريب، فوقت رحيلي يقترب، وفي النّفس ألف أمنية مؤجّلة، وألف اعتراف مقدّس، والرّسالة الوحيدة التّي أحملها في جعبتي للعالمين هي أنّني عاشقة لكَ، ولتحترق الدّنيا بعد ذلكَ.

الموسيقى التّي يعزفها العازف الوحيد على المنصّة جميلة وحزينة، أمّا غناء ذلك المطرب الوسيم فلا أفهم كلّمة من كلمات أغنيته، لكنّني أشعر بكلّ نغمة وأفهم إحساس كلّ كلمة، لا أزال أشعر بأنّكَ هنا معي في العشاء على الرّغم من عدم رؤيتي لكَ، هل يمكن أن تراقصني على هذه الأنغام؟ لابدّ أنّك تملكَ أجمل حضن في الدّنيا، يا إلهي كم سأكون أثرى امرأة في التّاريخ البشريّ عندما تأخذني إلى صدركَ، عندما يتكسّر ثدياي على صدركَ، عندما يتآلف كلّ نافر وبارز من جسدينا، فيستقرّ كلّ منها في تجويف جسد الآخر! كم سيكون فاتناً أن أشمّ رائحة جسدكَ! كم سيكون ساحراً أن تشمّ رائحة شعر رأسي! سأفتن - دون شكّ- عندما تطوّقني يداك، وتمتدّ يداي إلى رأسكَ، فتغرق أناملي في خصل شعركَ الفضّيّ الذي يسبي قلبي كلّما أبصرته، ويستريح رأسي على يسار صدركَ لأسمع وجيب أعماقه، فأرقص على نبض قلبكَ، وتدفّق رغبتي وشهوتي، يا إلهي عندها سيتوقّف الزّمن دون شكّ، قد نمضي القادم من عمرنا في هذه

الرّقصة، أنا شخصيّاً مستعدّة لأن أقايض عمري كلّه مقابل رقصة واحدة لي معكَ؛ كم مرّة أستطيع أن أراقص إلهي البشريّ؟ مرة واحدة فقط في العمر إن حالفنّي الحظّ، وأنا الآن المرأة القادرة في هذا الكون على أن تسعد قلبكَ، أتعرف لماذا؟ لأنّ عشق النّساء الماضي والقادم والمفترض والمأمول والممكن والمستحيل قد جمع كلّه في قلبي لكَ. فهنيئاً لكَ يا سلطان قلبي؛ فهو شعب من العشّاق لكَ اسمه أنا.

ليلتها عدّت إلى الفندق، وجلستُ طوال اللّيل في سريري عارية شاردة في دنيا لم أدخلها من قبل، متعبة من رقصتنا الطّويلة الجميلة التّي أدّيناها في خيالي وأحلامي، وبكيت بحرقة، فأخيراً طرق العشق قلبي، كم انتظرتُ هذا العشق، وتغسّلتُ لأجله مليون مرّة بماء الورد ومنقوع الزّعفران وخلاصة زيوت النّماء، ونذرتُ له نذور الدّنيا جميعها، وتنسّكتُ في محرابه حتى كدتُ أحمل نبأ نبوّة من السّماء، وهاهو الآن يأتي معطّراً بالحرمان، ومدثّراً بجيش من الحرس الذين يقفون بيني وبينك، كيف أقول لكَ أنّني أهواكَ؟ وغداً هو اليوم الأخير لي في هذه الأرض، فهل أحمل جنوني، وأحزم غرامي، وأطير نحو عالمي بأجنحة كسيرة لا تقوى على أن تحمل قلبي الكسير، أو على أن تحلّق بروحي المشدودة نحو أرضكَ التّي بتُّ أعشقها؛ لأنّك تسير على ثراها؟ أم أصمت للأبد؟ وابتعد عنكَ دون أن أزفّ إليكَ أحلى خبر في حياتكَ؟ إذن لأتلو على نفسي حتى الصّباح ما أعجز عن أقوله لكَ مباشرة: "أنا أعشقكَ، أعشقكَ، أعشقكَ، أعشقكَ".

أحاول أن أنام، فأخفق في ذلك، لماذا أتمنّى في هذه اللّحظة أن يحصل كلّ مستحيل ومرعب ومخيف، فأجدكَ أمامي هنا في هذه الغرفة، لا أعرف بماذا يمكن أن أسمّي ذلك، لكن هذا ما أتمنّاه، أن أراكَ تداهم غرفتي، وتقف أمامي

مباشرة، ماذا سأفعل حينها؟ هل سأسارع إلى أقرب قطعة قماش أستر بها جسدي؟ هل سوف أتخفّى خلف شعري المسدول؟ هل سوف أرتمي في حضنكَ؟ ولتحترق الدّنيا، وماذا ستقول لي؟ بل ماذا سأقول لكَ؟

أنا أعرف ماذا سأقول لكَ، سأحكي لكَ عن سنين انتظاري، سأخبركَ عن جسدي المنذور لكَ، وعن شعري الذي ربّيته طويلاً من أجلكَ، وقصصي التّي تنبّأت بكَ، وعن سير الرّجال العاشقين لي الذين رفضتهم في انتظاركَ، سأخبركَ عن سيرة جنوني، وحكايات شطحاتي، وطرائف ذاتي، سأروي لكَ تفاصيل أحلامي بكَ قبل أن أراكَ، سأريكَ تلكم اللّوحات التّي رسمتها لوجهكَ قبل أن أصدفكَ، سأحدّثكَ عن هزائمي جميعها، سأسمح لكَ بأنّ تشمّ جلديّ وتلمسه، لتذق فيه نكهة الملح وماء الورد والحليب التّي أحمّمه به صباح مساء كي يحافظ على جماله ونقائه ورقته، سأعترف لكَ بأنّني قادمة إليكَ بأحزان كثيرة جميعها احترقت بمجرّد رؤيتكَ، سأجعلكَ تشهد على إخلاصي لكَ حتى قبل أن أراكَ، فأنا على ميعاد معكَ، ومن لها ميعاد معكَ عليها أن تدّخر جواهرها وتاريخها من أجلكَ.

ماذا عنكَ؟ بماذا ستخبرني حينها؟ أنا لا أريد أن تخبرني بأيّ شيء، غاية فردوسي أن أكون لكَ، وتكون لي.

كان من المُقرّر لي من قبل الأصدقاء أن لا نذهب إلى الجلسة الصّباحيّة في المهرجان كي نقوم بالكثير من الفعاليّات التّرويحيَة والسّياحيّة في المنطقة، لكنّني اخترعتُ عشرات الحجج والأسباب كي نمرّ على المهرجان ولو قليلاً لعلّي أحظّى برؤيتكَ ولو من بعيد.

كاد قلبي يطير من صدري عندما رأيتُ حرسكَ في الخارج، فأدركتُ أنّكَ موجود في المكان، هان علي في لحظتها أن أقبّل الحرس الواحد تلو الآخر فرحاً بخبر وجودكَ، وشكراً لهم لأنّهم يلتفّون حولكَ في هذا الصّباح الجميل.

استأذن لي الأصدقاء مرافقكَ كي أراكَ، شعرتُ بأنّ انتظاري للإذن طال لعام كامل يقيسه البشر بدقائق، وأخيراً آن لي أن أراكَ، حملتني الأماني إليكَ، ما عدتُ أسمع حتى صوت وجيب قلبي، وشعرتُ بأنفاسي تتوقّف وجلى إكراماً للاقتراب منكَ، وأخيراً وقفتُ بين يديكَ، صافحتني بحرارة، فنسيتُ أصابعي وشهقاتي بين أنامل يدكَ، آن لي أن أستنشق رائحتكَ، أن أتفرّس في ملامحكَ، أن أقبّل كلّ شعرة من شعر رأسكَ الغزير، قلت لكَ أنّني سعيدة بلقائكَ، ومعجبة بأدائكَ اللّغويّ المعبّر والجميل بلغتكَ، ومنعت نفسي من أن أقولَ لكَ "أنّني أعشقكَ، هل تعشقني؟ هل تؤمن بالحبّ من النّظرة الأولى؟ خذني إلى حضنكَ".

رأيتني في عينيكَ، وشعرتُ بهالة نوركَ تحتضنني بشهوة غامرة، وتطبع قبلة على فمي أنستني الافتتان كلّه، لتخلقه من جديد في ذوباني فيكَ في هذه اللّحظة.

بابتسامة منكَ، وطيفكَ يهصرني في حضنكَ اجتاحتني أمطار الدّنيا جميعها، أمطار عشقي، أمطار دموع فرحتي، أمطار شهوتي التّي غزت جسدي الصّحراويّ الذي لم يعرف يوماً الأمطار، لتثبت له أنّ فيه أجمل واحة، وأغزر مياه متدفقة تنتظركَ كي تستحم فيها برجولتكَ المائيّة، وتهبها من مائكَ الخالد الذي أنتظره منذ خُلقت.

أقسم أنّكَ تعشقني كما أعشقكَ، أقسم أنّكَ في هذه اللّحظة عرّيتني كما عرّيتكَ، أقسم أنّكَ غارق في شهوتكَ كما أنا غارقة فيها منذ رأيتكَ.

دعني أطبع على فمكَ قبلة حرّى حتى نلتقي هذا اليوم في المساء في مكتبكَ كما اتّفقنا، أخيراً وجدتُ حجّة -ولو كانت واهية- كي أراكَ، هذه إذن فرصتي الأخيرة كي ألقاكَ، هل يمكن عندها أن أرتمي على صدركَ، وأصمتُ؟ فتفهم كلّ ما تعجز كلماتي عن أن تقوله لكَ.

امرأة الفرح أنا، أتعلم ذلك يا حبيبي؟ أنا مخلوقة للفرح وبالفرح؛ أحبّ الحياة، أحبّ نفسي، أحبّ المباهج، أحبّ السّماء والأرض وما بينهما من بشر وملائكة وشياطين وخلق، والآن أنا أعشقكَ أكثر من كلّ شيء أحببته في حياتي، خذني وأرضي وسمائيّ ومباهجي وعشقي، وهبني قلبكَ المتمرّد الذي ما أتقنت امرأة في هذا الكون أن تداعبه كما يجب، أنا امرأة فرحكَ الأزليّة، هبنيك، لأهبك إيّاي، أحبّني كثيراً، لأحبّكَ أكثر، كن لي سيّداً، أكن لك جارية، كن لي سماء حامية، أكن لكَ أرضاً مخلصة، كن لي عالمي، أكن لكَ أقداركَ.

بعيداً عنكَ أخذني الأصدقاء، صمّموا على أن يطوفوا بي في مدينة الجبل وفي بحيرة النّور، وما دروا أنّني أريد أن أطوف الآن في قلبكَ وجسدكَ، ويكفيني أن أسعد بقربكَ على أن أوهب الدّنيا وما فيها.

قالوا لي إنّ مدينة الجبل رائعة، وأنّ البحيرة خلاّبة، وأن السّمك لذيذ، والجوّ ساحر، وهكذا أخبرتكّ كاذبة عندما سألتني عن انطباعي عن الزّيارة، وقالت لكَ عيناي وهما ترتجفان أمامكَ وأنت تعريّ جسدي بجمالكَ أنّني لم أرَ شيئاً سوى وجهكَ وأنفاسكَ ولمسة كفكَ تطاردني في كلّ مكان.

دعوت متضرّعة أن تقصر اللّحظات كي تفنى، فتنتهي هذه الجولّة السّياحيّة اللّعينة؛ لأعود إلى المهرجان، وأراك من جديد، لكن اللّحظات قد خذلتني، وطالت بلؤم وتجرّؤ على ضعفي وانكساري حتى بتّ أخشى أن أموت قبل أن

ألتقيكَ، وما كنتُ لأبالي بالموت؛ فأنا واثقة من أنّ قبلة واحدة من ثغركَ الإلهيّ قادرة على أن تردّني إلى الحياة من جديد.

أخيراً عدتُ إلى المهرجان، وكنتَ في انتظاري، أراهن على ذلك، فقد رأيتُ في عينيكَ عطشي ذاته، ولهفتي ذاتها، وكطفلة صغيرة مزهوة جلستُ إلى جانبكَ بعد أن دعوتني إلى ذلك.

فجأة أصبحتَ إلهي، وأصبحتُ ملكة، لها صولجان وتاج وخاتم ملك وعبيد وجواهر وأرض وسماء وعدد لا يحصى من النّجوم والكواكب السيّارة، ورغبات متحقّقة لا يملك القدر إلاّ أن ينزل عندها إكراماً لقلبي الذي يخفق في أضلعي بتمرّدٍ عصيّ على الكسر.

نعم أدركتُ أنّني عاشقة لكَ قهر احتمالي وطاقتي وصبري، إذن فلأستسلم لقدري الجميل الذي انتقاه الله لي بسخاء خاصّ.

لكن من قال إنّ النّساء لا يتعرّين إكراماً لشبقهنّ، وتهليلاً بلحظة العشق المشتهاة؟ هنّ فقط من يدركن أنّ العشق لا يقابل إلاّ بعري أبديّ يحمل الجوع والاحتياج والحبور، كنتُ عارية إلى جانبكَ، وكنتَ عارياً تماماً إلى جانبي، مسّدتَ علي، لمستني، مال جسدكَ نحوي، شممتكَ على مهل واشتهاء، كنتُ أدرك أنّني في فسحة من أمري، وأنّكَ تهبني كلّ ما أشاء من فرحة بجسدكَ العاري مثل جسدي العاري.

الجميع يرانا اثنين غريبين في جلسة رسميّة جادّة، لكنك وأنا من يستمتع بهذا اللّقاء الأبديّ العاري، أحدنا يتحسّس الآخر، ويقبّله، ويشتمّه لنعيش تجربة الانصهار وحديث الأرواح والمضاجعة في العالم الآخر وإعادة التّعارف من

جديد بعد غياب في عوالم كثيرة وبعيدة، لا بدّ أنّ أحدنا عشق الآخر مئات المرّات في مئات الحيوات المنصرمة.

من قال أنّني نلتقي الآن لأوّل مرة في حياتنا؟! إنّما نحن نجتمع من جديد وحسب، أنا أعرف رائحتكَ، جسدكَ، مذاق قبلتكَ، ملامح شهوتكَ، قسمات شبقكَ، وذقت ألف مرة ماء ذكورتكَ، أنا أعرفكَ، نعم أعرفكَ. فهل تتذكّرني؟

لقد تذكّرتني، بل لقد عرفتني؛ لذلك تميل نحوي، تسمعني دون الآخرين، تبسم لي دون الحاضرين، تلكزني بيدكَ على سبيل الخطأ المزعوم، تشمّ رائحتي، تحتضن أناملي، وتطبع قبلة على طلاء أظافري، وتنام بين خواتم أصابعي، وتداعب بنظراتكَ كلّ ملمتر من جسدي، تحفظ حركاتي، تقبّل جلديّ، تلعق خلخال قدمي، تبتلع فمي بقبلكَ الشهوانيّة، تسمع صوت احتراقي بكَ، وتسعد بذلك، وأنا أغور في مقعدي عارية إلاّ من الشّهوة إليكَ، ورجفة في يدي هي من تفضح أمري، أترنّم بأشعار أحفظها لأهرب من ضعفي، فازداد ضعفاً، وتبلغ رجفة يدي أشدّها حتى تموء خواتمي في يدي، وأردّد من جديد في نفسي قول الشّاعر العاشق:

"وإنّي لتعروني لذكراكَ هزّة كما انتفض العصفور بلّله القطر
تكاد يدي تندي إذا ما لمستها وينبتُ في أطرافها الورق الخضر
فيا حبّهُ زدني جوىً كلّ ليلة ويا سلوة الأيّام موعدك الحشرُ" (١)

أحتجّ على أن لا فرصة لي لقراءة نصّ ما، فتأمر بحركة إله بأن أُوهب فرصة كي أقرأ، وتحسن إذ تفعل؛ فأنت تعلم بحدسكَ الفطريّ أنّني أريد أن أقرأ لكَ دون البشر، أريد أن أقول لكَ ولو لمرة واحدة: "أنا أحبّكَ، ولو كان ذلك

١- من أشعار أبي صخر الهذليّ .

على رأس الأشهاد، وفي جمع غفير من الغافلين عن رقصة العشق الأبديّة التّي نرقصها سويّاً في هذا المكان، لا بدّ أن أرواح أسلافكَ الغابرين من المجوس والوثنيين قد حلّت في نفسي، فألهمتني أن أرقص عارية لنارك المقدّسة، وأنا مستعدّة لهذه الرّقصة، فهل أنت مستعدّ لها؟

نظراتكَ التّي تحرق ظهري وأنا أسير أمامك متجهة نحو المنصّة تقول لي إنّك مستعدّ لها تماماً، تلمسني بنظراتكَ بكلّ جرأة، تتحسّس نزقي وفخري بكَ، وتداعب صمتي وابتعادي بمجون شبق أعرف طعمه تماماً، لا تسألني كيف رأيت نظراتكَ من ظهري؟ أنا امرأة شفّافة، وذات ملكات خاصّة بما يتعلّق بكَ، والرّقصة المقدّسة ستبدأ الآن.

قرأت القصّة بتحليق نحو عليائكَ، كنت سيّد الكلمات، وعظيم الحضور، وإله اللّحظة، كنتُ أقرأ لكَ دون الآخرين، وكنتُ من مكاني أتابع نظراتكَ، فأراها تارة، وتغيب تارة أخرى خلف لامع زجاج عدستي نظارتكَ، فأعرف من معدن إطارهما المتوهّج اللّامع أنّكَ تحترق هناك مثلي، فأرضى بقدرنا المحتوم.

"أنا أحبّكَ، نعم أنا أحبّكَ يا سيّد الجبل".

قلتُ جملتي هذه أمام الجميع دون خجل، وردّدتها نفسي منذئذٍ دون انقطاع، ظنّوا أنّها لعبة فنيّة، أو ربما نوعاً ذكيّاً من المجاملة، أو لعلّهم قدّروا أنّها نفاق رخيص، كلّ ما ظنوا لا يعنيني ولا يكدّر صفو افتتاني بكَ، لكنّني أعرف أنّكَ وحدكَ تعرف أنّني كنتُ أعني ما قلته، ووحدي من سمعتكَ تهمس لي بعزم فارس جبليّ لم ينم ليلة منذ خُلق: "وأنا أحبّك أكثر".

كثير من الحاضرين اجتمعوا حولي ليتعرّفوا عليّ، ولينقلوا إليّ إعجابهم، ويأخذوا صوراً تذكاريّة معي، وغادرتَ المكان، ورائحتكَ الخليط من برد الجبال

ورذاذ الأمطار وحريق الاشتهاء وطلع النّخيل والعجين الخامر تزكم أنفي، وتعدني بلقاء قريب بعد ساعتين أو أقلّ، ما أسعدني إذن باللّقاء القريب المُشتهى!

مرّت لحظات الانتظار أصعب وأطول وطأة على نفسي على الرّغم من كثرة الأصدقاء والصّحفيّين والإعلاميين حولي في ردهة الفندق، وأزف موعد اللّقاء، وطرت إلى موعدنا، يسبقني وجيب قلبي وشهيق أنفاسي وانقباضات أحشائي ووقع خطواتي التّي تسعى إليكَ قبلي.

دلفتُ إلى مكتبكَ، وصافحتكَ من جديد، كلانا كان متعباً من هذا الصّهيل البكر في نفسينا الجائعتين حدّ التآكل، الجميع يعتقدون جميعاً أنّنا نعيش وقائع لقاء رسميّ، أنفاسنا فقط هي من تعرف أنّنا نعيش ملحمة عناق طويل دون أجساد قادرة على التّداني أو قادرة على الاشتباك أو أعضاء قادرة على الإفصاح والاشتهاء.

جلستُ في أقرب نقطة إليكَ عكس ما يفترض ذوقاً، وهذا أفضل تحفّظٍ قدرتُ عليه، فلو طاوعتُ نفسي لجلستُ في حضنكَ، ولأغرقتُ فمي في عطر رقبتكَ، وبكيت، فأنا امرأة مضربة منذ زمن عن البكاء؛ فلا أحد يستحقّ أن يرى دموعي المثقلة بألف قصّة حزينة وخيبة، أمّا أنت فلكَ أن تشرب دموعي الثّرة، ومن غيركَ يملك أن يخلقني من جديد؟!

أتريد أن تحضنني؟ أتريد أن تضمّني طويلاً؟ أتريد أن تقبّلني؟ أتريد أن تقول لي ما لم تقله لامرأة من قبلي؟ لا تنكر، فأنا أرى ذلك كلّه في عينيكَ، وأنا في أشدّ حالات احتياجي لهبات عشقكَ ولأمنياتكَ، إذن لماذا لا تطلب خروج

مرافقي في هذا اللّقاء؛ لتأخذني ولو لمرة واحدة في عمرينا إلى صدركَ، لينتحر شكّكَ ويقينكَ، ولتبعثني من جديد مؤمنة بكَ دون غيركَ؟

أنت تخشاني، وأنا أخشاكَ، إذن لن يكون نصيب أحدنا من الآخر سوى النّظرات المختلسة والحديث الذي أعني كلّ كلمة فيه، وتتجاهل كلّ كلمة فيه، أقول لكَ: تزوّجني، فترفض لأنّني خلعتكَ قبل دقائق في قصّة حمقاء، أقول لكَ أحبّ شعبكَ، فتهديني أغطية رؤوسهم، أقول لكَ أحبّ كلماتكَ، فتهديني كتابكَ، أقول لكَ أهديكَ خاتمي لترده إليّ في أوّل زيارة، فترفض أخذه، وتهديه إليّ من جديد، أقول لكَ إنّه يجب أن أسافر بعيداً عنكَ، فتقول لي إنّكَ ستنزل الطّائرة لي إن فاتتني، لا أقول لك من جديد: "أهواك"، فلا تقل شيئاً.

متى ستأخذني إليكَ؟ متى سوف تسجنني في داخلكَ؟ متى ستسكنني؟ متى تكونني؟ متى أكونكَ؟ عليك أن تبقيني إلى جانبكَ، فكفر لا يغفره الله لنا إن افترقنا بعد أن التقينا.

لا تبحثْ في هذه اللّحظات عن النّكات والضّحك، فقلبي الآن في أكثر موقف جدّي في حياته، وهو في مخاض عشق لا يحتمل فيه أيّ ضحك أو ترويح عن النّفس، فهو الآن في أشدّ حالات احتياجه إلى عنفكَ وسطوتكَ، أنا في هذه اللّحظة لا أريد خفة دمكَ، وعذوبة روحكَ، وجمال حديثكَ، وسحر معشركَ، فأنا أعرف أنّكَ تحمل هذه الصّفات وغيرها الكثير من الصّفات الآسرة.

أنا أريد في هذه اللّحظة أن تكون رجل غابة متوحّش بربريّ، لا تعرف لغة أو منطقاً أو مقدّمات، أريد أن تعرّيني دون أن تنبس بكلمة، لتحتلّني إلى الأبد.

ما قيمة الأجساد العاشقة إن لم تكن أرضاً محتلّة موسميّة تعطي ثمارها وماءها وشمسها واحتراقها في المواسم جميعها، أنا امرأة المواسم، فذقني لتعرف

كيف تجتمع في امرأة واحدة بربريّة الغابات وهمجيّة الكهوف وتـوحّش الجـنس وعذوبة الاشتهاء وأساطير الميلاد الجديد وحكايات البعث والقرابين.

تعرّ لي، فلا امرأة غيري في الكون تنتظر توّحشـكَ وعرّيـكَ وجموحـكَ مثلي، أنا خُلقت بعناية إلهيَة لأكون امرأتكَ التّي تجمـع لـكَ النّسـاء جمـيعهن في لحظة مداهمـة، أنـا امـرأة بامتيـاز، وفنانـة بمهـارة، وخادمـة بـالفطرة، وجاريـة بالسّليقة، وقدّيسة بالعفاف، وماجنة بالكلمة، وطاهرة بالجسد، وساديّة بالموهبة، ومؤمنة بالقلب، وكافرة بالشّك، وثائرة بالسّلوك، وداجنة بـالعطف، أنـا النّسـاء كلّهنّ دفعة واحدة، قبّلني، لتقبّل نساء العالمين، فأنا سأرى الله في ثغركَ.

أخيراً تقترح حلّ تمديد زيارتي لمدينتكَ الجبليّـة، تبـدو فكـرة رائعـة، بـل عادلة لقلبينا، لكنّني لا أستطيع البقاء، أتعرف لماذا؟ لأنّني عاشقة، والعاشقة الحقّ تستجيب دائماً لنفير الرّحيل في نفسها، وتهرب إن لم تكن تملك البقاء الأبـديّ، إذن ليكن السّفر والبعاد، هل ستحتمل ذلكَ؟ أنا سأحتمله ما دمت صامتاً أيّهـا الفارس الفضيّ العتيد الذي لا يملك أن يقترب مني لخطوة إضـافيّة فضـلاً عـن عجزه عن أن يأخذني إليه، ليطبع على ثغري قبلته الحرّى لتطفئه وتطفئني، وربما تشعل كلينا للأبد.

تقدّم العنب إليّ، وتقرّبه مني في طبـق دائـريّ الاشـتهاء والانتظـار مثـل عشقي الفنّيقيّ الموروث بالدّموع والحكايات ونسل الجنيّـات وقصـص الـدّماء وزغاريد الشّهداء. كيف عرفـتَ يـا ملاكـي أنّـني أشـتهي العنـب منـذ هبطـت مدينتكَ؟ وأنّني بحثتُ عنه اليوم كثيراً في الأسواق؟ ألم أقل لكَ أنّني متأكّـدة مـن أنّك تسمع حديث نفسي لكَ.

آكل العنب الحبّة تلو الأخرى، وأغضّ طرفي بفشل عن مراقبتكَ باستحياء وأنت تأكل الجوّافة بطريقة مشهيّة، أتساءل إن كنتَ قادراً على أن تقضمني بهذه الطّريقة العذبة التّي تقضم الجوّافة بها؟ إذن لسعد كلانا لو كنت تستطيع ذلك، فأنا أكثر نضجاً وحلاوة وماء منها، والتّجربة خير برهان.

ليتني قطتك المدلّلة في هذه اللّحظة لألعق أناملك المبتلّة بماء الجوّافة، لأتمسّح بقدميكَ، وأضع رأسي في حضنكَ دون رقيب أو عاذل أو حسود.

يبرق في خاطري بارق مجنون، أتمنّى أن أغنّي في هذه اللّحظة أغنية لنجاة الصّغيرة اسمها "لا تنتقد خجلي الشّديد"، وأغنّيها في نفسي إليكَ، فهل سمعتها؟ هل سمعتني أشدّو لكَ قائلة:

"لا تنتقد خجلي الشّديد؛ فأنّي بسيطة جدّاً، وأنت خبير
يا سيّد الكلمات، هبني فرصة حتى يذاكر درسَهُ العصفورُ
خذني بكلّ بساطتي وطفولتي، أنا لم أزل أخطو وأنت تطير
من أين تأتي بالفصاحة كلّها؟ وأنا يتوه على فمي التّعبير.
أنا في الهوى لا حول لي ولا قوّة؛ إنّ المحبّ بطبعه مكسور
يا هادئ الأعصاب إنّكَ ثابت، وأنا على ذاتي أدور
الأرض تحتي دائماً محروقة، والأرض تحتكَ مخمل وحرير
فرق كبير بيننا يا سيّدي؛ فأنا محافظة، وأنت جسور،
وأنا مقيّدة وأنت تطير، وأنا مجهولة جدّاً، وأنت شهير
لا تنتقد خجلي الشّديد."[1]

---

١ - من أشعار سعاد الصّبّاح.

إذن آن أوان الرّحيل؟ أصافحكَ، وأقبّل روحكَ بعمق، وأطعمكَ إحدى دمعاتي، وأغيب سائلة الله أن تأمرني بالتّوقّف وعدم الرّحيل، لكنّك لا تفعل، فأصمتُ انتقاماً من صمتكَ، وأغيب في ظلام المساء.

أعود مبكرة إلى حجرتي في الفندق، أتساءل في جهل طفوليّ إن كنت تعرف أنّني أنزل في فندق الجبل وأنّ رقم غرفتي هو ٤٢٠، أضحك من سذاجتي، وألعن صمتكَ، وأعزّي نفسي التّي تدرك أنّكَ لن تجيء إليّ أبداً، أغتسل، وأتعرّى، وأتعطّر، وأستعدّ للبوح لكَ كي لا أموت قهراً وغيظاً.

أشرع أكتب لكَ هذه الرّسالة المجنونة التّي لن تقرأها أبداً، ولن تعرف أنّ امرأة عاشقة لكَ كتبتها لكَ عارية مضمّخة بعطر الشّهوة، ومعمدّة بماء عشقكَ، ومقتولة من صمتكَ، ومنتظرة بشوق هديتكَ التّي قيل لكَ إنّك أمرت لي بها، أتمنّى من كلّ قلبي أن لا تكون نقوداً تشعرني بأنّني أتقاضى إعاشة طارئة من السّلطان، لا هديّة من رجل أعشقه، وأكاد أجزم بأنّه عشقني قهر أنفه.

ليت هديّتكَ تكون قلادة تشكّ فيها قُبلكَ، لتطوّق بها رقبتي طوال الوقت، ليتها تكون خاتماً تأسر لي فيه قلبكَ الماسيّ، وتهبني إيّاه بنبل الفرسان الباذلين، ليتها تكون سواراً تجمع فيه شهقاتنا وتنهداتنا، وتجمعها إلى بعض في معصمي لتتنزّى في وريدي، وتسري في دمائي كما يجري حبّكَ الآن في داخلي، ليتها تكون قرطاً تعلّق لي فيه اشتهاءك ليل نهار، ليتها لا تكون ذلك كلّه، وتتعاظم لتكون قبلة لي منكَ مهما كلّفتنا، فكيف أسافر دون أن أحظّى بقبلتكَ، وتحظّى بقبلتي؟!

جاء الصّباح بسرعة على عكس الأزمان منذ أن قابلتكَ، جاء وأنا ما أزال أكتب رسالتّي إليكَ، فهي عاجلة، وإن لن تصلكَ، أطالع عرّيي مرّة أخيرة قبل

أن أرتدي ملابسي لاتّجه إلى المطار، هذا الصّباح لن أستحمّ كعادتي كي لا أغسل يدي اليمنى المحظوظة التّي صافحتكَ البارحة لأربع مرّات، هي الشّاهدة الوحيدة على رقصة جسدينا المجوسيّة، هي وحدها من لمست جسدكَ، هي الوحيدة التّي ذاقت دفئكَ، وأحسّتْ بنبضكَ، طوبى لها من يد قبّلت أديمكَ، سأحمل يدي إلى موطنيّ غير مغسولة، بل مقدّسة بلمسكَ، أمّا جسدي المسكين فلا يحمل منكَ أيّ ذكرى سوى سهاده وسهره وأرقه طوال ليلتين.

كيف ستعتذر لجسدي المسلوب؟ عليكَ أن تسترضيه في يوم ما بمليون قبلة ليغفر لكَ تجاهلكَ لاستغاثته منكَ بكَ.

اقترب موعد سفري، وأعطانا القدر فرصة أخيرة من أجل التّراجع عن صمتنا الآثم، ووصلتُ متأخرة إلى المطار بسبب الزّحمة ونقاط التّفتيش المتكالبة، كانت فرصتنا الأخيرة لسفري أو للقاء من جديد، فاخترتَ بكلّ نبل أن تساعدني، وأن تحقّق لي طلبي بالسّفر ولو كان ذلك ضدّ عشقنا، وضدّ هوانا.

حلّقت الطّائرة بعيداً، أنا الآن على ارتفاع ٣٠ ألف قدم، وحين أكون على هذا الارتفاع أجدني في أكثر حالاتي صدقاً لاسيما أنّ الغيوم في هذا اليوم في غاية جمالها، وهي تستلقي تحت الطّائرة باستسلام قطّة شأمّية لحضن طفلة بضفائر ذهبيّة.

عندي ألف قصّة أحكيها لكَ، هل تكفي غيمة عملاقة كي أسجّل لكَ ملحمة مشاعري؟ هل تكفي سماء كي أهرب منكَ؟ هل تكفي أرض كي تبتلعني بعيداً عنكَ؟ هل يقدر إله على أن ينسيني إيّاكَ؟ الأسئلة جميعها من هذه الارتفاع تهوي لتنسحق في المحال، أنا الآن ملكة بكَ.

أعود وأكمل كتابة رسالتّي إليكَ، وأكتب فيها آخر كلماتي لكَ: "أعشـقكَ، أعشقكَ، أعشقكَ"، أطويها، وأفكّر في أن أمزّقها، وأن أنثر فتاتهـا فـوق الغيـوم، لكن لا نوافذ تفتح ولا أبواب الآن، أطويها، وأدسّها في حقيبتي، وأغمض عـيني لأراكَ أقرب، فأنا في طريقي إلى موطنيّ، لأعود ولا أعـود، وفي داخلـي تصـدح فيروز إذا تقول في أغنيتها "أهواكَ":

"أهواكَ، أهواكَ بلا أمل
وعيونكَ تبسم لي
وورودكَ تغريني بشهيَات القُبل
أهواكَ ولي قلب بغرامكَ يلتهب
تدنيه فيقترب
تقصيه فيغترب
في الظّلمة يكتئب
ويهدهده التّعب
فيذوب وينسكب كالدّمع من المقل
أهواكَ، أهواكَ بلا أمل
في السّهرة أنتظر، ويطول بي السّهر
فيساءلني القمر، يا حلوة ما الخبر؟
فأجيبه والقلب قد تيّمه الحبّ:
يا بدر، أنا السّبب؛ أحببتُ بلا أمل." [1]

يا إلهي كم أنا ضائعة الآن يا سيّد الجبل!

١- من أشعار زكي ناصيف .

الاستغوار في الجحيم [1] [2]

لو علم أنّني سأكتب قصّته الحزينة لابتسم بامتدادٍ، ولقال لي -دون شكّ- جملته المعهودة التّي اعتاد على أن يختم بها حديثه اللاهي الضّاحك: "يا لسخرية القدر!" قبل أن يدرج في ضحكات متتالية مثل قرقعة ماء ينزلق في مزراب قديم صدئ، فيضحك من حوله تواطئاً مع ضحكاته التّي تورّط الجميع في حمى الحبور، وكنتُ عندها سأصمّم بحكم سطوتي عليه -من باب مداعبته- على أن يعبّر عن تجربته الشّخصيّة على شكل قصّة أو على شكل مقالة يعرضها على جمهور المنتسبين لدورة مهارات التّواصل التّي ينتسب لها.

وعندها كان سيفاوضني على أن يجعل حديثة عن الاستغوار بدل الحديث عن تجربته الشّخصيّة؛ بحجّة أنّه لا يجيد الحكي، وهو يقصد بالحكي كلّ ما يتعلّق بمهارة توظيف اللّغة في التّعبير عن الذّات والآخر والحاجّات والأفكار والرؤى، وبالطّبع كنتُ سأرفض أن يحدّثنا عن هذا الأمر؛ لأنّه حدّثنا عنه سابقاً كما حدّث كلّ من يعرف عنه مليّاً وتكراراً، حتى مللنا الحديث عنه، وارتبط في ذهننا به، حتى ما عاد يُذكر لفظ استغوار حتى أضحك، ويضحك زملاؤه في الدّورة، ونقول بنبرة كوميديّة تمثيليّة في صوت واحد: "إنّه أجمل علم في الدّنيا"، ونحن نبغي من ذلك أن نكرّر جملة فراس أبو جبل نكاية به، فنغيظه بذلك، وندفعه من جديد للاستغراق في ضحكه المجلجل.

١- حازت هذه القصّة القصيرة على جائزة مهرجان القلم الحرّ للإبداع العربيّ في الدّورة الخامسة، في حقل القصّة القصيرة في العام ٢٠١٤، القاهرة، مصر.

٢- الاستغوار: هو علم يبحث في اكتشاف الكهوف والمغارات والتّنقيب عنها.

لكنّني الآن سأكون القيّمة الأمينة على بوابة حزنه دون أن يطلب ذلك منّي، فوحدي من يجرؤ على أن يعرّي وجهه الكليم للعالم كلّه دون أشعر بتأنيب الضّمير إزاء ذلك؛ فأنا أعرف أنّ قلبه الطّيّب يوافق على كلّ ما يمكن أن ينقذ غيره من الانزلاق في ذلك الجحيم الذي ابتلعه وصلاه حتى الموت، وهو مجبر على أن يصمت عن الكلام المباح كلّه حتى عن موضوعه المحبّب الوحيد، وهو الاستغوار، بسلطة الموت الذي ألجمه للأبد، وحبسه في عالمه الأسود القبيح حيث لا ضحكات ولا مهارة تحدّث ولا كهوف و لا مغارات خلا الانزلاق في الظّلام والعدم.

مغارات كثيرة تقبع في أماكن شتّى على امتداد الجبال والغور هي الشّاهدة السّرّيّة الصّامتة على حقيقة أنّ فراس أبو جبل كان هنا في زمن ما، وعلى أنّه كان بسمة طاهرة في هذا المكان، وهو يدخل حجرة المحاضرات فيه، فيتحلّق حوله المنتسبون للدّورة ليسمعوا آخر مغامراته في الاستغوار داخلين معه في لعبة استيهام لذيذة يخلط فيها بحرفيّة نادرة بين ما قام به من مغامرات، وما يزعم كذباً أنّه قد قام بها، ولا يتفرّقون من حوله إلاّ مكرهين عندما يذكّرهم دخولي إلى القاعة بإزوف موعد المحاضرة، فينفضّوا مكرهين متضاحكين والأكواب البلاستيكيّة ذات المشاريب العطريّة السّاخنة تأبى أن تفارق أكفّهم.

فراس أبو جبل لم يعشق في حياته شيئاً سوى الكهوف والمغارات، حتى أظنّ أنّ هذا العشق قد شغله عن كلّ شاغل آخر، فما كانت له تجارب نسائيّة خاصّة، ولم يكن منخرطاً في أيّ نشاط شبابيّ أو سلوك جمعيّ، ولم تكن عنده موهبة غير استكشاف المغارات والكهوف، ولم يكن يجد الوقت الكافي لكي يهتمّ بصحته وطعامه ورياضته، فيتخلّص من عشرات الأرطال من الدّهون التّي تتكدّس تحت جلده، وتصبغ بشرته بالحمرة البادية، وتلبسه بناطيل كتّانيّة

فضفاضة لا تخفي طبقات اللّحم المتهدّل من بطنه تحت أعلى فخذيه، وتمنعه من الحركة بحريّة ونشاط، لكنّه على الرّغم من ذلك كان شابّاً شهيراً بمواهبه الاستغواريّة النّادرة، ولطالما نظّم رحلات شبابيّة خاصّة إلى الجبال ليطلعهم على الكهوف التّي يصمّم على أنّه هو من اكتشفها، وفضّ سرّ صمتها، وصال وجال فيها دون وجل، ثم رسم خرائطها الدّاخليّة والخارجيّة بنفسه، وسواء صدق في هذا المزعم أم كذب -وأخال أنّه كان صادقاً فيه- فقد كان موسوعة حقيقيّة في هذا الشّأن، ويملك خرائط مدهشة يسعد أن يشرح ما فيها لأيّ سائل ولو استغرق ذلك ساعات وساعات من التّفصيل والشّرّح.

كنتُ أؤمّل نفسي دائماً بأن أحظّى بالوقت الكافي لكي أرافقه والأصدقاء في واحدة من مغامراته في الكهوف التّي كان يدعونني إليها باهتمام واضح بحضوري، لكنّني في كلّ مرّة كنتُ أتهرّب من قبول الدّعوة بحجج شتّى دون أن أعترف له بأنّ عندي عقدة خوف من الأماكن الضّيقة والمظلمة والأرضيّة المغلقة، ولذلك لن أستطيع أبداً أن ألبّي دعوته في يوم من الأيّام، لكنّني كنتُ أؤثر الكذب على أن يعرف حقيقة خوفي الذي لا يليق بي أن أظهره أمام طلبتي في دورات مهارات التّواصل.

الآن أصبحت أشدّ خوفاً من الكهوف والمغارات لأنّني أراها جميعاً مسكونة بشبح فراس الذي سقط في كهف جهنميّ اسمه المخدّرات، وأحتضر فيه حتى مات وحيداً مهزوماً موجوعاً، جميعنا حاولنا أن نمدّ الأيادي والقلوب له علّنا نسحبه من هذا الغور الجحيميّ، لكن الوقت كان قد تأخّر على ذلك، وكانت المخدّرات اليد الجهنميّة الشّرّيرة التّي فاقتنا قوّة، وجذبته إليها دون مفرّ أو منقذ.

حكايته مع المخدّرات رواها لي وهو على فراش الموت في مستشفى العلاج من الإدمان، لعلّها كانت أوّل قصّة وآخر واحدة يرويها في حياته عن

شيء غير الكهوف والمغارات التّي ظلّ يحبّها حتى وهو يكره نفسه، لأوّل مرّة يجيد أن يروي قصّة، ولو لم أكن مستغرقة في البكاء، ولو كانت روحي المرحة لا تئنّ في تلك اللّحظة، لصفّقت له، وداعبته قائلة: "أحسنت، أخيراً أنت تجيد فنّ التّحدّث".

لكنّه لم يكن الرّاوي لهذه القصّة، بل كان الألم من يرويها لي، وصوت حشرجة بكاء صديقه اللّدود عمر السّالم يطغى على هسيس صوت فراس الذي بات متهدّلاً ضعيفاً مقيّداً معه في جسد هزيل منكود لا يشبه أبداً جسده الكبير الذي كان يفيض عليه بمهابة تتداعى سريعاً أمام ضحكاته المتّسعة التّي تشفّ عمّا في قلبه من طيبة، وعمّا في روحه من جمال وصفاء.

قال فراس لي بحسرة جليلة: "كان يجب أن أكون أشهر عالم استغوار في العالم بل في التّاريخ كلّه، أعرف أماكن كهوف ومغارات يمكن أن تكون بمثابة اكتشافات خطيرة في هذا الشّأن، كنتُ سأكون المكتشف السّبّاق والأمهر في هذا الشّأن، لكن انظري أين أصبحت الآن! قالوا لي أنّني سأشفى من الإدمان لو التزمتُ بالعلاج، لكنّني أشعر بأنّهم كاذبون، الموت ينتظرني في مكان قريب، وأنا أخشاه، وأجزع من عتمة القبور".

حاولت أن أستجمع قوّة لا أملكها أساساً في مثل هذه المواقف، وقلتُ له: "بل ستُشفى من الإدمان، وتعيش عمراً مديداً سعيداً، وتصبح أهم عالم استغوار في العالم، وقبل ذلك عليك أن تهجر المخدّرات، وتعود للانخراط في الحياة. هيا يا كسول تشجّع وكفاكَ تهرّباً من الدّراسة".

حاولتُ أن أضـفي علـى جملـتي الأخـيرة بعـض المـرح لتبـدو مضـحكة مسعدة، لكنّني فشلتُ في ذلك، نظر فراس إليّ بعينين تطوّقهما هـالات زرقـاء منتفخة، وسألني على غير توقّع: "هل يجوز أن نجمع كلمة مغارة على مغر؟"

لم أحاول الابتسام هذه المرّة، وقلت لـه بصـرامة مصـنوعة بغـير مهـارة: "عليك أن تتشافى، وتعرف ذلك من معجم لسان العرب لابن منظور الإفريقيّ".

عاد وصمت، ثم قال لي بندم وحزن شفيف: "لم أكن أريد التورّط في هذا الأمر، لكن الأحداث قادتني إلى عالم المخدّرات بطريقة خبيثة جدّاً".

سألته بفضول: "هل كانوا هم بعض الأصدقاء من قادوك إلى المخدرات؟"

أومأ برأسه نافياً، وقال بضعف كسير: "بل كانت الفول السّودانيّ من قادني إليه!"

- "الفول السّودانيّ! كيف؟" سألته بتعجّب.

- "أنا أحبّ أن آكل الفول السّودانيّ محمّصـاً بالشّـطة، اعتـدت أن أشـتريه ساخناً من بائع متجوّل يعسكر في بوابة مجمّع الحـافلات، وفجـأة اختفـى ذلـك البائع، ثـم ظهـر آخـر مختفيـاً وراء هـذه الفـول السّـوداني لترويـج المخـدرات والحبّوب المهلوسة في صفوف الشّباب الذين يمرّون بالمجمّع، كان مروجاً مشهوراً بينهم، يشترون منه حاجتهم من المخدرات التّـي يدسّـها في القرطـاس الـورقيّ للفول السّودانيّ.

بدأت تجربتي معه من قرطاس فول سودانيّ دعاني صديقي المدمن عليه، لقد زيّن لي أن أجرّب قرص المخـدرات الـذي كـان يقبـع بـين حبّـات الفـول السّودانيّ، رفضتُ ذلك بإصرار في بادئ الأمر، لكن رفضـي تحـوّل إلى فضـول

رخو أمام جماعة من الأصدقاء المدمنين في بيت ريفيّ انتبذنا فيه جميعاً بغية السّهر والتّعاطي.

المرّة الأولى كانت مرهقة، لكن مدهشة، لم يكن من الصّعب عليّ أن تتالي مرّات التّجريب، وسريعاً ما أصبحتُ مدمناً على الفول السّوداني، لكن بشكل آخر. فجأة أصبح العالم رهيباً، أصبح ضيّقاً لم أعد أستطع التّمييز بين تخومه، غدا العالم دون خرائط في عيني، وهذا أبشع شعورٍ يمكن أن ينتاب شخصاً مثلي لا يفهم الدّنيا إلاّ بمنطق الخرائط.

توفير المال لأجل شراء حاجتي من المخدرات بعد إخفاء مظاهرها البادية عليّ كان الأمر الأصعب في هذا الشّأن، لقد فعلتُ كلّ شيء من أجل هذا الأمر، كذبتُ على أبي، سرقت بعض المصاغ الذّهبيّ من أمي، اختلست مدّخر مصروف أختي الصّغيرة.

الجميع تخلّى عنّي في شأن توفير المال لشراء المخدّرات، حتى الأصدقاء الذين قادوني إلى هذا الدّرب قد تخلّوا عنّي، وتركوني لقمة صائغة لوحش مفترس لا يرحم اسمه الإدمان.

لقد فعلتُ أشياء رهيبة لأجل توفير المال لشراء المخدّرات، حتى قُبض عليّ أخيراً في عمليّة سطو على متجر صرافة، ثم أودعت في هذه المستشفى لأجل العلاج من الإدمان قبل محاكمتي على السّطو، لكن أبشع ما قمتُ به لأجل توفير المال لشراء المخدّرات كان مقايضة خرائط كهوفي بحبّة مخدرات واحدة، أخذها مروّج مخدّرات مدمن مثلي مقابل حبّة مخدّرات واحدة لا غير، تخيّلوا ما أبشع هذا الأمر، لقد قايضتُ كنزي الوحيد بجرعة من جرعات الموت. كم أشتاق إلى خرائطي الجميلة التّي قضيتُ سنيناً في رسمها.

غرب فراس في بكاء يعلوه شهيق وزفير مريران، وما عـاد يقـوى علـى نطق أيّ حرف بُعيد ما قال، في حين شرع صديقه عمر يروي لي باقي تفاصـيل القصّة كما سمعها من صديقه بحزن بـالغ، ويـداه تـذهبان وتجيئـان أمـام عـيني بإشارات إيمائيّة مرافقة للحديث، وأدركت لأوّل مرّة كم بدا جسد فراس هزيلاً ضعيفاً متآكلاً مقارنة بجسد صديقه عمر الذي كان من السّهل عليه في الماضي أن يحمله، وأن يركض به حتى آخر المدينة، فجأة تغيّر حجما جسديهما؛ فغدا جسد عمر ممتدّاً لاحم الأعضاء وافر الصّحة على الرّغم من ضآلة جسده مقارنة بجسد فراس الذي يتلخّص الآن في عظام صدر نافرة، وساقين نحيلتين كساقي نعامـة، وفي جمجمة أبرز ما فيها عينان زائغتان في الهلوسات والألم والحزن.

أدركت حينها أنّ فراس يحتضـر، ولا يتماثـل للشّـفاء، وزكمـت أنفـي رائحة الموت العفنة، وربضت على صدري، وشـعرته قريبـاً مكشّـراً عـن نابيـه الزّرقاوين القذرين، فاستأذنت وهربت من المكان دون أن أعرف باقي تفاصـيل قصته الحزينة.

عندما غالبت جبن نفسي، وعدت بعد يومين إلى المستشـفى لزيـارة فـراس كان الوقت قد فات على ذلك؛ فقد هرب واختفى دون أن يعرف أحد وجهتـه، كانت أمه ووالده وبعض أقاربه في هرج ومرج في المستشفى، ولم أفهم من كـلام أمّه الباكية حينئذٍ إلاّ أنّ ابنها فراس كان يحبّني جدّاً، ويعشـق محاضـرتي في دورة مهارات التّواصل، هو من طلب أن يخبروني بمرضه كي أزوره.

تلك اللّيلة أخبرني عمر بكامل تفاصـيل معانـاة فـراس في هـذا الأتـون الجهنميّ الذي اسمه المخدّرات، لقد حاول أكثر مـن مـرّة أن يخـرج مـن كهفـه الأسود الشّرّير، لكنّه كان قد فقد للأبد خرائط الخروج منه، وهو من اعتاد على أن يسرح ويمرح في الكهوف جميعها، والآن قد بـات أسـير أصـغرها وأحقرهـا،

فهام في وجهه وحيداً مريضاً دون دليل في كهف المخدّرات الذي لا يعرف طريقاً للخروج منه، أو يدرك نجاة منه.

حدّثني والدا فراس عنه ابناً، فهو من كان مشجباً لأحلامهما الصّغيرة المتلخّصة في ابن بارٍ يتباهيان بشهادة الهندسة التّي كان من المفترض أن يحصل عليها بعد أقل من ثلاثة فصول دراسّية، ومن ثم يحملهما في كبرهما ليوصلهما كريمين إلى قبريهما، أحلامهما كانت صغيرة، لكنّها أكبر من التّحقّق بسبب المخدّرات التّي سرقت ابنهما البكر، وابتلعت أحلامهما، ولفظتهما موتاً وخراباً وندماً وفضيحة.

يومان من البحث الموصول، ثم وجدت الشّرطة فراساً ميّتاً عند سفح جبل بعد أن أخذ جرعة كبيرة من المخدرات، لم تعتدِ على جثته أيّ من حيوانات الجبل أو طيورها الجارحة؛ فلا بدّ أنّها صانته وفاء لصحبة طويلة جمعتها به أيّام كان ملك الجبل، وسيّد الكهوف، لكنّ التّعفّن هاجم جثّته سريعاً، وجعل بطنه ينتفخ كبالون يحاكي قمّة الجبل الذي كان متجهاً إليه، لم يكن من الصّعب أن نخمّن جميعاً سبب لجوئه إلى الجبل في لحظاته الأخيرة، لا بدّ أنّه كان يبغي أن يموت في مغارة سرّيّة فيه؛ فقد ظلّت عشقه والمخلصة له حتى آخر لحظة من حياته، لكن الموت أدركه قبل أن يرتمي في حضن حبيبته المغارة، لتكون رائحتها وحجارتها الصّلداء كفنه ونعشه.

رحل فراس، وتيتّمت مغارته وكهوفه، وظلّ صوته يصدح في داخلي، وهو يقول جملته الشّهيرة: "يا لسخرية القدر!"

جريمة كتابة

"ليس لها سابقة في عالم الكتابة، ولا شيء يدلّ على أنّها كانت تتعاطى حرفة القلم والخيال والسّرّد في يوم من حياتها، كلّ ما عاينته من خبرات -كما هو موجود في سيرة حياتها في هذا الملفّ- لا يتعدّى أنّها كانت تعمل كاتبة في مؤسّسة حسابات قديمة، وبعد سنين من العمل وصلت إلى رتبة رئيسة ديوان بحكم التّراتب الزمنيّ لا أكثر، وبخلاف ذلك فهي امرأة رتيبة حسنة النّيّة والسّيرة والسّلوك والمظهر، هي تماماً كالنّعناع المنزليّ دون أهداب أو وبر ورقيّ أو رائحة نفّاذة، كلّ ما في حياتها يدعوها إلى أن تسير نحو تقاعد بارد تقليديّ في انتظار الموت الذي يأتي على مهله وعلى جرعات نزقة، كما هو شأنه مع معظم سكّان هذا الكوكب من البشر، أمّا هذا الجنون الغريب الذي تعانيه، فهو محض طفرة سلوكيّة تحتاج إلى مزيد من الدّراسة".

زمّ الطّبيب شفتيه على غليونه الذي يوهم نفسه بأنّه يشدّ نفساً عميقاً منه، متناسياً أنّه لم يشعله ولا لمرّة واحدة في حياته، وإنّما هو مدخّن شره من تبغٍ نائم في غليون لا يعرف أواراً أو اشتعالاً؛ فهو مشجّع قويّ للتّدخين الوهميّ، ثم قال مملياً ما يقول على مساعده الطّبيب النّفسيّ المتمرّن: "هذه حالة جنون نادرة تنحصر في أنّ المريضة مصابة بجنون يرتبط بما تكتب من قصص، بالتّحديد هو مرتبط بقدرتها العجيبة على أن تصوغ نهايات حقيقيّة للأحداث التّي تعرفها عن النّاس، كلّ إنسان يحدّثها بقصّة ما، ولو كانت قصته الشّخصيّة، تستطيع أن تكملها له، والغريب أنّ ما تكتبه من أحداث استشرافيّة يصبح حقيقة!"

- "ما الغريب في ذلك؟" سأل الطّبيب النّفسيّ المتمرّن.

أجاب الطّبيب النّفسيّ المسؤول عن علاج الحالة بعد أن برم شفتيه، وأخذ نفساً أعمق من سالفه الذي أخذه من وهم أوار تبغ غليونه: "الغريب في ذلك أنّ كثيراً من قصصها الاستشرافيّة أو لنقل التّنبؤيّة ارتبطت بنهايات مأساويّة جرميّة، وهذا جعلها المتهمة الأولى في تلك الجرائم، وعندما أنكرت علاقتها بها، وأصرّت على أنّها مجرّد كاتبة قصص بارعة تجيد أن تتنبّأ بالمستقبل الحدثيّ لأبطال قصصها الحقيقيّين، أحالتها المحكمة إلى مستشفى الأمراض العقليّة للتّحقق من قواها العقليّة والنّفسيّة، لاسيما أن أجهزة التّحقيق الأمنيّة قد فشلت في أن تدينها بالجرم المشهود، واكتفت بأن تجعلها في خانة ضنين يحتاج أدلّة نفي أو إثبات ليُبرّأ أو يُجرّم".

- "هل هي كاتبة قصّة مشهورة لتملك هذه الملكة الفذّة؟" سأل الطّبيب النّفسيّ المتمرّن بفضول.

أومأ الطّبيب النّفسيّ المسؤول بالنّفي، ثم أتبع الإيماءة بأخرى ممطوطة، ثم عبس، ثم أردف قائلاً: "لم تكتب كلمة واحدة قبل أن تصادف بهذا الجنون القصصيّ الدّمويّ. هذا ما تقوله سيرتها وشهادة الشّهود".

- "من تقصد بالشّهود؟"

- "أقصد زوجها الذي طلّقته بعد أن نبأتها إحدى قصصها بأنّه يخونها مع جارتهم، وأمها المتشافية من مرض السّرطان بسبب سرد قصص ابنتها عليها كما تزعمّان، وجارتها التّي عرفت أنّ ابنها قد توفى منذ عامين قتيلاً على يدي عشيقته الخائنة، ومن حارس عمارتها الذي أخبرته قبل أسبوع بأنّ ابنه سوف تدهسه سيّارة وهو في طريقه إلى جامعته، وأنّ السّائق المجرم سوف يولّي هارباً

من مكان الحادث، وقد أعطته مسبقاً رقم السيّارة الهاربة ليبلّغ عنها الجهات الأمنيّة المسؤولة في حين وقعت الجريمة، وهذا ما كان فعلاً".

- "إذن هي عرّافة" قال الطّبيب المتمرّن كمن يقترح تسمية لحالتها.

"لا، ليست كذلك؛ فهي تنكر ذلك، وتصمّم على أن تسمّي نفسها قاصّة، وتمضي أوقاتها في غرفتها المعزولة في المستشفى تكتب القصص لمن تقابلهم، ولا تعبأ أبداً بوضعها تحت مراقبة نفسيّة مشدّدة، وكلّما كانت في جلسة نفسيّة تقيميّة أو اختباريّة أجابت عن أسئلتها كأنّها في لعبة ذكاء أو مغامرة مسابقات، لا مثل مريضة تحت المراقبة النّفسيّة والعقليّة بغية تجريمها وإرسالها إلى السّجن أو إلزامها بالبقاء في مستشفى الأمراض النّفسيّة للعلاج في أحسن الأحوال".

- "ما دوري في هذه الحالة الغريبة؟" سأل الطّبيب النّفسيّ المتمرّن.

- "عليك أن تتولّى الحالة بنفسك، وتتابعها، وتكتب تقريرك الشّخصيّ عنها، وأنا سأتولّى الإشراف على تقريركَ الذي سيؤهلكَ -بكلّ تأكيد- للنّجاح بتجاوز فترة التّمرين في المستشفى".

- "سأفعل ما بوسعي لمساعدتها بسرور كامل". قال الطّبيب النّفسيّ بحماس مصنوع، وهو يمدّ يده اليمنى لتناول الملفّ من الطّبيب النّفسيّ المسؤول، ويهمّ لينتصب على قميه ليغادر الغرفة.

عكف الطّبيب النّفسيّ المتمرّن ليلته على دراسة ملفّ المريضة الكاتبة أو الكاتبة المريضة، ولم يخلص إلاّ إلى ضرورة أن يقابل تلك الحالة في الصّباح الباكر، لعلّه يعرف نقطة يتمسّك بها ليدلف منها إلى عوالم تلك المرأة اللّغز، لذلك ما كادت خيوط الشّمس تبادر أصبوحة اليوم التّالي حتى كان متّخذاً مقعده أمام مريضته الجديدة التّي بدت أجمل وأهدأ وأشدّ سذاجة من أن تكون

كاتبة قصّة، كانت تشبه عانساً حلوة لم يضنها حمل، ولم يهصرها جنس، ولم تجهدها مسؤوليّات أسرّيّة أيّاً كان نوعها، وإنّما غافلتها بعض شعيرات بيضاء زادت سمرتها دكنة، وجاذبيتها حضوراً، أمّا أن تكون بأنامل ذهبيّة ومخيال خلاقٍ موصول مع عوالم الغيب، فهذا أمر لا يتناسب مع حركاتها العفويّة الطّفوليّة، ولا مع ابتسامتها العميقة، ولا مع خصرها الأهيف الشّهي الذي يعد بموسيقى وطبول وأنغام وشهقات وحجل واهتزاز وتثنّي، لكن لا يمكن أن يخبّأ فيه حكايات وقصصاً تثقل دقّته المتناهيّة الاتساق.

كان يعدّ نفسه لأن يحاصرها بأسئلة طوفانيّة يؤمّل نفسه بأن تحمله إلى أعماقها، أو أن تفيض بأعماقها عليه، لكنّه وجدها تسأله بنبرة صارمة لا يمكن أن يفلت من وقعها: "ما اسمكَ؟".

- " مراد، اسمي مراد كحلان" أجابها كطفلٍ يجيب معلمته بكلّ أدب وهدوء.

ابتسمت لشيء غير إجابته، وتناولت قلماً كان يداعبه بإبهامه، وشرعت تكتب بضع جمل على منديل ورقيّ كان مندوحاً على الطّاولة، ولمّا انتهت ممّا انهكمتْ في كتابته، أعادت القلم إلى حيث كان، ومدّت المنديل الورقيّ أمامه على طاولته، فقرأ فيه على عجل فضوليّ قلق: "لن يستطيع الطّبيب مراد كحلان أن يكمل علاجه لمريضته؛ لأنّ قدمه ستُكسر هذه المساء، وسيظلّ حبيس الجبس في بيته لمدّة شهرين".

ابتسم الطّبيب النّفسيّ ممّا قرأ مستهزئاً، وهو يكابر قلقاً يزعق في أعماقه، وقال لها: "بل سأعود غداً لنكمل هذا اللّقاء"، وغادر على عجل، كأنّه يريد أن

يهرب من تلك السّطور اللّعنة التّي يشدّ عليها بقبضته يده التّي تصمّ أصابعها على المنديل الورقيّ ذي النّبوءة الشّؤم.

كان مصمّماً على أن يعود في اليوم التّالي ليردّ قصصها الكائدة إلى نحرها، لكنّه لم يعد؛ لأنّه وقع من ليلته في بهو المسبح، وكسرت قدمه، وحاصره الجبص اللّعين، وحرمه من مهمّته الهدف لتقييم حالة مريضته وصولاً لعلاجها، واستكمال متطلبات إنهاء فترة تدريبه الميدانيّة!

أمّا هي فوقعت في ذمّة الطّبيب المسؤول في المستشفى الذي قرّر أن يتحدّى قصصها النّبوءات، وأن يعرف مصدر طاقته الاستشرافيّة، ولو كلّفه ذلك أن تكتب قصّة موته؛ لذلك تمترس خلف ابتسامة إسمنتيّة غير قابلة للتّداعي، وتأبّط جأشه، وطلب أن يقابلها متصنّعاً الأريحيّة بإعداد فنجاني قهوة لهما بطريقته التّقليديّة التّي يصمّم عليها عندما يصنع القهوة له في حالات تفكيره المستغرقة في الحزم والقطع في الأمور.

حاول أن يبتعد تماماً عن أيّ سؤال يتعلّق بملكتها القصصيّة، وحدّق فيها بقصديّة مصنوعة، ثم وجد نفسها يسألها باهتمام حقيقيّ: "منذ متى تكتبين القصّة؟"

أجابت بسرعة، كأنّها كانت تنتظر هذا السّؤال، وتعدّ عدّته لها: "منذ وُلدت، طوال عمري أكتب القصص، لكنّني حديثاً بت أعلن عن كتابتي لها كي أخلق حلمي، وأنا عاكفة على ذلك".

- "ما هو حلمك؟" سألها بصوت ثخين كأنّه قادم من جوف تمثال.

- "أن أخلق من أعشقه، وأن أخلق للآخرين من يعشقونهم".

- "كيف يكون ذلك؟" سألها بنبرة مخابراتيّة تحقيقيّة.

- "بالكلمات، أنا أجيد أن أصنع كلّ شيء من الكلمات، والعشق أشدّ ما أجيد صناعته، لقد كتبتُ قصّة عشقي الموعودة كاملة، رسمت رجلي الحلم، اخترتُ ملامحه كما أشتهي، نظمتُ تفاصيل هذا الدّفق العظيم من السّعادة المنتظرة بقدومه، ركبتُ أجزاء الفرح التّي تصنع روحه ووجوده، والآن عليّ أن أنتظر تحقّقها، وهذا ما سوف يكون، سأعيش أجمل ما يمكن أن يصدف البشر في حياتهم، سأعيش العشق".

-"هل أستطيع أن أطّلع على هذه القصّة؟" سألها بفضول مهنيّ بحت.

- "طبعاً" أجابت كمن تلقي عليه إجابة حفظتها عن ظهر قلب منذ زمن طويل، وأخرجت من جيب لباس جنونها الأزرق الفضفاض دفتراً صغيراً أخضر، وفتحته مسجّياً في حضنها، وفتحت الصّفحة الأولى منه، وقالت بثقة من تفرض شروط انتصارها على خصمها المهزوم: "لكن أنا من ستقرأ لكَ هذه القصّة، سأقرؤها عليك في أيّام؛ فهي أطول من أن تُقرأ في جلسة واحدة".

- "أنا سأستمع إليك باهتمام" ردّ الطّبيب وهو يضع راحة فوق راحة، ويسترخي على مقعد منجّد مستطيل قبالتها معلناً استسلامه لقصصها.

شرعت تقرأ، وشرع يسمع، أيّام طويلة قرأت، وساعات طويلة سمعها، خطفته إلى دنياها السّرّديّة، وطارت به ومعه، وعلّقته في سماء البهجة حيث لا تكون إلاّ في شفة تلعق شفة، في قلب يلهج بقلب، في جسد يتّحد بجسد، في رعشة تنبثق عن رعشة، في أنامل تصبح حكاية، في سماء تصبح أجمل، في عيون تصبح تاريخاً، في نَفَس يشهق ويزفر خزامى، في نبض يتألّه على الوجود، في وجود يُختصر في آخر دون غيره في بشر، علّمته كيف يكون العشق دفقات، وكيف يتعملق في ومضات، جسّدته له في مواقف وكلمات ورؤى وأحاسيس

وخلجات، أدركته بحواسه، وذاقته بمداركه وانتفاضات جسده، في كلّ يوم سارت به في درب من دروب الهوى، وفي كلّ جزء من قصّتها رمحت به في سهوب العشق الخصيبة.

كان يعيش قصّتها لحظة بلحظة، بات يعيش داخل قصّتها سطراً فسطراً، انطلق يتعامل مع عالمه بروح عاشق يُصنع على دفقات منسوجة من وشيج رسمها بالكلمات، تعلّم أن يتعطّر باللافندر، وأن يستقبل الصّباح بفرح من نال غنيمة ساعات إضافيّة في الحياة، بدأ يقرأ الشّعر، ويحضر السّينما، ويجوب الشّوارع في المهرجانات، طفق يحبّ جسده العجوز الذي فارقه الرّضا عنه منذ زمن طويل، بات يمارس رياضة الجسد والرّوح والعقل، ويتلّذذ بتفاصيل حياته كلّها؛ لقد وهبته عينين جديدتين يرى بهما الكون بشكل بهيّ فرح متفائل، فأدرك أنّ العمل يمكن أن يصبح حرفة للسّعادة والإسعاد والعطاء لا حرفة دخل وتوفير نفقات، وجزم بأنّ الأسرة تلوّن من تلوّنات ذاته، ولذلك عليه أن يهبها محبته كاملة، وعاد قادراً على استرجاع لحظاته البائدة الجميلة المقتولة بفعل التّقادم مع زوجته وأبنائه وحفدته، فمضى يتذوّق من جديد عشقه لزوجته ولأبنائه، وغمر حفدته لأوّل مرّة بحبّه النّشط الجميل الذي يسمح له بأن يشاركهم لحظاتهم الجميلة في الملعب والمدرسة والبيت والعطل والاحتفالات الخاصّة والعامّة، بعد أن هجر حبّه السّكونيّ المختزل في قبلة استقبال أو احتضان وداع أو سؤال أو اثنين عن أحوال المدرسة والتّحصيل الدّراسيّ وتفصيل الحياة اليوميّة.

انحاز للشّباب الذي ينبثق ثرّاً حارّاً نشطاً من الرّوح التّي لا تهرم عندما تتغذّى من نفس عملاقة أدمنت على أن تكون نفسها وتكون الآخرين في آن، فتمخّضت عن أجمل تعايش بشريّ مع الوجود العابر بالجسد الخالد بالرّوح،

فانطلق يرعى جسده، ويرفّه روحه بكلّ جديد، أحبّ الله والبشـر وذاتـه، وراح يزرع الجمال في كلّ ناحية من رياض نفسه.

كانت مريضته القاصّة تعيش فيه بكلماتها التّي تمتدّ لتختار عطره الجديد، وتجعله يغيّر تسريحة شعره، ويلبس ملابس مزركشة غير رتيبة كلاسيكيّة داكنـة كالتّي كان يلبسها سابقاً، لم يعد من المستحيل أن يراه النّاس يحمـل طاقـة زهـر لزوجته، أو يزرع حديقة المستشفى بالياسمين البلـديّ، أو يـرقص مـع مـوظّفي المستشفى في سمر ليليّ متسلّل إليهم بعد يوم عمل مجهد، وألـف مـن حولـه أن يروه يدندن وهو يقود سـيارته، ويـؤرجح حقيبتـه الجلديّـة وهـو يسـير بفـرح، ويصعد الدّرج وينزله وهو يتجاوز درجة بـين كـلّ درجـتين بنشـاط عجيـب لا يماثل شعره الأبيض وتجاعيد وجهه الدّاكن القمحيّة.

القاصّة المريضة كانت تروى قصّـتها السّـحر، وترسـم الحيـاة والبهجـة في أعماق الرّجل المعشوق الجدير بلحظات الحياة، وطبيبهـا النّفسـيّ المعـالج ينـزل هذه الشّخصيّة في أعماقه، ويذيبها في وجدانه، ويمتصّها حـدّ التّشـبّع بهـا، هـي تتخيّل وتروي، وهو يخفق حيّاً كائناً بما تخلق فيه من جمال.

باتا صديقين يرسمان لوحة الحياة معاً، هي تروى لـه أقاصيصـها الخياليّـة، وهو يؤمن بها، ثم ينزلها على أرض الواقع افتتاناً بما فيها من جمال، وإدراكاً لسرّ الحياة فيها، كانت تراقبه يقترب من عالمها، وكان يراقبها تحنو على عالمـه، وهمـا يجلسان في حديقة المستشفى وحولهمـا نفـر مـن المرضـى والممرضـين والأطبّـاء يسمعون قصصها، أو يحتسي معها منقـوع النّعنـاع الـبريّ مشـروب المسـاء، أو يمارس معها رياضة المشي في الغابة الخلفيّة لمبنى المستشفى.

هي لم تعد مريضة محتملة يقف على تخوم جنونها أو عقلها ليرصده في تقرير رسميّ مختصر، وهو لم يعد طبيباً عجوزاً ليس له من الحياة إلاّ انتظار الرّحيل عنها، إنّما غدت صديقته المبدعة التّي يستحيل أن تقترف غير الجمال، في حين غدا رجلاً سعيداً يعيش قصّة حبّ مع زوجته في سن السّبعين بوحي من ذلك الرّجل القصصيّ المتخيّل الذي صنعته القاصّة له.

لقد عرف بها كيف يمكن أن يكون العشق قضيّة، وتعلّم منها أن يصالح العالم كلّه بهذا العشق، بعد أن أصبح أزمانه كلّها، ومن يصبح العشق زمنه فقد نال الخلود والجمال والقوّة.

"من يصبح العشق زمنه فقد نال الخلود والجمال والقوّة" هذه هي جملتها الختام في قصّتها الوعد التّي أنجزتها لقلبه دون أن تعده بذلك، كرّر الجملة لأكثر من مرّة مخموراً بها، طوت صفحتها الأخيرة، وغادرت حجرته دون إذن أو كلمة وداع أو نظرة من أيّ نوع، وبقي هو أسير الجملة يكرّرها ممسوساً بها، ملتبساً بمساحاتها وطاقتها.

مضت أيّام دون أن يرى مريضته من جديد إلاّ لمحاً من بعيد، كان يراها مع بعض نزلاء المستشفى تروي لهم قصصها اللّغز ترياق الوجود الجميل، كان يهزّ رأسه فرحاً بها راضياً بما تفعله، فهو يعلم أنّها ستزرع أنفسهم بيادر فرح، وستخرج منهم العشّاق الذين تجيد أن تصنعهم من سردها القصصيّ، ثم يتحسّس نفسه فرحاً بما أصبحه، ويمضي بعيداً نحو مكتبة في الطّابق الثّالث ليكمل كتابة تقريره النّفسيّ عن حالتها.

بعد أيّام انتهى تقريره عنها، وبدل أن تنقل إلى السّجن مجرمة أو تخلّد في مستشفى الأمراض النّفسيّة والعصبيّة مريضة خطيرة على نفسها وعلى المجتمع،

أُفرج عنها بناء على توصياته التّي أكّدت أنّها قاصّة مجيّدة رقيقة، قد لا تُجيد أن تدافع عن نفسها أمام المجتمع، لكنّها تعرف أن تنفث الرّوح في عوالم قصصها لتنقلها إلى الحقيقة بكلّ ما في ذلك من فنتازيا وتجاوز لمألوف العادة بعيداً عن أيّ جرم أو إيذاء مقصود أو غير مقصود بطاقة فطريّة إبداعيّة قادرة على الاستشراف والتّنبؤ بالمستقبل.

طبعت قبلة على خدّه، وهي تودّعه على باب المستشفى بعد أن فتح لها الباب بيده، وأومأ لها بالطّيران بعيداً عن سجنها فيه، ابتسم لها ابتسامة حلوة تعلّمها من قصصها، ومدّ لها بورقة صغيرة من الكرتون المقوّى طُبع فيها بلون ذهبيّ داكن رقم هاتف صديقه الصّحفيّ، وقال لها: "هو في انتظاركِ، سيوفّر لكِ عملاً مناسباً في صفحته الإبداعيّة القصصيّة في الصّحيفة التّي يملكها، لقد اتّفقنا على ذلك، لقد حدّثته عنكِ، هو يعرفكِ جيّداً".

تناولت الورقة منه بحماس، ووضعتها في داخل حقيبتها الكتّانيّة الصّغيرة، وابتسمت ابتسامة نديّة مار بها فستانها القصير الصيفيّ بزهو طفلة مشاكسة دون أن تنبس بأيّ كلمة، وقفلت تسير نحو البعيد، وهي تروي لنفسها قصّة الرّجل الذي تعشقه، وستقابله بعد قليل عندما يصدمها بدرّاجته الهوائيّة، وهي تقطع الشّارع بُعيد كيلو متر واحد من هذا المكان.

راقصة الطّاغية

تسمح بأن تُستباح في أيّ شيء إلاّ في رقصها، لا شيء عندها يتصف بالقداسة إلاّ تلك اللّحظات الهنيّة الشّهيّة التّي ترقص فيها، جسدها عندئذ يحار في حركات علويّة متّصلة مع عالم روحيّ لا يعرف لحظة حزن أو خذلان أو مذلّة أو تواطؤ إلاّ مع موسيقى خفيضة تخضعه بجنان غنج سرعان ما يرخي قبضته المتشبثة بها ليجري مرحاً نحو رياض وزهور ونشوة لا تنقضي، تظلّ تتلوّى كجنيّة في باطن كف عفريت عاشق لها، ويظلّ من حولها من حضور يتحرّقون في سعار فتنتها ووهج شبقها، ترقص هي، وترقص الدّنيا معها، تتلوّى هي، فتتلوى الأعناق معها، تدور وتدنو وتقترب والأرض مطواعة لها، تسعى معها، تدبر معها، وتعود معها، والعيون والحناجر والخلجات مشدودة إلى خصرها النّحيل وإلى شعرها الذّئبيّ الأشعث المطعّم بلمعان متّقد، وعيناها لا ترنوان إلى أحد، بل تزوغان نحو ملكوت بعيد لا يدركه بشر، ولا يخمّنه قلب، ولا تدخله نفس عاصية.

ثم تنقطع الموسيقى، وتتنهد بعمق، كأنّها استيقظت من دروشة صوفيّة فجريّة نديّة، تغادر حلبة الرّقص كحصان بريّ فتي يجري دون تعب، ويجفل حتى من خياله، وخصال شعرها الفضّيّة تغيّب ملامحها الحادّة المعجونة بتحدٍ هو طبع أصيل فيها، وتظلّ عيون الرّجال الحاضرين متعلّقة بجسدها المعرورق بترياق الفتنة، وهي تبتعد تحجل ككائن بريّ يكتشفه الرّجال الجائعين في صحراء جوعهم الأزليّ.

لا تسمح ليد لامس بأن تهبط على جسدها، ولا تتريث عند كلمة إطراء أو نظرة إعجاب، ولا تستوقفها يد واهبة أو كيس عطاء، تكتفي بأجرتها المُتفق عليها مع صاحب اللّيلة، وتغادر المكان مع فرقتها قانعة بلذتها التّي تملأ نفسها بقشعريرة تستنفرّ حواسها ومداركها جميعها.

شرطها الوحيد لكي تُكترى أن تنظر في عيني من يكتريها قبل أن تقبل بالرّقص في ليلته، دائماً تبحث عن شيء ما، أو تخشى من شيء مجهول، عندما لا تلمح في عيني من يريد أن يكتريها ما تخشاه توافق على الرّقص له ولمن معه، وتفرض شروطها المتلخّصة في مكان مغلق، وموسيقى محدّدة، وحلقة مفرغة لها لا يقترب منها بشر، دون طرح الأكل والشّراب والألعاب في حضورها حتى تنهي عرضها الراقص، فيوافق المُكتري لها على شروطها طائعاً بعد أن باتت شروطها معروفة عند الجميع؛ فهي أبرع راقصة في البلاد، وحضورها لأيّ حفل يضفي عليه أبّهة وبهرجة، ويصفه بالبذخ والذّوق والخلوة لأهل الصّفوة والنّخبة وعلية القوم.

لا يعرف أحد شيئاً عنها، سوى بعض القصص الشّائعة عن قيامها اللّيل صلاة وتعبداً في معظم ليالي السّنة، واستضافتها لحلقات رقص الصّوفيّة، وانقطاعها في أوقات فراغها لحفظ أشعار الصّوفيّة والنّساك والعبّاد والمجذوبين، وبعض قصصها عن الإحسان لمن تمرّ بهم من الأيتام والأرامل، وولعها الكبير بالحمام الزّاجل، وتربيتها له في أسراب عملاقة في أبراج بيتها الفسيح الذي لا تنطفئ ناره، ولا تغلق أبواب تكيته، ورفضها للرّقص في بيوت من اشتهروا بالظّلم والفساد، ولو وزنوها بالذّهب، وقايضوا رقصها بالفضّة والعنبر والمسك.

خصال غرّتها وذوائب شعرها تخفي عينيها في معظم الأوقات، فهي لا تبعد هذه الخصال عن عينيها إلاّ في حالة أرادت تفرّس وجه مكترٍ، أو أخلصت

لحالة رقص صوفيّ، أو استسلمت لحمى رقصها ولسعار جسدها الذي يتفانى في حركاته، ويموت ويبعث في كلّ لحظة اندماج بأنغام الموسيقى واتّصال بملكوتها العلويّ.

ما كانت لتقبل بأن ترقص في حفل ذلك الطّاغية لولا تلك التّهديدات التّي تلقتها مبطّنة بلطف صفيق دبق من قائد حرسه الخاصّ، تعترف بأنّها قد خافت منه، وأخذت هذه التّهديدات على محمل الجدّ، فسيرته الملطّخة بقصص القتل والخطف والتّعذيب والفتك والاغتصاب والتّزوير والتّآمر والانقلابات والاغتيالات تجيز له أن يفتك براقصة جميلة إن هي استفزّته ولو كانت شهيرة، أو داست رغبته الصّغيرة المتواضعة بأن ترقص لمولاه الطّاغية ولضيوفه وصفوته في حفل بهيج يقيمه قصره المؤقّت قبل أن يكمل طريقه إلى أقاصي البلاد ليقيم في قصره المنفى حيث يريد أن يعزل نفسه عن الشّعب بشكل كامل، ليخلو له وجه المتعة والبذخ والمجون بعد أن قضى جلّ عمره في الجبال يعارك الأعداء زمناً ثم يعارك الرّفاق أزماناً ليستولي أخيراً على السّلطة بعد أن خانه الشّباب، وهربت منه النّضارة، وغزاه الشّيب، وغلبته تجاعيد الوجه.

استسلمت لقدرها المأسور لرغبة ذلك الطّاغية المسمّى بالرّفيق الأوّل الذي ترى صوره مبثوثة في وسائل الإعلام كلّها بابتسامته المديدة التّي تشمر أرنبة أنفه، وتجتاح فكيه، فتظهر صفي أسنانه المرصوفين بدقّة متناهية، فتغور عيناه الصّغيرتان في تجويف جمجمته، ولا يعود يدرك الرّائي أيّ معنى أو سرّ فيهما، لا شيء غير الغموض والصّمت والسّواد العميق المخيف.

برزت الراقصة كحصان بريّ مكبّل في حلبة كبيرة قبالة عرش الطّاغية الخالي منه حيث يترامى حوله الحضور والأخلاء والضّيوف ورجال دولته الجبليون الأشدّاء، الموسيقى بدأت تتنزّى في أذنيها، وحمّاها بدأت تدبّ في

أوصالها، وبدأ يغشاها ما يغشاها من جلال وهـي تترنّـح في رذاذ اللّحـن بخـدر موصول برعشة سرعان مـا تسـتولي علـى جسـدها، وتغلـق عليهـا حواسـها، وتنقلها إلى عالم نورانيّ دافئ يداعب كلّ ذرة من جسدها، ويـدفعها إلى انخـراط كامل في حركات لا تعرف خبوّاً أو فتوراً.

عرشه ما يزال فارغاً، وهي ترّقص الدّنيا حولها، والجمع مشدوهون وهم يلتهمون جسدها بقرمشـات شـبقة محرومـة، ولا جسـد غـير جسـدها في هـذه اللّحظات يملك حركة أو جفلة أو لغة غير الصّمت في محراب سحرها، وخصـل غرّتها تتناوب على كشف عينيها المتحدّيتين، ومن ثم سترهما لتهدئـة أوار هـذه النّار المقدّسة التّي تشتعل في أجساد الحضور الذين يدروشون في حلقة حضورها الباهر، وعرش السّلطان ما يـزال فارغـاً، وهـي بالكـاد تسـتطيع أن تلمحـه في دوارها السّابغ المسبغ.

فجأة يزدحم عرشه به، هو نفسه الذي ترى صوره في كلّ مكان، وجهـه ذاته لكن دون ابتسامته الطّفوليّة البريئة التّي لا تناسـب ذئبيّـة عينيـه، وشراسـة سيرته، وبروز تجاعيد وجهه، وقـدرة خصـال شـعره الأبـيض علـى الإدهـاش والإسعاد. يحدق بها طويلاً، يتابعها بجوارحه جميعها، تشعر بأنّ عينيـه تعرّيانهـا، ويديه تمتدان إليها دون استئذان، وصرخة مـا تتولّـد في أعماقهـا، ينقطـع ذلـك الخيط الذي يربطها بالسّماء، وترتبك حواسـها، وتشـعر بحاجـة مفاجئـة إلى أن تحصي خطوات قدميها خوفاً من أن تسقط عن حواف حلبة الرّقص، يغيب من أعماقها ذلك البارق السّحريّ الـذي يلـهمها حركاتهـا، ويخفـت ذلـك الشّـدو السّماويّ الذي يرافق موسيقاها حتى يخبو تماماً، وتتضّخم ملامح الطّاغية حتـى تطغى على المشهد أمامها، فيغيب الحضور، وتتلاشى الوجوه، وتنغـرز عينـاه في وجهها، وتتعاظم قسمات وجهه حتى تكاد تبتلعها، ويتعاظم وجيب قلبها حتى

يطغى على مسمعها، ثم ينزلق لهاثه في أحشائها، فتشمّه بثنيات أمعائها التي تتقلّص بتشنج مداهم، ثم تعجز عن الحركة، فتتسمّر مكانها متصلّبة لا تقوى على حراك أو إيماءة، وعيناه قبالتها متحدّيتان بسكون راكد، تبدأ الأرض تدور بها، وفجأة تتكوّم على الأرض مغشي عليها، تزبد متشجّنة، يطير الحضور إليها إلاّه يبقى جالساً غائراً في عرشه الوثير، يشمّ ضعفها المسكوب في حضنه دفعة واحدة، لا يسأل عمّا حدث لها وهو العليم بما حدث، والجميع به جاهل، يهمّ يغادر المكان، إلاّ أن ضعفاً خائناً يطعنه في جأشه، ويأكل رزانته، ويعرقل خطواته الأسديّة الرّتيبة، فيسقط هو الآخر مغشيّاً عليه.

يوم وليلة وتتشافى الراقصة ممّا غشيها، وتنقطع إلى الحضرات الصّوفيّة تطارد فيها وجهاً شرساً عتيّاً كان آخر وجه تأخذه إلى قلبها ليلة أُغشي عليها في حلبة الرّقص، وتهتف باسمه بصوت مرتفع يتبخّر في سماء الدّفوف وتسابيح المنشدين، أمّا هو فما يزال مريضاً في قصره، تغزوه حمى مجهولة السّبب، ويغلبه ضعف سرّي يعطّله حتى عن أحلامه التّوسّعيّة السّلطويّة المسيطرة على ذاته بشكل كامل.

لا طبيب يعرف له علّة، ولا دواء يعرف له شفاء، ولا صديق يملك له دعاء مستجاباً شافياً، وهي تنتظر دون توقّف أمراً لا يكون.

حارسه الشّخصيّ وكبير جنده يأتيها على حين غرّة، لكنّها كانت في انتظاره، يرمقها بتوعد جاد، يشدّها من ذراعها العاجي قائلاً بنبرة آمرة بشراسة بادية على قسماته ونبرة صوته: "هي بنا، ارقصي له لتخرجي منه ذلك المسّ الذي دخل جسده منذ أن رقصت له".

لا تتفوّه بأيّ كلمة، تسير أمامه بطاعة كاملة، كأنّها تنتظر أمره لها بالمسّير منذ دهر، لا تنظر خلفها، ولا تسأل سؤالاً واحداً، وتغرب في صمت مجفّل،

دقائق وكانت في قصره الذي دخلته على ظهر فرس يسبق الرّيح وهي تجلس خلف الحارس الشّخصيّ، فُتحت لهما بوابة القصر سريعاً، كمذنب آثم جرّها وراءه على عجل في ردهات رخأمّية صمّاء باردة، ثم أخيراً فُتح لهما باب داخليّ كبير على مصرعيه، فدلفا إلى غرفة نوم الطّاغية، في السّرير هو يتمدّد بجسده المهزوم ورأسه الكبير، يقترب الحارس الشّخصيّ من رأس سيّده بطاعة ذليلة، ويهمس في أذنه بنبرة حنونة لا تناسب قسوة أصابعه التّي تنغرز في لحم يدها وهو يمسك بها كالمساق إلى المقصلة، ويقول: "سيّدي استيقظ، لقد أحضرتها لترقص لكَ من جديد. الويل لها إن لم تخرج شيطانها الشّرّير من جسدك".

يستيقظ السّلطان بلهفة ولهى لا تسعفه ليجلس باعتدال في سريره، يلتهمها بعينيه الصّغيرتين ليتأكد من وجودها قربه، يطلق زفرة ارتياح عندما يلمح تلك النّظرة المشتهاة في عينيها، يخرج الحارس من الغرفة، تُغلق بوابة المقصورة بصرير خفيض، يمدّ الحارس الشّخصيّ يده نحو الراقصة بحركة آمرة بذل وهو يستعدّ للخروج من الغرفة، ويقول: "هيا ارقصي له، ارقصي له دون توقّف".

تقترب أكثر من الطّاغية، تبتسم له لأوّل مرّة في حياتها، تقترب خطوة أخيرة قبل الالتصاق بجسده، تخلع ثوبها الطّويل الضّيق الذي يستر جسدها بشكل كامل، تقف أمامه عارية تماماً إلاّ من نظراته وارتعاشاتها الأرضيّة لا السّماويّة، لا ترقص له كما أُمرت أن تفعل، بل...، ويغيبان عن الوجود...

أبو دوح

الكلّ يناديه باسم أبي نوح، ولا أحد يجرؤ على أن يناديه باسم أبي دوح كما ينطقه في حالة سكره الدّائم التّي ما عاد أحد يراه في حالة غيرها، كما لا يستطيع أحد أن يجزم إن كان ينطق اسمه على هذه الشّاكلة بسبب عيب نطقيّ في منظومته الصّوتيّة، أم بسبب تلعثم لسانه من طول استغراقه في غياهب سكره.

كلّما سأل أطفال الحارّة القديمة أمّه العمياء التّي نادراً ما تتشمّس على مصطبة البيت عن اللّفظ الصّحيح لاسمه كانت تقول بفخر، كأنّها أمّ وليّ عهد السّلطنة المفدّى لا والدة السّكير العربيّد الأسوأ سمعة في الحارّات القديمة الخدرة بروائح الاكتظاظ السكّانيّ والفقير المقيم والأمواه الرّاكدة: "أيّاً كان اسمه الله يرضى عليه".

لا يجرؤ الأطفال على تكرار السّؤال من جديد على العجوز العمياء، ويطيروا بعيداً عنها خوفاً من أن يدرك سؤالهم الملحاح أذني أبي دوح، فيخرج إليهم من ظلام الجحر الذي يسكنه مع أمّه، ويفتك بهم كما أعتاد أن يفتك بأهل الحارّة دون رحمة أو تفكير، حتى غدت الأمّهات تخوّف به الأطفال ليناموا، أو ليأكلوا طعامهم المهجور، أو ليطيعوهنّ فيما يأمرن به.

جمع أبو دوح في طباعه وشكله وصوته ورائحته وحضوره كلّ قبيح، وأتقن كلّ فعل منفّر، وأخلص للبذاءة والابتذال، ونذر حياته للتّسكّع والخمر والهلوسات والارتهان لعوالم المسطولين ودنيا الحشّاشين، وانغمس في عالم الخمر حتى كانت له أقول مأثورة في هذا الشّأن، يتناقلها السّكارى، ويتأسّى بها

المشاغبون وقطّاع الطّرق على الفتيات والنّساء في الحارّات القديمة، ويتندّر بها الأطفال والسّمار.

لكن في حضرة أبي دوح يلتزم الجميع الصّمت، ويقرؤون على أنفسهم بعض آيات القرآن علّه يمرّ بهم دون أن يفتك بأحدهم، أو يبصق في وجه كبيرهم، أو يجرّد أحدهم ممّا في محفظته من مال، فيلقون التّحية عليه بإكبار ممجوج ينفر بالجبن العفن، ويحثّون الخطى بعيداً عنه، وهو يكرّرون: "السّلام عليكم يا أبا نوح"، فلا يردّ على أيّهم سلامه، ويرقبهم بتقزّز بعد أن يختار الشّخص غير المحظوظ الذي سيفرغ محفظته في جيبه ليشتري بها زجاجة خمرته اليوميّة الأثيرة.

لا دعاء يصل إلى قلب أبي دوح، ولا خوف يسكنه، ولا أمر يعنيه، ولا شفاعة برب أو وليّ أو نبي أو صالح تنفع معه، إنّما الدّرب الوحيد الآمن إلى قلبه السّكير الغاشم هي أمّه، إذ نطق أحد اسمها تغيّرت ملامح وجهه من القسوة والتّجهّم إلى المحبّة والسّلام، إن أقسم أحد عليه بها أبرّه ولو على قطع رقبته، إذ سمع صوتها هرع إليها كقط أليف، إن طلبته لبّاها، وإن أمرته أطاعها، وإن نهته عن شيء انتهى، ولولا علمها بعشقه للخمر، وبأن روحه معلّقة بها لأمرته بتركها، فهجرها للتّو والسّاعة ولو هلك في ذلك شرّ مهلك، لكنّ رحمتها به منعتها من تطلب منه أن يهجر معشوقته الخمر، وظلّت في كلّ صلواتها تدعو له بحسن الخاتمة، وبهجر كأسه الملعون، وبحمايته من حادث مريع قد يتربّص به جرّاء ولّعه العجيب القاتل بقيادة الدّراجات النّاريّة بسرعة جنونيّة.

هي وحدها من تدعو له في الخفاء والعلن، و تسمّيه الرّضي الحنون، في حين يلعنه النّاس في سرّهم، ويمسكون عن ذلك في جهرهم خوفاً من بطشه، أمّا أخوه عبد الله الذي لبس اللّحية من زمن طويل، وأتقن لعبة الصّلاة، وخدعة

صلاة الفجر والجماعة، واستحلى لقب أمير الجماعة في العمرات والحجّات التّي يذهب فيها مأجوراً على ذلك، وهارباً من عمله الرّسميّ، فقد كانت تسمّيه الأمّ النّجس، وتلقّبه بالغضيب، وتدعو عليه بالعمى، فيلزم الصّمت إمعاناً في تقمّص دور المتديّن الملتحي الطّاهر، وربه يعلم ونفسه أنّه منافق كبير، فهو يجيد اقتناص الفرص ليحصد غنائم لحيته، ويمدّ يديه بالاختلاس والنّهب لكلّ مال يُوكل إليه في ذمّة الصّدقة، كما يمدّ يديه وشهوته وعضوه نحو كلّ فقيرة كسيرة تشتهي القرش، وتخشى قطع أموال الصّدقات عنها إن قالت لمسؤول الزّكاة الزّاني: "لا".

كلاهما يتقن دوره؛ أبو دوح يتقن دور السّكير الماجن الذي يقطع الدّروب على أصحابها، وعبد الله يتقن دور الشّيخ المتديّن الورع، وأهل الحارّة يمقتون الأوّل سرّاً، ويبرّون الثّاني سرّاً وعلانيّة، ووحدها الأم من تترضّى على أبي دوح، ولا تتوقّف تدعو على ابنها الشّيخ الكذّاب عبد الله بالعمى والفقر ضيق الرّزق والفضّيّحة في الدّنيا والآخرة.

الحياة تمضي، وأبو دوح يقوم على خدمة أمّه العجوز العمياء، ويبرّها، ويسعى لقضاء حوائجها كلّها، ويطير حولها من مكان إلى آخر كطير من طيور الجنّة يبرّها برّ الجارية للسّلطان، ويحبّها محبّة العطشان في الفيافي للماء الزّلال، والابن العائق عبد الله يعتزلها، ويتأفّف من رائحة جسدها المتفسّخ من مرضها الذي طال، ولا ينقط في حلقها ولو بخردلة من عطف أو رحمة، ويهب وقته كاملاً لنسائه الفقيرات اللّواتي يعدو على أعراضهنّ، ويغدو في سياحة موغلة في التّلبية والتّسبيح في غدو ورواح إلى عمرة أو حجّ، و السّماء تصكّ أبوابها دون صوته الملعون العاق، وصوت الأمّ الكسير يعلو إلى السّماء حاملاً اسم أبي دوح

إلى سدرة المنتهى طالبة المغفرة والرّحمة له، أمّا الصّمت فيلفّ الحارّة القديمة، ويكبّلها بالأسرار.

ماتت الأمّ، وهي تحتضن رأس أبي دوح، وتدعو له بالبركة، والشّيخ عبد الله يوزّع ما تبقّى من الصّدقات على فقيرات الحيّ، بعد أن خصّ نفسه بجلّها.

شيّع أهل الحارّة الحاجة أمّ دوح إلى مثواها الأخيرة، وعزّوا الشّيخ عبد الله بوفاة أمّه بحرارة واحترام بعد أن أدرك كفنها على حافّة قبرها، وعزّوا أبا دوح المتسربل بدموعه وحزنه بخوف يملي عليهم أن يثبتوا تعاطفهم معه وإلاّ صبّ عليهم جامّ غضبه وانتقامه بعد أن يتجاوز هذه المحنة التّي رأوه فيها لأوّل مرّة منذ سنين مستيقظاً من هلوساته دون كأسه أو زبده أو مجونه وتطوّحه، كان يبكي بحرقة، ويتكوّم على قبرها كسيراً وحيداً ككلب أجرب أعور.

وغاب أبو دوح، وما عاد أحد يراه، واستسلم لبكائه المفجوع على أمّه الرّاحلة، حتى أنّ أطفال الحيّ تجرّأوا على أن ينادونه باستهزاء بأبي دوح، وما خرج إليهم من جحره، ولا زعق بهم، ولا فتك بأحدهم، فأيقنوا أنّ أبا دوح الشّرّس قد مات بموت أمّه.

فيما بعد تيقّنوا من موته بعد أن رأوه جثّته متفّحمة هو وأخاه الشّيخ عبد الله بعد أن انفجرت أسطوانة الغاز القديمة في بيتهما الجحر، وحولّتهما في لحظات إلى حطام حطبيّ بسخام أسود شائط الرّائحة باستثناء الذّراع اليمنى لأبي دوح التّي لطالما ألقمت الطّعام لأمّه بمحبّة وحنو، فقد ظلّت سليمة تزهو بوشمه العريض المُزرقّ "النّمر الشّقيّ تاب بعد رحلة عذاب".

الجميع رثوا للشّيخ عبد الله، وتنهّدوا الصّعداء لتخلّصهم من السّكير أبي دوح، وكادوا يحملوا الجثّة الأولى على الأكف، ويتجاهلوا وجود الثّانية، لكن

الرّائحة المنتنة المنبعثة من جثّة الشّيخ عبد الله نفّرتهم منه، ودفعتهم مشدوهين الأنوف إلى جثّة أبي دوح التّي تعبق برائحة مسك فوّاح كأنّها من عطور الفردوس.

الرّائحة الزّكية لأبي دوح تسّللت إلى عرصات الحيّ القديم، وزكمت الأنوف والأرواح، فانساق أهل الحيّ القديم نساء ورجالاً مسنين وأطفالاً خلف الرّائحة، ومضوا في إثرها كالمسحورين، تحلّقوا نحو الجثّة المتفحّمة الطّاهرة، ومضوا فيها إلى المسجد ليصلّوا عليها، وطنّين الزّغاريد يرافقها، والبسملات تكفّنه، وذروا جثّة الشّيخ النّتنة في مكانها بعد أن أكلت النّيران لحيته القناع، وبقي وجهه الشّائن المشّوه الملامح مشدوهاً وهو يسفّ التّراب.

في الأفق كان وجه أم دوح يعمّ الفضاء بابتسامة رضا، وفي الأرض يلفظ الصّغار اسم أبي نوح بإجلال وافر فضفاض، ولا يسمحون لأنفسهم بأن يخطئوا في لفظه؛ فقد كان بارّاً بوالدته العجوز العمياء.

سحر وداد

على الرّغم ممّا حدث معها، فهي مصمّمة على عدم الإيمان بالخرافات والسّحر والشّعوذة والحسد والتّمائم والقوى الخارقة، ولن تسمح لنفسها بأن تؤمن بها بأيّ حال من الأحوال، وتستطيع أن تفسّر جنوح زوجها عنها إلى تلك الجارة الشّرّيرة التّي لم تنل حظّاً من الجمال والأنوثة والرّقة، وحظّيت بالشّرّ والكيد واللّؤم كلّه، هي تدرك تماماً أنّ زوجها وقع ضحيّة لألاعيب تلك المرأة التّي حاصرته بمصيدة حبّها عندما كانت هي بعيدة عنه في سفر طارئ، ثم خنقته بلعبة الحرام والحلال؛ إذ كان سريرها طعمها الذي نشب في حلقه، وساقه إلى فخّ الزّواج الثّاني. أمّا أن تكون قد تصيّدته بنبال السّحر والشّعوذة، فهذا ما ترفضه تماماً، وتسخر منه كلّما سوّغت به جارة أو قريبة أو صديقة ما حدث معها.

هي تقبل تماماً بمعادلة القوى ولحظات الضّعف، ومعطيات البدائل، كما تقتنع تماماً بأنّ زوجها قد فجع نفسه بهذا الزّواج المفاجئ من جارته العانس قبل أن يفجعها هي بذلك، وهما من عاشا أجمل قصّة تآلف وانسجام ووفاء طوال مدّة زواجهما الذي دام خمسة عشر عاماً، وتبرعم عن ابنتين رائعتي الإسعاد، وإنّما فجيعته متأتية من ولعه الشّديد بابنتيه وببيته الدّافئ، وعدم قدرته على أن يجد إجابة لسؤال ابنته الصّغيرة التّي تتعلّق برقبته، وتسأله دائماً بعتاب ذليل: "بابا لماذا تتركنا في كثير من اللّيالي، وتنام في بيت الخالة وداد؟ ماما تظلّ تبكي، وأنا أحزن كثيراً من غيابك".

فيهرب من سؤالها بأيّام غياب أخرى يقضيها في بيت زوجته الثّانية وداد دون أن يجرؤ على يقطع المترين الاثنين اللّذين يفصلان بين بابي شقتي زوجتيه ليحضن طفلته الصّغيرة التّي اتّخذت لنفسها دبّاً قطنيّاً صغيراً تحضنه بتشبّث بدل والدها الذي اعتادت في الأيّام الخوالي على أن تنام في حضنه، وتتشبّث بطوق منامته، فهو يعجز عن أن يجيبها عن سؤالها، وأن يقول لها إنّه نادم لتورّطه في هذا الزّواج الذي حرمه من دفء أسرته منجزه المقدّس الوحيد الذي يعتزّ به أيّما اعتزاز.

لكن المترين الفاصلين بين بابي الشّقتين أبعد على نفسه من قطبي الأرض؛ لذلك يلزم سريره في بيت وداد ملوماً محسوراً، وهو يحلم بحياته الأسريّة السّابقة التّي أطلق عليها رصاصة الموت في لحظة نزوة لا يشفع لها جمال تملكه وداد، أو سبب منفّرٍ في زوجته الأولى.

هو يصمّم على أنّ وداداً قد سحرت له، ويؤّمل النّفس بأن يتحرّر في يوم ما من شرك سحرها، عندما ينقلب السّحر على السّاحر، ويستعيد الزّمن المسروق مع أسرته الأولى.

الآن بعد سنين من التّشظّي بين عالميه لم ينفكّ سحر وداد عنه، لكن لعنته قد أصابتها بمرض عضال غريب حار الأطبّاء فيه، ولخّصوه في أنّه مرض عضليّ نادر، يصيب النّشيج العضليّ كاملاً بضمور أزليّ يسبب العجز الكامل عن الحركة.

في غضون أسابيع قليلة تحوّلت وداد المرأة اللاحمة الضّخمة إلى كتلة لحم هزيلة شبه متعفّنة من طول الاستلقاء في السّرير، وكاد زوجها يتخلّى عنه، ويطلّقها، لكنّ غصّة غريبة في نفسه منعته من ذلك، وسلوك زوجته الأولى مع

هذا الوضع ألزمه بنبل إجباريّ ما كان يسعى إليه؛ فقد تبرّعت زوجته الأولى برعاية ضرّتها الشرّيرة، وانقطعت لخدمتها، والقيام على أمرها، وصفحت عنها إكراماً لوجه الله تعالى، وهذا ليس غريباً على روحها الكبيرة الحنونة التّي تعرف كيف تصفح وتعطي وتُكرم.

الزّوجة الأولى قد وجدت نفسها في معركة مع نفسها، ورفضت أن ينتصر الانتقام عليها؛ لذلك كابرت كثيراً كي تكون نفسها، وقد كانتها بانتصار مؤزّر على ألمها الماضي الحاضر، بل قبلت بأن تتعاطى مع طلب ضرّتها الغريب بكلّ روح سمحة مرنة تتسع إلى كثير من غموض الآخرين وخصوصيتهم، وظلّت تقوم كلّ يوم بسكب زيت زيتون بمقدار فنجان قهوة في فتحة التّصريف الصّحيّ في مطبخها بناء على رغبة ضرّتها المريضة دون أن تعرف سبباً لهذا السّلوك الغرائبيّ الملغز.

لكنّها كانت منقطعة للقيام به يوميّاً ما دام هو الأمر الوحيد الذي يعني ضرّتها، وتسأل عنه بشكل يوميّ لتتأكّد من قيامها به، وتدعو لها بالبركة لقيامها به، وتسأل الله العافية لها، وتكرّر على مسمعيها عبارات امتنانها لها المصحوبة بنتف دموعها التّي قلما تبذلها لأيّ أمر حتى تفجعاً على حالها الذي وصلت إليه من مرض وهزال وعجز، أو على هجر زوجها لها بشكل كامل منذ مرضت، وصيرورة حالها من القوّة والبطش إلى العوز إلى رحمة ضرّتها بها، ورعايتها لها.

حتى بعد موت وداد بعد استفحال المرض فيها، وانتصاره عليها بشكل كامل بعد عامين من المعاناة الممزّقة، ظلّت الزّوجة الأولى تداوم على سكب فنجان زيت الزّيتون في فتحة التّصريف الصّحيّ في مطبخها إكراماً لوصيّة المرتحلة المتوفّاة التّي قلبت حياتها جحيماً، وحرمتها من زوجها حتى بعد مماتها؛

فمنذ موتها وزوجها في حال تشبه الذّهول، يعيش في عزلة مستبدّة بـه، ويعـاني ألماً رهيباً في رأسه، ويكره أن يرى ابنتيه أو زوجته الأولى، وكلّما عاتبـه أحـد في أمر سلوكه مع أسرته، صكّ يداً بيد، وقال باستسلام: "هـي وداد، لقـد سـحرتني قبل موتها. أقسم على ذلك. وداد ماتت، لكنّ سحرها ما يزال حيّاً".

لقد مجّ النّاس سماع هذه الجمل من الزّوج، وعافت نفس الزّوجـة هـذا الحديث المتهالك عن سحر وداد المزعوم، وجنحت للتّسليم بأنّ زوجها الحبيـب الخائن قد لاقى جزاء خيانته جنوناً وعتهاً، وتزامن نفاد زيت الزّيت من بيتها مع إصرار ابنتهـا الصّـغيرة الفضـوليّة علـى أن تعـرف مـاذا يوجـد في قعـر فتحـة التّصريف الصّحي كي تسكب أمّها له هذه الدّفعات اليوميّة من زيت الزّيتون ممّا جعلها تقرّر في لحظة فضول ليست من طبعها أن تتجرّأ، وأن تمـدّ يـدها المغلّفـة بظرف بلاستيكيّ شفّاف في قعر فتحـة التّصـريف الصّـحيّ لتعـرف سـرّ زيـت الزّيتون المُوصى بسكبه فيه.

حرّكت يدها قليلاً قبل أن ترتطم بتلك الكتلة القشـريّة الصّـلبة، قـدّرت أنّها قد تكون كتلة كلسيّة كوّنتها رواسب التّصريف الصّـحيّ، خلعتهـا بسـهولة من مكانها، وأخرجتها من قعر الماء وسط ست عيون تراقبها بفضـول، وتـنحني باتّجاه قعر فتحة التّصريف تخمّن خبط عشواء مـاذا سـتخرج يـدها مـن القـاع المائيّ، وما تصوّرت أبداً أن تخرج يدها سلحفاة برمائيّـة عجـوز، تمـور برأسـها تبحث عن زيت تلقمه، وقد اعتادت على أن يُسـكب لهـا في هـذا الوقـت مـن النّهار، كانت قشرة بيتها مكشوطة السّطح بغير براعة، ومحفور عليهـا بخـط غـير متّسق، لكن واضح: "لن يعرف هذا البيت السّعادة أبداً، وسيسلّط عليهم المرض والحزن والفراق".

أدركت الزّوجة خديعتها بوداد الشّرّيرة التّي جعلتها لطيبتها المفرطة قيّمة على سحرها تسقيه زيت الزّيتون في كلّ يوم كي يستمرّ فعله باستمرار حياة السّلحفاة التّي تتغذّى على الزّيت المسكوب لها، وهي حبيسة مكانها الضّيق في قاع فتحة التّصريف الصّحيّ حيث لا متّسع لها لتسقط في المجاري الرّئيسيّة، ولا طاقة لها للتّسلّق للخروج من فتحة التّصريف الصّحيّ.

تلك الكائدة الآثمة لم تتعظ بما فعله الله بها، وظلّت مقيمة على سحرها وإثمها حتى بعد موتها، وهذا يفسّر كلّ ما تلاقي أسرتها من شرور.

يثب زوجها في مكانه مراراً كمن وجد ماء في مفازة قائلاً بحماس وتوتّر مشفوع بتأتأت متعثّرة: "ألم أقل لكِ إنّ سحر وداد موجود بيننا؟".

قالت الابنة الكبرى التّي غالباً ما تجنح إلى الصّمت: "لكنّ أمّي لا تؤمن بالسّحر!"

تصمت الأم وأزواج العيون تنتظر تعليقاً منها، ثم تقول بحزم: "سنبول على السّلحفاة ثم نقتلها، بالنّجاسة يُفكّ السّحر، هكذا سيزول سحر وداد".

تقاسيم [1]

حكاية

(١)

هما كانا دون ذاكرة تمنّي عندما وهبهما الزّواج هديّة فوريّة إجباريّة، اسمها سناء، على عجل اختارا أن تكون الهديّة ذكراً يحمل اسم الجدّ، وملامح الجدّة نزولاً عند رغبات مزوّرة بتخليدهما، فكانت الهديّة فتاة، لا تخلّد اسم الجدّ المنسي، ولا تشبه الجدّة الشّمطاء، نكاية بالأم أسماها الأب سناء؛ لتذكّره بحبٍّ بائد من الزّمن الغابر، ونكاية بالأب أسمتها الأم سناء لتحبس ذكرياته في وجه ابنتهما، ونكاية بالأب والأم أسمت الطّفلة نفسها سونا؛ لأنّها تكره الأسماء الّتي على وزن كلمة مواء!

حكاية

(٢)

الطّفلة الصّغيرة كانت ألعوبة الجميع، والجميع كانوا ألعوبتها، وزّعوا ملامحها وصفاتها على أفراد الأسرة جميعهم بمنطق المحاصصة، حتى أنّها كانت

١- حازت هذه القصّة القصيرة على جائزة أحمد بوزفور للقصّة القصيرة في دورتها التّاسعة، جمعيّة النّجم الأحمر للتّربية والثّقافة والتّنمية الاجتماعيّة في مشروع بلقصيري في العام ٢٠١١، بلقصيري، المغرب.

تشبه القابلة أم محمود بقدرتها على زمّ شفتيها كلّما انزعجت، إلاّ ابتسامتها الدّائمة لم يستطيعوا أن يعرفوا لها مورثاً، فعقد الحاجّبين تقليد أسريّ ووطنيّ مقدّس، لذلك كانوا كلّما أرادوا أن يضحكوها يحزنوها بشدّة، فتخدعهم، وتضحك بقوّة كلّما أحزنوها، فكبرت مراوغة للمشاعر كلّها، تبكي عندما تفرح، وتضحك عندما تحزن، وتأتي عندنا تغادر، وتغادر عندما تأتي، ففرح الأهل بهذه الطّفلة المسلّية، وضحكت كثيراً لهم، ولم يدروا أنّ ضحكها بكاء!

حكاية

(٣)

الطّفلة الصّغيرة ذات طباع غريبة، ترى ما لا يُرى، وترتطم بالحائط؛ لأنّها تصمّم على أنّ هناك باباً فيه، يأخذونها إلى طبيب العيون ليضع لها نظارة لتصحيح بصرها المعطوب، فيعطيها الطّبيب بدل ذلك حلوى من النّوع الرّديء جبراً لخواطر الكبار لا لخاطرها الفولاذيّ غير القابل للكسر، واعتذاراً لهم عن صحّة بصرها!

في المساء تحدّث والديها بإسهاب عن الذّيل المشعوعر الرّطب الذي تملكه إحدى قريبتها، وعن فكيّ القرش اللّذين يملكهما الجدّ، وعن الأطفال الذين أكلتهم أمّنا الغولة التّي تسكن الطّابق العلويّ، وعن دعوة حفل الرّبّيع التّي وصلتها من الجدّ سنفور في حقيبة ضفدع أزرق قفوز، وعن زعنفة السّمكة التّي تملكها في جسدها، وعن الأقزام الذين تربّيهم سرّاً في خزانة المطبخ، فيقرّر الأب أن يأخذها إلى طبيب عيون آخر يأخذ خمسةَ دنانير بدل دينارين، لكنّه يجيد علاج

ابنته ذات العينين المريضتين، والحكايات الحولاء، وتبحث لها الجدّة السّاذجة عن حجاب يقيها من العين الحسودة ! أمّا الأمّ فتشتري لها قلماً ودفتراً لتكتب ما تراه ولا يراه الآخرون؛ فهي تعلم أنّ سونا ستكتب دون توقّف ما دامت على قيد الحياة.

حكاية

(٤)

الطّفلة الصّغيرة تنعم بحبّ عريض، وبحشد من الأمهات، فماما ماما تعني والدتها، وماما "تيتيا" تعني جدتها، وماما "خالتو" تعني خالتها الوحيدة أو زوجة خالها الكبير التّي تحبّها حدّ العبادة، وماما "صباح" تعني الجارة الشيشانيّة الجميلة، وماما "الغولة" تعني تلكم الأمهات جميعهنّ عندما تغضب منهنّ، وماما "الطّيّارة" تعبير تصف به كلّ امرأة لا تحبّها، فتشبهها بالسّاحرة الشّرّيرة التّي تطير على مكنسة، فيضحك النّاس؛ لأنّهم لا يعرفون معنى كلمة طيّارة وفق مفهومها، وتضحك هي لأنّهم لا يعرفون معنى ما تقول، وتتوعدها أمّها بالعقاب لوصفها النّساء بالطّيارات، ثم كعادتها لا تعاقبها؛ لأنّها تكون مشغولة بالضّحك السّرّيّ من كلمات ابنتها الشّقيّة عن أيّ شيء آخر.

حكاية

(٥)

حشد أمّهاتها يـؤمنّ بهـا، مامـا مامـا تحكـي لهـا القصـص، وتصـدّق حكاياتها الكاذبة جميعها، ماما "خالتو" تسـمح لهـا بـأن تفسـد كـلّ ترتيـب بيتهـا ومطبخها لتصنع فيه ماهو على هواها كي تعبّر عن ذاتها بالأشكال كلّهـا حتـى بالفوضى، ماما صباح تؤكّد أنّ عينيها الزّرقاوين هما هبة من الجيران الشّيشـان والشّركس، ولذلك فقد ورثت بهما حكايات سوسروقة ونارت، وحظّيت برؤية مائيّة للأشياء بدل رؤية صحراويّة جافّة، وماما "الشّـيطانة" هـي مـن تطاردهـا في أحلامها ويقظتها، وتنفث في نفسها قصصاً لم تعشها، لكنّها تجيد الحديث عنهـا، وقول بسم اللهالرّحمن الرحيم، يبخّر ماما "الشّيطانة"، لكنّ قصصها تظّل عالقة في خيالها حتى تمليها على والدتها في دفتر صغير، فهي لا تجيـد الكتابـة وهـي ذات خمس سنين، وقصصها لا تجيد الانتظار حتى تكبر لتكتبها.

حكاية

(٦)

هم يعتقدون أنّها أصغر من أن تخاف، والصّـهاينة يريـدونها أن تخـاف وأن يخاف الجميع معها، وشبكات التّلفزة تبثّ بشكل مباشر مذابح مخـيّم صـبرا وشاتيلا، وهي تشاهد التّفاصيل كاملة بفزع صامت.

ينتهي الاجتياح، ويُوزّع الموت مجانيّاً على فلسطيني مخيّم صبرا وشاتيلا، وتشرع قنوات التّلفزة ببث أفلام عربية عاطفيّة تنتهي بقبل فمويّة ممطوطة وموسيقى رومانسيّة لا تعرف شيئاً عن عذابات الضّحايا الفلسطينيين، وتظلّ أكفان موتى صبرا وشاتيلا تطاردها، تتخيّل الموت يسكن ستائر البيت، فلا تنام، ولا تدع أحداً ينام، فيكون الحلّ الأسريّ المقترح لحالتها هو أن تصبح لاجئة عاطفيّة في بيت خالها حتى تنسى أكفان الموتى الملطّخة بالبياض.

يطول مقامها في بيت خالها، ينسى الجميع الأكفان إلاّها، تكتشف أنّها تخاف الأكفان؛ لأنّها أجساد دون وجوه ودون ملامح، تشرع تتخيّل لها وجوهاً، وتتخيّل للوجوه حكايات ترويها لأترابها من أطفال الأسرة، فيأنس الأطفال بما يسمعون، وتكفّ الأكفان عن مطاردتها في اليقظة، وتسكن أعماق أحلامها للأبد.

حكاية
(٧)

تتعلّم الكتابة والقراءة في أشهر قليلة، المعلّمات يسمّين هذا ذكاء، أمّها تسمّيه وراثة جينيّة، لكنّها تعلم أنّ الحكاية هي السّبب، فهي تريد أن يتحرّر قلمها من سيطرة أمّها لتكتب ما تشاء ومتى تشاء دون أن تنتظرها بفارغ الصّبر حتى تنتهي من أعمالها المنزليّة الموصولة لتملي عليها ما تحاصره طوال النّهار في نفسها من حكايات قد تتفلّت منها، وتهرب بعيداً قبل أن تحبسها في ورقة أثيرة تجيد أن ترتبها في مكانها في الدّرج الوحيد في خزانتها الخشبيّة الخضراء القديمة.

حكاية
(٨)

العالم يصبح أرحب عندما تمسك بـالقلم، وتبـدأ بالكتابـة، تكتشـف أنّ العالم كلّه مصنوع من مادّة الحكاية، لذلك تفهم العالم بمنطقها، وتتعامل معه وفق منطق الشّخوص والزّمان والمكان والعقدة والتأزم والحلّ والرّؤيـة واللّغـة، كـلّ شيء في عرفها له حكاية، وهي تتقن فـنّ الحكايـات، ولـذلك تأخـذ علامـات كاملة في المواد جميعها؛ لأنّها مواد تجيد الحكايات، أمّا مـادّة الرّياضـيات فتخفـق فيها دائماً؛ لأنّ الأرقام لا تحبّ الحكايات، ولها منطق آخر لا تفهمه.

حكاية
(٩)

الطّفلة الصّغيرة لها عادات غريبة، ولها دفتر أزرق صغير بـرّاق الغـلاف تجمع فيه الكلمات الجديدة التّـي تسـمعها، ولا تعـرف معناهـا، لكنّهـا تُعجـب بجرسها الموسيقي، تردّدها كثيراً بفـرح حتـى تـألف لفظهـا. الـبعض يـرجّح أنّ الطّفلة مجنونة، الأم الخالة تراهن على مستقبلها المشرق الفيّاض بالمنى، ووالدتها تشرح لها معاني الكلمات الموسيقيّة التّي تجمعها بفرح مـن يجمـع أصـداف مـن بحيرة مسحورة، ولا تعنيها آراء النّساء الطّيارات بما تفعل.

حكاية

(١٠)

الطّفلة الصّغيرة تحصل على جمهور من القرّاء لقصصها التّي تنتجها بطريقتها الخاصّة من مصروفها المدرسيّ بطريقة التّبادل الحرّ، فمقابل أن تقرأ صديقاتها ومعلماتها وزوجة خالها وأمها وأترابها في الأسرة قصصها، فهي تعطي شطائرها لصديقاتها في المدرسة، وتظلّ دون طعام في الاستراحات المدرسيّة، وتكفّ عن شقاوتها في الحصص لإرضاء معلّماتها، وتنظّف المطبخ الذي دمّرته دمارا شاملاً في بيت زوجة خالها، وتنظّف سجادة الرّدهة في البيت إكراماً لأمّها، وتتنازل عن زعامة عصابة أطفال الأسرة لابنة خالها.

ومن يثبت بالدّليل القاطع بأنّه لم يقرأ القصّة بعد أن تهاجمه بالأسئلة عيار أرض جو، فهي تُعلن عليه حرباً طفوليّة لا تعرف هوادة أو صلح، وتصفه: بالحمار الصّغير أو الكبير وفق درجة غضبها منه.

حكاية

(١١)

الطّفلة الصّغيرة تحبّ الكلمة بتجلّياتها جميعها، تحبّها مكتوبة بشكل حرفيّ، أو مغنّاة بشكل صوتيّ، أو مرسومة على لوحة، هي تجيد الرّسم كثيراً، وعندما تعيها الكلمات، ترسمها تفاصيل على ملامح وجوه من ترسمهم. تتجادل

والدتها وزوجة خالها كثيراً في مضمار التّخمينات لمستقبلها، الأم تراها رسّامة شهيرة، وزوجة الخال تراها روائيّة مجيّدة، وهي تبحث عن مبراة لقلمها، ولا تأبه بهذا الجدال المكرور.

حكاية

(١٢)

الطّفلة الصّغيرة تحقّق كلّ ما تحلم به بمنطق الحكاية، فتهب وتحرم وتنتقم وتعشق وتبكي وتضحك وتنسى وتتذكّر وتمرض وتُشفى وتزور وتهجر بمنطق القصّة، حتى أنّها تنتقم بالقصّة؛ فالذين تكرههم تحيك لهم حكايات شريّرة، والذين تحبّهم تصنع لهم حكايات ذات تغريبات هلاليّة وقصائد طلليّة، والقاهرة التّي تعشقها ستزورها عندما تفوز بجائزة المجلس الأعلى للثقافة والفنون في حقل الرّاوية، هذه هي الحكاية التّي حاكتها عن زيارتها المأمولة للقاهرة.

تشارك في المسابقة السّنويّة برواية لها بعنوان "عازفّة القانون" عمرها عندئذ لا يتجاوز العاشرة، تظلّ تسأل أمّها كلّ يوم إن كانت القاهرة قد اتّصلت بها أم ليس بعد؟ الأم تومئ لها بالنّفي، وتقول لها قد يفعلون ذلك غداً. وتنتظران معاً غداً الذي يأتي دون اتّصال من القاهرة، هي لا تعرف لماذا لم تتحقّق حكايتها مع القاهرة، أمّا أمّها التّي رافقتها حتى البريد المركزيّ في وسط عمّان القديمة، ودفعت ثمن الطّرد المستعجل الذي حمل مشاركتها في خمس نسخ مطبوعة إلى القاهرة، فتعرف أنّ لا اتّصال سيأتي من جائزة عربيّة عريقة تشترط أن يكون

عُمر المتسابق فيها فوق الأربعين، وترفض مشاركات الأطفال الطّامحين للفوز مثل ابنتها الصّغيرة ذات الأعوام العشر.

حكاية

(١٣)

حكايتها الجديدة أنّها خلعت جسد الطّفلة، ولبست جسد امرأة، كلّ شيء فيها غدا أكبر، إلاّ عينيها، فهما لم تصبحا أكبر، لكنّهما أصبحتا أشدّ عمقاً، غدت تجيد أن ترى الحكايات في كلّ مكان، تراها على الجدران، في ظلال الأجساد، في سيرة النّظرات، في تقاسيم الأيدي، في جغرافيا الشّعر، في حسيس الحروف، في رائحة الأجساد، في نبض الأماكن، دائماً هناك حكاية، وهي تجيد أن تشمّها، أن تحسّها، أن تتذوّقها، أن تكتبها، دائماً هناك حكاية، البعض يسمّيها قاصّة، البعض يسمّيها موهوبة، البعض يسمّيها مجنونة، لكنّها تعرف أنّها تملك عينين تجيّدان الرّؤية خلف الرّؤية، وهذا سرّ سعادتها المتعسة الملغزة، ولسعادتها حكاية أيضاً.

حكاية

(١٤)

الحياة هزيمة كبرى، وهذه الحكاية الأولى في عُرفها، وكي تنتصر على الهزائم لا تنقطع تكتب الحكايات، من الهزيمة صنعت أطواق النّجاة، ومن الموت

صنعت بشراً لا يموتون، وفي الفقد زرعت أطرافاً لا تُبتر، وأعضاء لا تعطب، ووهبتها للمحرومين والمنكوبين بعد أن نبتت أحلاماً وفرصاً جديدة، ومن سنابل الجوع صنعت بطوناً لا تعرف الخواء، ومن عناقيد الحرمان جدّلت جدائل الألفة والسّكينة والحبور.

هي لا تملك غير الحكاية، تهبها مجاناً لكلّ سائل أو حزين أو باحث عن طريق، تزرعها تحت مخدّتها، وتنام بعد أن تتعوّذ بها من الشّرّ كلّه الذي لا يمكن أن يمسّ امرأة تتمترس خلف فضيلة الحكاية.

حكاية

(١٥)

الذين لم يأتوا حقيقة استولدتهم قهراً في حكاية، الذين ما كان يجب أن يأتوا نفتهم إلى حكاية بعيدة جدّاً، عليها فقط أن تكتب لتتغيّر أقدارها كافّة، فهذه حكايتها، امرأة تتحقّق حكاياتها، وأحياناً تهاجمها، وكثيراً ما تعضّها، وغالباً ما تصيبها بصداع السّرّد والتّفاصيل الصّغيرة التّي تتقن أن تجمعها بمهارة من كلّ مكان، وتدسّها بهدوء وتكتّم في جعبتها السّحريّة! وتغادر المكان بصخبٍ مؤجّل.

حكاية

(١٦)

للحكاية حكاية أيضاً؛ فالحكاية مراوغة مدلاع مغناج، لا تستطيع أن تستدرجها إلاّ بالخديعة العذبة، كلّما أرادت أن تكتب أوهمت نفسها بأنّها خارجة في موعد، فتلبس جديدها، وتتعطّر، وتتزيّن، وتحمل الورق الأزرق، والقلم السّائل الأزرق، وتهمّ بالخروج، فتندلق الحكايات عليها بنزقٍ طفوليّ ترجوها أن تذهب معها، فيكون شرطها أن تكتبها قبل الخروج، فتوافق الحكايات على شرطها الأوحد مجبرة مقهورة، أمّا إن لم ترد أن تكتب، فما عليها إلاّ أن تعلن أنّها لن تغادر البيت، وأنّها ستجلس في سريرها غير مهندمة مثل صورة دون ألوان أو إطار حتى تهرب الحكايات منها نحو العدم.

هكذا هو عالمها، بحر فيه مدّ وجزر من الحكايات، ووحدها من تستعذب الغرق والنّجاة فيه، ووحدها الحكاية من تهبها سبباً جديداً كلّ يوم لتستيقظ من نومها لأجلها.

غالية سيّدة الحكايا

طريقة أمّها في سرد القصص هي أوّل ما عشقت في هذه الحياة، ولذلك كانت تحفظ كلّ كلمة ممّا تقوله أمّها عن ظهر قلب، كأنّها نُقشت في قلبها بماء الخلود. لقد أصبح أبطال قصص طفولتها هم أصدقاءها الحقيقيّين، فعروس البحر هي أختها الكبرى، وسندريلا هي صديقتها السّرّيّة، والسّنافر هم رفاقها في سفرها، والشّاطر حسن هو من يدافع عنها، والأمير الطّيّب سيتزوجها عندما تكبر، وسندباد سيأخذها في سفر طويل عبر البحار السّبعة. هي ضدّ الأشرار في القصص كلّها، كثيراً ما تحلم بهم، ويكادون يسبّبون الأذى لها، لكن أصدقاءها من عوالم القصص ينقذونها في كلّ مرة؛ لذلك تتفاخر بهم دون انقطاع أمام الأقارب والجيران وأترابها في الصّفّ التّاسع.

كانت تعيش دائماً في قصّة جميلة، تروي قصصها للصّديقات، وتستفيد من تجارب أبطالها في حياتها، وتوظّف الأفكار الخيّرة في مواضيع التّعبير التّي تكتبها في المدرسة عند المعلّمة أزهار، فتحصل على علامات مرتفعة. فيما بعد قامت بابتداع شخصيّة وهميّة لقصصها كلّها، ركّبتها من الأرواح الجميلة التّي قابلتها في حكاياتها، فكانت خليطاً من الصّدق والمحبّة والوفاء والكرم والجمال والعون والإخلاص، وأسمتها الجنيّة مرمر.

حاكت الكثير من القصص حول مرمر، كانت تحكيها دون ملل للصّديقات، حتى أسماها الجميع "غالية سيّدة الحكايا"، لكن في اللّيل، وهي في السّرير، كانت تمارس متعتها الكبيرة المتمثّلة في سماع أمّها تروي لها قصّة ما قبل

النّوم، فتستمتع بتفاصيلها جزءاً جزءاً، وتُدهش بمفاجآتها، ولو كانت تسمعها للمرة العاشرة.

كانت غالية تعتقد أنّ الحياة قصّة جميلة مثل سائر القصص الجميلة التّي ترويها أمّها لها، فقد كانت تظّن أنّ الأحداث السّيئة تحدث فقط في القصص، لكن في الحياة لا وجود إلاّ للسّعادة الدّائمة التّي تعيشها في منزل جميل يضجّ بالضّحك واللّعب وحكايات أمّها الشّائقة، وصوت أبيها الحنون، ومشاكسات أختها الصّغيرة عالية. لكنّها اكتشفت أنّ العالم قد يصبح قبيحاً في لحظة واحدة، كذلك قد يصبح شريراً دون يسمح لها أن تستعين بأصدقائها أبطال القصص كي تنتصر بهم على أحزانها ومخاوفها.

ذلك كلّه حدث عندما اكتشفت أنّ أمّها لم تسافر في رحلة عمل لأيّام قصيرة مع الشّركة التّي تعمل فيها كما أُخبرت سابقاً، بل إنّها ترقد على سرير الشّفاء في مستشفى العاصمة للسّرطان تصارع بجسدها الصّغير الضّعيف مرض السّرطان الذي هاجم جسدها منذ أشهر دون أن تشعر به إلاّ عندما أصبح قويّاً مسيطراً على مساحة كبيرة من جسدها. اكتشفت ذلك بالصّدفة، فعرفت سرّ بكاء والدها في اللّيل، وسبب عدم اتّصال أمّها بها طوال أيّام سفرها المزعوم.

حزنت غالية حزناً كبيراً على أمّها، وصمّمت على زيارتها في المستشفى على الرّغم من معارضة الأهل والأقارب لهذا الأمر؛ خوفاً عليها من الحزن، فهي في رأيهم أصغر سنّاً من أن تواجه الحزن وحدها، لكنّها كانت مصمّمة على أن تسمع حكاية المساء لهذا اليوم من أمّها الحبيبة.

عندما دخلت حجرة والدتها في المستشفى برفقة أبيها وأختها وجدّها لأبيها أحزنها أن ترى أمّها وحيدة ضعيفة دون شعر ترقد في سريرها، كأنّها

نائمة منذ ألف عـام، طبعـت علـى خـدّها قبلـة طويلـة، ففتحـت أمهـا عينيهـا بصعوبة، فقالت لها غالية برفقٍ: "لقد جئت يا ماما كي أحكي لـكِ حكايـة، كـلّ يوم صباحاً ومساء سأحكي لـك حكايـة حتـى تشـفي، الحكايـات تمـدّ الـنّفس بالسّعادة والقوّة. أليس كذلك يا ماما؟"

ابتسمت الأمّ بصعوبة، وحضنت غالية بضعف وعناء، وقالت لها: "نعم، يـا غالية، احكي لي في كلّ يوم حكاية؛ فحكاياتكِ سوف تهب الحياة لي".

- "هل ستنتصرين يا ماما على المرض؟ وتعودين معنـا إلى البيـت؟" سـألت غالية أمّها برجاءٍ.

- "هذا يعتمد على جمال حكاياتكِ يا غالية" أجابـت الأم بابتسـامة ترسمهـا بصعوبةٍ على وجهها الشّاحب.

- "إذن سأملأ الدّنيا بالحكايات كي تشفي يا أمي" قالت غالية بحماسٍ وأمـل وإصرار.

- "قولي إن شاء الله يا غالية" قالـت الأمّ برجـاء، وعينهـا تتعلّقـان بالسّـماء بضراعة وانكسار.

- "إن شاء الله سوف أملأ الدّنيا بالحكايات كي تشفي يا أمّي" ردّدت غاليـة، وهي تغالب دموعها التّي تحشرج في روحها.

فتحت الأم ذراعيها مشيرة إلى ابنتيها غالية وعالية كي تأتيا إلى حضنها، وقالت لهما: "تعالا هنا إلى حضن مامـا، سـنملأ العـالم بالحكايـات الجميلـة كـي ننتصـر علـى المـوت، وسـوف تظـلاّن جميلـتين تطيعـان والـدكما، وتقومـان بواجباتكما المدرسيّة، وتنامان مبكّراً بعد شـرب الحليـب كـي تسـتيقظا بكامـل قوتكما ونشاطكما من أجل الذّهاب إلى المدرسة. أليس كذلك؟"

- "نعم، يا ماما" أجابت غالية وعالية بطاعة ورضا.

قرأت غالية الكثير عن مرض السّرطان، وعرفت أسبابه وأشكاله وعوارضه، كذلك قرأت الكثير عن ضحاياه، وعرفت أنّ سرطان الثّدي الذي أصاب والدتها هو من الأنواع الشّائعة جدّاً بين النّساء بعد سنّ الثلاثين، وهو نوع خطير إن لم يُعالج في مراحله الأولى، لكن الخبر السّار أنّه يمكن الشّفاء التّام منه عند تلقّي العلاج في الوقت المناسب، وهو في الغالب العلاج الكيميائيّ الذي تسبّب في سقوط شعر أمّها، وفي إنهاك جسدها بشكل عام، فهو طريقة ناجعة لقتل المرض الذي يهاجم جسدها من الدّاخل، ومن حسن حظّ أمّها أنّ المرض في مرحلته الأولى عندها، ولذلك سيكون من الممكن أن تُشفى منه بشكل كامل، إن أراد الله ذلك، وإن التزمت بالعلاج كاملاً، وقاومت المرض، وأصرّت على الحياة، وعلى عدم الاستسلام للموت.

قرّرت غالية أن تحرّض أمّها على مقاومة المرض، والانتصار على الموت، وطريقها إلى ذلك هي الحكايات؛ لذلك ستحرص على أن تمدّها بالقوّة والإصرار عبر حكاياتها، كما كانت أمّها في الماضي تمدّها بالقيم الرّفيعة والأخلاق الحميدة والدّروس المفيدة عبر قصصها التّي ترويها لها.

في كلّ يوم بعد العودة من المدرسة، وتناول طعام الغداء بسرعة وعجل كمن يعدو أمام نعامة تذهب غالية إلى زيارة أمّها في المستشفى برفقة والدها، تقبّلها، وتمسّد بأناملها الصّغيرة على رأسها، وتبدأ حكايتها عن صديقتها الجنيّة مرمر، وفي كلّ مرة تبدأ حكايتها بالبداية ذاتها التّي تقول: "اليوم هو عيد ميلاد الجنيّة مرمر، وقد بلغ عمرها ثلاثمائة سنة، لكنّها في عمر الجنّ لا تزال فتاة صغيرة، وهذه أوّل مرّة يُسمح لها فيها بأن تخرج من سلطنة الجنّ الأزرق، لتزور مملكة الإنس بمفردها دون مرافق أو حارس أو مدرّب أو حتى معلّم، وهي

سعيدة جدّاً بهذه الزّيارة التّي كانت تنتظرها منذ مئة عام، لكنّها ما كانت تستطيعُ أن تقوم بها قبل أن تصل إلى سنّ الثّلاثمئة عام، وهو سنّ السّفر الحرّ في قانون سلطنة الجنّ الأزرق".

"لقد تهيّأت منذ شهر لهذه الزّيارة التّي كانت أعدّت لها طويلاً، لكن أكثر ما يعنيها في هذه الرّحلة هو أن تثبت لمعلّمها الأعلى في مدرسة الجنّ الأزرق للأخلاق النّبيلة أنّها تستحقّ تصريحاً دائماً لزيارة بلاد الإنس، وهذا التّصريح بمثابة إجازة علميّة رسميّة لتمارس طاقاتها السّحريّة وقدراتها الخارقة التّي تملكها بحكم أنّها جنّيّة مواطنة في سلطنة الجان الأزرق، لكنّها لا تستطيع أن تمارسها دون الحصول على إجازة رسميّة لذلك".

"لا يمكن أن تحصل على هذا التّصريح إلاّ بعد أن تنجح في المهام التّي يسندها إليها معلّمها الأعلى في مدرسة الجنّ الأزرق للأخلاق النّبيلة، ومهمّتها لهذا اليوم في عالم الإنس هي..."

عندها تبدأ غالية بسرد حكايتها لهذا اليوم، وهي دائماً حكاية تستثمر ما مرّت به أمّها من معاناة مرض كي تحفّز قوّتها، وتدعوها لمقاومة السّرطان الذي يغزو جسدها، ويحرّضها على عدم الحزن على ما أصابها، والإصرار على الشّفاء؛ فتارة يكون على مرمر أن تعيد إلى امرأة قصص شعرها الجميل الذي سرقه مرض ما منها، وتارة ثانية يكون عليها أن تقاوم إلى جانب رجل يريد وحش أن يأكل ابنته الجميلة، وتارة ثالثة عليها أن تكون في مساعدة أخ حنون عليه أن يقطع عشرة جبال على قدميه كي يحضر لأخته الصّغيرة علاجاً من لدغة أفعى شريرة، وتارة رابعة يكون عليها أن تستعيد أميرة من مملكة الظّلام بعد أن خطفها شبح شرير، وتتوالى الحكايات التّي لا تملّ غالية من سردها، وأمّها تسمعها باهتمام، وتتقوّى بها على الآلام والتّجارب الصّعبة التّي تمرّ بها

في رحلة علاجها، أحياناً يكون تأثير الحكايات أقوى من الألم، وفي أحيان أُخر يكون تأثير الألم أقوى من الحكايات، لكنّها في الأحوال كلّها مصمّمة على المقاومة من أجل الحياة، ومن أجل غالية وعالية.

كلّما شعرت بالضّعف والهزيمة، تضمّ ابنتيها الصّغيرتين إلى صدرها كي تشعر بالمزيد من القوّة التّي تستمدّها من حبّهما لها، ومن حكايات غالية.

سريعاً ما انتشرت حكايات غالية المقاومة للموت والمرض في أرجاء مستشفى علاج السّرطان، وكثيراً ما طلبها المرضى لتحكي لهم بعضاً من حكاياتها، ثم باتت تتبرّع بكلّ حماس بزيارة المرضى لتحكي حكاياتها لهم، ولتشجّعهم على الصّمود، في البداية كانت تحكي لهم قصصاً مستمدّة من صمود أمّها في وجه المرض، وبعد أن سمعت حكاياتهم في الصّمود في وجه مرض السّرطان، وعرفت حالاتهم المرضيّة، باتت تستثمر هذه التّفاصيل في بناء المزيد من الحكايات التّي ترويها لأمّها كي تستعين بها على الصّمود في وجه المرض، وكي تعلم أنّها في حالة صحيّة جيّدة ومبشّرة بالشّفاء مقارنة مع غيرها من المرضى والمريضات.

مرمر بطلة حكايات غالية جعلت الأم تعرف أنّها في خير مقارنة مع المريضة نجاح التّي استأصل الأطبّاء ثدييها بسبب السّرطان، وهي أفضل حالاً من مراد الذي فقد صوته للأبد بسبب السّرطان الذي أكل حنجرته، كذلك هي أفضل حالاً من الشّيخ عمر الذي فقد مترين من أمعائه التّي هاجمها السّرطان، وأفضل حالاً بكلّ تأكيد من الشّاب هاشم الذي فقد قدمه اليمنى بسبب السّرطان، وفي الوقت نفسه جعلت المرضى جميعهم يعرفون أنّهم في خير حال؛ لأنّهم ما يزالون أحياء، في إزاء الكثير من المرضى الذين ماتوا بعد أن انتصر المرض عليهم.

حكايات في كلّ مكان، والأيّام والأسـابيع والأشـهر تمضـي، وأمّ غاليـة تنتصر بالتّدريج على المرض، وتُشفى تماماً، وتستعيد شعرها الجميل، وصـحتها السّابقة، وتغادر المستشفى لتعود إلى حياتها مشافة من أيّ علّة. أمّا غالية فتـزور المستشفى مرتين في الأسبوع في عطلتها الأسبوعيّة من المدرسة، وبشكل يوميّ في عطلتها الصيفيّة لأجل أن تحكي الحكايات لمرضى السّرطان لعلّهم ينتصرون بها على المرض اللّعين.

العيون الّتي ترى

يتصرّف فريد كأنّ لا أخ له، الحقيقة أنّه يكاد يتعمّد مع سبق الإصرار والتّرصّد والحنق والقسوة أن ينسى أخاه بشكل كامل، فهو لا يلعب معه، ولا يكلّمه، ولا يرافقه في أيّ زيارة، ويصرّ على أنّه يخجل من أن يعرّفه على أصدقائه أو على أن يسير معه في الشّارع؛ لأنّه قد وُلد مصاباً بمرض ملازم، كان حلمه أن يكون له أخ يرافقه في كلّ مكان، وأن يشاركه في درب رحلة الحياة، لكن آماله كلّها خابت عندما جاء أخوه مراد إلى الحياة على حال يختلف عن سائر أقرانه وأترابه، الأطبّاء يسمّون مرضه بـ"متلازمة داون"، والعامّة الدّهماء من النّاس تسميّه "الطّفل المنغوليّ"، وأيّاً كان اسم هذا المرض، فالنّتيجة المحزنة هي أنّه لا يستطيع أن يحقّق أحلامه مع هذا الأخ المريض الذي لن يعيش طويلاً كما أخبرهم الأطبّاء مراراً وتكراراً.

لا يحمل الكثير من الذّكريات مع أخيه مراد، بل لا يتذكّر أنّ صورة فوتوغرافيّة قد جمعتهما في يوم من الأيّام، سنين طويلة مضت وهو يرفضه رفضاً حاسماً، والآن قد نسي تماماً أنّه يفكّر في أن يقترب من أخيه ولو لمسافة سنتمتر واحد، وما فائدة ذلك، وهو لا يعرف عنه أيّ شيء؟ لا يعرف ماذا يحبّ، أو ماذا يكره، متى يأكل، وماذا يأكل، ومتى ينام، وكيف يقضي أوقاته. تقريباً هو لا يعرف عنه شيئاً، كلّ ما يعرفه حقّ المعرفة هو أنّه يرفضه تماماً، ولا يريد أن يكون في عالمه بأيّ شكل من الأشكال.

لقد استطاع أن يلتزم بهذا القرار القاسي لسنوات طويلة من عمريهما، والآن بعد أن بلغ السّابعة عشرة من عمره، وبلغ أخوه مراد التّاسعة من عمره

يجد أنّ الهوّة بينهما اتّسعت إلى الحدّ الذي يجعله في مأمن من التّواصل معه أو الاعتراف به.

هذا الحال كان يؤلم والده الذي يعمل في إحدى الدّول الشّقيّقة مستشاراً لإحدى المؤسّسات القانونيّة الكبرى، كما كان يعذّب أمّه التّي ترى طفلها مراد وحيداً في هذا العالم دونها، حتى أنّ أخاه الوحيد يرفض الاعتراف به، لا لجريمة اقترفها، لكن لأنّه وُلد مصاباً بمرض "متلازمة داون".

لكنّها بعد سنين من المحاولات الفاشلة للتّقريب بين ابنيها استسلمت للفشل والصّمت والحزن والفرار بابنها الصّغير المريض نحو حضنها حيث الحنان كلّه والعطف والقبول والامتنان لله الذي وهبها إيّاه أيّاً كانت حالته.

كان فريد مصمّماً على الالتزام بموقفه من أخيه الصّغير المريض، لكنّه وجد نفسه بلعبة قدريّة خفيّة ومحكمة وجهاً لوجه مع أخيه ووحدهما في هذا البيت؛ لقد تعرّض والده لأزمة صحيّة طارئة، فكان لزاماً على والدته أن تسافر إلى زوجها لتكون إلى جانبه، وما كانت الظّروف تسمح بأن تصطحب مراداً معها، والجدّة عائشة مسافرة لزيارة ابنتها في أمريكا، ومدرسة مراد للحالات الخاصّة تُغلق أبوابها بسبب إجازتها السّنويّة؛ وهكذا كان فريد هو المرشّح الوحيد والطّبيعيّ لرعاية أخيه مرا إلى حين عودة أمّه من سفرها.

في بادئ الأمر رفض ذلك بشدّة، وثار على هذا القرار، وأرعد وأزبد، وتوّعد أمّه بالهرب من البيت إن ألزمته بهذه الرّعاية، لكنّه وجد نفسه شاء أم أبى موكلاً برعاية أخيه مراد حتى عودتها من سفرها الذي أمّل نفسه بأن لا يطول أكثر من أسبوع كما وعدته بإخلاص.

شعر بغضب شديد من أخيه مراد، كأنّه المسؤول عن هذه الأزمة، ثم شعر بالغضب من أمّه التي وضعته في هذا المأزق، ثم خلص إلى أن والده هو السّبب في أن يكون الراعي لأخيه، وفي نهاية المطاف استسلم لقدره، ولاحظ نادماً أن أخاه ما يزال يجلس في الأريكة ذاتها منذ ساعات يراقبه في ثورة غضبه، ويتابع خطواته ذهاباً وإياباً في الغرفة، ولابدّ أنّه قد جاع الآن بعد ساعات من عدم الأكل، ولعلّه عطشان أيضاً.

حاول أن يحفّز نفسه على الهدوء من أجل أن يعدّ له شيئاً من الطّعام، لكنّه شعر عندها بالمزيد من القهر والغيظ، طالع عقارب ساعته أكثر من مرّة، كأنّه ينتظر أن ينتهي الأسبوع في لمحة عين، لتنتهي هذه المهمّة التّي لا تروق له، وعندما وجد عقارب السّاعة تسير ببطء غير آبهة بانتظاره ورغبته التّي تملكه، انخرط في بكاء شديد، وأغرق رأسه بين كفيه آسفاً مقهوراً.

فجأة أحسّ بيدين صغيرتين ناعمتين تقتربان منه، وتمسحان دموعه، وتقولان له: "لا تبكِ يا فريد، أنا أحبّك. كُل من هذا الطّعام". رفع رأسه، فوجد أخاه مراداً أمامه مباشرة، يحمل له بعض الشّطائر وكأساً من عصير البرتقال على صينيّة خشبيّة، ويقف أمامه ذليلاً ضعيفاً منتظراً رضاه عنه، حدّق فريد في وجه أخيه لأوّل مرّة في حياته، فشعر بارتياح وهو يرى تلك الملامح الملائكيّة التّي تغمر أخاه بسكينة مدهشة، ولفت نظره أنّ عيني أخيه أصغر من المعتاد، لكنّه لاحظ فيهما نظرة عميقة، لم يرها في أيّ عينين من قبل؛ فقد رأى فيهما فهماً عميقاً لحزنه، وشعر بأنّه يقول له بحزن وانكسار: "سامحني لأنّي مريض، ولا أستطيع أن أكون الأخ الذي تحلم به".

أحسّ فريد بخجل بارد يجتاح روحه، فيجمّدها، وشعر بأنّه يرى أخاه لأوّل مرة في حياته، أخذ الصّينية من أخيه، ووضعها في حضنه، وأجلس أخاه

إلى جانبه على الأريكة، وشرعا يأكلان من الشّطائر التّي أعدّها مـراد، وانخـرط يراقب الفرحة العميقة التّي ترقص علـى وجـه أخيـه؛ لأنّـه يجلـس إلى جانبـه، ويشاركه في تناول الشّطائر.

اليوم الثّاني كان يوم جمعة، وهو يوم العطلة المدرسـيّة عنـد فريـد، كـان معتاداً على أن يقضي هذا اليوم مع أصدقائه، لكنّه قرّر أن يقضي هذا اليـوم في حديقة المنزل مع أخيه مراد؛ فهو في الأحوال كلّها لا يسـتطيع أن يصـحبه معـه خارج البيت برفقة أصدقائه.

وضع له بعض الألعاب ليلهو بها، وتركه لبعض الوقـت كـي يسـتحم، ويغسل ملابسهما، عندما عاد وجده يداعب كلب الجيران بكلّ حبّ، ويلاعـب طفلتهم الصّغيرة، ويضحك بانفعال وسعادة، عجب منه كيف استطاع أن يلعب مع كلب الجيران وهو معروف بالشّرّاسة، وبأنّه يعقر كلّ من يقترب منه، وكيف استطاع أن يلعب مع ابنة الجيران التّـي تـرفض أن تلعـب مـع أيّ بشـر، وتبـدأ بالبكاء والصّراخ إذا ما اقترب منها أيّ أحد من خارج أسرتها، اقترب من أخيه مراد، وجلس على مقعد خشبيّ قريب، وأخذ يراقبه وهو يداعب الكلب بحنان، ويطعمه بعضاً من قطع اللّحم الصّغيرة التّي كانت في شطيرته التّـي أعـدّها لـه، وكيف يحمل الطّفلة الصّغيرة على ظهره، ويقعـي علـى الأرض، ويمشـي علـى أربع، كأنّه حصان فخور بفارسه، كان أخوه يملك من الحنان والمحبّة مـا لم يملكـه في يومٍ له.

بعد ساعتين من اللّهو والتّعب، نامت الطّفلـة الصّـغيرة في حضـن مـراد، ونام الكلب إلى جانبهما، ونام هو معهما، تأمّل فريـد هـذا المنظـر الجميـل مـن التّآلف والتّحاب تأمّلاً طويلاً، ثم حمل الطّفلة الصّغيرة، وأوصلها إلى بيتهـا، ثـم حمل أخاه الصّغير لأوّل مرة في حياته، وطبع قبلة سريعة على جبينـه العـريض، ودخل به إلى البيت، ليضعه في سريره.

في اليوم الثّالث كان على فريد أن يصطحب أخاه معه إلى مدرسته، فعنده امتحانات يجب أن يتقدّم لها، وفي الوقت نفسه لا يستطيع أن يترك أخاه وحده في البيت. في الصّباح عندما قابل أصدقاءه في المدرسة كذب عليهم، وقال لهم إنّ هذا الطّفل الصّغير المريض هو أحد أقربائه، وألزمه بأن يبقى صامتاً.

كاد الأمر يمرّ على سلام، لولا أن تدخّل صديقاه جابر ورعد في الأمر، وسخرا من ملامح وجه مراد، عندها انفعل فريد انفعالاً شديداً، وشعر بالقهر على أخيه الصّغير، ودخل معهما في مشاجرة جسديّة عنيفة، تسبّبت في أن يأخذ إنذاراً وإيّاهم من مدير المدرسة على تورّطهما في هذه المشاجرة.

كان فريد يقود درّاجته بغضب وصمت في طريقة عودته إلى البيت، ومراد يطوّق خصره بيديه الصّغيرتين متمسّكاً به خوفاً من أن يقع عن الدرّاجة التّي تسير بتهوّر بين ازدحام السّيارات. سأل مراد أخاه بعد أكثر من أربع ساعات من الصّمت منذ مشاجرة الصّباح: "لماذا ضربت ذلك الفتى وصديقه يا فريد؟"

- "لأنّه سخر منك يا مراد" أجاب فريد بعصبيّة.

- "لماذا سخر منّي يا فريد؟" سأل مراد باهتمام ودهشة.

- "لأنّكَ... "، وصمت فريد، ولم يكمل كلامه.

قال مراد بنبرة جميلة دافئة بريئة: "هو يسخر مني لأنّ وجهي مختلف عن وجهه. أليس كذلك؟ أنا أيضاً أسخر منه؛ لأنّ قلبه مختلف عن قلبي، فقلبي يحبّ النّاس كلّهم، ولذلك هو سعيد، وقلبه لا يحبّ أحداً؛ لذلك هو غير سعيد. كان عليك أن لا تضربه".

- "ماذا كان علي أن أفعل؟" سأل فريد بفضول.

- "كان عليك أن تتعامل معه برفق، وهكذا يصبح صديقك" أجاب مراد بثقةٍ.

- "من أين تعرف ذلك يا مراد؟" سأل فريد بدهشة.

- "من عيني، هما تريان الأشياء بشكل جيّد".

- "تريان ماذا بالضّبط؟" سأل فريد بدهشة.

- "هما تريان وحسب" أجاب مراد باقتضاب، ثم صمت، وشرع يراقب النّاس والسّيارات في الشّارع، ويبتسم للجميع سواء ابتسموا له أم لم يبتسموا.

في المساء، طبع فريد قبلة على جبين مراد، وهو يضعه في سريره بعد أن حمّمه، وقدم له طعام العشاء كي ينام، لكنّ مراداً احتجّ على وضعه في سريره، وقال: "لكنّني لم أصلِّ العشاء بعد، عليّ أن أصلّي ثم أنام"، دّهش فريد ممّا سمع، وسأل أخاه برفق: "هل أنت ملتزم بالصّلاة يا مراد؟"

- "طبعاً. علينا جميعاً أن نصلّي شكراً لله على نعمّه" أجاب مراد بحماسٍ وثقة بما يقول، وقفز سريعاً خارج سريره، وهرول نحو المغسلة، وتوضّأ، وعاد إلى الحجرة ليقف على سجادة الصّلاة، كبّر بصوت طفوليّ طاهر، وانبرى يصلّي، وقف فريد يراقبه، وشعر بأنّ لأخيه عينين كبيرتين تريان ما لم يره في حياته، حتى أنّهما تريان الجنّة والنّار والموت والحساب، وهتفت بنفسه مناجياً نفسه: "إن كان أخوك الصّغير المريض يصلّي، فما الذي يمنعك أنتَ من أن تصلّي؟".

ردّت أعماقه مجيبة على سؤاله: "لاشيء يمنعني من أن أصلّي"، أسرع إلى المغسلة، توضّأ سريعاً، ووقف إلى جانب أخيه على سجادة الصّلاة التّي أحضرها من غرفة أمّه، ورفع يديه إلى السّماء، وقال: "الله أكبر...".

في صباح اليوم التّالي استيقظ فريد، وهو يشعر بألم شديد في حلقه وفي أطرافه، كذلك يشعر بصداع كبير في رأسه، قدّر أنّه قد أُصيب بانفلونزا بسبب أكله المثلّجات الباردة في اليوم المنصرم، أراد أن يغادر السّرير، لكنّه لم يستطع ذلك؛ فقد كان يشعر بألم في عظامه وفي أطرافه، وبهبوط عام في جسده.

شعر بعطش كبير، نادى طالباً حضور مراد، فجاءه مهرولاً يحمل لـه كـأس ماء، وابتسامة كبيرة تعلو على وجهه الوضيء، وقال له: "أتريد كأساً من الماء؟"

أمضى فريد ثلاثة أيّام في سريره مريضاً بالحمّى، كان مراد لا يفارقه فيها، يقدّم له الشّطائر التّي لا يجيد أن يصنع غيرها، ويحّضر له عصير البرتقال الطّبيعيّ الذي يعصره بالمعصرة اليدويّة كما علّمته أمّه، ويفتح نوافذ غرفته في الصّباح كي تدخل أشعة الشّمس إلى المكان، ويتابع معه برامج الأطفال على التّلفاز، ويقول له حكاية عندما تقترب ساعة النّوم في المساء، ويحضر له الماء كلّما طلب أو لم يطلب، ويضع له على جبينه كمّادات الماء الباردة، ويبدّلها بأخرى عند الحاجة، ويضع له زهوراً في زهريّة غرفته بعد أن يقطفها من حديقة البيت، وينام إلى جانبه في سريره خوفاً عليه من أن يمرض أكثر إن ابتعد عنه.

كان فريد أثناء مرضه يراقب أخاه بدقّة، ويرى تلك السّعادة التّي تسكن قلبه الطّيّب الذي يقوده إلى حبّ النّاس والحياة والأشياء، فيجيد أن يلعب مع الكلب، وأن يلهو مع الأطفال، وأن يلاحق الفراشات في الحديقة، ويعدّ حتى مئة دون خطأ، ويصنع عصير اللّيمون بسعادة، ويرتّب البيت، ويظلّ يسأل دون ملل: "هل حان وقت الصّلاة"، وعندما يقف على سجادة الصّلاة، ويقول: "الله أكبر" يملأ السّكون والخشوع نفسه، ويلتزم بأوامر أمّه حتى وهي غائبة، يوزّع ابتسامته في كلّ مكان، فالابتسامة لا تفارقه حتى وهو نائم. فيسخر فريد من نفسه؛ لأنّه حرم نفسه لسنوات طويلة من الاستمتاع برفقة هذا الملاك الأرضيّ الجميل، ويجرّم نفسه على ذلك، ويقسم على أنّه لن يضيّع على نفسه الفرصة السّانحة من أجل ذلك أبداً.

في اليوم الرّابع من مرضه جاء بعض أصدقائه لزيارته في بيته، وللاطمئنان على صحته، أحضروا معهم باقة زهور كبيرة، كان مراد في استقبالهم، حمل

الباقة، وركض بها نحو أخيه ليضعها في حضنه. سأل أحد الأصدقاء: "أليس هـذا الطّفل هو أحد أقربائك؟"

صمت مراد، كأنّه يشعر بالذّنب لأنّه يقف في المكان، وطالع وجه أخيـه باضطراب، ابتسم فريد، وقال: "لا. هـذا لـيس قـريبي، بـل هـو أخـي الصّـغير، بالتّحدّيد هو أخي الوحيد والحبيب، هو يملك أفضل عينين في الدّنيا، يستطيع أن يرى بهما المحبّة والخير، ولاشيء غير المحبّة والخير."

شعر مراد بسعادة غامرة؛ فهذه هي المـرّة الأولى التّـي يسـمع فيهـا فريـد يناديه بكلمة أخي، قفز على السّرير، وحضن أخـاه، وطبـع قبلـة طويلـة علـى خدّه، وقال لك: "أنا أحبّك كثيراً يا فريد."

- "وأنا أحبّك أكثر يا مراد" أجاب فريد بحنان غامر.

كانت السّاعة العاشرة صباحاً عندما فُتح باب البيت على مهـل، ودخلـت الأمّ برفقة زوجها، وضعا حقائبهما على الأرض قرب الباب، ودلفا إلى حجـرة فريد بحثاً عنه وعن أخيه، فوجدهما نـائمين في سـرير واحـد، أحـدهما يحضـن الآخر، وأشعة الشّمس التّي تتسلّل من نافذة الحجرة تغمر جسـديهما بالـدّفء، ووجهيهما بالنّور والبهاء، دُهش الوالدان من هذا المنظر.

- "ما الذي يحدث هنا؟" سألت الأم بفضول.

استيقظ مراد على صـوت أمّـه، ففـرح لرؤيتهـا، وقفـز مـن سـريره إلى حضنها، وتعلّق برقبتها، وقال لها، وهي تطبع قبلة على جبينه: "إنّـه فريـد، لقـد أحبّني أخيراً يا ماما، ولم يعد غاضباً منّي؛ لأنّني مختلف."

حدث في مكان ما ([1])

(١)
حكاية الحكاية

الحكاية تريد أن تهرب من التّسكع، وأن تركن إلى الخلود، جرّبت أن تسكن السّماء؛ فغدت إيماناً ودعاء وفضيلة، فأصابها الملل من ذلك عندما اشتهت الخطيئة، رحلت إلى الجسد والشّهوة، فأنهكتها لعبتا الجوع والإشباع اللّتان لا ترتويان، صادقت القلوب فأحرقها الوجد، طاردت العقل فأعياها المنطق، صادقت القوّة والمال والجاه فخذلتها السّعادة، تنسّكت في الجبال فهزمتها شهوة حلمها الكبير في الخلود، ثارت على نفسها، وانضمّت إلى صفوف الثّوار في كلّ مكان، وحالفت الرّفض أينما حلّ في أنفس الشّرّفاء، فأصبحت حكاية البشر الباحثين عن العدل، سطّرت فيها قصص من نذروا أنفسهم للنّور والحقيقة، نسيت حلمها البائد بالخلود، وبات حلمها أن تصبح حكاية كلّ من سُرقت حكايته، وكذلك كان.

١ – حازت هذه القصّة القصيرة على جائزة القصّة الومضة العالميّة، في حقل القصّة الومضة، الاتّحاد العالميّ للشّعراء والمبدعين العرب في العام ٢٠١٤، القاهرة، مصر.

(٢)
الكلاب

كلّما اشتدّ تعقّلاً غار لسانه في حنجرته أكثر حتى كاد يستقرّ جبراً في بطنه، وكلّما نما صمته ارتدى قطعة ملابس جبريّة أخرى تليق بصمته الآسر المأسور؛ ليبدو مهندماً بما يليق بقهر الصّمت.

كان ثرثاراً عارياً قبل أن يأكل القطار والده ويتركه يتيماً، عندها ألبسوه ملابس المدارس الابتدائية ليعالجوّا أميّته بعد أن عجزوا عن أن يعالجوّا تلعثم لسانه، ثم لبس البذلة عندما تخرّج في الجامعة بعد أن ضاع نطقه تماماً بسبب موت صديقه تعذيباً في المعتقل، أمّا عندما عاين جهاراً العدوّ يجتاح وطنه، وأصدقاءه في الثّورة يصافحون العدوّ، والوطن يحتضر، خلع أخيراً صمته، وانطلق عارياً نحو الجبل دون خوف أو عقل وهو يصيح: "كلاب".

(٣)
السّجون

سجن الإيمان خارج عقله كي لا تجوع معدته؛ لأنّه حُرم من وجبات ثلاثة متعاقبة؛ لأنّه تجرّأ، وسأل عن مكان سكنى الرّبّ، سجن قلبه خارج جسده كي لا تقطّعه عصا والده من جديد؛ لأنّه يتأوّه مع أمّه تعاطفاً كلّما ضربها والده بحجّة القوامة والتّأديب، سجن صوته في حنجرته عندما كسروا قلمه باسم

القانون؛ لأنّه تجرّأ، وسأل لصاً وطنيّاً كبيراً: "من أين لك هذا؟" لكنّه أصبح خارج سجونه القسريّة، وغدا سجناً للسّجون عندما همس في أذنها المشنّفة لكلماته: "أعشقكِ".

(٤)

لا

السّماء غدت أبعد عندما هجّروها عن طفولتها مبكراً وكسروا لعبتها الأثيرة لأنّها فتاة، عالمها بات بلون واحد، وهو الأسود عندما علّمتها أمّها أن الجنس هو قذارة، وأنّ العشق جريمة، نسيت فمها وعينيها ويديها في العجز عندما قصّوا شعرها بجريمة وردة حمراء مجهولة المصدر تنام سرّاً في كرّاستها.

صدّقت أنّها جارية عندما اغتصبها ذلك الوغد مراراً وتكراراً كبقرة باسم الزّواج، خاصمت نفسها؛ لأنّها مخلوقة على هيئة امرأة.

لكنّها غفرت لنفسها عندما تعلّمت أن تقول كلمة "لا" لكلّ من يضطهدها، وتترنّم بها كلّما تاقت نفسها للانعتاق والجمال والسّماء القريبة والألوان البهيجة وروحها المسحوقة بجريمة أنوثتها.

(٥)

مطاردة

قدره أن يعيش مطاردة جبريّة ملعونة لا ترحل، منذ كان يطارده الفقر والحزن والوحدة والسّمنة المفرطة بسبب هرمونات شاذّة تعبث به.

العجيب أن مطارديه يدركونه في كلّ مرّة، أمّا هو فمنذ زمنٍ يطارد حبيبة لا تجيء، ووالداً حنوناً يعوضه عن تاريخ قسوته معه، وبيتاً جميلاً يكون له وحده، ووظيفة تطعمه بكرامة، لكنّه لا يدرك أيّاً من ذلك.

ينصت إلى صوت المغنّي منبعثاً من سيّارة الأجرّة التّي يعمل عليها ليل نهار مطارداً لقمة عيش تجيد الهرب، ويغنّي معه ساخراً: "ما أحلى حياتنا الهنيّة!"

يشير له شرطي السّير بالوقوف، يشرع يحرّر له مخالفة لم يرتكبها كما اعتاد دائماً أن يفعل، يمسك حجراً، ويبدأ يحطّم درّاجة الشّرّطي ثم رأسه، وهو يهتف بقرف: "ما أحلى حياتنا الهنيّة!"

يوميّات إنسان مهزوم

تتشابهُ تفاصيل النّاس المهزومين في هذا الكوكب، حتى لا تغدو هناك أيّ أهميّة للأسماء أو الأزمان أو الأماكن؛ فالحدث والمصير هما البطلان في هذه اليوميّات التّي كتبَ فيها إنسان مهزوم بامتياز، إذ لا يتذكّر تاريخاً بعينه خلا تاريخ الهزيمة والسّقوط المغمس فيه.

في اليوم الأوّل

أنكرتُ فضل الله عليّ، وزعمتُ أنّ رزقي إنّما هو من صنع يدي ومن بنات اجتهادي، وعظّمتْ نفسي في عيني، فصغرتْ في عيون النّاس، وكُتبتْ عليّ الذّلة، وما باليتُ.

في اليوم الثّاني

قررتُ أن أمنع الأرض والإنسان ما وهبتني السّماء، فمنعتُ الزّكاة، وأمسكتُ يدي عن الصّدقات، وما عاد قلبي يرقّ لمسكين أو يلين ليتيم أو ينصتَ لسؤال محتاج، فقستْ نفسي، وتحجّر قلبي، وجفتْ منابع العطف والبذل والرّحمة في نفسي، فكرهني النّاس، ونسيني أهل الحاجة والسّؤال، وما نالني أجر الباذلين أو حبّ الله –عزّ وجلّ– للمحسنين، وما باليتُ بذلك.

في اليوم الثّالث

وجدتُ في انحنائي للذّات الإلهيّة في صلاة أو سؤال أو حجّ أو اعتمار أو دعاء أو خروج في سبيله في طلب رزق أو عون إنسان أو نجدة ملهوف ضرباً من الذّل، ونوعاً من الانقياد إلي الموروث المقيّد الذي لا حاجة أو نفعاً ماديّاً منه؛ لذلك فقد قُدتُ في نفسي ردّة على السّماء وعلى العلاقة مع الله والإحسان والعون والبذل والعطاء لحجج كثيرة، أهمها توفير المال والوقت، وعدم بذلهما إلاّ في متعة جسد أو تحقيق مصلحة، فلعنني النّاس، وتراكم اليأس والقبح في روحي، وبدأتُ أشعر بأنّني وحيد ضعيف لا عون لي على الرّغم من ثروتي الكبيرة، وعلاقاتي الأخطبوطيّة، وحرّاسي الأقوياء الأشدّاء، وما باليتُ بذلك.

في اليوم الرّابع

برمتُ بالعلاقات المصنوعة في حياتي لوشائج نسب أو عرق أو دين أو وطن أو إنسانيّة؛ إذ كانتْ جميعها مضيعة للمال، واستنزافاً للمدّخر منه، وإحراقاً للمتع؛ ولذلك فقد قدتُ حملة طاحنة لتجريد حياتي من كلّ علاقة غير مفيدة، وبدأت بوالدي اللّذين بلغا من العمر عتيّاً، وما عادا قادرين على شيء سوى التّطلّب والشّكوى من عطب الكبر وألم المرض والعجز، فألقيتُ بهما في أوّل دار مسنين قابلتها في طريقي، ومنعتُ أيّ قريب أو جار أو صديق من

دخول حياتي العتيدة العظيمة، ثم فضضتُ من حولي الأصدقاء المثقلين بهمومهم وقصصهم؛ فلا وقت عندي لهم.

أمّا الأخوة فقد أحسن الله إذ خلق معظمهم أكبر مني، وجعلهم يسيحون في الأرض، ولا يعودون إلى طلب مساعدتي بعد أن أوصدتُ الباب المرّة تلو الأخرى في وجوههم، فدعا أبواي عليّ، واحتقرني الأهل والعشيرة والأصدقاء، وسبّني الأخوة، واستعاذ النّاس بالله من بطشي ومن قسوتي، وما باليتُ بذلك.

في اليوم الخامس

قررتُ أن أثيبَ نفسي على نضالها الطّويل ضدّ ماضيها وصولاً إلى خلعه تماماً، فوهبتها قدراً لا يعرف نهاية من المتع أكانتْ على حساب مالي أم على حساب صحتي ووقتي أم على حساب الآخرين، فطفقتُ أستمتع، وأستلذ ولو كان ذلك على حساب دموع المقهورين، وحقد الكارهين، ولعنات المظلومين، وكره المغبونين، فشربتُ حدّ الثّمالة من الرّبّا والزّنا والكذب والقتل والظّلم والسّرّقة والافتراء.

في اليوم السّادس

بدأت أشعر بأنّني كائن دون ماضٍ أو تاريخ، فما عدتُ أذكر اسمي، ولا جنسيتي، ولا ديني، ولا من أكون، ولا من أنجبني، ولا أيّ الأفكار أحمل، ولا أيّ

القيم أحترم، وما كان ذلك ليزعجني، فما كنتُ لأبالي بغير مالي ورصيدي في المصرف وقائمة ممتلكاتي وأماكن مدّخراتي وعقاراتي، وعناوين أصدقاء السّوء وشركاء السّهر والسّكر والعربدة واللّهو.

في اليوم السّابع

شعرتُ بالملل والشّخوخة والضّعف والتّعب والحاجة إلى راحة الضّمير والبال، فبكيتُ، فلم يرثِ أحد لبكائي، وحاولتُ أن لا أتألّم من عدم اكتراث الآخرين بي، فلم أستطع، فسدرتُ في أحزان لا تنتهي لإنسان مهزوم لا يبال به أيّ أحد.

(٣)

المجموعة القصصيّة "تقاسيم الفلسطينيّ" [١]

١ - صدرت المجموعة القصصيّة "تقاسيم الفلسطينيّ" في طبعتها الأولى عن دار أمواج للنّشر والتّوزيع، عمّان، الأردن، ٢٠١٥

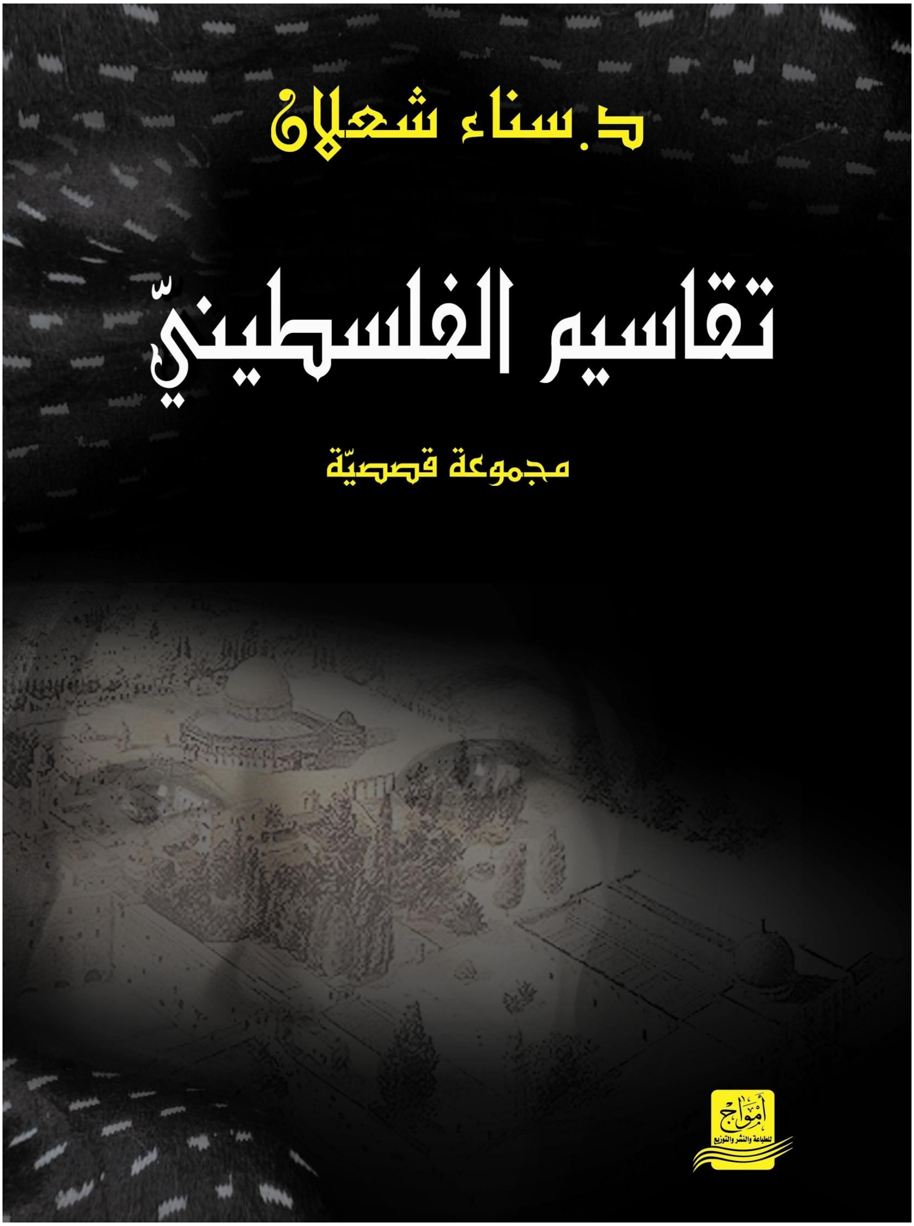
د. سناء شعلان
تقاسيم الفلسطينيّ
مجموعة قصصيّة
أمواج

تقاسيم الوطن

أشجار

قالتْ عصابات الصّهاينة التّي اجتاحتْ القرى الفلسطينيّة، فأعملتْ فيها الذّبح والبارود والإذلال والتّنكيل والاغتصاب والتّهجير والنّهب والتّدمير: "إنّ الأهالي الفلسطينيين هم من هاجموا أفرادها، وقتلوا جنودها، ودقّوا طبول الحرب".

العالم كلّه صّدق تلك العصابات الكاذبة الآثمة لأنّه كان لزاماً عليهم أن يصدّقوهم، ثم أفاضوا عليهم بعونهم وشفقتهم ودعمّهم.

وحدها أشجار الزّيتون والتّين والبرتقال والرّمان والعنب من تحفظ وجوه رجال العصابات الصّهاينة وهم يتسلّلون عبرها قادمين من البعيد حيث البرد والجليد والقسوة والرّحيل، ووحدها من رأت الوجوه الآثمة الغريبة تمتدّ أيادي تقتل وتنهب وتغتصب وتخنق أنفاس الفلسطينيين الذين لا يجيدون إلاّ أن يفلقوا باطن أراضيهم بفؤوسهم ليخرجوا منها إلى الوجود سرّ خلودها شجراً وأثماراً وريحاً طيبة.

العالم كلّه صفّق طوعاً أو كرهاً للقتلة الصّهاينة الغاصبيّن، أمّا أشجار الزّيتون والتّين والبرتقال والرّمان والعنب فقد نقشتْ على جذوعها أسماء الشّهداء الأبرار كي لا ينسى التّاريخ جريمة اسمها اغتيال فلسطين.

أقدام

قدماها أُستشهدتا في المعركة كما أُستشهد أهلها جميعاً، كانوا متحلّقين على طاولة خشبيّة قصيرة ينتظرون أذان المغرب كي يفطروا عندما التهمتهم قذيفة صهيونيّة.

جاء العيد وهي وحيدة في المشفى، زارها أصدقاؤها في المدرسة برفقة بعض معلماتهم، جميعهم كانوا يلبسون أحذية جلديّة متشابهة قدمها متبرّع ما من خارج فلسطين في شحنة كبيرة أرسلها هبة من مصنعه الخاصّللأحذية.

حذاؤها كان إلى جانب رأسها، هو حصّتها من هديّة العيد، لم تعد عندها قدمان لتلبس هديّتها.

شعر أصدقاؤها بالذّنب وهم يختالون أمامها بأحذيتهم الجديدة، وهي كسيرة الخاطر دون قدمين.

في اليوم الثّاني من العيد جاءوا جميعاً لزيارتها حُفاة الأقدام دون أحذية جديدة تختال بفخر في عيدها الحزين.

إصابة هدف

لا يحبّ ممارسة لعبة كرة القدم، لكنّه ينصاع لمراقبة إخوانه وأبناء عمومتهم وأترابهم يلعبونها في تلك السّاحة الصّغيرة في المدينة القديمة المتوارية خلف البيوت والسّراديب الأثريّة.

وعد أمّه بأن يعود إلى البيت قبل الغروب، لكن الغروب هبط على حين غرّة على المكان دون أن يخفّ راكضاً للبرّ بوعده لأمّه، ويغادره ليعـود إلى بيتـه، قبل أن يخيّم الظّلام.

استمهله الأتراب والأقارب والأصدقاء كي ينهوا الجوّلـة الأخـيرة مـن اللّعب، ويحدّدوا الفائز وفق النّتيجة النّهائيّة.

كان يتمنّى من أعماق قلبه أن تمرّ الـدّقائق الأخـيرة سـريعاً كـي يُحقّـق الهدف الفيصل، فيعود سريعاً إلى بيته قبل أن تغضب والدته لتأخّره عـن موعـد العودة المُتّفق عليه. الدّقائق مضت ثقيلة إلى أن قرّر العدوّ الصّـهيونيّ أن يـدخل اللّعبة في اللّحظات الأخـيرة مـن جولاتهـا، لقـد دخـل اللّعبـة دون اسـتئذان، وأصاب الهدف النّهائي، لقد أطلق صاروخاً شلع السّـاحة مـن مكانهـا، وفتّـك بأجساد اللاعبين الصّغار الـذين لـن يوافـوا انتظـار والـداتهم في الميعـاد، ولـن يعودوا إلى بيوتهم قبل حلول الظّلام.

اغتصاب

الأحلام في فلسطين محرّمة على أهلها بقرار صهيونيّ عرفيّ، لكنّها على الرّغم من ذلك تغازل حلمها الأنثويّ ليل نهار، هي تصدّق حلمها، وتنتظـر أن تلبس الثّوب الأبيض، وأن تتزوج من أسمر طويل وسيم، وأن تلصـق العجـين والورد على باب بيتها عندما تدخله عروساً مجلّلة بعباءة جدّها المقصّـبة لتجعـل وجودها في بيتها أبديّاً وولوداً وهنيئاً، فتمطرها زغاريد النّسـوة مشـفوعة بـالملح المنثور في عيون الحاسدين.

جمالها الخارجيّ كان خافتاً لا يصطاد الاهتمام، أمّا جمال روحها فهو منارة من نور، وقليل من الرّجال من ترى أعينهم أنوار دواخلها.

في دفاع عن أبيها الذي كان يقصد أرضه عندما هاجمه المستدمرون الصّهاينة تحوّلت إلى أسيرة في المعتقل الصّهيونيّ بعد أن شجّت رأس أحدهم بحجرها بعد أن لطم والدها العجوز الوقور.

ليستْ نادمة على ما فعلتْ، لكنّها حزينة على هديتها لزوج المستقبل التّي هدرها الجنود في المعتقل انتقاماً منها، لقد اغتصبوها مراراً وتكراراً كي يكسروا كبريائها، ويحرقوا اعتزازها بنفسها، وينتقموا منها أبشع انتقام، لكنّهم زادوها نوراً فوق نور، إلاّ أنّها أيقنت أنّ أحلام الزّوج والعرس وثوب الزّفاف قد تبخّرت للأبد على صفيح مستعر اسمه اغتصابها.

خرجتْ من المعتقل دون حلمها وعذريتها، لكنّها وجدتْ في انتظارها سبعة شبان فلسطينيين قد قُدّوا من الرّيحان والنّعناع يتنافسون على الزّواج بها ظفراً بشرفها الذي لم يُنتقص باغتصاب لئيم في معتقل صهيونيّ.

التّوائم الأربعة

هنّ توائم أربعة منحوتة بعناية إلهيّة ليكنّ أربع فتيات صغيرات بوجوه ملائكيّة وشعر شوكيّ كورود الصّحراء وعيون عشبيّة اللّون مثل ماء بركة رومانيّة في أصبوحة مطر. هنّ توائم متشابهة لا يستطيع أيّ بشر أن يميّز إحداهنّ عن الأخرى، وحدها أمّهن باسلة هي من تميّز -بصعوبة- إحداهنّ عن الأخرى، وتخصّص لوناً واحداً ثابتاً لكلّ واحدة كي يستطيع الآخرون تمييزها عن أخواتها.

هي تجبرهنّ على أن يلزمن ألوانهنّ المميّزة في لباسهنّ، إلاّ أنّها عجزتْ عن أن تقنعهنّ بذلك في هذه المرّة، إذ صمّمن على أن يبتعن أثواباً متشابهة ذات لون واحد، وهو اللّون الأبيض، ليلبسن هذه الأثواب المتشابهة في زفاف خالهنّ إبراهيم الذي سيكون بعد عيد الفطر المبارك.

أمام إصرارهنّ اضطرّت الأمّ باسلة إلى أن تستسلم لرغبتهن الجامحة التّي لا تستطيع أن تصمد أمام رفضها ما دمّن قد تحالفن ضدّها في سبيل تحقيق هذه الرّغبة.

اشترت لهنّ الأثواب التّي رفضن خلعها، وصمّمن على أن يعدن إلى البيت وهنّ مرتديات أثوابهنّ فرحاً واختيالاً بها أمام أترابهنّ من بنات الجيران والأقارب، فاستسلمت الأمّ من جديد لرغبتهن المسيطرة، وتركتهنّ عهدة عند عاملة البيع في متجر الملابس حتى تشتري بعض الخضار من السّوق المجاور، وتعود مسرعة إليهنّ لتصحبهنّ إلى البيت، إلاّ أنّ قذيفة صهيونيّة انهالتْ على سوق الملابس على حين غرّة، فأحالته إلى جحيم مستعر.

عادتْ باسلة مشدوهة إلى الأرض المحروقة عن بكرة أبيها، وهي من كانت قبل دقائق سوقاً وبشراً وبضائع، لم تجد باسلة من بناتها سوى مزق ملابس كانت بيضاء، وخليطاً من لحم آدميّ معجون من أجساد بناتها التّوائم الأربع.

شرعت تلمّ اللّحم المتناثر، وتحوشه في صدرها بعد أن عجزتْ -لأوّل مرّة في حياتها- عن أن تميّز بين بناتها التّوائم الأربع!

الأمّ

هي لم تنجب طفلاً واحداً في حياتها، لكنّها على الرّغم من ذلك أمّهم جميعاً؛ يسميّها الجميع بالأمّ خضرة، لا يعرفون الكثير عن حياتها، لكنّها تعرف كلّ شيء عن حيواتهم، هي أمّ الأسرى جميعهم في المعتقلات الصّهيونيّة في فلسطين المحتلّة، كلّ أسير فلسطينيّ أو غير فلسطينيّ يقبع في معتقلات الاحتلال يغدو ابنها خبط عشواء فور دخوله المعتقل، تقطع أيّامها تدور من معتقل إلى آخر، وتزور أبناءها الأسرى، وتظهر اهتماماً خاصّاً بأبنائها الأسرى المقطوعين عن بلادهم وأهليهم بعد أن جاءوا إلى فلسطين لأجل الدّفاع عنها، هي أمّ الأردنيّ الذي ترك مدرسته، وجاء ليدافع عن فلسطين، وهي أم الأسير العراقيّ الذي أقسم على أن يصلّي في المسجد الأقصى بعد أن يتحرّر بمشاركته، وهي أم الأسير اليمنيّ الذي جاء يشارك في تحرير فلسطين إكراماً لأخوال ابنه، وهي أم الأسير الجزائريّ الذي أقسم على أن يجاهد حتى تحرير فلسطين كما جاهد والده وجدّه لتحرير بلادهم من المستعمر الجزائريّ، وهي أمّ الأسير المصريّ الذي ترك عروسه، وجاء إلى فلسطين ليدافع عنها لأنّها عروسه الأجمل.

هي تعدّ الأيّام إلى حين خروجهم من معتقلاتهم، وتتابع مع المحامين ومؤسّسات متابعة قضايا الأسرى كلّ مستجدّ يخصّهم، وترسل الرّسائل إلى أهل عائلاتهم، وتكتب الرّسائل المزوّرة لهم إن لم يصلهم ردٌّ لسبب ما من أهاليهم خارج فلسطين.

إنّها أمّ جميع الأسرى، إنّها الأمّ خضرة التّي تقارع التّجار والمتسوّقين في السّوق، وترفض أن تُساوم في أسعار بضائعها من الخضراوات والفواكه، فأيّ نقص في مربحها يعني أن يقلّ مخصّص أحد أبنائها الأسرى من عونها.

على الجميع أن يدفعوا الأسعار التّي تطلبها الأمّ خضرة دون فصال كي تطير بالمال إلى أبنائها الأسرى.

الأرجوحة

لطالما استرقت النّظر إلى تلك الأرجوحة التّي تتمايل بغنج مستفزّ مستدعٍ لها، وهي تغوص في بركة من الأعشاب الخضراء التّي تنام تحت قدميها، راودتها نفسها كثيراً كي تعبر الأسلاك الشّائكة التّي تحيط بالمستدمرة (1) الصّهيونيّة كي تدلّل نفسها ببعض المتعة على تلك الأرجوحة الجميلة.

تلك الطّفلة الصّهيونيّة الحمراء البشرة كانت تقضي جلّ وقتها في اللّهو على الأرجوحة الحلم، ولعلّها في حاجة إلى رفيقة مثلها تشاركها المتعة واللّعب، وتقاسمها أسرارها الطّفوليّة الخطيرة في حدّ تقديرها.

تتجرّأ، وتعبر الأسلاك الشّائكة التّي تفصل قريتها الفلسطينيّة النّائية عن المستدمرة المستذئبة، تجري نحو الأرجوحة، لكنّها لا تصل إليها، يتناوشها المستدمرون (2) الصّهاينة بالفؤوس والسّكاكين والخناجر.

يقطّعونها إرباً، ويحرّقونها في مستعر النّار عقاباً لها لأنّها طفلة فلسطينيّة بريئة حلمتْ بأن تلهو بأرجوحة لطفلة صهيونيّة حمراء البشرة ملعونة.

١- المستعمرة تحمل معنى العمار، أمّا ما يبنيه الكيان الصّهيونيّ على أرض فلسطين ليأوي فيه المهاجرين الصّهاينة المرتزقة هو ليس أكثر من مستدمرة تدمّر الأرض والشّعب الفلسطينيّ بعد أن تسرق الأرض الفلسطينيّة من أهلها بقوّة القهر والظّلم، ثم بعد ذلك تفسد كلّ شيء؛ إذن هي مستدمرة لا مستعمرة.

٢- هم مستدمرون لا مستعمرون؛ لأنّهم لا يعمّرون، بل يهدّمون.

المؤذّن

لم تمنعه سنون العجز والمرض والتّقدّم في السّن وضعف النّظر من أن يقود نفسه بتؤدة إلى المسجد ليؤّذن فيه خمس مرّات في اليوم الواحد، لم يفته رفع آذان واحد أربعين عاماً، الجميع في مدينة الخليل يحفظون الآذان بصوته.

أمره جنديّ صهيونيّ بأن يعود أدراجه إلى بيته، وأن لا يرفع الآذان بسبب حظر التّجوّل الذي يُفرض على المدينة خبط عشواء، لكنّه رفض أن يفوّت رفع الآذان، ولو كلّفه ذلك دفع عمره.

رصاصة صهيونيّة أردته قتيلاً على بلاط المدينة القديمة على بُعد من خطوات من باب المسجد. سحله الجنود الصّهاينة باستهتار إلى داخل مجنزرة مصفّحة في إجراء تحفّظيّ مجهول المدّة.

لكنّ روحه صمّمت على أن ترفع الآذان في وقته، غادرتْ جسده على يسر، وأسرعت إلى المأذنة، ورفعت الآذان في وقته، فصدح صوت المؤذّن في سماء مدينة الخليل مودّعاً بدعة جسده الذي غادر إلى البعيد مكوّماً في مجنزرة صهيونيّة.

المحرقة

رآهم أجمعين ينقضّون على ذلك الفلسطينيّ المزارع العجوز وزوجته وحفيدته الصّغيرة، ويستفردون بهم شمال الحجاز الشّائك الذي يفصل المستدمرة عن حقل العجوز الفلسطينيّ، ويمزّقونهم إرباً بالفؤوس، العجوز المسكين دافع عن زوجته وحفيدته الصّغيرة إلى أن فصل فأس ما رأسه عن

جسده، وبتر فأس آخر في الوقت ذاته كفّه عن يده وهو يردّ الضّربات النّاهشة عن حفيدته الصّغيرة التّي تشبّثت بحضن جدّتها وفؤوس المستدمرين الصّهاينة تمشّط لحمها بدءاً من الظّهر.

لقد رآهم يفعلون ذلك بدم بارد وبمتعة، ودون سبب خلا الاستمتاع بتعذيب بشر عزل، لقد شاهد كلّ شيء بأمّ عينيه، ثم رآهم ينسحبون كالضّباع الجبانة إلى أوكارهم في المستدمرة.

لم يرَ استياء حقيقيّاً على وجه والديه عندما تفاجآ برؤيته يرمقهما برهبة واستنكار، اقتربت أمّه منه، وربتتْ على كتفه بيدها المنجّسة بدم الأبرياء، ثم ثنته في حضنها على كره منه، ولبستْ قناع الآدميّة الذي لا يليق بها، وقالتْ له بحنان ممجوج: "حبيبي الصّغير الجميل "ليفي"، أنتَ تعرف أنّنا نحن اليهود مستضعفون، ويجب أن ندافع عن أنفسنا".

أردف أبوه قائلاً كمن يرتّل سفراً من أسفاره المزوّرة: "لقد قتلونا هناك، نعم في المحرقة في ألمانيا قتلونا جميعاً، يجب أن ننتقم من العالم بأسره بسبب ذلك".

صمت الطّفل، وظلّ يحدّق في وجهي والديه المتوحّشين، ودعا الله في سرّه أن يرسل والديه المتوحّشين إلى جحيم أيّ محرقة كانتْ.

المعجزة

لا يؤمن أبداً بالمعجزات منذ اعتاد على أن يرى الموت يقسم الوجوه البريئة، ويرتع في هذه الأرض المشعلة بالثّورة والنّضال ضدّ الكيان الصّهيونيّ، يستطيع القول إنّ إصرار هذا الشّعب الفلسطينيّ على الحياة والنّصر والتّحرّر هو ما دفع به ليتبرّع عبر المؤسّسة الدّوليّة التّي ينتمي لها ليترك حياته المترفه في

السّويد، ويأتي لمناطحة الموت والألم في هذه المستشفى الذي بات مزدحماً وقذراً مثل محطة مهجورة مسكونة بالأرواح الشّرّيرة.

أربعين يوماً وليلة والقصف الصّهيونيّ يستهدف المدنيين العزل من الفلسطينيين، أربعون يوماً وليلة علّمته أن يكفر بالبشريّة التّي تغض الطّرف عمّا يحدث في هذه البقعة من كوكب الأرض، هنا رأى الموت يطلق العنان لنفسه دون رادع، ورأى البشر يواجهونه وجهاً لوجه دون خوف، وتعلّم أنّ الموت جبان وحقير يخطف الوجوه البريئة دون خجل.

منذ بدأت اللّيالي الأربعون الملعونة بالقصف، وهو يعاين المعجزة بأمّ عينيه، وينكرها، لكنّه ما عاد يطيق كفره بها، بطون النّساء الفلسطينيّات كلّها أكنّ صبايا أم في منتصف الشّباب أم في شرخه تعجّ بتوائم أربعة أو خمسة أو ستة، حتى النّساء اللّواتي لم يتزوّجن أو يمسسهن بشر أو العواقر تحرّكت أرحامهنّ بالأجنّة المعلنة وجودها بحركات عنيفة صارخة.

الأحمال العجيبة تكبر بسرعة غير طبيعيّة، وتكاد الأجنّة جميعها تغادر الأرحام لتكون أطفالاً تنزلق إلى الدّنيا الدّبقة لتكمل مسيرة النّضال، الذين يموتون من الفلسطينيين كُثر، أمّا القادمون المقبلون من الأرحام العجيبة فهم أكثر.

إنّه يؤمن بأنّ زمن المعجزات قد انتهى، لكنّه بات يؤمن الآن بأنّ رحم المرأة الفلسطينيّة معجزة قادرة على بعث الحياة.

يقرّر أن يتجاهل القصف والجرحى المنهالين عليه من كلّ حدب وصوب؛ ليأخذ راحة تكفيه لأن يشرع في القريب في توليد النّساء ذوات الأحمال العجيبة، فهو يريد أن يكون أوّل من يستقبل الأطفال الفلسطينيين القادمين إلى الدّنيا.

تِيه

مضى على تِيه ابنها أكثر من ثلاثين عاماً مُذ داهمت عصابات الصّهاينة قريتهم في طولكرم، ونهبت كلّ ما فيها، وأمعنت فيها القتل والذّبح والتّشريد والتّهجير، وفي حمّى الموت والهرب تاه طفلها الأصغر.

أمضت ثلاثين عاماً من عمرها تبحث عنه في الملاجئ والمستشفيات والسّجون وشواهد القبور، تفرّست في وجوه أترابه جميعاً لعلّها تجده متوارياً في وجه أحدهم، لكنّها لم تعثر عليه.

قدّمت لثرى فلسطين سبعة من أبنائها شهداء دفاعاً عن أرضهم فلسطين، وظلّت تبحث عن ابنها الثّامن التّائه لا لتحضنه، بل لتقدّمه شهيداً ثامناً للوطن، فهي نذرتْ كلّ ما أنجب بطنها لفلسطين، ويجب أن تفي بنذرها المقدّس.

تواريخ

جدّته تؤرّخ أزمانها بالنّكبات والمصائب، كلّما أرادوا وهو وإخوته وأبناء عمومته أن يداعبوها، وأن يخرجوها من أجوائها الصّوفيّة التّعبديّة التّي تعيشها منذ سنوات منذ أُستشهد ابنها الأوسط على أيدي الصّهاينة، يسألونها عن أيّ مناسبة عائليّة أيّاً كانت، لتؤرّخها لهم بمأساة من مآسي الفلسطينيين.

الأحداث جميعها في ذهنها مرتّبة وفق نكبات الفلسطينيين، يحاولون أن يتلاعبوا بتأريخها المأساويّ، فيختارون حدث ولادة حفيدتهم الأخيرة، ويسألونها متى كان ذلك؟

تحدّق في وجوههم، لا تستطيع أن تجد حدثاً فلسطينيّاً مرتبطاً بهذه الولادة، تصمتْ قليلاً، ثم تبتسم لهم بأسى وانكسار، وتقول: "أنا أحفظ متى أُستشهد أولادي، وأنتم عليكم أن تحفظوا متى وُلد أبناؤكم".

ثوب زفاف

لقد بلي ثوب زفافها لطول استلقائه المهزوم تارة على سريرها، وتارة في قاع حقيبة جلديّة عتيقة تنام فوق خزانة غرفتها.

غسلته أكثر من مرّة بعد أن اتّسخ بالغبار وبأيدي اللامسين التّي تغفو عليه فرحاً بجماله الأبيض الطّاهر كلّما لبسته لتقيسه، وتصبّر نفسها بمرآه، وتعده بفرج قريب. وما أكثر ما تقيسه، وتختال به أمام القريبات والصّديقات وأمام مرآتها الطّوليّة المشروخة الزّوايا.

أشهر طويلة وثوب زفافها ينتظر، ولا فرج يدنو منها ومنه كي تطير إلى زوجها مع وقف التّنفيذ بعد أن تعبر معبر رفح وصولاً إلى أقرب مطار في الإسكندريّة أو في القاهرة كي تستقلّ أوّل طائرة تيمّم نحو مدينة دبي الإماراتيّة حيث يقطن زوجها ويعمل، وحيث قابلته لأوّل مرّة منذ سنوات عندما كانت في زيارة يتيمة لأختها المقيمة هناك برفقة زوجها وأولادها منذ عشرين عاماً.

احتاج زوجها أشهراً طويلة حتى يستطيع أن يرسل أسرته من مدينة الخليل إلى مخيّم الشّاطىء في غزّة كي يخطبها، ثم يسند لوالده بتوكيل رسميّ مهمّة استكمال إجراءات الزّواج بها.

منذ تلك اللّحظة هي تنتظر أن يُفتح معبر رفح كي تلحق بزوجها، لكنّ المعبر مغلق بشكل دائم منذ مدّة طويلة، وهي لم تنجح في المرّات القليلة التّي فُتح فيها في أن تجتازه.

لبستْ ثوب زفافها لأكثر من مرّة، وانتظرتْ دورها لتعبر المعبر برفقة حقيبتها الجلديّة الوحيدة التّي تكدّس فيها جهاز عرسها، لكنّها في كلّ مرّة كانت تخفق في العبور المبتغى، فتعود أدراجها كسيفة حزينة ترهف السّمع على استحياء وتكتّم لبكاء ثوب زفافها الذي يحلم منذ زمن طويل بأن يطير إلى حضن الرّجل الذي تزوّجته مع إيقاف التّنفيذ على ذمّة معبر ساجن لا يفتح أبوابه حتى لثوب زفاف حزين.

حفّار قبور

يفخر بوالده الذي يسميّه العدوّ الصّهيونيّ "حفّار القبور"، هو مهندس متخصّص في علم الاتّصالات، كان يمكن أن يكون من أهمّ علماء العالم في هذا التخصّص لو كانت الفرص متاحة أمامه بعدالة، ولم يكن أسير نضال موصول ضدّ عدوّه الصّهيونيّ.

والده يصمّم أهمّ أنظمة تفجير القنابل عن بعد، فقد رجليه في إحدى غارات العدوّ على مقرّ نضاله، فنجا من الموت بأعجوبة، من يومها تفرّغ لقبر الصّهاينة، فهو يصنع كمائن لهم تحوّل الأرض جحيماً تحت أقدامهم، وتدفنهم في أماكنهم.

يصمّم على أن يناديه أترابه بلقب "ابن حفّار القبور" فخراً بأبيه، وكلّما سمعهم يعظّمونه بهذا اللّقب تذكّر كم هو مشتاق لرؤية والده الذي لم يره منذ أكثر من عام؛ فهو مشغول بحفر القبور للجنود الصّهاينة.

القزم

وُلد صلاح بجسد متقزّم حدّ الاختفاء، فأسموه القزم صلاح، لم يحظّ يوماً باهتمام أو إعجاب أو عشق بسبب جسده القزم الذي يسجن فيه روحه العملاقة.

ما كانت تعنيه الأعين المزدرية أو قلوب الجميلات التّي لا تطرق بابه، إنّما عناه أن يعيش فدائيّاً فلسطينيّاً، وأن يموت شهيداً بعد عمر طويل من النّضال المستأسد.

لكنّ الشّهادة طرقت بابه مبكّرة مستعجلة الاستحواذ عليه، لقد سمع طرقاتها على بوابة روحه في تلك اللّيلة التّي كانوا ينفذون فيها عمليّة فدائيّة ضدّ مواقع صهيونيّة حسّاسة.

كان فرداً في جماعة يرأسها صديقهم المناضل أبو النّور، ما كان يتوقّع أحد أن تغتاله قنبلة أرضيّه مكافحة للأفراد، فتبتر قدميه بزفرة واحدة منها.

حاول رفاقه في المجموعة أن يحملوه على أكتافهم ليهربوا به، لكن ذلك يعني تعطيل واحد منهم على الأقلّ، وإعاقته عن الهرب في الوقت المناسب، وإيقاعه في أيدي جنود العدوّ الصّهيونيّ، صمّم على أن يتركوه، وأن يلوذوا سريعاً بالهرب دونه، عندما تقاعسوا عن تلبية رغبته هدّدهم بإطلاق الرّصاص

عليهم إن لم يسارعوا بالابتعاد عنه قبل أن تدركهم كلاب الجنود التّي تقترب أصواتها منهم.

انصاعوا لأمره دامعي العيون والقلوب، وظلّ يحمي ظهورهم برصاصه حتى نفدت ذخيرته، وخرقّت جسده رصاصات العدوّ الصّهيونيّ.

لقد عاد إلى أرضه بعد أشهر من اعتقال جثمانه ليواريه أهله في التّراب بعد أن أُفرج عن جسده المنخّل بالطّلقات النّاريّة.

لم يكن جسده أكثر من جذع صغير مخرّق بالرّصاص ونهش أنياب الكلاب ورأس ويدين دون قدمين، لكن رفاقه في الفداء صمّموا على أن يدفنوه في قبر طويل يشبه روحه العملاقة ونفسه السّامقة، وهذا ما كان.

الكنعانيّ

الصّهاينة منعوه من أن يمارس متعته الكبرى في الحياة، وهي تدريس التّاريخ الفلسطينيّ لأبناء شعبه، وهدموا المدرسة التّي كانت معبد متعته، وشرّدوا طلبته بعد أن قتلوا طالبه سعد الذي كان يسمّي نفسه بالكنعانيّ فخراً بأصوله، ويسمّي الصّهاينة بالمسوخ، كان طالبه النّجيب الأثير الذي يحفظ كلّ كلمة يدرّسها له، كما كان وريثه الشّرعيّ في سدانة التّاريخ الفلسطينيّ.

قرّر أن ينتقم لطلبته الشّهداء، خطّط مع جماعة من الفدائيين الفلسطينيين كي يحرق معسكراً عسكريّاً للمسوخ، الخطّة كانت صعبة؛ لأنّها تستدعي تجاوز حصونهم وحرسهم، لكنّه عكف نفسه على حسن التّدبير والتّدارس حتى استطاع أن يصل وفريقه إلى الهدف.

راقبهم من خفاء، لم يكن فيهم وجهاً واحداً شمسيّ مثل وجه طالبه الكنعانيّ، فجّر المكان بهم، فاستعرت النّار تأكلهم، شعر بالرّضا كما يشعر الكنعانيّ عندما يطهّر بالنّار أيّ نجس أصابه، تنفّس الصّعداء، وفي البعيد رأى وجه سعد الكنعانيّ يبتسم له، وهو يتمتمّ بتعويذة كنعانيّة تطرد كلّ غريب عن أرضه وشعبه.

خائن

لا يعرف لماذا يدفعه قائده في الجيش الصّهيونيّ لمواجهة الفلسطينيين الغاضبين بسبب مصادرة أراضيهم من قبل كيانهم الملعون، يقول قائده له إنّه بحكم أصوله الفلسطينيّة قادر على التّفاهم معهم بشكل أفضل، لكنّه يعلم من أعماقه أنّهم يرسلونه إليهم لأنّهم لا يبالون حقيقة بأن يقتله الفلسطينيون الغاضبون مادام منهم ومن جلدتهم، وإن انسلخ عن أصله، وتعرّى من عوده.

اليوم صادروا أرضاً فلسطينيّة على امتداد الجبل الذي تقع فيه بيوت أسرته ومزارعهم، كان يعرف كلّ وجه من الوجوه التّي تصدّى لها ليرّدها عن أراضيهم المصادرة.

لم يناده أيٌّ منهم باسمه، تجاهلوه كأنّهم لا يعرفونه، لم يجرؤ على أن ينطق كلمة واحدة بالعربيّة، شجّوا رأسه بحجر، فهرب منهم لا يطيق صبراً في المكان، كان يجري محاولاً أن يطأ الأرض بخفّة؛ إذ كان يعلم أنّ الأرض أيضاً قد لفظته، وتبرّأتْ منه.

حليب سباع

لم يشرب حليب سباع ليكون بمثل هذه الجرأة، بل شرب حليب النّساء الفلسطينيّات؛ لقد أُستشهدتْ أمّه وهو رضيع، فتولّت نساء الحارّة التّي يسكن فيها أمر رعايته وغمره بحنانهن، وتقاسمن جميعاً فرح إرضاعه وإروائه حتى شبّ قويّاً أنوفاً يقول لكلّ نساء الحارّة يا أمّي، ويناديه صبيّتها وصبيّانها بأخي.

رضع الشّجاعة منهن جميعاً، وحمل مدفع "آر بي جي"، ليصبح صقراً يصيد به بغاث الطّير من الجيش الصّهيونيّ، وكلّهم بغاث طير كما تراهم عيناه الصّقريتان.

علق الجنود الصّهاينة صورة له على الواجهات في المدينة كتبوا عليها لإرهابه وتحطيم معنوياته: "هذا المخرّب مطلوب للجيش الإسرائيليّ، سوف نقتله في القريب".

في اليوم الثّاني كانت هناك صور جديدة له وهو يحمل فيها مدفع "الآر. بي. جي" قد ألصقها على صور البارحة، وكتب عليها باستهتار بعدوّه واستفزاز له: "هذا الفدائيّ سوف يقتل الجيش الصّهيونيّ كاملاً، وهم جميعاً مطلوبون له".

جَنين

لم يعرف الجنين الصّغير المنزلق من حنان سادر في رحم أمّه لِمَ شقّ سكين حادٌّ غلالته الفضّيّة الشّفافة بعد أن بقر بطن أمّه، فانزلق خارج رحمها الدّبقالدّافئ مشدوهاً عارياً.

لم تتلقّفه يدي قابلة أو قريبة أو حانية قبل أن يسقط من غير علٍ على أُمّ رأسه، انكفأ أرضاً على وجهه، سجد كمن يقبّل الأرض، كانت أمّه تفارق الأرض بزفرات متسارعة بعد أن قطع جنديّ صهيونيّ متوحّش ثديها الأيمن بضربة جديدة من سكينه الوحش، ثم بقر بطنها لينتزع جنينها من مكين أحشائها.

ما عبئ أحد بأمّه القتيلة النّازفّة حتى الانطفاء، ظلّت جبهته تلامس الأرض، وقفاه العاري الصّغير النّاعم يتحدّى وجه قاتل أمّه حيث وقف يتلذّذ بمشاهدة نزاعها ونزاع جنينها المنزلق خارج رحمها.

داسته أقدام جنود عصابات الصّهاينة، فكان آخر عهده بالدّنيا نظرة عجلى استرقها من سجوده الإجباريّ على الأرض، وهو يرى أهل قريته في البعيد يغيبون خلف الأفق تطاردهم فلول المداهمين المتوحّشين، والغروب الدّامي يحتضن بأسىً أباه الذي دلف إلى جنون آسر بعد أن خلع عقله في دقائق لفظاعة مرأى مقتل زوجته وجنينهما، كان يردّد دون توقّف: "قتلوا زوجتي صبحيّة، وبقروا بطنها".

يحاول الجنين أن يصمّ شفتيه ليستنجد بأبيه الذي يطارد الغروب هارباً نحو البعيد، لكن الموت يعاجله بنزعه من اختناقه بحزنه وألمه، ويرحمه من جحيم قادم اسمه الطّرد من وطنه.

رحيل

منذ هُجّر الكثير من الفلسطينيين قسراً عن وطنهم في عام ١٩٤٨، وهو يقول لأبنائه وحفدته: "أنا لا أخرج من وطنيّ أبداً، أنا أموت فيه، ولا أخرج منه"، وكلّما كان يردّد هذه الجملة، وكثيراً ما كان يردّدها، كانت جدّتهم تقول: "وأنا أموت مع جدّكم حيث يموت، ولا أفارقه أبداً".

كان الأبناء والحفدة يضحكون عندما يسمعون كلام الجدّين العجوزين العاشقين، ويطلبون منهما أن يرويا لهم من جديد قصّة عشقهما وزواجهما التي يعرفها الأقارب والجيران، ويضربون صفحاً عن الخوض في احتماليّة تهجيرهم من أرضهم تشاؤماً من حديث كهذا.

لكن الشّؤم أصابهم سريعاً، وجاء عام ١٩٦٧، ووجدوا أنفسهم يُطردون من وطنهم بعد أن جُرّدوا من كلّ شيء، خرجوا حفاة معدمين تاركين وراءهم البيوت والمواشي والأرض الحبلى بثمارها والخوابي المكدسّة بحصاد جهدهم، تناوب الرّجال الأقوياء منهم على حمل الجدّين إذ كانا عاجزين عن السّير هرماً ومرضاً.

رفض الجدّان أن يُحملا بعيداً عن وطنهما، وأقسما على أولادهم وحفدتهم أن يخلّوهم وشأنهم، وأن يذهبوا دونهم في حال سبيلهم، لكن الآذان لم تصغِ لهما، وحملتهما عنوة في طريق الرّحيل، احتجّا بشدّة على حملهم دون رغبتهم، ظلّا طوال الطّريق يقسمون على الجميع أن يتركوهما في وطنهما، لكنّهما صمتا عن الاحتجاج قُريب حدود الوطن، عندما تفقّد الحاملون سبب صمت الجدّين وجدوهما قد فارقا الحياة قبل خطواتٍ من الخروج من أرضهم، طأطأوا جميعهم رؤوسهم، وقرّروا أن يعودوا من حيث أتوا يحملون الجدّين المتوفّين ليدفنوهما في أرضهما مهما كلّفهم ذلك.

تعويض

سمع خرافة اسمها تعويض أهل غزّة عن الدّمار الذي لحق بهم، لم يحصِ خسائره الماليّة، ولا راعه الجرح الكبير في فخذه، ولا تفقّد حطام بيته وبيوت إخوته ليحصي أثاثاً قد دثر أو بناء قد سوّي بالأرض، بل عجّل إلى بحر غزّة الذي يعشقه، أسبوع كامل أمضاه يصنع تماثيل من رمل البحر على هيئة من فقدهم من أهله.

في صباح اليوم الثّامن أتمّ صناعة حشد من تماثيله الرمّليّة التّي تُجسّد من فقد من أسرته.

قبّل تماثيله بإجلال، وصرخ بحسرة: "هيا عوّضوني عن خسارة أولئك أجمعين. هيّا أعيدوا الحياة لهم، فهذا هو تعويضي الوحيد عن خسارتهم".

حَشْر

يقف يتأمّل المستدمرة الصّهيونيّة التّي تُدشّن للتّو على رفات أرضه بعد مصادرتها كلّها، لم يتركوا له من أرضه سوى عكّازه المصنوع من إحدى جذوع شجراته الشّهيدة.

أرتال من اللّحم الصّهيونيّ تُكدّس في قوالب من الإسمنت فوق أرضه، من مكانه هنا من أعلى التّلّة يستطيع أن يكشف فضاء المستدمرة بشكل كامل، يحصي عدد البيوت فيها على عجل دون اهتمام.

تهمس له حفيدته بانزعاج: "إنّهم كثر يا جدّي. أليس كذلك؟".

يجيبها جدّها وهو ما يزال يحصي عدد البيوت في المستدمرة: "يجب أن يأتوا جميعاً إلى هنا يا صغيرتي، في هذه الأرض سيحشرون في طريقهم إلى جهنّم".

عُقْم

لو لم تعشقه لحرصتْ على أن تعشقه فخراً به وإعجاباً بنبله واستهانته بالموت؛ فهو ليس الرّجل الذي وُلد حقيقة من أحلامها، بل هو الفارس الملثّم بالكوفيّة الفلسطينيّة الذي لا يقبل حكم النّذل الصّهيونيّ به وبشعبه، ولذلك تزوّجته؛ فقد أرادت أن تنجب منه دون توقف كي تمدّ وطنها بالفدائيين، جهدتْ كي تحمل منه لتنسل منها ومن حبيبها الزّوج أبطالاً محرّرين، لكنّه اكتشفتْ أنّها عقيم لا تنجب، الأطبّاء أكّدوا لها عجزها عن الإنجاب، والسّنين العجفاء الممحلة صكّت آمالها بخيبة الأمل الدّائمة، لكنّها تريد أن ينجب زوجها الحبيب فدائيين لوطنه، خطبتْ له إحدى قريباتها لتكون زوجته الثّانية التّي تهبه ما عجزتْ عن منحه له، شدّتْ حرائق غيرتها على صدرها لتكتوي بها بصمت وسرّيّة، وأخذت تنتظر ولادة الفدائيين الصّغار حتى ولو كانوا من امرأة غيرها.

كنيسة

كانوا في طريق عودتهم إلى بيوتهم بعد الانتهاء من صلاة الجمعة في المسجد الأقصى، يعرفون أنّ أُسرهم في انتظارهم ليتناولوا معهم طعام الغداء طقساً من طقوس اللّقاء الأسريّ في غداء يوم الجمعة، كانوا يغذّون الخطى إلى بيوتهم عندما هاجمهم الجنود الصّهاينة، فدفعوهم جميعاً في درب كنيسة القيامة

التّي فتحت أبوابها لهم كي يختبئوا فيها؛ فهي كنيسة فلسطينيّة قلبها نصفه فلسطينيّ ونصفه الآخر مسلم.

كاهن الكنّيسة صمّم على أن يحمي المسلمين المحتمين بالرّبّ فيها، لكنّ الطّلقات الصّهيونيّة صمّمت على أن تغتالهم جميعاً، الجنود الصّهاينة أطلقوا نيرانهم على كلّ من اعتصم بالكنّيسة أو كان فيها، الدّم الفلسطينيّ ظلّ متوحّداً في لحظة إراقته أرضاً، دم فلسطينيّ واحد في كنيسة تحضن مسلماً ومسيحيّاً.

رحل الجنود الصّهاينة وحُمل الشّهداء الفلسطينيون بعيداً عنها، وظلّت الكنّيسة مشرعة حضنها للائذين بها.

دواء

حظر التّجول مفروض على مدينة جِنين بأسرها منذ أكثر من شهر، نفد الطّعام والماء والدّواء، وما استسلم الفلسطينيون المحاصرون، ولا وشوا بمكان الثّوار الفلسطينيين المحتمين بهم.

هو طفل في الخامسة من عمره، ولا يفهم تماماً ما يدور حوله، لكنّه يعرف أنّ دواء أمّه قد نفد، وأنّه دواء مهم يكفل لقلبها أن يستمرّ في القرع، وإن بقيتْ يوماً آخر دونه فسوف تموت، ويعرف كذلك أن لا أحد يستطيع أن يخرق حظر التّجوّل وإلاّ تناوشته الرّصاصات تخريقاً وفتكاً بجسده، لكنّه لا يخاف الموت إن تعلّق الأمر بأمّه.

يدسّ علبة دواء أمّه في جيبه بسرّيّة وتكتّم، وينتعل حذاءه الجلديّ الصّغير، يتعلّق بمزلاج رتاج البيت، ويفتحه، فيدلف إلى الشّارع مباشرة.

في لحظات قليلة تحاصره ثلاث دبّابات صهيونيّة، عيـون صـهيونيّة ترقبـه بتخوّف من خلف دروع واقية، يصرخ به جنديّ صهيونيّ بعربيّة عرجاء: "عُد إلى بيتكَ أيّها المخرّب الصّغير".

يستجمع الصّغير شجاعته التّي تتدفّق سريعاً في يده الصّغيرة التّـي تمتـدّ إلى جيب بنطاله، وتخرج علبة دواء فارغة، ويقول بنبرة كلّها عزم وإصـرار طفـوليّ غير قابل للكسر: "يجب أن أذهب لإحضار الدّواء لأمّي كي لا تموت مرضاً".

يخطو خطوة جريئة في دربه دون أن يلوي وراءه، ويعلـو صـوت رصـاص العدوّ الصّهيونيّ الذي يتسابق للوصـول إليـه ليغتـال عزمـه الطّفـوليّ، تدركـه الرّصاصات جميعها في آن في خطوته الثّانية، فينهار أرضاً، ويده الصّغيرة تأبي أن تفلت علبة الدّواء الفارغة.

رجال

كانت تسبّ الجنديّ الصّهيونيّ، وتضربه بنعلها عنـدما حـاول منعهـا مـن الدّخول إلى قريتها، نهرها الجنديّ الصّـهيونيّ بلغـة عربيّـة، ودفعهـا إلى الخلـف بقوّة، فكادتْ تقع أرضاً، أدركتْ من سحنته ولكنتـه أنّـه خـائن عربـيّ مجنّـد في صفوف العدوّ. أمرها متنمّراً أن تقف بعيداً عن الجنود الرّجال إلى حين تفتيشـها من قِبَل مجنّدة صهيونيّة.

ابتسمت المرأة الفلسطينيّة باستهزاء، وحـدّقت في عينيـه متحدّيـة، وسـألته بتقزّز: "أين هم الرّجال؟"

نضال

يعرف في الحياة إرادة واحدة تسكنه، وهي أنّه يريد أن يحرّر فلسطين من الصّهاينة الذين يسمّيهم أولاد الحرام، لا يفهم الكثير حول التّنظير والجدل السّياسيّ والفكريّ في قضيّته، ولا يريد أن يعرف أيّ شيء عن ذلك، هو يختصر الفكر كلّه في جملة واحدة: "سأحارب أولاد الحرام حتى يخرجوا كالكلاب من وطنيّ فلسطين أو يموتوا فيها".

لم يمارس في حياته شيئاً سوى القتال لأجل فلسطين، أشغله ذلك عن الزّواج والعمل والحلم، بل أشغله عن نفسه وعن الهرم إلى أنّ أدرك الموت في عمليّة فدائيّة نسفت جنوداً ومعسكراً، في آخر لحظة له في الحياة قبل أن يسكن للموت حدّث نفسه بسعادة قائلاً: "لقد حاربتهم حتى ماتوا فيها".

حالة خاصّة

منذ ولادته يعاني من إعاقات متعدّدة جعلته عاجزاً عن النّطق، وتأخر عقله جعله يعيش كطائر طاهر في دنيا الخيال والأحلام، لا يعرف من دنياه سوى أمّه وأخيه الصّغير الأصغر الذي يعتني به دون توانٍ.

لطالما تمنّت أمّه أن تسمعه ينطق كلمة واحدة في حياته، وطوّفت به على الأطبّاء والمستشفيات المتاحة على أمل تحقيق هذا الأمل الهارب نحو الاستحالة.

القصف الصّهيونيّ لم يعفه من النّار والحديد يصبها على أمّ رأسه طالما أنّه طائر ملاك يعاني من إعاقات متعدّدة، ولا يشكّل خطراً عليهم أو أملاً أو مكسباً لأهله وشعبه.

سقف بيته وقع على رأسه جرّاء القصف، ظلّ أيّاماً مفقوداً في عداد الشّهداء إلى أن عثرتْ أمّه عليه منزوياً في سرير ملطّخ بالموت في إحدى مستشفيات المدينة.

حضنته، وقبّلته، وركّزت رأسه بصدرها المعرورق الفائض بالحزن والقلق، ابتسم لها، ونطق كلمة واحدة لا غير خطفها من السّنة الجرحى والمسعفين والزّائرين: "فلسطين".

ابن أمّه

هو ابن أمّه في الملامح والشّكل والصّوت الرّخيم القادر على إنطاق الحجر إن غنّى أو ترنّم أو تلا القرآن الكريم، لكنّه ليس ابنها في حبّ فلسطين والنّضال ضدّ احتلال وطنه.

هو وحيدها الذي قطّعت عمرها في تربيته بعد موت زوجها شابّاً يافعاً، دلّلته على قدر الموسع المترف، وهي الأرملة الفقيرة المعدمة، حتى غدا لقبه "ابن أمّه" لرخاء العيش الذي يحياه في كنفها.

قبلت منه كلّ تقصير وتقاعس وكسل وإهمال وتواكل عليها، إلاّ أن يخون وطنه فلسطين، فهذا كفر لا تقبل به، لا تعرف كيف ومتى وأين ولماذا أصبح عميلاً رخيصاً لصغار الجنود الصّهاينة، لكنّها تعلم بالدّليل اليقين أنّه كان الواشي الآثم بفدائيين من عائلتهم، وهو من تسبّب في قتلهم على حين غدر وخيانة.

الآن تعلم علم اليقين أنّه سيشي بالكثيرين من الفدائيين الفلسطينيين الآخرين، وهو المطّلع على نشاط الكثير منهم بحكم قربه منهم لأنّ أمّه واحدة

منهم. هو الآن في نظرها قد بات فرعاً ميّتاً نجساً مقصوفاً من سنديانة عملاقة طاهرة تصمّم على الحياة والتّغلغل في الأرض.

آن الوقت لبتر هذا الغصن النّخر على الرّغم من أنّه ثمرة قلبها وحصاد عمرها،أبلغتْ عنه فدائيي المنطقة كي يقنصوا رأسه الخائن، وطلبت منهم أن يفعلوا ذلك هناك في الجبل كي لا تراه مشبوحاً أمامها مسربلاً بعاره وخيانته.

في اللّيلة المقصلة صلّت العشاء، ونامتْ ليلها الطّويل آمنة راضية بما فعلتْ، ونسيتْ أنّ لها ابناً مدّللاً خائناً سترحل روحه هذا المساء إلى الجحيم لأنّه ليس ابن أمّه.

ابتسامة

لم تفارقه الابتسامة طوال حياته، فغدتْ عضلاته وجهه منكمشة بتيبّس على ابتسامة عريضة قادرة على ابتلاع أعظم حزن وألم وحرمان وخيبة أمل.

ابتسامته استطاعتْ أن تبتلع ذكرى مشاهد الإبادة في مخيم "صبرا وشاتيلا"، وأن تدفن دموعه في أعماق نفسه وهو يرى أسرته أشلاء لحم محروقة تتعفّن في شوارع المخيم الذي داسه الموت بكلّ جرأة ووقاحة.

ابتسامته منعت الأكف الحانية من أن تداعب يتمه، وأن تستجدي الإحسان إليه، كما شكّكت بجدّيته وانضباطه عندما تقدّم متطوّعاً للانضمام في صفوف الفدائيين، لكنّها في النّهاية أصبحت علامته المميّزة الرّافضة لأن يرى أحد دمعة في عيون فلسطينيّة.

الآن ابتسامته تبدو أكبر وهو يطارد الموت المذعور منه، ويمدّ يده إلى فتيل الحزام النّاسف ليمحو عن وجه البسيطة هذا المرقص اللّيليّ المحتشد حدّ التّقيّؤ بالجنود الصّهاينة الذين قادوا منذ أيّام عاصفة إبادة لمدرسة أطفال فلسطينيّة في قطاع غزّة، تتسع ابتسامته أكثر، ويشدّ الفتيل، ويعلو شهيق الموت، ولا تفارقه ابتسامة الرّضا.

جبال

الجبال الجرداء البعيدة ترى المستدمّرين الصّهاينة يسعون نحوها، هم يريدون في غفلة من أهلها الذين يسكنون السّفوح والمدن والقرى والسّواحل أن يضعوا أيديهم عليها، وأن يبنوا عليها مستدمرات جديدة، الجبال وحدها من تراهم يعدون باتّجاهها في جنح اللّيل، تقرّر أن لا تحمل على قممها سوى أهلها الفلسطينيين، ترتجّ الجبال، فتزلّ عنها أقدام الصّهاينة وآليّاتهم، وتزعق زعقة تزلزل السّموات والأرضيّن قائلة: "يا سامعين الصّوت".

فيسمع الفلسطينيون استغاثة جبالهم، يلبّونها سريعاً، يحملون بعض الأهل والولِد وقليل المتاع، ويهرعون يسكنون أعالي الجبال قبل أن يستولي المستدمرون الصّهاينة عليها، ويخلّفون الباقين من أهليهم في بيوتهم الأصليّة.

تتحصّن أعالي الجبال بأبنائها الملبّين لاستغاثتها، وتعود إلى وقارها وهدوئها اطمئناناً بوجودهم معها.

خيانة

لأوّل مرّة يقبض ثمن خيانته، ويدسّ المال في جيبه، ولا يفرّح نفسه بعدّ النّقود، والتّلذّذ بمداعبتها، وشمّ رائحة صنانها الذي يهيّج نهمه للمال، ويخدّر ضميره، وينسيه لقب "الغضيب" الذي تنعته أمّه به بسبب خيانته لوطنه، وتحالفه مع أعدائها.

سيان عنده إن نقص ثمن خيانته أم زاد في هذه المرّة؛ فهو سوف يصليه النّار بعد ساعات قليلة، لا يمدّ يده لتتحسّس المال في جيبه كما هي عادته، ولا يخشى أن ينكشف أمره، فيسارع الفدائيون الفلسطينيون لذبحه مثل مَنْ ذبحوا قبله من خونة شعبهم.

لا يريد أن يموت تحت أقدام الفلسطينيين، ولا يريد أن يُشنق على زيتونة لتنهشه الطّيور، ولا يريد أن يتعفّن في ساحات الحيّ بعد حزّ رقبته دون باكٍ له أو راثٍ.

لقد قرّر أن يموت كما يريد، الآن يريد أن يغيّر أقداره رغم أنوف العالمين أجمعين، أمّه ماتت قبل أيّام، وهي غاضبة عليه، رافضة أن تراه؛ لأنّه خائن. لم يجرؤ على أن يحضر عزاءها، أو أن يحمل في نعشها، أو أن يرافقها إلى قبرها كأيّ ابن بارٍ؛ فهو الخائن الممجوج الذي تتصيده عيون الفدائيين الفلسطينيين لتصيد رأسه الرّخيص بطلقة واحدة لا غير.

سيّدخل المعسكر الصّهيونيّ كعادته، سيقابل الضّبّاط الصّهيونيّ بحضور عدد من الجنود وفق المخطّط لينقل لهم معلومات جديدة مفترضة عن تحرّكات بعض الفدائيين الفلسطينيين، وفي اللّحظة المناسبة سوف يفجّر الحزام النّاسف الذي يدّخره ليتطّهر به من آثامه جميعها.

سوف يموت ويموتون جميعاً، لن يعرف أحد أنّه مات فدائيّاً لا خائناً، لكن أمّه في السّماء ستفخر به، وستعرف أنّ ابنها الشّقيّ قد أدرك المغفرة في اللّحظة الأخيرة.

اقترب الوقت المحدّد للقاء، استعدّ للتّنفيذ، دخل المعسكر، وتشهّد عشرات المرّات، وفي اللّحظة المناسبة برقتْ ابتسامة أمّه في أعماقه، فسحب فتيل الحزام، وحلّ الموت على الجميع.

خُطبة

كلّ عريس يتقدّم لها تعيبه بعيب ما، ثم ترفضه، وتغلق باب غرفتها عليها باكية لأيّام طويلة، ثم تخرج بعد ذلك، وتعلن لهم أنّها لا تريد الزّواج بعد استشهاد خطيبها حسّان، ثم تلين من جديد تحت ضغط أسرتها، وترى العريس الجديد الذي تقدّم لها، ومن جديد تعيبه، ثم ترفضه، ثم تهرع إلى غرفتها تبكي لأيّام موصولة.

تريد العريس بطول حسّان وصوته ورائحته وقسماته ومشيته وطباعه وشجاعته وابتسامته وحبّه لفلسطين وعشقه لعينيها النّاعستين.

لا رجل يمكن أن يحمل صفات حسّان، سنين مضت على بحثها عنه في وجوه الرّجال دون أن تعثر عليه، وبدأت تلقّب بالعانس النّكدة لطول حزنها عليه.

عريس جديد ينتظرونه في بيتهم هذا المساء كي تتعرّف عليه، تنظر في وجه والديها اللّذين كدّهما التّعب والشّقاء والخوف على مصيرها بعد موتهما، ويصبوان لأن ترضى بعريس ما تتّخذه زوجاً لها، وتقول وهي تتكوّم أرضاً أمام

صورة حسّان المعلّقة في صدر البيت: "أبي أنا لن أتزوج غـير حسّـان، وهـو لـن يعود لأتزوجه".

زَرْع

جرّفوا أرضها بعد حرق محصولها لهذا العام، وأطلقوا الخنازير البريّـة علـى مزارع العنب، وفي آخر المطاف جفّفوا بئر المياه التّي تسقي زرعها منها.

لقد استغلّوا أنّها فلسطينيّة وحيدة بينهم، وهم من يسيطرون علـى المـزارع المحيطة بمزرعتها بعد أن صادروها من أهلها الفلسطينيين، هي وحدها بين أولئك الوحوش، قتلوا أبناءها تباعاً على تراب هذه المزارع وهم يزرعونها.

الآن غدت وحيدة تماماً، لكنّها ظلّت قويّة، زرعتْ من جديد السّنابل التّي خلعوها من أرضها، ونفخت فيها، فتفتّقت جميعهـا عـن فلسـطينيين زرّاع هبّـوا جميعهم لنجدتها وعونها وزراعة أرضها من جديد.

زهايمر

ستون سنة من النّضال المستمرّ لم تستطع أن تزحزحه قيد أنملة عـن إيمانـه العميق بحقّه، لم تمض ليلة لم يناضل فيها متمسّكاً بأرضه، لم يفتّ في عضدّ عزيمته تآمر العالم كلّه مع عدوّه الصّهيونيّ، أمّا هذا المرض اللّعين الـذي اسمـه "زهـايمر" فهو ما يخشى أن يأكل ذاكرته، فلا يتذكّر حدود أرضـه ومسـاحتها، ولا يعـرف عدد الأشجار المزروعة فيها ونوعها، فلا يستطيع أن يسـتمرّ في متابعـة القضـايا

التّي رفعها ضدّ المستوطنيّن الصّهاينة الذين وضعوا أيديهم بقوّة الظّلم والاستبداد على الأجزاء الشّماليّة من أرضه.

هل "زهايمر" هو مرض صهيونيّ؟ سوف يأكل ذاكرته كما أكل من قبل ذاكرة الكثير من البشر؟!

يقرّر أنّ خير طريقة للهجوم هي الدّفاع، يشرع يسجّل في سجل كبير كلّ صغيرة وكبيرة يعنيه تذكّرها عن أرضه ووطنه ونضاله وعدوّه، ويتربّص بمرضه اللّعين وقد أعدّ له عدّة الانتصار عليه.

بنطال العيد

بقرار طفوليّ قطعيّ لا يقبل الطّعن أو الرّد أو الاستئناف قرّر أنّه يريد بنطالاً كتّانيّاً أسود جديداً يلبسه في العيد المتربّص خلف الأبواب.

لم يجد الأب محيصاً من أن يستسلم لهذا القرار ما دام ابنه الوحيد المشتهى الذي جاءه بعد طول انتظار قد قضى به بحزم وإصرار لاسيما بعد أن قالتْ زوجته له بنبرة متوسّلة ذليلة: "اجبرْ بخاطر هذا الصّغير، ملابس العيد ليست إلاّ للأطفال الصّغار أمثاله".

صمّم الابن المدلّل على أن يرافق أباه إلى العمل كي يضمن أن يشتري له البنطال الحلم بعد أن ينتهي من عمله المضني في قطف جنى المحاصيل من الحقّول التّي اغتصبها المحتلّون الصّهاينة من أهل قريته.

لأوّل مرّة يرى الابن أباه الأبي يتكوّم بذلٍ وعجزٍ على حواجز التّفتيش والانتظار كي يدخل المناطق المستدمرة في وطنه كي يعمل ذليلاً في أرضه ليعود إلى بيته وزوجته وأطفاله حاملاً لهم قوت يومهم.

طوال اليوم عمل الأب بذلٍ منكود موصول لا يعرف راحة؛ فلا يُسمح له بأن يستريح، راقبه الابن بانكسار وشعور دفين بالذّنب ينهش قلبه، ويعضّ روحه الصّغيرة.

في المساء في درب العودة إلى السّوق استوقف والده الذي ينام كفّه الصّغير النّاعم في كفّه الكبير الخشن الدّامي، وقال له: "أبي، أرجوك لا تعد للعمل في تلك المزرعة، أنا لا أريد بنطالاً جديداً للعيد، لقد كبرتُ، والكبار لا يريدون ملابس جديدة للعيد".

حَجَر

ينادي والده باسم "ديبو حبيبي؛ فهو مثل غيره من النّاس يرى والده ذياب صغيراً في سنينه السّبع عشرة على أن يكون زوجاً وأباً وراعياً لأمّه الأرملة، يتمتّع عندما يحمله والده على كتفيه، ويهزّه مثل أمير يمتطي ظهر تنين سحريّ.

يحرمه والده من حمله فوق كتفيه عندما يخرج ليرجم بحجارته الجنود الصّهاينة في مناوشات لا تنتهي معهم ليمنعهم من دخول الحارّات القديمة أو لتأخير وصولهم إلى مكان وجود فدائيين حتى يتيح الفرصة لهم للهرب من وجه أعدائهم دون أن يُقبض عليهم.

ينتظر حتى يكبر حتى يستطيع أن يرافق "ديبو حبيبي" في واجب رجم الصّهاينة بالحجارة والموت، لكن "ديبو حبيبي" لم ينتظره حتى يكبر؛ فقد عاد محمولاً على الأكتاف بعد أن قنصه صهيونيّ محتلّ وهو يرجم الجنود الصّهاينة بالحجارة، كانت هناك ابتسامة كبيرة على وجهه وهو يغلق يده على الحجر الأخير الذي لم تمهله الطّلقات حتى يرجم به من سرق أرضه.

أسرع إلى كف يمين والده، وفتحه على عجل، وأنتزع الحجر منه، وخبّأه في جيبه، وهمس في أذن والده: "ديبو حبيبي لقد كبرتُ، غداً سأخرج لرجم هذا الحجر في وجه الجنود الصّهاينة".

زيتون

الأخ الأكبر قال لأخيه الصّغير، وهو يشرح له باهتمام مغزى أهميّة الدّفاع عن بستان الزّيتون الذي يملكون في أعالي جبال جرزيم الفلسطينيّة: "هذه الأشجار ليست أشجاراً كما تبدو، كلّ شجرة تنمو على قبر فدائيّ، فكلّ فدائيّ عندما يموت يصبح شجرة زيتون".

أجال الأخ الصّغير نظرة عجلى في المكان، فأدرك أنّ بستانه هو جبّانة عملاقة للفدائيّين، شعر بفخر لأنّه الموكل برعاية هذه القبور الأشجار، وقال بنبرة وقورة موغلة في الإدراك: "لذلك شجر الزّيتون هو شجر مقدّس؛ فهو شجر الفدائيين الفلسطينيين".

شجرة

الجرّافات المدرّعة الصّهيونيّة هاجمت على حين غـرّة أشـجار الزّيتـون في حقل الحاجّة فريزة، خلعت الكثير منها بعـد عنـاء، الشّـجرة الكـبيرة العملاقـة استنجدتْ بأثيرتها الحاجّة فريزة التّي هرولت إليها على الرّغم مـن كـبر سـنّها، وغطّتها بملاءة رأسها، وأخذتها إلى حضنها، وشـدّتها إلى عظامهـا حتـى كـادت تنغرز فيها.

لقد كانت مذبحة للأشجار الشّهيدة التّي تهوي أرضاً تسـحلها متـاريس الجرّافات وجنازيرها، إلاّ إنّ هذه الشّجرة قد رفضت أن تُغتال، انبلج ساقها عن مرقد في داخلها، ابتلعتْ الحاجّـة فريـزة، وعصـبتْ أعـالي أغصـانها بطرحتهـا البيضاء، وانبرتْ تدوس الجرّافات بجذورها العملاقة التّي شـلعتها مـن أعمـاق تراب الأرض، فعلقتْ بها صخور وكتل ترابيّة وحجارة.

هرب النّاجون القليلون من الصّهاينة مـن وجـه هـذه الشّـجرة الفدائيّـة، ورفضوا أن يعودوا من جديد إلى حيث تنتصـب الشّـجرة الفلسـطينيّة المقاتلـة، وأسموها على حذر وكره وتوجّس "الشّجرة الملعونة".

الوليد

هذا الوليد جاء في يوم رحيل والده عن الحياة، وُلـد علـى المعـبر الـذي يفصلهم عن أقرب مشفى، نزل من بطن أمّه على إسفلت الشّارع العموميّ بعد أن جرّه الطّلق خارج رحمها على كره منها، وهي تنتظر أن يُسمح لها بـأن تصـل إلى المشفى.

الجنود الصّهاينة أخرجوها وزوجها من السيّارة الأجـرّة التّـي يسـتقلانها للوصول إلى المستشفى، وأجبروهما على أن يركعا أرضاً لإذلالهما، هي تكوّمت بعجز على الأرض تكابد صعقات طلق تمزّق لحمها، وزوجها رفـض أن يركـع أمامهم بذل، فأردوه قتيلاً بطلقات ناريّة خطفتْ شعلة الحياة من صدره.

عاد الأب والابن الوليد إلى بيت الأم الجدّة محمولين على الأكتـاف، الأم الجدّة غسّلت ابنها، وحمّلته في نعشه ليُصار به إلى قبره الجنّـة، لم تحـزن عليـه، ولم تودّعه بدمعة، بل ودّعته بابتسامة تليق بأمّ شهيد، وانكفأت تحمّم حفيدها الوليد وتطعمه، وتصلح شأنه، وتنتظره ليكبر كي يأخذ بثـأر ابيـه الشّـهيد الـذي قتلـه الصّهاينة في يوم مولده.

صَمَمْ

أصابه الصّمم مذ كان صغيراً بضربة شمس، أعيا الأطبّـاء علاجـاً وتكهّنـاً بعلاج صممه، لكنّه ظلّ أصم، لم يحلم بأن يستردّ سمعه، وفضّل الهـدوء المطلـق على صوت جعجعة الغرباء ونعيقهم في وطنه فلسـطين، لكنّـه كـان يتمنّـى لـو يستطيع أن يسمع صوت طفله الصّغير الذي تميّز بجميل ترتيله للقـرآن الكـريم، أراد برغبة متفجّرة أن يسمعه يرتّـل القـرآن ولـو لمـرّة واحـدة في حياتـه، لكـن الصّمم حال دون تحقيق رغبته.

تفجير كبير في باحة الحيّ هـزّ أركـان البيـوت، فـاخترق أذنـه ليسـمعه، التّفجير نفذ من أذنيه، وعبث بضلوع صدره، وشلع قلبه، الآن عاد يسـمع مـن جديد، لقد سمع صوت الانفجار الذي اغتال ابنه الوحيد ذا الصّوت الملائكـيّ في زاوية حفظ القرآن الكريم.

صيد

البحر اعتاد على كلامهم وترانيمهم وأحلامهم وطقوسهم في الصّيد والأكل والبيع والشّرّاء، حتى دعاؤهم في لحظات هيجانه يطربه، ويجعله يضحك كثيراً من كلماتهم المستدرّة لستره ورحمته وعطاياه، هو يعشقهم، من الآلاف السّنين يعشق أهل السّاحل الفلسطينيّ الذي عقد معهم حلف محبّة منذ الأزل.

البحر يحفظ تفاصيل معاناتهم، ويحرّك بحزن وأسىً لبّاد شعره المائيّ المخضوضر بزبد زلق كلّما منع الصّهاينة الصّيادين من الوصول له.

هو يدّخر لأصدقائه الصّيادين الفلسطينيين قصصه ودرره وحنانه والكثير من السّمك، ويترنّم طويلاً على صوت غنائهم الذي يدغدغ حبوره المتّسع.

الآن هو يعيش وحدة مؤلمة وهو يرى الصّيادين الفلسطينيين لا يستطيعون أن يقتربوا منه بحرمان من الصّهاينة، يحتضن سفنهم المهجورة، ويضمّها بلجّة عملاقة إلى صدره، ويغور في أعماق مائه.

هذا الصّباح رأى الصّهاينة يُغيرون على لجحه، ويحاولون أن يسرقوا سفن الصّيادين الفلسطينيين، يغضب انتصاراً لأولئك الصّيادين المسالمين، يرفع سفنهم إلى أعلى هضاب لجحه، ويخسف البحر بالصّهاينة، فيردّهم من جديد قردة وخنازير بحريّة، ويرسلهم يسعون في البحر طعاماً لوحوشه وأسماكه.

يضحك البحر كثيراً إذ يُرسي سفن الصّيادين في خليج صغير في السّاحل في انتظار أصدقائه الصّيادين أصحاب أغاني الصّيد وترانيم السّمك.

القائد

هو قائده الأعلى في البيت والشّارع وزقاق المخيّم، يقلّده كيفما اتّفق، ويفرح إن رأى في عينيه نظرة رضا عنه، هو أخوه الأكبر، يكبره بعامين فقط، وبذا يكون عمره سبعة أعوام، لكنّه يتّخذه معلّمه وعرّابه وقائده.

أمره بأن يرجم الجنود الصّهاينة بالحجارة لأنّهم أشرار، فما تأخّر لحظة عن إطاعة أوامره، فكلّما رجم صهيونيّاً بحجر برقت عيناه بالفخر؛ لأنّه يطيع أخاه عبد الله قائده الأعلى في الحياة وقدوته المحتذاة.

كاد يظفر بغنيمة رجم الصّهاينة، ويفرّ هارباً كعادته، لكن يداً عملاقة مشعوعرة هدّمت كتفه عندما أمسكت به، وفي طرفة عين كبّلته أيدي الجنود، وأمرته بأن يعترف باسم من حرّضه على رجمهم، لم يراوغ في الإجابة، وقال بفخر طفوليّ عريض متحمّس: "إنّه أخي عبد الله من أمرني بذلك".

تحرّكت جنود حانقة وآليات مصفّحة كي تنشب أظفارها في عنق عبد الله المخرّب كما نعتوه، حاصروا بيته، وأمروا عبد الله عبر الأبواق بأن يخرج لهم مستسلماً رافعاً يديه حفاظاً على حياة أخيه الأصغر المنشبة أظافرهم الشيطانيّة في رقبته، وحماية لبيته الذي سينسفونه دون تردّد إن مضت ثلاثون ثانية دون أن يخرج إليهم مستسلماً.

سرعان ما خرج عبد الله رافعاً يديه إلى أعلى، وأصابع كفّ يمينه تمسك مصاصة حلوى يشفق أن تقع منه أرضاً، فيخسرها.

أخيراً قبض الجيش الصّهيونيّ على القائد الأعلى للمقاومة، واسمه الطّفل عبد الله ذو السّنين السّبع والبنطال الطّفوليّ القصير ومصاصّة الحلوى!

إسعاف

هي ليلة مثل كلّ ليالي الفلسطينيين تحت القصف الصّهيونيّ، هي ليلة وحيدة خائفة يعيشها أهالي المدينة تحت فيضان من النّار والحديد والحصار الخانق.

هاشم أبو الخير المسعف يصمّم على أن ينقل المصابين بصحبة طاقمه التّمريضي على الرّغم من استحالة الاستمرار في ذلك تحت وابل جهنميّ من النّيران التّي تمطرهم بالموت والنّار والجزع.

سريعاً ما التّهم الوابل طاقمه، ولم يعد يملك سوى عزيمته ومقود سيّارة الإسعاف التّي يقودها، وقد تكدّست بآهات الجرحى والأشلاء التّي فقدت أصحابها، وتاهتْ عنهم.

قذيفة هوجاء عتيّة اقتلعت رأسه من فوق جسده، تطاير الرّأس بعيداً غير آبه بآلام التّدحرج على حصى مشتعلة، أمّا الجسد فاستمرّ يقود سيّارة الإسعاف بإصرار وشجاعة ليوصل المصابين إلى أقرب مستشفى فلسطينيّ.

أُخوة

اعتاد أن يقرأ سورة الملك على نفسه كلّما خرج ممتطياً عزمه، شاهراً إباءه، حاملاً بندقيته، مرخّصاً روحه، محقّراً الحياة الذّليلة، ليقاتل عدوّاً واحداً يعرفه جيّداً.

أمّا هذا الصّباح فقد قرأ على نفسه أسفار اللّعنة، وسبّ كلّ من دفعه إلى أن يحمل السّلاح في وجه أخيه الفلسطينيّ، هو لا يفهم السّياسة، ويمقتها كثيراً،

ويرفض أن يُطلق الموت على صدر فلسطينيّ مهما خالفه الرّأي السّياسيّ أو الفكريّ تحت ألوية صراعات الفصائل الفلسطينيّة المتناحرة على سدانة المراكز والنّفوذ والامتيازات.

رفض أمر القتال أكثر من مرّة، وعندما دُفع دفعاً إلى ساحة نحر الأخ، اعتكف في بيته، وخبّأ سلاحه ورصاصته لأجل عدوّه الصّهيونيّ.

أُبوّة

يحلم منذ سنين بالأبوّة، يريد أن يكون أباً لطفل من زوجته عزّة لا من امرأة أخرى، أنفق كلّ ما حصل عليه من مال بكدّ جبينه لأجل إجراء عمليّات التّلقيح الصّناعي على أمل أن يحظى بكلمة بابا في يوم ما.

لكن عمليّة التّلقيح تؤول في كلّ مرّة إلى خيبة أمل تجرجر أذيالها الثّقيلة على صدره وصدر زوجته التّي تحلم بأن تلد فلسطينيّاً كما تلد النّساء في وطنها الفلسطينيين لأجل النّضال.

ظلّ يحلم بالأبوة، وهي ظلّت تدّخر المال مع زوجها لأجل المزيد من عمليّات التّلقيح الصّناعي.

هجوم جويّ يشنّه العدوّ الصّهيونيّ على المدرسة التّي تعمل زوجته فيها محاسبة في القسم الإداريّ يحصد أرواحاً كثيرة، وروح زوجته من تلك الأرواح.

لقد غادرته دون وداع ودون ولد له منها، وجد في حقيبة يدها بعد انقضاء عزائها ورقة تحليل حمل تبشّر بحملها، لقد كانت مؤرّخة بيوم استشهادها، لا بدّ أنّها كانت ستخبره بالأمر فور عودتها من عملها في يوم

مقتلها، لقد قتلوها وقتلوا ابنهما في أحشائها، لقد أصبح الآن أبا الشّهيد الذي أغتاله عدوان جويّ في أحشاء أمّه، وحرمه من أن يقول لأبيه كلمة بابا ولو لمرّة واحدة في حياته.

شجرة عائلة

كلّفت معلّمة الرّياضيّات طالباتها الصّغيرات بأن ترسم كلّ واحدة منهنّ شجرة عائليّة واجباً منزليّاً كي يعرفن رياضيّاً بشكل عمليّ معنى التّوالد والتّفرّع.

الطّفلة الفلسطينيّة الصّغيرة رسمت شجرة عائليّة كبيرة بمساعدة أمّها وجدّتها لأبيها وعمّتها وزوجة خالها اللّواتي يسكنّ في بيتهنّ منذ أفقدهن الاحتلال بيوتهنّ وأزواجهنّ الرّاعين لهنّ.

في اليوم الثّاني كانت الطّفلة الفلسطينيّة الصّغيرة الأكثر فخراً بين زميلاتها، وهي تحمل شجرة عائليّة تتوافر على أعداد كبيرة من المجاهدين والأبطال والشّهداء والمعتقلين.

اختالت بشجرتها العائليّة، ولم تلجم خيلاءها إلاّ عندما رأت كلّ زميلة من زميلاتها تحمل شجرة مشابهة لشجرتها، ولا تقلّ عنها امتداداً وتفرّعاً وازدحاماً.

عندها رضيت بهزيمة عدم تفوّقها، وجلست في مقعدها بصمتْ، وبرت قلمها الرّصاص، وغدتْ ترسم فروعاً جديدة لأغصان شجرتها، وبدأتْ تكتب

بأناة واهتمام أسماء بناتها وأبنائها المنتظرين الذين ستنجبهم في المستقبل ليجعلوا شجرة عائلتها الأكبر تضحيّة ونضالاً.

شهيد

نذرتْ حياتها وأحزانها وشبابها لتربية سبعة عشر شابّاً وشابة، أحد منهم لم يكن ابنها الذي زُرع في رحمها حتى تكوّن، وغادره ليرى الحياة انطلاقاً منه، فجميعهم أولاد أخواتها وإخوانها الذين ربتهم في غياب أب شهيد أو أختٍ معتقلة أو بيت هدمه الاحتلال الصّهيونيّ، إلاّ رمزي فهو ابنها دماً ولحماً ورحماً، فهو تذكارها النّفيس من زوجها الحبيب الذي ابتلعه النّضال الفلسطينيّ في لبنان، فلم يعد أبداً، قيل لها إنّه حيّ يرزق في إحدى بقاع الدّنيا، يعيش لهدف واحد وهو تدريب أشبال النّضال الفلسطينيّ، لكنّها تعرف أنّه في بطن الأرض لا على وجهها، فلا شيء غير الموت يمنعه من أن يرى ابنه رمزي الذي خرج على شاكلة والده شجاعة وطيبة وحبّاً لوطنه.

خرج رمزي منذ أيّام في عمليّة انتقاميّة من الصّهاينة بعد قتل المستوطنيّن لخمسة أطفال من بلدتهم، لقد نجحت مهمّة الانتقام، لكن رمزي لم يعد منذ خرج إلى أن أعاده الصّهاينة مكوّماً في كيس بلاستيكيّ أسود، عرضوه على نساء الحيّ كي يكتشفوا هويّته كي ينتقموا من أهله أجمعين كعادتهم، فيعتقلون أهله، وينسفون بيته، ويلقون بأسرته في الشّارع. لكن نساء الحيّ أنكرن جميعاً معرفتهنّ بهويّته هرباً من انتقام الصّهاينة منهم ومن أهله، لقد اتّفقوا جميعاً منذ زمن على إنكار معرفتهم بأيّ فدائيّ يُستشهد أو يقوم بعمليّة فدائيّة كي ينجو الباقون من بطش الصّهاينة بالضّعفاء والعزل.

آخر بيت في الحيّ كان بيت عائلة رمزي، عرضوه على أمّه، تحسّست رحمها من فوق بطنها بلوعة، وقالتْ للصّهاينة بكبرياء لا يركع لدمعة أو صرخة فجيعة، ولا يقبل أن يُباد الجميع في لحظة صرخة من قلبها الدّامي: "لم أره من قبل في حياتي، لا أعرفه أبداً، جميعنا هنا لا نعرف من يكون".

عروس البحر

منذ طفولتها كانت تلجأ إلى بحر غزّة تناجيه، وتهمس له، بينها وبينه أسرار وحكايات لا تذاع، لطالما ظنّت أنّها عروس من عرائسه، وأنّها غادرته لسبب تجهله، وسوف تعود إليه في يوم ما لتعيش في ممّالكه المائيّة الجميلة حيث لا عدو صهيونيّ يقصفها، ولا حصار يخنقها، ولا ظلم أو فقر أو بطالة أو مرض بسبب الاحتلال الصّهيونيّ يهصرها.

اسمها حوريّة على اسم جدّتها لأبيها، وهذا الاسم يؤكّد لها أنّها من سلالة عرائس البحر لا من سلالة الإنس، تختال دون تردّد على صديقاتها بأصولها المائيّة التّي تفترضها، وصديقاتها يقبلن أكاذيبها وأوهامها مادامتْ ستغني لهنّ ما يطلبن من أغانٍ داثرة بصوتها الحنون العميق كهدير بحر دافئ في ليلة صيفيّة.

لم تكن عند حبيبها البحر عندما بدأت طائرات العدوّ الصّهيونيّ تقصف حيّها والأحياء المحيطة به دون رحمة، بل كانت في السّوق المتاخم له، المباني التّي هبطت أرضاً وأشلاء القتلى من شعبها الفلسطينيّ أوصدت أمامها دروب العودة إلى بيتها، لم تجد أمامها سوى درب البحر لتسلكه.

كانت جريحة بشظايا أصابتها في جسدها دون قدميها، لكنّ الخوف نفث فيها قوّة لا تفتر تدعوها للهروب إلى حبيبها البحر، كان الطّائرات توغل في قصف المباني والشّوارع وكلّ ما يتحرّك أو لا يتحرك، وهي تطير أمامها كريشة صغيرة في مهبّ عاصفة جهنميّة.

ما كادت تصل إلى البحر الذي يضطرب سطحه بأزيز الطّائرات حتى أصابتها قذيفة صهيونيّة هدرتها أشلاء صغيرة، ما شعرتْ بألم، وفاضتْ روحها كزبد بحر، لقم البحر الباقي من فتات جسدها، وابتلعه، وغار به إلى أعماقه ليدفن عروسه الجميلة في أحشائه الحنونة بعيداً عن العدوّ الصّهيونيّ الذي اغتال عروسه الجميلة ذات الصّوت الرّنان الحنون.

جدار

هذا الجدار العنصريّ العازل حرمه من مدرسته التّي يحبّها، نقله والده إلى مدرسة أخرى في ظاهر مدن الجدار الفاصل، لكنّه يصمّم على أن يذهب إلى مدرسته التّي يحبّها، يتأبّط كتبه، وييمّم نحو مدرسته القابعة خلف الجدار، ويناجي مدرسته، وعندما ييأس من سماع أيّ ردّ منها يقرّر أن يخترق الجدار العازل، يدفعه الجنود الصّهاينة بعيداً عن بوابة العبور المدجّجة بالحرس والسّلاح والكلاب، لكنّه يأبى أن يبتعد عن البوّابة، يطلق الجنود كلابهم المسعورة عليه لتنهش لحمه البضّ الطّري دون رحمة، تقطع الكلاب بأنيابها النّجسة مزقاً من لحمه، تغادره الحياة مسلولة من بين قطع لحمه المنثورة أرضاً، ويظلّ يحلم بأن يعبر بوابة الجدار العازل ليذهب إلى مدرسته التّي يحبّها.

خرافيّة [1]

لا تصدّق جدّتهم أنّ جدّهم أبا حسن قد خرج يوماً في أيّام الموت الفلسطينيّة، ثم لم يعد حتى هذه اللّحظة، بحثت عنه لسنين دون فائدة، وكي لا تطير مجنونة في الشّوارع، فتضيّع أبناءها يتماً وجوعاً وغربة ووحدة قرّرتْ أن تحفظ عقلها عليها، لكنّها ظلّت تروي للجميع خرافيّة أبي حسن.

ظلّت تروي لأبنائها وحفدتها خرافيّة أبي حسن، وظلّوا يسمعونها دون ملل، فأبو حسن كان فارس الفوارس الذي يقاتل الصّهاينة في كلّ مكان، ولا يموت، الجميع آمن بخرافيّة أبي حسن، وظلّوا ينتظرون عودته كي ينقذهم من عذابهم، لقد كبروا وهم ينتظرون عودة الأب الجدّ الذي لا يؤوب.

بعد ثلاثين عاماً عاد الجدّ أبو حسن كوماً من العظام في كيس قطني أبيض بعد أن أفرج الصّهاينة عن رفاته، دفنه الأبناء والحفدة في عزاء مهيب حضره كلّ من كان يحفظ خرافيّة أبي حسن، ثم عادوا إلى بيت العائلة ليسمعوا الجدّة تروي لهم خرافيّة جديدة من خرافيّات أبي حسن.

عانس

لم تعدْ تحلم بذلك الفارس الورديّ الذي يطرق مخيّلات النّساء وأحلامهنّ وأسرارهنّ قبل أن يسكن نوافذ قلوبهنّ المشرعة على انتظار شوكيّ ينخز صبرهنّ واحتمالهنّ.

حلمها الوحيد الغائر في روحها هو أن ترى من خلف نافذة غرفتها مآذن المسجد الأقصى وقبابه، وأن تسمع منها صدح الآذان والتّكبيرات.

١- الخرافيّة هي الحكاية باللّهجة الفلسطينيّة.

حبّها لمدينة القدس حيث وُلدت وأفراد عائلتها قد تفوّق في نفسها على حبّ الرّجل والنّسل والحياة ذاتها.

لم تجد في القدس الرّجل الذي تحلم بالزّواج منه، وكي تبحث عنه خارج مدينتها كان عليها أن تخاطر بهويّة إقامتها الدّائمة التّي تسمح لها بالإقامة في المدينة؛ فالقيود التّي يفرضها الصّهاينة على عرب مدينة القدس تجعلهم يعيشون في سجن كبير إن خرجوا منه لا يمكنهم العودة إليه، وإن أحبّ أحدهم آخر خارج المدينة في الضّفّة الغربيّة أو خارج فلسطين فهذا يعني أن يخسر للأبد هوية إقامته الدّائمة في القدس.

في إحدى زياراتها القليلة إلى إحدى العواصم العربيّة عشقت فلسطينيّاً يحمل جنسيّة عربيّة، لكنّها ضحّت بحبّها له كي تطير عائدة إلى مدينة القدس، ولا تخسر إقامتها فيها ما دام من سابع المستحيلات أن تحصل له على هوية أو تصريح إقامة دائمة في مدينتها إن تزوّجا.

ذلك الشّاب الفلسطينيّ الذي يعيش في الشّتات كان حبّها الأوّل والأخير في الحياة، لكن حبّها الفطريّ لمدينة القدس قد انتصر على حبّها الآدميّ الخالد لحبيبها المهجّر البعيد.

لقد ولّى في طريقه خائب الأمل بعد أن رفضت الزّواج به، وسرقته الدّروب بعيداً عنها، كما سرقت السّنون شبابها وآمالها وأحلامها، لكن لا أحد استطاع أن يسرقها من حبّها لمدينة القدس التّي لا تستطيع أن تعيش بعيداً عنها حتى لو كان ذلك لأجل أن تعيش في حضن فارس أحلامها الذي حظّي بعشقها.

قُرعة

القصف الصّهيونيّ مستمرّ منذ أيّام طويلة تجاوزت الشّهر ونيف، وهي وأطفالها جياع في شهر رمضان المبارك كما أهل غزة جميعهم جياع في هذا القصف المحاصر لهم، أُعلن منذ لحظات عن هدنة لمدّة ساعتين، هذه فرصتها كي تخرج لإحضار بعض الخضار والخبز لإطعام أبنائها الأربعة التّي يعيشون معها منذ هجرها زوجها.

ابنها الكبير الذي لم يتجاوز عمره الثّلاثة عشر عاماً يصمّم على أن يخرج بنفسه لشراء الطّعام المطلوب لأنّ موته في حالة حدوث اختراق للهدنة هو المصيبة الأقلّ على إخوانه من فقد أمّهم إن اغتالتها الرّصاصات، وهي تصمّم على الخروج وشراء الطّعام المطلوب لأنّ موتها أهون عليها من أن تراه مقتولاً في إحدى الطّرقات.

يطول الجدال بينهما، ويتّفقان على أن يقترعا على من يخرج منهما لشراء المطلوب، يكتب كلّ منهما اسمه على ورقة صغيرة مربّعة، ويرميان الورقتين على طاولة المطبخ بعد طيّهما بشكل متماثل، الابنة الصّغيرة تختار ورقة من الورقتين كيفما اتّفق، تقرأ الأم الاسم المكتوب على الورقة المُنتقاة، إنّه اسم ابنها المكتوب فيها، تطوي الورقة على عجل قبل أن تتسلّل إليها عينا ابنها، وتمزّقها، وتدسّها في جيبها، وتقول لأولادها بصرامة: "لا داعي لخروج أحدنا، ما يزال عندنا بعض العدس المطحون، ما رأيكم أن نصنع حساء عدس لذيذ؟".

قصّة حبّ

يحبّها وتحبّه، وكلاهما يحبّان فلسطين، من صغرهما علقا الحبّ المشتعل، فتعاهدا على أن يلازم أحدهما الآخر طوال الحياة، وأن يرحلا عنها سويّاً، حفرا عهدهما على جذع شجرة زيتون في حقل الزّيتون الذي تملكه عائلته منذ قرون كثيرة ما عاد يحصيها عددا.

كان من المخطّط أن يتزوجا في الخريف المقبل، لكن العدوّ صادر أرضهما قبل أن يأتي الخريف المنتظر، وجرّفها بعد أن اقتلع زيتونها، ثم ألقمها أطناناً كثيرة من الإسمنت لتكون أساسات لمستدمرات صهيونيّة تأوي الغرباء الغاصبيّن.

قرّرا في لحظة عشق كاملة أن يمضيا في درب عشقهما الأكبر، بحزامين ناسفين فجّرا البيوت المستدمرة الوليدة فوق أرضهما بمن فيها من الغرباء، وتناثرا هباء مقدّساً فوق أرضهما التّي ماتا عشقاً لها.

قدمان

خسر قدميه برصاص العدوّ الصّهيونيّ في اعتصام طلّابيّ ضدّ تدنيس المسجد الأقصى والحفر تحته تمهيداً لهدمه، وخسر مع خسارة قدميه دراسته في جامعة النّجاح لعجزه عن الذّهاب إليها، كما خسر حريّته وقدرته على الحركة وحلمه بالزّواج من ابنة خالته بهيّة التّي أحبّها منذ طفولته، وتأبى عليه نفسه أن تتزوّج به عطفاً عليه، لكنّه لم يبالِ بأيّ من خسائره.

أمضى أشهراً يصنع له قدمين من خشب الزّيتون، وعندما انتهى من صناعتهما امتطاهما بفرح، وقصد المسجد الأقصى ليشارك –من جديد– باعتصام خارجه احتجاجاً ضدّ تدنيسه من العدوّ الصّهيونيّ.

فيلم خياليّ

جلس خمستهم متسمّرين مشدوهين أمام شاشة التّلفاز يحضرون فيلماً لا يمكن أن يعدّوه بعرف طفولتهم ولغة حرمانهم إلاّ فيلماً خياليّاً، رأوا الأطفال في الفيلم يلبسون الملابس الزّاهية في العيد، ويذهبون إلى المدارس بأمان، ويربّون العصافير الجميلة المغرّدة في أقفاص خشبيّة دقيقة الصّنع منصوبة على شرفات منازلهم.

رأوا الآباء يذهبون إلى العمل فرحين نشيطين، ويعودون في المساء إلى بيوتهم محمّلين بالحلوى والأمل والأوراق النقديّة وحكايات السّمر، رأوا الأمّهات يصنعن الطّعام بترنيمات الفرح، ولا يتّشحن بالسّواد على أبٍ شهيد أو أخ معتقل أو أب مطارد. كانت حياة رغيدة لا يعرفونها في وطنهم فلسطين.

تجرّأ الطّفل الصّغير على أن ينزع نفسه من لذّة متابعة الفيلم الخياليّ، وسأل أمّه بعتاب ممطوط: "لماذا يا أمّي لا نعيش حياة جميلة مثل هؤلاء الأطفال؟"

كدّرتْ الأم قسمات وجهها كي تتقّنع خلف خشونة صلبة مصنوعة بدل أن تغرب في نواح محرور، وقالت له: "لأنّنا نعيش في فلسطين، والعدوّ الصّهيونيّ يكره الأطفال الفلسطينيين".

سأل الطّفل من جديد أمّه بدهشة: "لماذا يكره العدوّ الصّهيونيّ الأطفال الفلسطينيين يا أمّي؟!"

تنهّدت الأم الفلسطينيّة، وعقدت حزناً فوق حزن، وقرّبت ركبتيها من بعضهما، وأهبطت طفلها عليهما، وطبعتْ قبلة على جبينه، وقالت له: "لأنّكم أملنا وأمل تحرير فلسطين، أنتم من سوف تطردوهم من وطننا عندما تكبرون".

عيد أمّ

اليوم هو عيد الأمّ، وأمّها قد رحلت إلى العالم الآخر بقصف صهيونيّ اغتالها وسريرها وبيتها الذي بنته بسنين من التّعب والكدّ والحرمان.

اعتادتْ أن تهدي أمّها زهرة في كلّ عيد أمّ، وأن تلقي بنفسها في حضنها الكبيرالدّافئ المليء بالشّحم والحبّ ورائحة البرتقال الفلسطينيّ الذي تعمل في بياراته ليل نهار.

قرّرت أن تهدي أمّها زهرة عيدها، وأن ترتمي في حضنها رغم أنف الموت، رسمتْ بقطعة جير أبيض دائرة كبيرة على أمّها الأرض، هي دائرة بحجم حضن أمّها الآدميّة، واستلقتْ في حضنها، وتكوّرتْ أرضاً كما الجنين، وطفقت تشمّ رائحة أمّها المضمّخة برائحة البرتقال.

لُهاث

الحالمون بالزّواج في غزّة جميعهم أكانوا نساء أم رجالاً يلهثون قسراً في مساحة صغيرة وأحلام كبيرة غدت ضيّقة إلى حدّ اعتصارهم.

هو مثلهم يعيش عذاباً قاهراً موصولاً اسمه تـوفير طلبـات الـزّواج، مـا عاد يحلم ببيت جميل وأثاث فارهٍ وعرس بهيج وحفلة حاشدة، كلّ ما يبغيه الآن أرض غرفة تجمعه بـسمر حبيبته وابنة خاله، يريـد سـقفاً يظلّهـم، ويسـير فـرح وملابس ساترة وحضور مشاركين وفق ما تيسّر من فتـات الأحـزان والانتظـار المتسرّب من خنق العدوّ الصّهيونيّ.

اللّهاث يسكن روحه، ويبتلعه، ويجعل منه لعبته في عالم الوهم، لا غرفـة موجودة للاستئجار، لا سلع موجودة للشّراء في الأسواق المحاصرة منذ سنوات، ولا نقود لتيسير الأمور، ولا عمل متـوفّر، ولا مـدعوّين إلى عـرس يسـتطيعون حضور زفافه بسبب حلقات الحصار والحظر والاغتيـال والاعتقـال والـدّروب المغلقة المميّتة.

الدّروب جميعها مغلقة في وجهه وفي وجه زواجه من حبيبته سمـر التّـي بدأت العنوسة تأكل أملـها كمـا تأكـل آمـال معظـم أصـدقائه وأقاربـه وأترابـه ومعارفه الذين يحلمون بـالزّواج المسـتحيل في هـذه المدينـة التّـي يطبـق العـدوّ الصّهيونيّ على تلابيب روحها منذ سنوات، وتناضل باستبسـال لتظـلّ تتـنفّس الهواء على ذمّة الحياة.

يفاجئ سمراً، وهي تجلس أمـام بيتهـا المتهـاوي، وتطـلّ علـى بحـر غـزّة تطعمه حزنها، يقترب منهـا، ويهمـس في أذنهـا التّـي تتـوارى خلـف جـديلتها الكثّاء: "هل تقبلين بالزّواج منّي؟"

تبتسم له، وتهتف بسرور دون تردّد: "نعم، أقبل بالزّواج بك".

- "لكن لا غرفة أستطيع أن أؤمّنها لزواجنا هذا".

- "نتزوج هنا على ساحل البحر، ونعيش بين صخوره".

مدرسة

المدرسة هي المكان الأقدس في عوالمه جميعها، لا يحبّ أن يغادرها على الرّغم من بنائها القديم وافتقارها لجلّ الخدمات الأساسيّة والازدحام الطلّابي الخانق فيها، لكنّه يعشقها، هي دربه إلى أن يصبح طبيباً كما يحلم دائماً، وكما تريده أمّه أن يكون عندما يكبر.

صفّه الصّغير أصبح أكثر اكتظاظاً بعد أن أصبح مكان إقامة له ولأسرته ولبضع عائلات من أقاربه وجيرانه بعد أن قصف العدوّ الصّهيونيّ حيّهم، وألجأهم جميعاً إلى العراء.

منظّمة الإغاثة الدّوليّة التّي تمتلك مدرستهم سمحت للمنكوبين الذين فقدوا بيوتهم بأن يقيموا في المدرسة إلى حين ميسرة.

الآن صفّه أصبح بيتاً لهم أجمعين، لم يظلّ من ملامحه الصّفيّة سوى سبورة خضراء باهتة عليها بضعة أسئلة رياضيّة تركها معلّمهم مصلوبة على اللّوح كي ينقشها الجميع في كراريسهم واجباً بيتيّاً لعلّهم يجدون حلولاً لها.

لم تتح الفرصة له لحلّها بسبب القصف الإبليسيّ الذي أمطرهم الصّهاينة به، وقد فقد دفاتره وكتبه وحقيبة مدرسته في هذا الاعتداء الإباديّ.

منذ أيّام وهو يحدّق طويلاً في الأسئلة المطرّزة بعناية على السبّورة، الآن استنار عقله بنور يقوده إلى الإجابات الصّحيحة، ينقضّ على الأسئلة المعلّقة على السّبورة يحلّها بتركيز واهتمام يليق بفتى فلسطينيّ يريد أن يدرس، وأن يجتهد ليصبح طبيباً مميّزاً عندما يكبر.

وجه

اعتاد على أن يرى وجهه البريء الأسمر الهادئ المغرق في صمت عميق وهو يراقب عن بعد أطفال المستعمرين الصّهاينة عبر الأسلاك الشّائكة التّي تُحيط ببيوتهم، وتفصلهم عن بستان الزّيتون الباقي الوحيد لهم بعد مصادرة أرضهم وأراضي أقاربهم وأراضي الكثير من أهل قريتهم لبناء هذه المستدمرة.

يراقب الأطفال طويلاً دون ملل، يتابع حركاتهم وسكناتهم جميعها، ويتفحص ألعابهم الجميلة الملوّنة، ويحرّك لسانه بتمتمات خفيضة غير مفهومة، يقترب منه، ويربتْ على كتفه، يحدّق في وجهه، هو لا يعرف ابن من يكون هو، لكنّه متأكّد من أنّه قد رأى وجهه كثيراً في دروب القرية، يسأله بعطف ينزلق إليه من جسده المديد الطّول لينصبّ على شعر رأسه ربتاً: "هل تتمنّى أن تكون عندكَ ألعاب جميلة مثلهم؟ هل تريد أن تذهب للّعب معهم؟"

يحرّك الطّفل رأسه يمنة ويسرة مومئاً بالرّفض، ويقول: "أنا لا أريد أن أذهب للعب معهم، أنا أقف هنا لأحصي الأرض التّي سرقوها منّا ليلعبوا عليها، هناك شجرة زيتون صغيرة من زيتونات حقلنا لا تزال على قيد الحياة، أنا من زرعها هناك قبل أن يسرقوا الأرض منّا، أريد أن أسترجعها في يوم ما".

نفق

النّفق هو من سرق أمّه، لقد عبرتْ وأخوها خلاله إلى الأراضي المصريّة بشكل سريّ وغير قانونيّ كي تعالج أخاه من المرض العضال الذي

يفترسه، كان يجب أن تعود عبره بعد أسبوعين من ذهابها، لكن القصف الصّهيونيّ على غزّة قد دمّر هذا النّفق، وقطع الدّرب دون رجعتها.

كلّ يوم يقف على عين النّفق التّي غمرها التّراب، وأخمد أنفاسها، ودفنها في داخل التّراب، ينتظر عودة أمّه بأعجوبة ما تجعلها تخترق هذا الرّدم المتداعي من الإسمنت والطّوب والتّراب.

بعد سبعة أشهر من الانتظار يخبره أخوته بأنّ أمّهم ستعود إليهم برفقة أخيهم من معبررفح الذي سيفتح لمدّة يوم واحد فقط، لا يصدّق كلامهم، ولا يذهب معهم إلى المعبر لاستقبال أمّه، ويظلّ ينتظرها أن تخرج من النّفق الذي ابتلعها، وغيّبها في المجهول.

نوم

الأحداث السّيئة جميعها التّي حدثت في حياته وقعتْ له لأنّه قد نام؛ كلّما غلبه النّوم داهم الجنود الصّهاينة بيته، وعاثوا فساداً فيه، وقتلوا أحداً من أسرته، أو ضربوه أو أهانوه أو اعتقلوه أو مضوا به إلى درب مجهول دون رجعة.

لا طاقة له بردّ العدوّ الصّهيونيّ بجسده الصّغير وسنين عمره القليلة العاجزة، كذلك لا يستطيع أن يهرب بأهله ومنزله وأرضه بعيداً عن الجنود الصّهاينة؛ لذلك قرّر أن لا ينام أبداً.

هديّة

القليل الأقلّ من المال في جيبه هو لا يكفـي لأن يشـتري بـه أيّ هديّـة ليقدّمها لابنته الصّغيرة في عيد ميلادهـا، يخمّـن أنّ الفتيـات الصّـغيرات يحـببن الهدايا الأنثويّة في أعياد مـيلادهن، يسـتعرض الهـدايا المحتملـة، ويعـرض عنهـا باستخفاف؛ فهذه هدايا تليق بأيّ فتاة في العالم إلا بابنته نجوى التّي عليها في يوم ما أن تكون أمّاً فلسطينيّة تربّى جيل الثّورة والنّصر.

نقوده القليلة مضافاً إليها ما حصّله من مال في يوم عمل شاقّ تكفي لأن يشتري لها كتاباً يغذّيها بالعلم.

يشتري الكتاب بفخر واعتزاز لأميرته الفلسطينيّة الصّغيرة التّـي يعـدّها لمهمّة كبيرة في المستقبل.

هروب

وافقت على هذا الزّواج المرتّب بشكل أسريّ كـي تهـرب مـن العـذاب الموصول الذي تعيشه كما يعيشه شعبها في فلسطين، تحزم أمتعتها القليلـة بفـرح صغير، وهي من كانت تظنّ أنّها ستملك أكبر فرح في الدّنيا بعدما مدّت السّماء لها حبال العون والإنقاذ قُبيل الغرق بقليل، أخيراً ستهرب دون رجعة من عـدوّ لا يرحم، ومن عذاب موصول لا يتوقّف، ومن معاناة تحاصرهم جميعـاً في كـلّ جزئيّة في حياتها، ستتزوّج مـن مبعـد فلسـطينيّ يعـيش في إحـدى دول أمريكـا اللاتينيّة، وتذهب إلى البعيـد، سـتهرب دون رجعـة مـن التّفتـيش والمـداهمات والاعتقالات والاغتيـالات ومصـادرة الأراضـي وحـواجز التّفتـيش والحصـار

والتّجويع والمعاناة المبتكرة شكلاً بعد شكل لتعذيبهم، أخيراً لن ترى صهيونيّاً في الدّروب.

عانت كثيراً كي تصل بحقّيبتها الوحيدة للوصول إلى هذا المعبر الأخير كي تغادر آخر محّطة في فلسطين لتودّعها دون عودة، أخوها الأكبر هو من يرافقها في المحّطة الأخيرة للوداع بعد أن نالت بصحبته جرعات العذاب الإجباريّة كاملة عبر المعابر وحواجز التّفتيش حتى وصلت إلى هذه المعبر الحدوديّ.

خطوات قليلة تخطوها بعد ختم جواز سفرها، وتصبح إلى الأبد خارج فلسطين، أخيراً سوف تنجو وحدها من ملحمة النّضال التّاريخيّة، وستدخل تاريخ الرّفاهيّة والرّاحة والعبث، تريد الفرح والأمن والسّعادة والبهجة والدّلال، لكنّها في هذه اللّحظة تشعر أنّها لا تريد أن تخرج من التّاريخ المشرّف لأجل صفقة زواج مريحة سهلة الشّرّوط.

تتراجع بضع خطوات إلى الخلف بدل أن تتقدّم لختم جوازها بختم الخروج، تدسّ هويّتها الفلسطينيّة في جيبها باعتزاز، كأنّها تخشى أن تُسلب منها، وهي أثمن ما تملك في حياتها، وتنثني عائدة إلى بيت أسرتها برفقة أخيها، وهي تجرّ حقيبتها اليتيمة لتعيش قدرها الجميل في أن تكون فلسطينيّة صامدّة في بيتها إلى أن يرحل عدوها في يوم قريب غير عابئة بزواج يهرب بها إلى البعيد.

مقبرة

هي أكبر مقبرة تاريخيّة في فلسطين، عمرها أكثر من ألف عام، الوجوه الفلسطينيّة جميعها تنتهي في هذه المقبرة في آخر المطاف لتهجع في أرض الوطن الهجعة الأبديّة.

قرّر العدوّ الصّهيونيّ أن يجرّف المقبرة بعد تمشيطها لأجل أن يبني فيها أكبر مستوطنة في فلسطين المحتلّة.

الإضرابات والمظاهرات والاعتصامات الفلسطينيّة لم تمنع آليّات العدوّ الصّهيونيّ من تمشيط المقبرة ومن ثمّ تجريفها، لقد قلعوا شواهد القبور وأشجار المقبرة بعد تدمير سورها العتيق، ثم هتكوا حرمة القبور بتجريفها، لقد انتزعوا الهياكل من مراقدها، وكوّموها في خرق أكفانها.

في اللّيل ومع هدأة الرّقاد استيقظت الهياكل المطرودة من قبورها، ولبستْ أكفانها، وهاجمتْ أعداءها.

معطف

شهر كامل والفدائيون الفلسطينيون يرجمون العدوّ الصّهيونيّ بنيرانهم، ويرفضون أن يستسلموا لهم، القذائف تنهال عليهم من السّماء من الطّائرات الصّهيونيّة، والقنابل تُلقى عليهم من كلّ حدب وصوب، وهم صامدون دون وجل، يعضّون الجوع، ويهزأون من العطش، لكن البرد هو ما يقضم عظامهم دون رحمة.

الصّدفة جعلته يحتفظ بمعطفه الرّوسيّ الثّخين في لحظة وقوعه في هذا الحصار، لكن شريكه في حراسه هذه الجهة من القلعة لا يملك أيّ معطف، وينكمش على نفسه برداً، حاول مراراً أن يخلع معطفه عليه -ولو لبعض الوقت- ليحظى ببعض الدّفء، لكنّه كان يرفض ذلك بإصرار، ويقسم عليه أن لا يخلع معطفه لأجله أبداً.

الدّنيا بدتْ فارغة في عينيه إلاّ منهم ومن القلعة ومن ذلك الحصار الصّهيونيّ الذي يحاول مرّة تلو الأخرى أن يخنقهم ليمسحهم عن وجه الأرض

كما وعد شعبه الملعون الذي يشتهي أن يفني البشر كلّهم كي يتمتّعوا بالدّنيا وحدهم.

الآن يرى تسلّلاً من جنود صهاينة، إن استطاعوا أن يخترقوا هذه الجهة من القلعة، فهذا يعني أنّهم قد حطّموا صمودها، لا وقت عنده لأن يستغيث بأصدقائه، يقرّر أن يأخذ زمام المبادرة بنفسه، يخلع معطفه على صديقه، ويقول له: "ستحتاج هذا المعطف في هذا المكان الشّتويّ البارد، أنا لن أحتاجه بعد الآن"، وينطلق ببندقيته وآخر الرّصاصات التّي يملكها نحو الجنود المتسلّلين في مواجهة دامية كي يردّهم عن القلعة، يظلّ ينافح دون القلعة حتى آخر طلقة يملكها وآخر نفس في حياته.

صحفيّ

جاء إلى هنا كي يكتب تقريراً جدليّاً يضجّ بصور القتلى والموتى والثّوّار والأحداث الدّامية ذات التّفاصيل المثيرة التّي تجذب القرّاء، أمله أن يحقّق هذا التّقرير اهتماماً يدرّ أرباحاً إضافيّة على المؤسّسة الإعلاميّة العالميّة التّي يعمل فيها كي يحظى بعروض أفضل في مؤسّسته أو في مؤسّسات أخرى أكبر وأكثر شهرة منها، وتدفع له الأجور بسخاء يرضي غروره ومتطلّباته.

إنجاز هذا التّقرير المصوّر هو كلّ ما يعنيه من الظّالم أو المظلوم في هذه المحرقة التّي تستعر في فلسطين، وإن كان قد حضّر نفسه مسبقاً ليكون إلى صفّ الصّهيونيّ الذي يدفع لأنصاره بسخاء، ويقدّم له استضافة ذات قائمة تزدحم بالمتعة واللّهو والنّساء الجميلات.

لم يتوقّع أنّ أولئك الفلسطينيين سوف يسرقونه إلى عوالمهمّ، ويخطفونه لمدّة أسبوعين ليعيش معهم تفاصيل نضالهم وقهرهم، لقد صوّر الآلاف الصّور من معاناتهم، وسجّل أفلاماً كثيرة لجرائم الصّهاينة.

أرسل التّقرير الذي أعدّه إلى المؤسّسة الصّحفيّة التّي يعمل فيها، ما عنّى نفسه بأن يعرف إن نُشر التّقرير أم لا؛ وهو من يخمّن أنّ مديره اليهوديّ سوف يعدم هذا التّقرير الذي جاء بغير ما اشتهى.

لقد أطلق المختطفون الثّوار الفلسطينيّون سراحه، وسمحوا له بأن يذهب وشأنه، لكنّه صمّم على أن يظلّ معهم؛ فهم قد خطفوه من نفسه للأبد، تلثّم بالكُوفيّة الفلسطينيّة، وتبعهم في الدّرب الذي سلكوه.

صديق

ثلاثة من أصدقائه سار في جنازتهم يطالع المحفّة التّي تحملهم بملابسهم ليدفنوا بها كما يُدفن الشّهداء؛ قامته القصيرة لصغر سنّه منعته من أن يشارك في حمل المحفّة التّي تحمل صديقه الرّابع الذي أرداه قنّاص صهيونيّ وهو في طريقه إلى المدرسة هذا الصّباح المنصرم، كان كلاهما يسيران معاً عندما اختاره قنّاص يلهو لينزع روحه، لقد لفظ صديقه آخر أنفاسه بين يديه، ما نطق بكلمة وداع لصديقه وهو يضمّه إلى صدره، لكنّه بكاه بحرقة.

كلّما أقام صداقة مع فتى ما من أترابه سرقه الصّهاينة منه، وألقوا به في حضن الموت، معلّمه قال له إنّ أصدقاءه جميعاً في الفردوس الأعلى في حبور وأمن، يحبّهم ويحبّ الصّداقة، لكنّه يخشى أن يختار صديقاً خامساً فيسارع الصّهاينة إليه ليخطفوه منه.

الكُوفيّة (1)

عندما طُردوا بقوّة السّلاح والبطش من بيوتهم قيل لهم إنّهم سيعودون إليها بعد أيّام قصيرة، لّما طال بهم الانتظار في أوّل محطّات الرّحيل قرّر أن يعود إلى بيته ليحضر بعض الطّعام والملابس والماء لأمّه وأبيه وإخوته، كانوا مكسورين تحت دوالي العنب ينتظرون العودة إلى بيوتهم حيث تركوا القمح في خوابيه والزّيتون في جراره والرّضف في طابون الخبيز.

رافقه في طريق العودة ثلاثة من أبناء القرية، كان الدّخول إلى القرية سهلاً في وسط الظّلام والهدوء، لكن ما كادوا يدخلون حيّهم حتى حاصرتهم العصابات الصّهيونيّة، فقتلت اثنين ممّن معه، واستبقته وآخر على قيد الحياة ليخدمهم، أجبروهما على امتداد شهر كامل على أن ينقلا مؤنة بيوت القرّية إلى حيث تجمّعاتهم المستحدثة بعد أن أوسعوهم ضرباً وتعذيباً وإهانة وتحسيراً.

استطاع أن يهرب منهم، وأن يعود إلى أهله ليخبرهم بأنّ العودة إلى بيوتهم لن تكون أبداً في القريب، أمّا ابن قريته فقد هلك من عذاب الحمل والنّقل والقهر.

عاد إلى أهله باكياً قد براه الجهد والجوع، وكوته الشّمس بسياط من لظاها، لم يبكِ عذابه أو ظلمه، لكنّه بكى بشدّة خجلاً من شعره المكشوف بعد أن سرق مجرمو العصابات الصّهيونيّة كُوفيّته، وأجبروه على أن يعمل حاسراً من كرامته

1- الكوفيّة: هي غطاء الرّأس الذي يضعه الرّجل الفلسطينيّ، يُصنع من الكتّان أو من القطن، ويتكوّن من اللّونين الأبيض والأسود، وهو رمز للنّضال الفلسطينيّ، وتسمّى أيضاً الحطّة والسّلك والقضاضة والشّماع والغترة والمشدّة.

واعتزازه وتراثه، بكى دون توقّف حتى شقّ والده الكوفيّة الوحيدة التّي يملكها، وستر رأسه بنصفها، وستر رأسه ابنه بنصفها الآخر.

معبر

هذا المعبر هو الشّاهد الإجباريّ على دموع الفلسطينيين وأحزانهم وآلامهم وحصارهم وجوعهم وتعذيبهم، وحده من يتقطّع خزياً وألماً وعاراً وهو يردّ الملهوفين، وحده من يحرم أماً من ابنها، وأخاً من أخيه، وامرأة من زوجها.

كلّ يوم يحلم بأن يفتح أبوابه في وجوه المنكودين، لكن حلمه يظلّ سجين ذاته؛ فهؤلاء الجنود الظّلمة يخنقون الفلسطينيين به من ظاهره ومن باطنه، كلّهم صهاينة، ولو اختلفت الوجوه والسّحن واللّغات.

اليوم قرّر المعبر أن يحقّق حلمه، على حين غرّة وغفلة من الجميع خلع جسده المقيت من أسره المتعفّن، وهرب نحو البعيد، وترك مكانه لمن لا يخجلون من أنفسهم.

عِرْض

لا يخشى الموت أو الجوع، ويحبّ أرضه أكثر من محبّته لنفسه، لكنّه يخشى أن يهدر رجال العصابات الصّهيونيّة عِرْض زوجته وبناته الثّلاث وحفيداته، لقد سمع قصصاً تشيّب القلب قبل إشابة شعر الرّأس عن هتك أعراض الفلسطينيين في القرى المجاورة التّي داهمتها العصابات الصّهيونيّة.

قرّر أن ينجو بعرض زوجته وبناته وحفيداته وزوجات أبنائه، حملهنّ جميعاً على عجل، وقرّر أن يطير بهنّ بعيداً عن أيدي الغاصبيّن، أمّا أولاده الذّكور الخمسة وبنيهم فقد تركهم يدافعون عن أرضهم في وجه من يريد أن يهتك عرضها.

سار يغذّ الخطى مع الهاربين خوفاً على أعراضهم، كانت النّساء تسير في المقدّمة والرّجال في المؤخّرة لحمايتهنّ، عندما وصلوا جميعاً إلى النّهر شرقيّ وطنهم، ترك زوجته وبناته أمانة في حضن المتأهبين لعبور النّهر، وقرّر أن يعود ليحمي عرضه الأرض.

صحراء

الجيش الصّهيونيّ سرق أربعة من إخوتها؛ ثلاثة منهم قتلهم وهم يدافعون عن الصّحراء الفلسطينيّة، ورابعهم جنّدوه في صفوفهم حتى نسي أهله، وقلع ذاكرة قلبه وأصله، وغدا أسوأهم فتكاً بالفلسطينيين.

هي قرّرت أن تنتقم ممّن سرقوا إخوتها الأربعة، وتركوها وحيدة في الصّحراء معلّقة بين الفقد والعار، استغلّت جمالها البدويّ الفاتن كي تنصب الكمائن للصّهاينة، تتبدّى لهم في الوقت المناسب، تُسيل لعاب شبقهم، تستدرجهم فُرادى إلى قلب الصّحراء المشحون ببغضهم، بالحيلة تجرّدهم من سلاحهم وعتادهم وأجهزة اتّصالهم، وتتركهم عراة تائهون في الصّحراء حتى تدفنهم فيها بعد أن تمتصّ أرواحهم الخبيثة، وتبصقها في الشّمس كي تتطهّر من رجسهم.

معرض لوحات

يحمل الجنسيّة الصّهيونيّة رغم أنفه بحكم أنّه يعيش في إحدى المدن الفلسطينيّة التّي يحتلّها الكيان الصّهيونيّ، ويعدّها من جسم كيانه الاستدماريّ، لكنّ قلبه فلسطينيّ مهما حمل من جنسيّات نجسة مفروضة عليه.

أقام معرضاً للدمار الذي الحقّه الكيان الصّهيونيّ بقرى فلسطين ومدنها وحواضرها وطبيعتها عبر لوحات رسمها بنفسه، بعد أن ساندته بعض المنظّمات الإنسانيّة الدّوليّة والمحليّة في مسعاه، واستصدرت له إذناً عسكريّاً يسمح له بإقامة المعرض.

جاء الكثير من الفضوليين الصّهاينة إلى المعرض، أثارت اللّوحات المتقنة فضولهم، أحدهم مال عليه برأسه الخنزيريّ الكبيرالأحمر، وسأله بفضول: "هل أنت من رسمتَ هذه اللّوحات؟"

أجابه الرّسام الفلسطينيّ: "بل أنتم من رسمتموه".

بيت

كان بيته صغيراً يضيق بأسرته الكبيرة وضيوفهم الذين لا ينقطعون، لطالما تمنّى أن تحصل عائلته على بيت أكبر في وطنهم ليظفر ببعض الرّاحة والخصوصيّة في غرفة خاصّة له بدل أن ينام كسمكة مخلّلة بين أخوته الكُثر.

الاحتلال قصف بيتهم الصّغير، فتطاير نتفاً يمنة ويسرة، جميعهم وجدوا أنفسهم في العراء دون مأوى، أمّه استسلمت لعويل مجلجل، وإخوانه تنافسوا لأن يجدوا مكاناً ينزون فيه حتى يجدوا مأوىً لهم بعد أن دفعهم الجنود الصّهاينة

بعيداً عن الأرض التّي هي ذكرى دارسة لبيتهم، أمّا هو فابتسم بشماتة في وجوه الجنود الصّهاينة؛ لأنّه يستطيع الآن أن يتّخذ من فلسطينه بيتاً كبيراً له يسرح ويمرح فيه كيفما شاء دون ضيق.

جملة واحدة

لم يبقَ له من بيته وأسرته سوى جملة واحدة على بقايا جدار، لقد كتبها قبل أيّام عندما كان يملك أسرة، وكان عنده بيت، كتبها وأمّه تلومه لأنّه أفسد طلاء الحائط بالكتابة عليه، لكنّها خجلتْ وصمتتْ عندما قرأتْ الجملة التّي كتبها عليه.

قرأ جملته النّاجية من الموت "فلسطين داري، ونحن باقون فيها"، بعض حروفها تكاد تختفي بسبب تقشّر طلاء الحائط جرّاء القصف، يعتلي حجراً من أحجار بيته الشّهيد، ويأخذ بعضاً من دمه ليلوّن حروف جملة " فلسطين داري، ونحن باقون فيها" كي لا تندثر أبداً.

مسجد

لم يعتقد يوماً أنّ شيخهم في المسجد الذي يعلّمهم تلاوة القرآن وتفسيره هو أوّل من سوف يذبحه الجنود الصّهاينة، كان يراه أطيب من برأ الله؛ فهو لم يؤذِ بشراً في حياته، وقضى عمره متبرّعاً بتعليم تلاوة القرآن لأهالي مدينة نابلس، يعرف تلاميذه كلّهم من أصواتهم تلاوتهم على الرّغم من أنّه كفيف البصر مذ وُلد.

اغتالته رصاصة الغدر الصّهيونيّة وهو على سجادة الصّلاة في المسجد الكبير، لا تزال آثار دمه واضحة على سجادته، يداعب قطنها بيتم وبفقد، يفتح مصحف شيخه الشّهيد، يقرأ آيات كريمات منه، ثم يقبّل المصحف، ويضعه في جيبه تبرّكاً به، وينطلق يحمل حزنه وكومة حجارة بيده علّه يظفر برأس من قتل معلّمه الشّيخ.

تضامن

أبوه وأعمامه الثّلاثة في إضراب مفتوح عن الطّعام في معتقل المحتلّ احتجاجاً على اعتقالهم دون جريمة، جدّته لأبيه في إضراب مفتوح عن الطّعام إلى حين الإفراج عن أولادها الثّلاثة، وهو في إضراب عن أيّ إضراب حتى ينمو ويكبر سريعاً كي يُخرج أعمامه الثّلاثة من المعتقل؛ هو متأكّد أنّهم يستطيعون تحمّل الجوع حتى يكبر، وينقذهم ممّا هم فيه، فهم -في عينيه- أقوى الرّجال في الدّنيا، أمّا جدّته لأبيه فعليه أن يقنعها بأن تستبدل الدّعاء المخلص على العدوّ بالإضراب؛ فجسدها الضّعيف المريض لا يحتمل الجوع.

لثام

الجنود الإنجليز حاصروا الثّوار الفلسطينيين في الجّبال، فاضطروهم إلى أن يلجأوا إلى المدن المجاورة لهم، ظنّوا أنّهم سوف يلتقطونهم الواحد تلو الآخر بكلّ سهولة؛ فهم جميعاً يلبسون كُوفيّات فلسطينيّة، ويتلثّمون بها ليخفوا شخصياتهم الحقيقيّة، ويعيونهم فتكاً وانتقاماً منهم، أمّا أهل المدن الفلسطينيّة

فلا يلبسون هذه الكُوفيّات، وإنّما يتيهون بـ"الطّربوش" الأحمر ذي "الشّرّشوبة" السّوداء.

الخطّة سهلة ومضمونة النّتائج، تتلخّص في حملة عملاقة لمداهمة المدن الفلسطينيّة بالآلاف الجنود الإنجليز، فيقبضون على الثّوار كلّهم في يوم واحد، ثم تموت الثّورة ضدّهم بعد أن يعلّقوا الثّوار على أعواد المشانق على امتداد الطّرق المدن الفلسطينيّة حتى الجبال مقرّ الثّورة.

جاء الصّباح، وداهم الجنود الإنجليز المدن الفلسطينيّة في لحظة واحدة ليجدوا أنّ رجال المدن وصبيّانها جميعاً قد لبسوا الكوفيّات، وتلثّموا بها، فاختفى الفدائيّون بينهم، ارتبك الجنرال الإنجليزيّ ممّا رأى من مفاجأة صادمة، وأسقط في يديه، وابتسم الثّوار.

انتظار

يؤرّخ الأزمان جميعها بالانتظار؛ سوف يهجرون هذا المخيّم، ويعودون إلى بيتهم في القرية عندما يرحل الصّهاينة، وهم لا يرحلون، سوف يتزوّج عندما يخرج أخوه مصعب من المعتقل الصّهيونيّ، وهو لن يخرج أبداً ما دام محكوماً بأربعة مؤبّدات؛ لأنّه حمل حجراً في وجه أعدائه، سوف تذهب أمّه إلى الحجّ عندما تقطف أشجار الزّيتون لهذا العام، لكنّها لن تقطف ثمار الزّيتون في أيّ وقت؛ فقد اقتلعت آليّات الدّمار الصّهيونيّة أشجار الزّيتون جميعها.

يقرّر أن يرحّل العدوّ الصّهيونيّ، وأن يخرج أخوه من المعتقل، وأن تذهب أمّه إلى الحجّ هذا العام مهما كلّفه هذا الأمر، يعرف طريقة واحدة لتحقيق ذلك كلّه دون انتظار، يركب آلة التّجريف العملاقة التّي يعمل سائقاً

أجيراً عليها في مشروع إسكّانيّ، ينطلق بها مسرعاً، ويجرف بها قطيعاً من الجنود الصّهاينة، ويظلّ يطارد الجنود الهاربين من أمامه والمستدمرين الموجودين في المكان كي يسحقهم جميعاً، ليتحقّق المنتظر.

بحر أسود

مرّات قليلة هي المرّات التّي سُمح لعائلتها فيها بأن تصل إلى شاطئ غزّة، وأن تقضي وقتاً سعيداً في مداعبة مياهه الزّرقاء الصّافية، أمّها أخبرتها إنّه صافٍ مثل قلوب الشّهداء.

عندما استيقظت هذا الصّباح وجدتْ بيتها يكاد يغرق في مياه قذرة منتنة الرّائحة قد اجتاحت شوارع حيّها وزقاقه، إنّها مياه الصّرف الصّحيّ قد أطلقها الصّهاينة عليهم من جديد كي يعذّبوهم أكثر فأكثر؛ ابنتها الصّغيرة تسألها بفضول وقد أدهشها اللّون الأسود القاتم الذي ابتلع الشّوارع ثم ابتلع أرضيّة بيتها: "بحرنا لونه أزرق، فهل هذا البحر الأسود للصّهاينة؟"

أجابتها الأمّ بقرف من الرّائحة الكريهة التّي تزكم أنفها: "نعم، إنّه بحرهم".

هواية فلسطينيّة

تعوّد على أن يطوّر هواياته بما يتناسب مع إمكاناته الجسديّة ومعطياته الماديّة وإصراره على الانتقام من مغتصب وطنه الجبان؛ في طفولته كان يجيد الجري؛ لذلك كان يتعمّد أن يترك حقيبة محشّوة بالحجارة على أيّ رصيف أمام دوريّة الجنود، ثم يركض بعيداً عنها حتى يتوارى عن الأنظار، ويقف يراقب

الجنود الصّهاينة يهربون مرتعدين من حقيبته الصّغيرة التّي يظنّون أنّ فيها قنبلة ما.

عندما كبر طوّر هوايته لتصبح فقئ عيون الجنود الصّهاينة عبر مقلاعة جلديّة صنعها بنفسه.

عندما حصل على سلاح بعد انضمامه إلى صفوف المقاومة الفلسطينيّة غدت هوايته أن يقطف رؤوس الجنود الصّهاينة، وينذر كلّ رأس منها لفلسطينيّ قتلوه ظلماً وعدواناً.

وليّ

أرادوا اللّهو بتخويف الفتى الفلسطينيّ الأغرّ الذي قبضوا عليه في أعلى الجبل يرعى عنزاته القليلة، استفردوا به، واستغلّوا أنّه وحده أعزل من رفيق مُعين أو سلاح حامٍ، فقيدوه، وجرجروه إلى مقبرة الوليّ الشّهيد الفدائيّ في أعلى الجبل، ثم انهالوا عليه صفعاً وهو مقيّد الذّارعين والعينين، وتناولوا من الأرض حجارة مدبّبة الرّؤوس كي يكسّروا بها عظامه على مهل.

الوليّ الشّهيد الفدائيّ لم يطق صبراً على ما يشهد من اعتداء خبيث على الفتى الأعزل الوحيد، خرج من قبره، أطلّ من ملابسه الدّامية، وجهه كان هلامي القسمات، حضر الشّهداء جميعاً في وجه، هيبتهم نامتْ في صمته، أشرق بهاؤه على الدّنيا، فعمّ الظّلام في عيونهم، طارتْ قلوبهم بعيدا عنهمً خوفاً من تجلّيه، وطاروا خلفها يتعثّرون بجبنهم وتدافعهم للنّجاة بأرواحهم من غضب الشّهيد الوليّ.

جمهورية فلسطينيّة لـمدّة ٩٥ كيلو

اسمها دلال المغربيّ، واسمها الحركيّ في الفداء هو جهاد، أحلامها كبيرة، لكنّها الأكبر منها على الرّغم من أنّ عمرها لا يتجاوز العشرين عاماً من سنين العذاب الفلسطينيّ التّي ذاقت فيها ويلات التّهجير والشّتات والمذابح وعذابات المخيمات وضنك الحياة والفقر والاضطهاد والظّلم.

الآن هي بإجلال وتقديس تقبّل العلم الفلسطينيّ الذي كانت تطويه في جيب ملابسها العسكريّة التّي تشفّ عن جسدها الهزيل الصّغير الذي قَدّ ثوب الطّفولة منذ زمن طويل، وهجر الأنوثة المتقاعسة المهزومة، وقرّر أن يكون حطباً مقدّساً في أتون الوطن، لقد تدرّبت طويلاً على أيدي أمهر الفدائيين الفلسطينيين في لبنان لتصل أخيراً إلى هنا، وتعلّق علم وطنها في مقدّمة الحافلة التّي تختطفها.

الآن هي تحّقق حلمها، وتحرّر تل الرّبّيع لا تل أبيب من قبضة العدوّ الصّهيونيّ لمدّة ست عشرة ساعة، وتعلن الجمهوريّة الفلسطينيّة الحرّة المنتصرة على امتداد ٩٥ كيلو في العمق المحتلّ من تل الرّبّيع من حافلة صهيونيّة اختطفتها هي ومجموعتها الفدائيّة، ليرفرف العلم الفلسطينيّ بكبرياء في مقدّمة الحافلة العسكريّة التّي تخطفها أمام دهشة العيون الصّهيونيّة التّي ترتعد بخوف وجبن.

تصرخ فيهم، وتقول بنبل وفروسيّة نادرة: "نحن لا نريد قتلكم، نحن نحتجزكم فقط رهائن لنخلص رفاقنا المعتقلين من براثن أسركم، نحن شعب يطالب بحقّه بوطنه الذي سرقتموه، ما الذي جاء بكم إلى أرضنا؟"

عندما تقرأ في عيونهم أنّهم لا يفهمون ما تقول توكل لمجندة صهيونيّة محتجزة – تزعم أنّها من أصول يمنيّة– مهمّة ترجمة ما تقول لهم، وهي تلفظ

كلماتها بصوت جهوريّ شجاع: "هل تفهمون لغتي أم أنكم غرباء عن اللّغة والوطن؟"

هي تترنّم، وتهتف مع زملائها الفدائيين: "لتعلموا جميعكم أن أرض فلسطين عربيّة، وستظل كذلك مهما علت أصواتكم وعلا بنيانكم على أرضنا.

"بلادي، بلادي، بلادي،   لك حبّي وفؤادي

فلسطين يا أرض الجدود   إليك لا بد أن نعود"

العيون الصّهيونيّة العالقة في الخوف تحاصرها بدهشة، وهي لا تصدّق أنّ هذه الفتاة الفلسطينيّة الصّغيرة قد بلغت الجرأة بها وبأحد عشر شاباً فلسطينيّاً، بينهم لبنانيّ ويمنيّ، أن يخترقوا شواطئ يافا المحتلّة، وأن ينزلوا عليها، وأن يصلوا إلى قلب مدينة تلّ الرّبّيع، فيخطفون حافلة فيها نحو ثلاثين مجنّداً صهيونيّاً، ويجبرونها على التّوجّه إلى حيث يريدون عبر طريق عسكريّ، ثم يخطفون حافلة أخرى، وينقلون الجنود الذين فيها إلى الحافلة الأولى، ليصبح عدد المختطفين ثمانيّة وستين جنديّاً، ويعلنون أنّهم عادوا إلى وطنهم لتحرير رفاقهم الفلسطينيين الأسرى.

هي قد حقّقت حلمها أخيراً بإعلان تحرير وطنها، فهي تعيش أجمل لحظات عمرها في عمق الأراضي المحتلّة من وطنها بعد أن حرّرتها ولو لزمن قصير، هو زمن عمليّة الاختطاف وعبور ٩٥ كيلو في داخل تل الرّبّيع.

لقد حاصرتها ومن معها من الأشبال الفلسطينيين جماعات سوداء آثمة من الجنود والمروحيّات والآلات العسكريّة الثّقيلة الصّهيونيّة بقيادة الإرهابيّ المحتلّ "إيهود باراك"، لكنّها لم تخف، ولم تتراجع، وظلّت تقاتل حتى آخر طلقة

معها إلى أن أُستشهد معظم من كان معها من رفقاء التّضحية، واخترقتْ رصاصة أعلى عينها اليسرى، وأسلمتها للنّوم الأبديّ العذب في وطنها.

تكره أن يلمس بشر شعرها، لكنّها لا تبالي بوحشيّة عدوّها "إيهود باراك" الذي يشدّها من شعرها، ويسحب جثمانها على الأرض، وينكّل به بغيظ دون أن يستطيع أن يمنع روحها من أن ترتقي إلى العُلا، وهي تمسك بأيدي رفاقها الشّهداء لتستقبلهم ملائكة السّماء مبتسمة مهلّلة.

تبتسم ساخرة من عليائها وهي ترمق عدوّها الأحمق يمثّل بجسدها الشّهيد، تهتف بأهل الأرض نكاية به: "فلسطين حرّة عربيّة"، فتردّد السّماوات والأرضون جملتها المقدّسة.

خيال الظّلّ

يحبّ دور بطل خيال الظّلّ؛ لذلك يعيش حياته عندما يرقّص دماه، إلاّ أنّه لم يكن يوماً فرداً حقيقيّاً في حياة المغامرة والفضيلة والنّضال والبطولة والشّهامة والكرم التّي تعيشها دماه القماشيّة التّي يصنعها ببراعة ودقّة قياساً بعشوائيّة هندامة وشعثاء خصال شعره، بل كان دائماً مجرّد مرقّص لدمى خيال الظّلّ، لا يعرف الكثيرون اسمه أو أصله على وجه الدّقّة، لكنّهم يتفاءلون به عندما يرونه يحطّ عزاله في مقهى من مقاهي مدينة القدس، ويعلن لهم عن موعد مسائيّ لعرض من عروضه التّي تستحضر أبطالهم المحبوبين أمثال عنترة وسيف بن ذي يزن والأميرة ذات الهمّة والزّناتي خليفة وعروة بن الورد والمهلهل وعلي الزّيبق، وغيرهم، فيتوافدون عليه مساء ليدخلوا عوالمه الجميلة الحالمة مع صبيّتهم وصغار صباياهم بقليل المؤن والهدايا والقروش التّي يغدقون عليه بها.

صوته كان بطلاً دائماً، أداؤه كان بطـلاً، انفعالـه كـان بطـلاً، قدرتّـه علـى إحياء الأحداث كانت تدلّ على أنّ بطلاً ما يسكنه، لكنّه كان يعيش حياة بسيطة ليست ذات جاه، يكفيها قليل المال ليقنع بهـا مـادام يعـيش للفـنّ الـذي يحبّـه، ويعيش وسط أبطاله العرائس الذين يعيش معهم صداقة لا انفصام لها.

إلى أن جاءت عصابات الصّـهاينة، وهاجمـت المدينـة وقراهـا، واحتلّـت ابتداء قرية القسطل، فتصـدّى لهـا القائـد عبـد القـادر الحسـينيّ ليحـرّر القريـة الأسيرة، ويحطّم العصابات التّي تنوي أن تسـتولي علـى فلسـطين كلّهـا، لكـنّ العرب رفضوا أن يساعدوه، وأن يمدّوه بالسّلاح، فقرّر أن يدافع عـن وطنـه بمـا يملك من عظيم رجولة وقليل رجال وسلاح، ثمّ انضمّ إليـه الأحـرار مـن كـلّ مكان، وانضمّ إليهم صاحب خيال الظّلّ الـذي تـرك عزالـه ودمـاه أمانـة عنـد صاحب المقهى في السّوق القديم في القدس إلى حين عودته، ولحق بـعبد القـادر الحسينيّ ورجاله.

أخيراً آن لرجل خيال الظّلّ أن يلعب دور البطولـة الـذي عاشـه مـرّة تلـو الأخرى في عالم الخيال، ولم يعشه يوماً في الحقيقة، لقد قاتل ببندقيته اليتيمة حتى التقمه الموت بعد أن طارده كثيراً وهو يفتك برجال العصـابات، فمنعـه مـن أن يرى قرية القسطل قد تحرّرت من العصابات الصّهيونيّة، ولم يرَ قائـده الأشـوس يُستشهد في هذه المعركة، لكنّه أخيراً لعب دور البطولة الخالدة الذي لطالما حلـم به، وغادر الحياة راضياً مرضيّاً دون أن يعرف أحد ماذا كان اسمه أو من يكون.

العيد

خمسّة أعوام كاملة لم يدخل العيد بيتهم فيها؛ في كلّ عـام هنـاك مـوت صهيونيّ يغتال فـرداً مـن أسـرته أو مـن جيرانـه، فيحـرّم العيـد علـى قلـوبهم وبيوتهم، أمّا هذا العيد فهو يصمّم على أن يفتح الأبواب لـه علـى الـرّغم مـن الحصار الذي يفرضه الجنود الصّهاينة على بلدتهم منذ أكثـر مـن شـهر بعـد أن وعد أخاه الصّغير ذا الخمسة أعوام بأن يرى طقوس العيد في بيتهم، وهو مـن لم يرها في بيتهم مذ ولُد في ليلة استشهاد خاله طلال.

لقد أنفق ما ادّخره من عمله المتقطّع في البناء وما ادّخرته العائلة كلّهـا في رمضان محجور عليه بحصار طويل لاستقدام العيـد بصـورة تفـرح قلـب أخيـه الصّغير. فجاء العيد متباهياً ببيت حنون يتنـاوب علـى تـرقيص ملابـس العيـد الجديدة الخاصّة بالابن الأصغر، ويتزيّن بالبالونات الملوّنـة والشّـموع المتلألئـة، سار العيد إليهم علـى هـدي رائحـة فطـائر العيـد المحشـوة بالمكسّـرات والتّمـر والقشطة، لقد حلّ على بيـتهم أخـيراً بعـد انتظـار طويـل، دخـل مـن البـاب، فخرجت روح أخيه من النّافذة برصاصة صهيونيّة قنصته وهو يأكل مـن فطـائر أمّه، ويرقب قدوم العيد الذي سيقابله اليوم لأوّل مرّة في حياته.

تقاسيم المعتقل

آمال

أمّها أسمتها آمال لتحمّلها أحلامها وأمانيها وخوفها من المستقبل الذي لا يهادن امرأة زوجها عجوز، ولا أهل لها أو معين، كانت آمال الطّفلة المدلّلة التّي تستعصي على السّنين والكبر؛ لأنّ والديها يحبسانها في حنانهما ضنّاً بها على ضنك الحياة وكدّ الحياة.

اعتقلها الجنود الصّهاينة دون جناية ارتكبتها وهي في طريقها إلى مدرستها، زجّوا بها في معتقل الأسيرات الفلسطينيّات في صحراء قافلة جافّة من أيّ رحمة بعد أن صادروا كتبها ودفاترها، هناك تعلّمت أن تكبر، وأن تخلع الدّلال لتليق بأمهاتها الجديدات.

تنادت الكثير من المؤسّسات والمنظّمات الإنسانيّة العالميّة لإطلاقها من الأسر بوصفها أصغر معتقلة سياسيّة في العالم. بعد أشهر من المعاناة خرجتْ آمال من المعتقل حيث خلعتْ طفولتها، وارتدتْ قلباً شجاعاً لا يقبل بأقلّ من فجر أبلج قريب يحقّق آمال الوطن.

الأسير الرّضيع

لا يعرف بأيّ جناية هو مسجون في هذا المعتقل حيث الرّطوبة والعفونة والازدحام والجوع، الوجوه حوله كئيبة، لكنّها تصمّم على الحياة، وأمّه الحنونة يكاد يجفّ حليبها حزناً ومرضاً وهزالاً.

منذ وُلد وجد الضّيق والضّنك أمامه، لم يخرج بسهولة من بطن أمّه لأنّها تزمّ فخذيها وتغلقهما بشدّة بسبب سلاسل تكبّل قدميها، وتشدّ إحداهما إلى الأخرى، حتى أنّها لم تستطع أن تحتضنه عند ولادته كأيّ أمّ؛ لأنّها كانت كذلك مصفّدة اليدين، وطال جوعه قبل أن تدس حلمة صدرها في فمه لأنّها كانت تعاني من غيبوبة عميقة بسبب نزيف حادّ أصابها في ولادتها له.

هو يحبّها، ويسمع همسها في أذنيه عندما تعده قائلة: "حبيبي محمد، سنخرج في القريب من هذا المعتقل الصّهيونيّ اللّعين، عندها سترى والدكَ جابر، وأختيك، وجدتّك وأعمامك وأقاربك أجمعين".

هو يصدّقها، ويحلم مثلها بالخروج من هذا المكان الكئيب الذي تسمّيه أمّه بالمعتقل الصّهيونيّ، ويمرّن يده كي يستطيع في القريب أن يرفع إصبعين من أصابعه إشارة نصر كالتّي ترفعها والدته في وجه المجنّدات الصّهيونيّات لإغاظتهنّ وتأكيد فشلهن في زعزعة صمودها، ويفخر بلقب أصغر أسير في التّاريخ، وإن كان لا يعرف تماماً معنى هذا اللّقب، لكنّه يعرف أنّه سيعرف معناه جيّداً عندما يكبر، وحتى ذاك الوقت سيصدّق أمّه التّي تعده بالخروج في يوم قريب من هذا المكان الكئيب المخيف.

إضراب

منذ أيّام لم يعد يستطيع أن يحصيها هو مضرب عن الطّعام احتجاجاً على اعتقاله دون سبب أو محاكمة في هذا المعتقل الصّهيونيّ العفن.

جسده هزل، ولم يعد يقوى على الوقوف على قميه، أجبروه بضع مرّات على شرب الحليب البارد كثير السّكر عبر أنابيب بلاستيكيّة دسّوها بعنف

في أنفه وصولاً إلى جوفه حتى مزّقوا مجراه التّنفسيّ، وأغرقوا معدته بالحليب البارد المغثّ.

لكنّهم الآن قرّروا أن يتركوه يموت على مهل وعذاب كأيّ أسير فلسطينيّ في معتقلاتهم، لا يعنيهم حملات منظّمات حقوق الإنسان إزاء إضرابه عن الطّعام احتجاجاً على قهره.

جلس الحارس الصّهيونيّ أمامه يأكل ما لذ وطاب من طعام افترشه أمامه ليعذّبه بالجوع، وهو يتفتّق من جلده لكثرة ما ابتلع من طعام.

يراقب الحارس الأسير الفلسطينيّ، فيغيظه أن لا يرى عذاب الجوع في عينيه، وهو من يستعرض أمامه لذة الأكل. يسأله بفضول: "ما الذي يدعوك إلى هذا الإضراب المرير عن الطّعام؟ عجباً منك!".

يجيبه الأسير الجائع بكلّ هدوء: "أنت معذور في عجبك؛ فأنت لا تعرف حرقة حبّ الوطن".

القصيدة

يجيد كتابة الشّعر، لكنّه لا يستطيع أن يحفظ ولو بيتاً واحداً ممّا تفيض به قريحته، وعليه أن يحتفظ بقصائده جميعها التّي يكتبها لحبيبته خديجة، فهو مجنون خديجة كما يسمّونه في المعتقل الصّهيونيّ.

ليس مسموحاً له بأن يقتني الورق أو الأقلّام في المعتقل؛ لذلك ينظم شعره، ويوزّعه بالإجبار على الأسرى جميعاً، كلّ منهم عليه أن يحفظ عشرة أبيات من شعره، وكي لا ينسى أحدهم بعضاً ممّا حفّظه من شعره فهو لا يفتأ يستنشدهم ما يحفظون من شعره.

لا يبالي بسخريتهم، وهم ينشدون على مسمعه ما يحفظون من شعره، إنّما يعنيه أن يعرف أنّ كلّ ما نظم من شعر في حبيبته خديجة محفوظ في الصّدور إلى حين خروجه من المعتقل ليسكب على شفتيها كلّ ما كتب من شعر، وما ادّخر لها من قُبل.

لا أحد يجرؤ على أن يخبره بأن رصاصات المستدمرين قد اغتالت خديجة منذ زمن، وهو لا يملك جرأة ليقول لهم أنّه يعرف أنّها قد رحلت عن هذا العالم دون رجعة، ولن تسمع في يوم ما بيت شعر ممّا يدّخره لها قسراً في صدور الأسرى الذي يحفظون شعره رحمة بقلبه العاشق المكلوم ومدامع هواه.

دموع

على حين غرّة، ومثل مطر يغسل قحط سنين يأتي قرار الإفراج عن الأسرى الفلسطينيين في صفقات مبادلّة متّفق عليها مع الكيان الصّهيونيّ.

في دقائق يخفق الخبر في قلوب المنتظرين، يطير الجميع لاستقبال الأسرى المُفرج عنهم، ويطير هو في مقدّمتهم لعلّ والده من المُفرج عنهم.

تتحسّس عينيه كلّ وجه من وجوه الأسرى وعيناه تبحثان عن ذويهم في الأجساد المزدحمة في الانتظار، يراقب الأجساد الملتقية تذوب احتضاناً وتقبيلاً.

يدرك أنّ والده ليس من ضمن الأسرى المُفرج عنهم، يدير ظهره قبل أن تفضحه دموعه التّي يشرق بها، وتحرق حلقه حشرجة خيبة الأمل، يمسح دموعه بباطن يديه كي لا يراها أيّ أحد، فهو رجل، والرّجال لا يبكون.

سجين

كـان جنـديّاً صـهيونيّاً مسـتحدثاً علـى كـادراً الخدمـة في هـذا المعتقـل الصّهيونيّ، كانت تعلو وجهه الأبله المفلطح المساحات زرقة المـوت وهـو يـرى تعذيب المعتقلين الفلسطينيين.

لكنّه سرعان ما ذاق شهوة الفتك بالبشر. جسده الضّخم مثل جسد ثور هجين بتر حياة الشّاب الفلسطينيّ بنطحة واحدة منه.

الشّاب الفلسطينيّ القتيل خرج جثّة هامدة من المعتقل رغم أنفه وهو مـن توعّده بالسّجن طوال عمره تنكيلاً بشبابه ووسامته وشـجاعته وإصـراره الـذي تفلَ بقرف وتقزّز في وجه بلادته.

منذ ذلك اليوم غدا هـو سـجين المعتقـل حيـث يراقـب أسـراب أرواح الشّهداء الفلسطينيين تحلّق نحو العلياء والخلود، وتتركه يتلوّى حبيساً في جسـده الثّور البليد.

حليب

لم تتوقّع أبداً أن تجود عليها الأقدار بابنها الرّضيع رزق الله بعـد أن فقـدت الأمل في الإنجاب، وهجرها زوجان، أحدهما ابـن عمّهـا، بسـبب عقمهـا، ثـم تزوّجت من جارها زهدي الذي حملت منه بابنها رزق اللّه.

لكن القدر جاد عليها به في حين تـآمرت الظّـروف عليهـا، فحرمتهـا منـه عندما وجدت نفسها أسيرة في معتقل صهيونيّ في الصّـحراء بعيـداً عـن طفلـها الرّضيع هديّة السّماء لها الذي تركته أمانة غالية في عهدة زوجة أخيها.

أشدّ ما يحزنها أنّ طفلها رضيع يحتاج إلى دفق حليبها الذي ينساب هارباً من حلمتي ثدييها كلّما نطقت باسمه أو حشرجتْ بدموع الاشتياق له، أو شرقت بلوعة فراقه.

هي تصدّق بالمعجزات، تخرج ثدييها من داخل ثوب سجنها الفضفاض القذر، وتفكّر بابنها الرّضيع، فيندلق الحليب من صدرها في فم ابنها على الرّغم من البعاد، فترضعه حتى يشبع وبينهما صحراء وسجن وجنود وكلاب!

أسير

أحد عشر عاماً قضاها في الأسر الصّهيونيّ بتهمة مخرّب كبير؛ لأنّه أطلق بضع طلقات على معسكر جنود صهيونيّ، دخل إلى هناك طفلاً مدفوعاً بالحماس والرّغبة الطّاهرة البريئة بالشّهادة وتحرير فلسطين من قيود العبوديّة، وخرج منها عميداً من عمداء الأسرى الذين يحملون فكراً نضاليّاً يُعدّ مدرسة في التّضحية العربيّة لأجل القضيّة الفلسطينيّة.

لم يجد أحداً في انتظاره عند خروجه من المعتقل، خمّن أنّه لم يُسمح لأحد من أهله وأصدقائه بأن يدخلوا الأراضي الفلسطينيّة المحتلّة كي يستقبلوه، أنتظر بحماس أن يُلقى به على حدود وطنه كي يجد المستقبلين المحتشدين في انتظار عودته الميمونة المنتصرة بالصّبر والإصرار على محاولات استعباده وهزمه.

لكنّه لم يجد أيّ بشر في انتظاره خلا حفنة من أخوته وبعض أصدقائه المقرّبين الذين لا يتجاوز عددهم أصابع اليد الواحدة، تعجّب من غياب النّاس عن ملاقاة عميد الأسرى الفلسطينيين.

الطّرقات كانت تعجّ بحشود من النّاس التّي تتدافع إلى مطار المدينة كي تستقبل راقصة عربيّة عرجاء الرّوح والقدم كي تستقبلها استقبال الأبطال؛ لأنّها رقصتْ شبه عارية لبعض رؤساء العالم بما فيهم زعماء الصّهاينة في قمّة رياضيّة ما، لقد رقصتْ رقصاً عربيّاً موصولاً يشبه تثنيّات أفعى تختنق بأرنب، سمعهم في الشّارع يقولون إنّ هذه الراقصة الشّمطاء قد شّرفت العرب بفنّها الرّفيع، وثوبها الشّفاف الذي يقذف بلحمهما وجسدها في وجه من يقابلها.

جلس على الرّصيف المنزوي متعباً مهزوماً، وشعر أنّه ما زال في الأسر.

عيد ميلاد

إنّه عيد ميلادها السّادس عشر، إنّه ناقوس حزن يدقّ في صقيع روحها الخائفة، لم ينتظرها حفل أو حلوى أو هديّة أو محتفلون بها، وليس الشّباب والجمال والحلم والفرح هم من كانوا في انتظارها، بل كان في انتظارها في بيتها القديم في مدينة النّاصرة الأسيرة نشرة ورقيّة من قانون صهيونيّ جائر يحرّم على أبناء الأسرى والأسيرات الفلسطينيين أن يزوروا آباءهم وأمهاتهم المعتقلين إن بلغوا سنّ السّادسة عشرة.

الآن ستُحرم من رؤية والدها حتى آخر لحظة في عمره، وهو المحكوم بالسّجن مدى الحياة لأنّه فلسطينيّ يحارب عدّوه لتحرير وطنه.

ترفض أن تستسلم لهذا القرار الجائر، تلبس ثوبها الجديد الأوحد الذي تدّخره للمناسبات السّعيدة النّادرة في حياتها، تشعل شمعة، وتغمض عينيها، وتتمنّى أمنية عيد ميلادها، هي أمنيتها الوحيدة، ثم تطفئها، وتشرع تنتظر أن

تتحقّق أمنية عيد ميلادها، فيفتح والدها باب بيتهم، وييمّم نحوها ليبدأ الاحتفال بعيد ميلادها.

عُرْي

هي سليلة عائلة متديّنة عريقة، ومنذ طفولتها حفظت القرآن وتحجّبت، لم تتكشّف في يوم لرجل أكان قريباً أم غريباً، فهي تلميذة لجدّتها لأبيها التّي تدعو لها بالسّتر ليل نهار، وتترّأس طريق صوفيّة شهيرة، حتى الرّجل الوحيد الذي أمّلت نفسها بأن تتعرّى له زوجة بعد أن خطبها قد اغتالته رصاصة صهيونيّة في إحدى المظاهرات، وبذلك ظلّت جوهرة مكنونة في صدفة غائرة في أعماق بيت أسرتها.

لكنّها الآن تقف عارية تماماً أمام لجنة التّحقيق الصّهيونيّة، منذ اعتقلوها في عمليّة استشهاديّة آلتْ إلى الفشل، وهم يجرّبون فيها أصناف العذاب شتّى، وما نالوا من إصرارها واحتمالها، وأخيراً أرادوا أن يجرّبوا عليها عذاب العريّ لامرأة مسلمة خجولة أمام قطيع من الجنود الصّهاينة الخنازير، اعتقدوا أنّهم سيكسرون شوكة نفسها الأبيّة المتماسكّة إن كشفوا سترها.

وقفت أمامهم عارية من الملابس مكتسية بكبريائها، وما أبهت لعيونهم الخنزيريّة التّي تأكل جسدها إمعاناً في تعذيبها؛ فهي لا تخجل من عريها أمام خنازير بشريّة ترعى في أرض غير أرضها.

قلب

قرّر مدير المعتقل الجنرال الصّهيونيّ أن يقتل الشّاب الأسير الفلسطينيّ ليسرق قلبه السّليم المعافى؛ ليهبه لأخيه الصّهيونيّ الذي يلازم سرير المرض منذ سنوات دون أمل في أن يحظى بقلب سليم، يزرعه في صدره بدل قلبه المعطوب ليستأنف به الحياة والأمل.

منذ رأى ذلك الأسير الفلسطينيّ الشّاب القادم من جبل الخليل المزهوّ بالصّحة والنّضارة والنّشاط وهو يحلم بأن ينقضّ على قلبه لينتزعه من صدره، ويزرعه في قلب أخيه "باروخ".

أخيراً حقّق حلمه، وسرق القلب الفلسطينيّ من صدر صاحبه، كما سرق من قبل وأهله فلسطين من أهلها الآمنين المسالمين.

كلّ شيء قد أُعدّت له العدّة، الشّاب الفلسطينيّ قد دُفن بمعرفة الجيش الصّهيونيّ بحجّة أنّه مخرّب، ولا يجوز تسليم جثمانه لأهله خوفاً من أيّ عمليّات فدائيّة انتقاميّة لمقتله، والكادر الطّبّيّ في المستشفى الصّهيونيّ في مدينة تلّ الرّبّيع التّي يسمونها "تل أبيب" كان على أهبة الاستعداد لإجراء عمليّة زراعة القلب بعد وصول القلب المسروق.

الأمور جميعها سارت وفق خطّة الجنرال الصّهيونيّ السّارق، وجسد أخيه تقبّل بكلّ ترحيب القلب المسروق، وبعد أيّام كست حمرة الحياة وجنتي أخيه الذي استيقظ بعد غيبوبة قصيرة استولت عليه بعد العمليّة المعقّدة الطّويلة لاستبدال قلب الفتى الفلسطينيّ بقلبه الصّدئ المعطوب.

ابتسم الجنرال السّارق وكلّ من حوله للشّاب الصّهيونيّ الذي عاد إلى الحياة بقلب فلسطينيّ، فتح عينيه على الحياة بغبطة مخنوقة.

سأل الجنرال أخاه بقلق: "باروخ، أخي الحبيب، هل أنتَ في خير؟"

أجاب الشّاب الصّهيونيّ بدهشة واستنكار لما سمع من كلام: "أنا لستُ باروخ، أنا جميل الخليليّ. لماذا أنا هنا؟ من أنتم؟ عليّ أن أغادر هذا المكان لأذهب للصّلاة في الحرم الإبراهيميّ".

نُطفة

نطفة واحدة هي من انتصرتْ لها على الحرمان والقطيعة والبعاد والسّجون والأسوار، بفضل خطّة بوليسيّة مبتكرة دبّرها طبيبها المعالج في مستشفى التّلقيح، وأخيراً استطاعتْ أن تهرّب نطفة من زوجها الأسير الفلسطينيّ في المعتقل الصّهيونيّ.

كانت طريقة تهريب النّطفة بدائيّة تماماً، وبوجود شهود من أهلها وأهله كي لا يقدح أحد في شرفها، وهي من حملتْ وزوجها غائب عنها منذ سنين في أسر المعتقل الصّحراويّ البعيد.

معظم الحيوانات المنويّة في النّطفة وصلت إلى يد الطّبيب المعالج ميّتة إلاّ نفر قليل منها قاوم الجفاف، واستلقى حيّاً ينتظر التّجميد، ثم مارس الحياة والتّخصيب في رحمها عند زرعه فيه.

أخيراً انتصر على الموت حيوان منوي واحد شجاع همام، وصافح الحياة في رحمها، وأصبح جنينها عمّار الذي جاء إلى الحياة مهرّباً من المعتقل الصّهيونيّ، ليحمل اسم والده الأسير، ويعده بغدٍ لا يموت، ويهبه إصراراً على الحياة، وينذر نفسه لحمل راية والده حيث العلم الفلسطينيّ يرفرف عالياً.

الآن أمّه سعاد فهي الأسعد في هذه الحياة، تحمله وتختال بـه أمـام الجنـود الصّهاينة السّجّانين الذين أوصدوا الأبواب دون زوجها، لكنّهم ما استطاعوا أن يحرموه من حلم الأبوّة.

تبتسم لزوجها ابتسامة نصر، وتمدّ له ابنهما عمّاراً ليطبع قبلة هوائيّة على جبينه مخترقة الفاصل الذي يبعدهما، وتؤمّله بـأن يكـون هـذا الطّفـل الرّضـيع رجلاً شهماً مناضلاً قويّاً ينتظره على باب المعتقل عندما تنقضي مدّة محكوميّتـه، ويخرج منه بعد نحو ربع قرن، فيربتْ بحنان على شيخوخته، ويعود به إلى البيـت حيث الجميع في انتظاره.

تقاسيم المخيّم

الدّرب

كان صغيراً يجهل الدّرب والمقصد عندما شدّ والده على يده وهـو يجـرّه على عجل مع إخوته وما جمع من نزير أثاث بيته بعد نكبة عام ١٩٤٨، وعندما سأل والده "إلى أين المسير؟" أجابـه والـده باقتضـاب منكـود: "لا نعـرف إلى أيـن سنذهب".

الآن هو يشدّ بقبضته الكبيرة على كفـي ابنيـه التّـوأمين، ويجرّهمـا علـى عجل وهلع هروباً من المخيّم في أعقاب الأحداث الدّامية في عام ١٩٦٧، يسأله أحد ابنيه: "إلى أين سنذهب يا أبي؟"

يلوك ابتسامة صفراء تعلّ نفسه، ويجيبه بمرار مقيم: "لا نخرج مـن مخـيم إلاّ لنذهب إلى مخيم جديد".

تلّ الزّعتر

ما ظنّتْ أنّ الموت له هذه الأشكال المتوحّشة من الانقضاض علـى البشـر، العصابات المهاجمة لمخـيّم "تـلّ الـزّعتر" اجتهـدتْ كـي تبتكـر أبشـع طـرق قتـل الفلسطينيين دون ذنب أو جناية اقترفوها إلاّ أنّهم على أجندة تصـفية جهـة مـا لأسباب سياسيّة بحتة.

ما عـادت تبـالي بصـور المـوت، تنتظـره دون خـوف، لا تخشـى أولئـك الوحوش رجال العصابات، لقد أبادوا أمام عينيها أقارب وجيران وأصـدقاء لا

تستطيع أن تحصيهم عدداً، كلّ ما تريده الآن هو أن تحصل على جرّة ماء لإنقاذ أمّها وأختيها من نزاع الموت عطشاً.

إحضار جرّة ماء ضرب من المستحيل تحت رصاص القنّاصين وتناوش بنادق رجال العصابات، آبار الماء تغصّ بدماء الشّهداء الفلسطينيين الذين صمّموا على أن يحضروا الماء لذويهم.

تراهن على حياتها بجرّة ماء، تخاطر، وتتستّر بقلبها الصّغير الحزين من عيون القنّاصين، تتعثّر بجثث الشّهداء من أهل المخيّم، وتعود تحمل جرّة الماء، على باب بيتها يقنصها قنّاص، فتُستشهد جرّة الماء، ويُراق ماؤها على الأرض السّخينة التّي تبتلع الماء بظمأ وتحرّق، تسبّ القنّاص الذي صاد جرّة الماء، ولم يصدها هي، تقعد على الأرض تبكي جرّة الماء الشّهيدة، وتلملم بعض الماء في يديها قبل أن يتسرّب من بين أصابعها، ويعود إلى الأرض من جديد.

حنظلة

ورث الشّقاء عن والديه وجدوده، كما ورث عنهم الحياة في المنافي، وألف قهر نفسه حياة المخيّمات وذلّها، وظنّ أنّ الحظّ قد حالف أخاه الأكبر الذي ورث دور الأبوة عن والدهم الذي طحنه المرض والكدّ حتى شفّه ولفظه جثّة دون جسد، فاستطاع أن يبني مستودعاً صغيراً أسماه بيتاً بعيداً عن المخيّم في منطقة نائية من ضواحي المدينة التّي يعيش لاجئاً فيها، فكدّس فيه أمّه وأخوته وزوجته وأم زوجته التّي تعيش معهم، ثم نقل أخوته الصّغار من مدرسة المخيّم إلى مدرسة تلك المنطقة النّائية.

طلّاب المدرسة ظلّوا يسخرون منه؛ لأنّه فلسطينيّ قادم من المخيّم، لم يكونوا أفضل منه هنداماً أو لطفاً أو وسامة، بل كانوا أقلّ منه أمحيّة وإدراكاً، لكنّهم تحالفوا عليه، وظلّوا يسخرون منه، ويعيّرونه بالمخيم وبفلسطينيّته.

خلع حذاءه، وأدار ظهره لهم، وماعاد يأبه بوجودهم، أو يردّ على سبابهم، أو يخجل من لكنته الفلسطينيّة، وكتب على سبوّرة الحائط: "حنظلة غاضب الآن".

صور

لم تحمل أمّها من المخيّم الذي يهاجمه الواغلون الخليط من الصّهاينة والعرب المتصهينين سوى دفتر الصّور الذي تعتزّ به وأطفالها الثّلاثة، وأملها في النّجاة بهم من مذبحة المخيّم، لم تكن تدري إلى أين المفرّ، ولا أيّ الدّروب عليها أن تسلك نحو المجهول لتنجو بأطفالها من مذبحة جديدة، لم تطل حيرتها، فرصاصة واحدة أردتها قتيلة، وأراحتها من أسئلة البحث والفرار والنّجاة.

لم ينجُ من مذبحة المخيّم سوى ابنتها الصّغرى ودفتر صورها الذي كانت تمارس فيه هوايتها بالاحتفاظ بصورة لكلّ فرد من أفراد أسرتها، كأنّها تعوّذهم من الموت والشّرّ والاندثار إن احتفظتْ بصورهم في دفترها الذي تعرضه على كلّ من يزور بيتها، وتشرح له مطوّلاً عن صاحب كلّ صورة، وتستفيض في الحديث عن حياته وطبيعته وطباعه أرغب من يزورها في هذا الشّرّح المطوّل أم لم يرغب، فحماسها لعرض مجموعة صورها يمنعها من أن تلتقط عدم رغبة الزّائر في استعراض الصّور وسماع الحديث عنها.

تاهت الابنة الصّغيرة أسبوعاً في تخوم المخيّم تبحث عن مأوىً لها، عندما تعبتْ من المشي توارت داخل حشائش نابتة على امتداد مجرى التّصريف الصّحيّ، وجلست تمزّق صور الدّفتر صورة تلو الصّورة بعد أن فني أصحابها جميعاً في مذبحة المخيّم، لم تستبقِ إلاّ صورتها الملوّثة بالدّماء، طوتها، ودسّتها في جيبها، ومن جديد عادتْ تمشي لتبحث عن مأوى أو معين قبل أن يدركها الوهن، فتعجز عن الحركة، وتموت وحدها في هذا المكان، فهي مصمّمة على أن تبقى على قيد الحياة.

دجاجة

يخشى الموت والصّدأم والتّعذيب والمواجهة؛ لذلك لم يشارك يوماً في أيّ عمل مقاومة للعدوّ الصّهيونيّ، وظلّ يعيش كدجاجة مزرعة جبانة، لكن ذلك لم ينجهِ من أن يعتقله الصّهاينة، وأن يلقوا به في المعتقل بين أبناء شعبه.

كان مخطّطه يقتضي بأن يحافظ على عقيدته في الجبن حتى يخرج سالماً من المعتقل، لكن ما إن تعهّده الفدائيون الفلسطينيّون الأسرى بالتّعليم والتّثقيف حتى صنعوا منه رجلاً حقيقيّاً يليق به أن يكون فلسطينيّاً.

خرج من المعتقل يبحث عن عدوّه في الدّروب، كان يشعر بأنّه الأقوى، رفع رأسه لأوّل مرّة في حياته، ولم يعد يستسيغ الإطراق في الأرض كدجاجة، بل غدا ينظر نحو السّوامق كنسر أصيل.

رَكْض

هو رجل راكض يحتضن طفلة صغيرة عمرها ثلاث سنوات، ليس عنده طاقة ليشرح لكلّ من يقابله لِمَ هو مصمّم على الرّكض نحو البعيد، يرفض أن يكلّم أيّ بشر، ويتّخذ أبعد الطّرق إن كانت نائية بعيدة عن البشر ليصل إلى مبتغاه، هو لا يعرف إلى أين يذهب، لكنّه سيظلّ يركض حتى يصل إلى مكان يُرقد لهاثه فيه، ويقنع ذراعيه بأن تفكّا حصارهما عن ابنته الصّغيرة الشّاحبة الوجه والحركات واللّفظ.

أيّام طويلة قضاها في هذا الرّكض المسعور بين جدّة فيه وهون وفق ما تحتمله نفسه التّي تخور تحت أحزانه ومخاوفه وصور القتلى الفلسطينيين في مخيم "اليرموك" حيث رأى أبشع أشكال موت البشر على مهل جوعاً وعطشاً ومرضاً وحزناً وخوفاً.

لم يهرب من المخيّم جبناً منه، لكن إشفاقاً منه على زوجته المريضة وأطفاله السّبعة الصّغار، لكنّه لم يستطع أن يعصمهم من مخانق التّيه والهرب والتّشرّد والجوع والعطش والبرد؛ جميعهم هلكوا منه في درب الهروب وهم مدفعون عن الأبواب، ملاحقون بذنب فلسطينيّتهم.

وصل أخيراً إلى هذا النّهير الصّغير في الغابة الأوروبيّة، هي آخر ما عليه أن يقطع ليحطّ الرّحال لاجئاً في هذا البلد.

الجوّ صقيع، ولا وقت أمامه يضيّعه في هذه الغابة، وابنته الصّغيرة تكاد تنطفئ جذوة حياتها مرضاً وجوعاً وبرداً، قرّر أن يقطع النّهير وهو يحملها إلى حيث يأمل أن يجد فرصة للحياة لها، ماء النّهير أبرد ممّا تعني البرودة في قاموسه،

لا يبالي بهذا البرد، يرفع طفلته فوق كتفيه، و يغـوص في المـاء إلى ترقوتـه التّـي ترتجف تجمّداً.

أخيراً يصل إلى الضّفّة الأخرى، يضع طفلته على الأرض، يتفقّد أنفاسها التّي تبشّره بأنّها على قيد الحياة، ويهجع أرضاً إلى جانبها دون حياة.

الحلوة

قابلها في مخيّم "عين الحلوة" في لبنان، وقع في عشقها منذ أوّل مشاجرة وقعت بينهما عندما غازلها بكلماته اللّبنانيّـة الرّقيقـة، فـردّتْ عليـه بأسـوأ ردّ بصـلف فلسطينيّ لا يحتمل خدش كبريائه، كالتْ لـه السّـباب والشّـتائم، لكنّـه وقـع في عشقها؛ فقد أعجبته روحها المهر، وجمالها المتواري قصداً خلف السّلاح في سبيل قضيّة تؤمن بها.

خلف لباسها العسكريّ الذي يلبسه أشبال الفدائيين الفلسطينيين تُخفـي رقّة ذائبة تقطر أنوثة وحناناً، لو لم تكن تحمل السّلاح لكانت تحمل سلّة زهـور، وتمرح بها في سهوب الأرز؛ لذلك أسماها الحلوة.

قرّر أن يتزوّجها، ووافقتْ على الزّواج به دون تردّد، كانت تسخر مـن لجهته النّاعمة الرّقيقة، لكنّها كانتْ ترى صلابة الرّجال الأقوياء خلف هذه الرّقة الظّاهريّة المراوغة، كانتْ تسخر علناً من عشقه لها، لكنّها تختال في نفسـها بهـذا الوسيم الأشقر المتيّم بها. لقد كان مصـمّماً علـى أن ينجـب منهـا طفـلاً علـى شاكلة سمرتها وعنادها وجرأة روحها.

لكنّها غدرتْ به، وتركته لتلحق صوت الواجـب، لقـد انتقلـتْ للنّضـال المسلّح في فلسطين، لم يتألّم من ابتعادها عنه، فهو يعلم أنّها أسـيرة عشـق أكـبر،

حمل سلاحه، وقرّر أن يلحق بها، فهو مصمّم على أن ينجب منها طفلاً شـجاعاً وعنيداً.

عائشة ألوان

هم يثقون فيها لأنّها هي معلّمتهم الجميلـة التّـي علّمـتهم الرّسـم، كانـت تشتري الألوان والأوراق لمعظم الأطفال في مخيّم "اليرموك"، إذ إنّهم لا يستطيعون أن يدفعوا أثمان شرائها بسبب عوزهم، هي من علّمتهم أن يرسموا الحياة جميلة متّسعة فرحة على عكس الحياة التّي يعيشونها في هذا المخيّم.

هم يصدّقونها، ويثقون بوعدها لهم بـالرّجوع إلـيهم فـور إحضـار بعـض الطّعام والمساعدات الطّبّيّة للمخيّم، وهم الآن في انتظار عودتهـا، لكنّهـا لم تعـد بعد.

سمعوا أنّ الجيش المتناحر على أبواب المخيّم قد قبض عليها بجرم تهريـب الطّعام والأدوية إلى مخيّم "اليرموك" المحاصر منذ دهـر، لقـد عـذّبوها هنـاك حتـى ماتت عشرّات المرّات قبل أن تموت ميّتتها الأخيرة.

هي لم تعد إلى المخيّم، ولم تفِ بوعدها لتلاميذها الذين يحبّونها، ويسـمونها "آنسة عائشة ألـوان"، لكـنّهم يرفضـون أن يستسـلموا لفكـرة موتهـا، ويشـرعون يرسمونها على جدار المدرسة باسمة نضرة عائدة إليهم محمّلـة بـالمؤن والـدّواء، ويلبثون ينتظرونها، فهي لا تخلف ميعادها معهم أبداً.

فلسطينيّ

لا يعرف تسويغاً لعذابه إلاّ أنّه فلسطينيّ، وهو صغير قالوا له إنّ وطنه قد سُرق لأنّه فلسطينيّ، عندما كبر قصف الشّقاء زهرة شباب والده، وهو يرزح تحت نير عذاباته ومطاردته للقمة عيشه وعيش أسرته لأنّه فلسطيني، أخته الكبرى أكل الشّلل قدمها اليمنى، ولم تجد أسرته المال لعلاجها لأنّه فلسطينيّ، عاش طوال عمره في مكعب حقير من الصّفيح مصلوباً على قارعة الانتظار في جغرافية موحلة منتنة خلف حدود الوطن لأنّه فلسطينيّ.

عندما كبر تعلّم أن يحزن، وأن يجوع، وأن يعرى، وأن يرى تقتيل شعبه بأمّ عينيه لأنّه فلسطينيّ! تعوّد أن تزدحم ذاكرته بالشّهداء والرّاحلين والمختفين والمبعدين والمعتقلين والغائبين مؤجلي العودة لأنّه فلسطينيّ.

عندما غادره الحلم لم يأبه لرحيله لأنّه فلسطينيّ، وعندما أراد أن يبكي على استحياء لأنّ إدارة المخيم صادرت "البسطة" الصّغيرة التّي يملكها بحجّة أنّها تشوّه الوجه الحضاري للمخيم غالب دموعه وزجرها خجلاً من البكاء الذي لا يليق به لأنّه فلسطينيّ.

فَخَار

وظيفته الأساسيّة في الأسرة تنحصر في أن يحمل حذاء أخيه الأسود الملمّع الذي تشاركت الأسرة كلّها لأجل شرائه ليبدو ابنها البكر الموظّف في حكومة هذه الدّولة في خير صورة تشرّفه، ولا تحرجه بحذاء مغموس بوحل المخيّم الذي يغمرهم بطوفانه المقيم في الفصول جميعها.

هذا الابن البكر هو طوق النّجاة للأسرة كلّهـا، نقـوده القليلـة هـي مـن تطعمهم أجمعين، وتعفي والده العجوز من أن يعمل في أعمـال العتـل في سـوق القمح في أطراف المخيّم لينقسم ظهره مرّة أخرى.

يلبس الأخ البكر بذلته السّوداء الوحيدة التّي يملكها، وينتعل حذاءً بنّي اللّون قديم، ويسير بخطى واسعة سريعة مختـالاً كطـاووس، وخلفـه يسـير الأخ الأصغر يحمل حذاءه بإجلال وفخار.

عندما يصلان إلى الحافلة في موقف النّقل في قلـب المخـيّم، يجلـس أخـوه الأكبر في مقعد من مقاعده، ويخلع حذاءه الموحل القديم، ويناوله لأخيه الصّغير من نافذة الحافلة، وينتش منه الحذاء الأسود النّظيف، وينتعله كي يـذهب بـه إلى عمله دون أن يلطّخ الأماكن التّي يسير بها بوحل المخيّم.

يعود الأخ الصّغير فرحاً إلى بيتـه لأنّـه قـام بمهمّتـه اليوميّـة الأساسـيّة في تحديد مصير الأسرة أكانت ستجد ما تأكله إن بقي ابنها البكر على رأسه عمله، أم أنّها ستتضوّر جوعاً إن طردوه من عمله بسبب حذائه الملطّخ بطين المخيّم.

المخيّم

لن ترحل هذه المرّة عن هذا المخـيّم ولـو اضـطرّت إلى أن تُقاتـل الـدّنيا كلّها، لم تعـد تُطيـق أن تهجّـر مـن مخيّم لتلجـأ إلى آخـر، حياتهـا سلسـلة مـن المخيّمات والتّهجير والعذاب والمعاناة والقهر، في كلّ مخيّم خسـرت جـزءاً مـن ذاتها وبعضاً من أفراد أسرتها حتى لجأت إلى هذا المخيّم ليس معها إلاّ طفلاهـا وبذلة زوجها الفدائيّ وبندقيته وأثاث يضيع في بيتها الغرفة لقلّته على الرّغم من ضيقها.

رضيتْ بكلّ حرمان واضطهاد كي تحافظ على حياة طفليها، والآن هناك من يهاجمون المخيّم كي يحتفلوا بإراقة الدّم الفلسطينيّ في نزهة قتل وتشريد واغتصاب يحلو لهم أن يقوموا بها في أرجائه كيفما اتّفق، لا تريد أن تعرف من المهاجم هذه المرّة، لا يعنيها اسمه أو دينه أو جنسيته أو لغته أو هدفه أو فكره؛ فجميعهم سواء عندما يقتلون الفلسطينيّ، الموت ذاته يتحالفون معه، وهي ستقتل من يهاجم المخيّم أيّاً كان، لن تكون أمّاً فلسطينيّة تذود عن أطفالها وحسب، بل ستلبس بذلة زوجها، وتحمل سلاحه لتدافع عن المخيّم ضدّ المهاجمين أيّاً كانوا، فهي لن تسمح بأن يموت طفلاها في هذه اللّعبة الجهنميّة.

تغلق باب بيتها الغرفة على طفليها، وتخرج مع الخارجين المدافعين عن المخيّم، تُقاتل على تخومه بشراسة، تصطاد الرّؤوس الشّرّيرة بغريزة الأم المدافعة عن أطفالها وعن أطفالها الأمّهات القابعات في بيوتهنّ، وفي المساء تعود إلى بيتها الغرفة مضرّجة بدم مَنْ قتلت، وبدم جروح أصابتها من شظايا انفجار، تجد طفليها في انتظارها، تتكوّم أرضاً خلف الباب، تأخذهما إلى صدرها، وتنخرط وإيّاهم في بكاء مخنوق.

"كرت" المؤن

يصمّم الصبيّ الصّغير على أن يعمل في العطلة الصيفيّة لعلّه يجني بعض المال ليشتري بنطالاً وقميصاً وحقيبة جلديّة بدل حقيبة القماش التّي خاطتها أمّه له من ثوب قديم لها قد بلي بعد أن أنهكته لبساً وغسلاً ونشراً وطيّاً.

حاول أن يجد عملاً في المخيّم فلم ينجح في ذلك؛ فلا أحد يرغب في توظيف طفل صغير بجسد هزيل وقامة قصيرة؛ لذلك قرّر أن يجد عملاً ما

خارج المخيّم يتناسب مع جسده الصّغير العاجز عن العتـل والصّـراع والجـري والتّدافع.

عرض حاجته على بعض أصحاب المتاجر، لكنّهم زهدوا به إلى أن صادف اهتماماً من تاجر عجوز أزرق البدن والابتسامة، رجاه أن يجد له وظيفة عنـده، أخبره بأنّه فلسطينيّ من المخيّم لعلّه يحظى بالوظيفة إن استدرّ عطفه، وشـرح لـه مدى حاجته لهذا العمل، أنكر التّاجرعليه أن يكون فلسطينيّاً، وبعد جدال طويل قرّر الصبيّ أن يثبت له أنّه فلسطينيّ لعلّه يحظى بوظيفة ما عنده طالما أنّـه مهـتم لسبب يجهله بالتّحقّق من فلسطينيّته.

صفّق الصبيّ بجوارحه وحماسه ليحضر "كرت المؤن" من بيته في أسـرع وقـت ممكن كي يثبت للتّاجر أنّه فلسطينيّ، إذ لا يملك وثيقة غيره تثبت حقيقـة أصـله، قدم "الكرت" للتّاجر وهو يلهث، ولا يقـوى علـى التقـاط أنفاسـه تعبـاً وحماسـاً وتوتّراً وطمعاً في الحصول على عمـل، ألقـى التّـاجر نظـرة ازدراء علـى "كـرت المؤن"، ودفعه أرضاً بضربة من رأس إبهامه، وقال له باحتقـار: "هـذا يثبـت أنّـك فلسطينيّ متسوّل، هيّا اغربْ عن وجهي، لا عمل لكَ عندي".

تناول الصبيّ "الكرت" عن الأرض جريح الرّوح، وشدّ قبضة يمينه عليه كـي لا يضيّعه، فتفقد أسرته مخصّاصتها الشّهريّة من المؤن، وأطلق ساقيه للرّيح عائداً إلى بيته كي لا يرى التّاجر دموعه، فيشمتْ به.

عقوبة

كانت تتوقّع أن تحصل على تكريم خاصمن مديرة المدرسة التّي تدرس فيها بعد أن حصلتْ على المرتبة الثّانية في مسابقة الشّعر على مستوى الدّولة التّي تعيشه فيها لاجئة بعد طردها وعائلتها من مدينتهم الفلسطينيّة السّاحليّة.

إلاّ أنّ المديرة بدت مثل ثعلب أحمق أحرقت النّار ذنبه، اقتربت منها، وسألتها بتقزز: "أحقّاً أنتِ فلسطينيّة يا بنت؟"

شعرت الطّفلة الصّغيرة بتهمة ما تحاصرها على جريمة لم تقترفها، هداها فكرها المتلعثم إلى أن تدافع عن نفسها بردّ التّهمة الموّجه إليها على حين غرّة: "لكنّني أحمل الجنسيّة..."

مطّت المديرة صدرها بفخر رعويّ جافّ، فبرز ثدياها ضخمين متهدلين مثل قربة ماء جرباء، وقالتْ لها: "يا وقحة، غادري هذه المدرسة، ولا تعودي إليها إلاّ مع وليّ أمركِ".

طارت الطّفلة خارج غرفة المديرة، وهي لا تصدّق أنّها لا تزال على قيد الحياة بعد أن ثبّتتْ عليها بالدّليل والبرهان والاعتراف الصّريح جريمة أصلها الفلسطينيّ.

ظلّتْ طوال طريق العودة إلى البيت تشكر الله على أنّ مديرتها لم تكتشف أنّها تعيش في المخيّم، إذن لصلبتها على باب المدرسة تنكيلاً بها على هذه الجريمة النّكراء.

كماليّات

مندوب من منظّمة "الأونروا" يقدّم محاضـرة لطلبـة المدرسـة الابتدائيّـة في المخيّم حول التّخلّي عن الكماليّات من أجـل الانتصـار علـى الجـوع، يعـرض صوراً إلكترونيّة عبر نظام العرض الإلكترونـيّ الحاسـوبيّ الـذي أحضـره معـه حول الكماليّات في الطّعام، إنّه يضع في قائمة الكماليّات كلّ ما لذّ وطـاب مـن طعام وسكاكر ولحوم وأطايب أخرى لا يعرفون لها اسماً، ولم يرونها في تـاريخ مخيّمهم الصّدئ.

يتابعون صور هذه الأطايب بحسرة وتشهٍ، وهـي تعـرض أمـام جـوعهم كرقصة ذبيح على بلاط معبد، ثم يضـربون عنهـا بـأمر مـن المنـدوب السّـمين ومعلّماتهم المعسكرات في باحة المحاضرة ضبطاً لجوعهم، بحجّـة أنّهـا كماليّـات، وينسرحون يسمعونه يحدّثهم عن تحضير أطباق غذائيّة من زيت الصّـويا حيـث يقدّم لهم الكثير من العناصر الغذائيّة الأساسيّة التّي هم في حاجة لها لنموهم.

يظلّون يسـترقون النّظـرات العـاجزة علـى صـور الكماليّـات المعروضـة أمامهم على جدار العرض الأبيض، ويتمنّون بصمت مُتـواطئ عليـه لـو أنّهـم يظفرون بهذه الكماليّات.

كمان

الموت وحده هو من ينتظره في هذه اللّحظـات في مخـيّم "اليرمـوك" الـذي يسكنه، لا طعام أو شراب أو أمـن أو منقـذ أو دفء أو دواء أو درب مهـرب، ليس هناك إلاّ حطام يتناثر البشر في أجمته، وقصـف معتـوه يحاصـرهم مـن كـلّ مكان، وجنود موت يتربّصون بهم عند أبواب المخيمّ، وأيادٍ سوداء تتخطّف من

تريد منهم بسهولة، وتدفنه في عذاب معتقلات المتناحرين على السّلطة في سوريا حتى الموت.

لا يعرف لِمَ مخيّمه لقمة في أفواه المتناحرين والمتخاصمين، لكنّه يعلم أنّ تلك الوجوه الفلسطينيّة التّي يحبّها في هذا المخيّم قد طاردها الموت حتى أتلف حياتها، وأهدر آمالها.

أمّه ماتت في هذا الحصار بسبب نقص الدّواء، وطفلا أخته التّي تعيش معهم منذ موت زوجها قد ماتا بسبب سوء التّغذية، وحبيبته زينب أخذها جنود التّناحر ليلاً، وألقوا بها فجراً أمام المخيّم جثّة عارية من ملابسها ومن أنفاس الحياة.

الجميع الآن يعانون من العطش الشّديد، إذ لا ماء في المخيّم منذ أيّام عدّة، ولا مطر في الصّيف ينجدهم ممّا هم فيه من ظمأ.

يقرّر أن يموت بالطّريقة التّي يختارها هو، لا بالطّريقة التّي يختارها له الوحوش الذين يحاصرون المخيّم، يخرج إلى ذلك الدّمار الذي يحيط به، ويأخذ كمانه الحبيب الذي اشتراه بجملة أسريّة كاملة من التّبرّعات كي يحصل عليه، هو يجيد العزف عليه بالتّعلّم الذاتيّ وببعض الحصص التّي علّمها له الموسيقي الفلسطينيّ الذي يحمل الجنسيّة الدّنماركيّة حين جاء في زيارة للمخيّم قبل أعوام انصرمت.

يبدأ يعزف على كمانه الحزين أحزان العطش، يقرّر أن يظلّ يعزف حتى يقضي العطش عليه، فهذا الموت الذي يختاره، ويقبل به، وهو أن يموت وهو يعزف،، يتجمّع حوله كلّ من يسمعه من سكّان المخيّم، يعزف لثلاث ساعات

كاملة دون توقّف، يحلّق بموسيقاه في سماء الارتواء، ويحلّق أهل المخيّم معه في سمائه، وفجأة في أشدّ ساعات النّهار حرارة ينزل المطر.

نهر البارد

أحلامه وعمره وسنوات عذابه وأعوام غربته تنهار كلّها أمام عينيه مع تفجير بيته أمام عينيه في مخيّم "نهر البارد" في لبنان إثر صراعات داخليّة وخارجيّة دامية، يلخّص كلّ ما يجري في كلمتي مؤامرة وخيانة.

كلّ ما أنجزه في حياته يتلخّص في بناء منزل من الطّوب الأحمر من أربعة طوابق ليأوي فيه أسرته وأسرتي أخويه وأمّه وأخته العانس المريضة.

ها هو عالمه وسعيه وسنين طويلة من عمره ينهار أمام عينيه مع انهيار منزله، يجلس على كرسي خيزران أعرج القدم ملوّح اللّون من شمس طرقته لسنين، يشرع يدخّن سجائره، لا يأبه بأحلام أو ندم أو حزن، ويشرع يفكّر في خطّة محتملة لبناء بيت جديد في زمن قادم، فهو لا يقبل بالخسائر أبداً.

تقاسيم الشّتات

إقامة

أيّام قليلة، وينتهي تصريح إقامتها وإقامة أبنائها السّتّة في هذه المدينة الحارّة النّائية من بلاد العرب حيث يسمّونها أجنبيّة، ويسمّون الأجنبيّ مواطن!

عليها أن تغادر هذه المدينة إلى خارج الدّولة في غضون أيّام؛ فهنا لا يعترفون بفلسطينيّة وحيدة انتهى تصريح إقامتها، وفقدت منذ سنين هويتها الفلسطينيّة التّي تسمح لها بالعودة للعيش في مدينتها في فلسطين بسبب التحاقها منذ سنين بزوجها الذي يعمل في هذه المدينة الموحشة الرّوح، الدّبقة الإحساس، الميّتة الحنوّ.

زوجها فارق الحياة قبل شهرين بأزمة قلبيّة بعد أن أضرب قلبه عن العمل استسلاماً لأحزانه بعد سنين من العمل والهوان في هذه المدينة التّي امتصّت شبابه وصمته وأحلامه وكرامته دون رحمة.

طرقت أبواب المدينة جميعها أملاً في تجديد تصريح إقامتها، إذ لا مكان تذهب إليه في هذه الدّنيا إن غادرتْ هذه المدينة، لكن أيّاً من الأبواب لم يُفتح لها، ولا مجيباً رحيماً أو رؤوفاً رقّ لها.

حزمت حقائبها وأبناءها السّتة احتياطاً لأيّ مداهمة شرطيّة قد تُلقي بها خارج الحدود، بعد أن صرفت آخر ما تملك من مال، وباتت تنتظر الرّحيل القسريّ الذي تجهل متى يداهمها مثل موت، وكلّما سألها طفل من أطفالها

السّتّة عن وجهة سفرهم حضنته، وغربتْ في نحيب جهوريّ لا يؤمن بأنّ صوت المرأة عورة، وقالتْ له بحيرة وضياع: "لا أعرف إلى أين علينا الرّحيل".

البحر

هناك في بيتها الصّغير المنزوي في إحدى الدّروب الضّيّقة في مخيّم "اليرموك" لطالما حلمت بأن ترى البحر، وأن تركب سفينة تتهادى على صفحته الزّرقاء الرّائقة بصحبة أفراد عائلتها، البحر والسّفينة والرّحلة البحريّة بصحبة أسرتها كانت أحلامها المائيّة الملازمة لروحها التّائقة للمسافات والزّرقة والسّماء الرّحبة بعيداً عن زحام هذا المخيّم واكتظاظه وضيقه على الرّغم من مساحته الكبيرة.

الحرب الأهليّة السّوريّة افترست بيتها ومخيّم "اليرموك"، وشرّدت أهله أجمعين، وضمّتها وأسرتها إلى جموع المهجّرين قسراً هرباً بحياتهم والباقي النّزر من كرامتهم التّي هُدرتْ مرّة تلو الأخرى في هذه الحرب لأنّهم ضعفاء لا لشيء آخر.

هاهي الآن في سفينة مكتظة بالمهجرين الفلسطينيين متّجهة إلى إحدى الدّول الأوروبيّة، هي سفينة مهاجرّة بشكل غير شرعيّ، وها هو البحر يضرب سفينتهم دون رحمة، ويمزّق شراعها، ويبتلعها على هون بنكهة فزع وصراخ من عليها دون منجد أو معين.

البحر خدع أحلام طفولتها، الآن تكتشف متأخّرة هذه الخديعة الموجعة، وهاهو ينقضّ عليها ليبتلعها كما ابتلع أمام عينيها الكثير من ركّاب السّفينة، لا تقاومه، ولا تتضرّع للسّماء طلباً لعون أو إنقاذ أو معجزة، تغمض عينيها،

وتستسلم تماماً للبحر الذي يسلّها إليه على عجل ابتداءً من رأسها؛ فهي لا تزال تحبّ البحر حتى ولو خدعها، وغدر بها.

الصّفعة

من جديد يأتي جيرانه يشكون ابنه له، يعاجلونه في المحدّدة التّي يعمل أجيراً فيها بعريضة شفويّة من التّهم الكيدية لابنه الصّغير الشّقيّ الذي ضرب -مرّة أخرى- أحد أبنائهم، يغضب الأب بشدّة، ويحمرّ مثل الحديد الذي أخرجه للتّو من أتون الصّهر، يستجوب ابنه الصّغير أمامهم ليعرف ما سبب ضربه لابن جارهم، فيكتشف أنّ سبب ضربه له هو السّبب ذاته الذي يضربه ويضرب غيره من الصبيّة أترابه بسببه؛ فقد عيّره هذا الصبيّ من جديد بأنّه لاجئ فلسطينيّ.

يصفعه أبوه صفعة تطير الشّرّر من عينيه، يعاند دموعه كي لا يشمّت به الصبيّ الذي ضربه، يغادر الجيران راضين بهذه العقوبة التّي وقعتْ عليه للتّو، يشيّعهم بنظرات شزرى حاقدة، يشدّه أبوه من كتفه، فيكاد يخلعه، ويسأله من جديد: "هل حقّاً نعتكَ باللاّجئ؟"

- "ونعتني بابن الكلب أيضاً".
- "هل ضربته ضرباً موجعاً؟"
- "أبرحته ضرباً".
- "أحسنت يا بني، سلّم الله يمينك".

الرّسام

ربع قرن من عمره المضنى بالغربة والتّهجير أمضاه في بلاد الصّقيع يرسم وطنه فلسطين في لوحات شتّى، يبيع القليل منها كي يـؤمّن لقمـة عيشـه التّي تكفل له أن يظلّ على قيد الحياة في شقّة صغيرة كجحر اكتراها منذ زمن طويـل بأجرّة بخسة، أمّا باقي اللّوحات فيرصد ريعها لدعم بعض العائلات الفلسـطينيّة المنكوبة المقيمة في مدينته وللإنفاق على أولاد أخيه الشّـهيد الـذين يعيشـون في مخيم كئيب حزين في لبنان.

يشعر بأنّ الموت يداهم جسده الذي هو بعمر قضيّته الفلسـطينيّة، كيـف له أن يسمح للموت بأن يسرقه من حلمه الورديّ بـالعودة إلى وطنـه ليـدفن في ترابها؟

يكابر ألم سكرات الموت التّي تتنازعه، ويشرع يرسم لوحته الأخيرة، لقـد رسم طوال عمره لوحات لوطنه فلسطين، لكنّه لم يرسم في أيّ يـوم مضـى بابـاً يؤدّي به إلى وطنه.

مع طلوع الشّمس أنهى رسـم اللّوحـة، كانـت لوحـة لبـاب كـبير مطـوّق بأشجار الياسمين البريّ، وله مزلاج نحاسيّ كبير على شاكلة باب جدّه في قريته السّليبة.

فارقتْ روحه جسده بدعة، وداعبته مودّعة بنقـر أصـابعه التّـي لم تنفـكّ تمسك ريشة رسمه، وفتحت البـاب المرسـوم في اللّوحـة، ودلفـتْ إلى فلسـطين لتحقيق حلمه الوحيد بالعودة إلى وطنه، ثم أقفلت الباب خلفها.

سمكة

كان صيّاداً فلسطينيّاً قد ورث البحر عن أسلافه كما ورث زورقه وشباكه وقصصه وأساطيره وسمكه ونوارسه ومدّه وجزره، لكنّ الصّهاينة جعلوه ضائعاً في الأرض يطرق الموانئ والبحار والمحيطات والسّفن يبحث عن بحر غزّة بعد أن أبعدوه مع الكثير من الصّيادين، تلقّتهم اليونان في أوّل تطوافهم المائيّ السّخط، ثم بعد ذلك غادرها ليبحث عنه في كلّ مكان، لكنّه ظلّ سمكة خارج ماء الحياة.

لم يجد نفسه بعيداً عن بحر غزّة، التحق بالمقاومة المسلّحة الفلسطينيّة، وعاد سرّاً إلى وطنه مع بعض الفدائيين، البحر أوّل من صافح عينيه من وطنه، تنفّس ملء رئتيه ليبتلع نسيم البحر كلّه، وزفر ما تنفّس بقوله: "آه يا بحر غزّة!"

مقايضة

منذ أن هُجّر قسراً من فلسطين وهو يحلم بالرّجوع إليها، مخطّطات حياته كلّها كانت تدور حول الاستعداد لهذا المخطّط المصيريّ، حتى زواجه من تلك الأجنبيّة كان لأنّها أبدت له تعاطفاً عريضاً مع القضيّة الفلسطينيّة، وأكّدت له أنّها تناصرها مناصرة كاملة، الأموال التّي جمعها في ذلك البلد الذي يفصله عن وطنه بحور وجبال وسهول كانت لأجل العودة إلى وطنه، تلك الابنة الجميلة التّي رزقه الله بها أنشأها لتكون أمّاً فلسطينيّة، وذلك الابن الباسق الفتوّة والبأس أعدّه غرساً صالحاً لأجل أن يُزرع من جديد في تراب وطنه.

دفع شطر ثروته العملاقة التّي حصّـلها مـن تجـارة الأخشـاب رشـوة للصّهاينة الخونة كي يحصّل هويّة فلسطينيّة بعد أن أُنتزعت منه منذ سنين طويلة، والشّطر الآخر من ثروته دفعه كاملاً إرضاء لزوجته الأجنبيّة التّي كشّـرت عـن أنيابها، وفضّلت الأموال على أيّ قضيّة عادلة في هذه الدّنيا أيّاً كانت، لقد دفعه لها برضا كامل كي تتنازل له عن حضانة ابنيهما، فوافقتْ على ذلك دون تـردّد، أخذتْ المال، وأخذ ابنيه الفلسـطينيين ليعـود بهمـا إلى وطنهمـا، فهنـاك مهمّـة مقدّسة تنتظرهما هناك.

حذاء أبيض

في ليلة مداهمة قريتها من قِبَل عصابات الصّهاينة ضاعتْ عن أهلها لأيّـام طويلة لأنّها تأخّرت عن الهرب معهم كي تلبس حذاءها الأبيض الجديـد الـذي تقطّعت نياط قلبها رغبة في شرائه، وحلمت به لأشهر طويلة، وخاضت لأجـل الحصول عليه حروباً حامية الوطيس دامية الدّموع والجدال لأجل أن تجبر أمّهـا على شرائه لها من نزير مصروف البيت.

ما كانت لتضحّي بهذا الحذاء الأبيض الأثير، ولو أدّى ذلـك إلى أن تتـأخّر عن ركب أهلها الخائفين من الفتك والقتل وهدر شرفهم، وهي من بخلت علـى قدميها بانتعاله كي لا يهترئ.

لقد وجدتْ أهلها بصـعوبة في مخيمـات الحـدود بعـد أن نهشـها الخـوف، وعصرتها الأيدي الباحثة لها عن درب وسط أرتال مـن اللّحـم المضـنى الملقـى على قارعة الطّريق تحت شمس تسلقهم دون رحمة.

أربعون عاماً مضت وهي لا تنام إلا منتعلة حذاءها أكان أبيض أم غير أبيض خوفاً من أن تضيع عن أهلها من جديد، أو يضيع أهلها عنها بسبب حذاء أثير.

أجيرة

تجوب الحقل بثوبها الفلسطينيّ المهترئ الذي نجا وحده من محرقة الاجتياح الصّهيونيّ التّي اجتاحت أرض قريتها، فسلختهم عن حياتهم وكرامتهم وصفو عيشهم وحنون جمعتهم، وألقت بهم لاجئين ضائعين في دروب الدّنيا، الآن هي تعمل أجيرة مستعبدة في قطف ثمار الطّماطم في حقل ذلك الجلف النّحيف ذي الأصداع المطبّقة، والصّدر الذي مُطّ باتّجاه تجويف البطن، ودفع أضلاعه يابسة مشينة مسيئة لعيني كلّ ما يلقى نظرة عليه، هو جثّة متعفّنة منتصبة على قدمين.

لا تبغي من هذا العمل المهين إلاّ أن تؤمّن الخبز والماء النّظيف وبعض الخضار والأرز لزوجها المقعد وحماتها المسنّة وأطفالها الكثر، تعمل من شروق الشّمس حتى غروبها مثل ثور مربوط العينين بساقية ملعونة لا تتوّقف عن الدّوران، اللّجوء القسريّ حوّلها من صاحبة أرض ميسورة الحال مصونة الكرامة إلى لاجئة فقيرة معدمة تخشى أن تُطرد يوماً من عملها، فيموت زوجها وأولادها وحماتها جوعاً.

ذلك الرّجل الجيفة صاحب الأرض يريد أن يهتك عرضها إلى جانب استحواذه على عرق جبينها وكدّ جسدها ثمناً لقروشه القليلة، يطاردها في أرضه ليل نهار، ويحاول أن يستفرد بها بأيّ شكل من الأشكال كي يسلبها عزيزها، ترفض ذلك، وتسبّه، تمسح عرقها بردني ثوبها القديم ذي الحرير

الأخضر المهترئ، وتقرّر أن لا تخضع له حتى ولو ماتت أسرتها كاملة جوعاً في سبيل أن تدافع عن شرفها، فهو ليس للبيع، ولا ثمناً لحياة أحد.

ابن شهيد

هو الأوّل في صفّه، يحاول أن يتقرّب من زملائه، لكنّهم يصدّونه حسداً من عند أنفسهم، يغيظهم أنّ هذا الطّالب الفلسطينيّ المعدم الذي يفوقهم ذكاء وتحصيلاً، ويحظى بحبّ معلّميه واحترامهم، لم يأتِ إلى هذه المدرسة إلاّ منذ عام، وعلى الرّغم من ذلك تفوّق عليهم جميعاً، يغيظونه بالقصص التّي يحيكونها حول التحاقه بمدرستهم، بعضهم يلقّبونه بالطّريد، وآخرون يلقّبونه باللاّجئ، وثلّة أكثر قسوة وغلظة قلب يلقّبونه بالشّحّاذ، لكنّه يظلّ صامتاً لا يردّ عليهم إساءتهم بأيّ إساءة، فيزدادون شططاً وغيّاً في الإساءة إليه.

فاض حقدهم عليه، فكوى قلوبهم، تربّصوا به عند خروجه من المدرسة وهو ينوء تحت ثقل حقيبته المدرسيّة العتيقة، تكاثروا عليه على حين غفلة، وانهالوا عليه ضرباً وسباباً وتحقيراً، مزّقوا قميصه عنه، هو القميص الوحيد غير المهترئ الذي يملكه، لم يستطع أن يمنع دموعه من أن تذلّه أكثر أمام ضاربيه من الصّغار الحاقدين، لم يمسحها، بل حدّق بهم دون حراك، وقال لهم مستهجناً ضربهم له: "أنا ابن شهيد".

خيمة

الجدّة تصمّم على أن تروي حكايات التّغريبة الفلسطينيّة لحفدتها كي لا ينسوا أصلهم وقضيّتهم ومعاناة شعبهم، الحفيدة الصّغيرة الأكثر ألمحيّة تسأل الجدّة بحرقة: "لماذا يا جدتي في نهاية الحكايات كلّها التّي تروينها لنا الفلسطينيون يفقدون بيوتهم، ويُهجّرون من أراضيهم، ويجبرون على الرّحيل، ويسكنون في خيمة في مكان ما؟"

تصمت الجدّة، وتشعر بخوف يترّبص بها خلف إرهاصة هذا السّؤال البريء، وتسأل نفسها بتهيّب وتكتّم: "أهناك رحيل من جديد؟ وخيمة أخرى في انتظارها في مكان آخر؟"

تؤمّل نفسها بموت هادئ بعيداً عن خيمة النّفي والطّرد والتّرحيل، وتتعوّذ من الشّيطان الرّجيم الذي يوسوس لها بالخيمة الملعونة.

قارورة

لا تعرف الكثير عن قضيّتها الفلسطينيّة، ولا تريد أن تعرف شيئاً عنها، نصفها الأوروبيّ قد طغى على نصفها الفلسطينيّ، لكنّها تعلم تماماً أنّ والدها الذي تحبّه كثيراً كان يحلم بأن يُدفن في تراب وطنه، هي تريد أن تحقّق له أمنيته الأولى والأخيرة. حاولتْ أن تنقل جثمانه ليُدفن في فلسطين، لكنّها عجزت عن تحقيق هذا الهدف.

نصحتها أمّها بأن تستسلم للعجز، وأن تدفن والدها في مقبرة المدينة الأوروبيّة، وأن تضرب صفحاً عن هذا العناد الذي يغرّمها دون مغنم، لكنّها

كانت مصّممة على تحقيق رغبته الأخيرة وحلم حياته البائدة في أحـزان المنـافي، أحرقتْ جسده في محرقة الموتى معتذرة له عن ذلك لجلال الغاية، ودسّت رمـاده في قارورة، وسافرتْ إلى فلسطين في قافلة سياحيّة أوروبيّة، واغتنمتْ أوّل فرصة لدفن رماد القارورة في تراب فلسطين. فعاد والدها إلى تراب وطنـه رغـم أنـف الصّهاينة.

خَرَف

عمره أكثر من مئة عام وازداد عشرة، لكنّه ما يزال ينتظر أن يعـود إلى بيتـه الذي يسميه "العلالي" في قريته الجبليّة في شمال فلسطين، جنّته الأرضيّة معلّقة في ذلك المكان.

أبداً لم يحدّث أحداً من أبنائه أو عائلته عن حياتـه في تلـك "العلالـي" حيـث كان الثّري المطاع، وسيّد الجميع. ظلّ يدفن عزّه البائد في صدره وذاكرتـه وهـو يتجرّع المهانة، ويعمل أجيراً بقروش قليلـة خـارج وطنـه بعـد أن صـرّ زوجتـه وأولاده، وهرب بهم من وجه الموت.

أصابه الخرف في نزاعه، شهرٌ كامل وهو ينازع في سريره، وحولـه مئـات الأبناء والبنات والحفدة والأنسباء، كانوا جميعاً حوله لا يفارقونه يسمعونه يحدّث أطيافاً يراها في بيته في "العلالي" في "البلاد" كما يسمّى فلسطين.

تمنّوا أن يطول نزاعه كي يستمتع أكثر بخرفه؛ لقد رأوه لأوّل مرّة يضحك ملء شدقيه، كان يعيش تفاصيل حياته الهانئة السّعيدة، ويروي لهم فصول حبّـه لزوجته الثّانية سارة، رأى أهل قريته جميعـاً الأمـوات مـنهم والأحيـاء يحدّثونـه ويصافحونه بوقار وإجلال، ويلقّبونه بـ"سيّد العلالي".

أخيراً أسدل الموت جفني جدّهم كايد الصّالح الذي عاد بعد فراق طويل إلى "العلالي" في قريته الجميلة في أعالي جبال فلسطين.

صوت

في البعيد خلف البحار والمحيطات والجبال والسّهول حيث كان المهجر القسريّ لجدّه وأبيه وله من بعدهما علّموه زوراً وبهتاناً وحمقاً أنّ الكلمة تغلب الرّصاصة، وأنّ صوت الحقّ أعلى من صوت المدفع.

تكلّم كثيراً، وكتب أكثر، وعلا بصوته يدافع عن قضيّة شعبه الفلسطينيّ، لكنّه سريعاً ما اكتشف أن لا آذان تسمعه هناك، ولا قلوب تريد أن تفقه ما يقول.

على حين يقين خلع كلّ ما علّمه الغرباء له من أفكار معلّبة منتهية الصّلاحيّة، واشترى بمدّخراته كاملة ما عليه أن يشتري من سلاح، ويمّم نحو وطنه حيثُ السّلاح هو من يُسمع من في أذنيه وقرٌ أو صممٌ أو مرض.

الصبيّ المحظوظ

ربت رجل أشقر نحيف ككلب سلوقيّ جائع على كتفي ذلك الصبيّ الذي رأى بأمّ عينيه ذبح أفراد أسرته الفلسطينيّة على أيدي الجنود الأبالسة الصّهاينة، ثم داعب شعره الخاروفيّ الأجعد بحنان مصنوع مزخرف، وقال لصحفيّ يسجّل كلامه في ورقه دفتر جلديّ صغير: "بوصفي رئيس طواقم الإغاثة للنّازحين

الفلسطينيين أستطيع القول إنّ هذا الصبيّ محظوظ جدّاً؛ إذ نجا من الموت في حين دُبح أهله في طرفة عين".

حاول الصّحفيّ أن يسجّل على عجل كلام الرّجل الأشقر النّحيف، لكنّ قلمه عصاه، فما استطاع أبداً أن يكتب كلمة "محظوظ"، وكتب بدلاً عنها كلمة "منكوب"، وأبى القلم بعدها أن يكتب أيّ كلمة أخرى؛ إذ دخل في محراب الخجل من عار الإنسانيّة الصّامتة!

طابور

منذ الصّباح الباكر والشّمس تصليهم دون رحمة في طوابير ذلٍ في انتظار أن يحصلوا على مخصّصاتهم من المؤن التّي تُصرف لهم وفق بطاقات إعانة لمنعهم من الموت، ولحبسهم في ضنك موصول لا ينقضي.

ذلك الوغد الضّخم يضربهم بالسّوط كي يمنعهم من التّململ، ويفضّ به أيّ تحلّق حوله من النّساء المنهكات والأطفال الجياع والرّجال الذي يحلمون بأن يأخذوا حصصهم من الطّعام لصغارهم الجوعى بأسرع ما يمكن.

تثور الكرامة في دمه عندما يراه يضرب امرأة عجوز بسوطه الحارق، يهدّ عليه مثل جبل يتداعى عليه، يجرّده من سوطه، ويضربه به حتى يدميه، فيأخذ يستجير بمن حوله دون مجير.

يقول له وريقه يتقافز خارج فمه بزفر موصول قد شُفي غليله: "يا ابن الكلب، لماذا تضربها؟ نحن بشر لا حيوانات، لا نريد طعامكم، نريد أن نموت بكرامة".

يخطو بضع خطوات مبتعداً عن المكان معتقـداً أنّ الموجـودين في الطّـابور قد لحقوا به، يسترق النّظر إلى الذين تركهم خلفه، فيراهم ما يزالون واقفين بذلٍ في أماكنهم ينتظرون حصصهم الضّئيلة من الطّعام، يتوقّف عن المسير، ويجمد في مكانه، يضغط على معدته الفارغة التّي تقرقع جوعاً، يطأطئ رأسـه، ويعـود إلى الصّف ليقف من جديد في آخره في انتظار دوره في استلام حصّـته مـن الطّعـام دون أن ينبس ببنت شفة.

رسائل شوق

كان صوت المذيعة كوثر النّشاشيبي هو ما ينتظره في كلّ صبح مـذ اعتـاد على أن يحمل مذياعه القديم الذي يعمل على البّطاريات إلى كلّ مكان يـذهب إليه، يظلّ يتابع عبره برنامج "رسائل شوق" منتظراً بأمـل ورجـاء وصـول رسـالة تأتيه من ابنه جابر تخبره بأنّه ما يزال على قيد الحياة، يحفظ كلّ رسالة يسمعها في هذا البرنامج، لعلّ اسماً يُذكر فيها يعرفه، فيحمل على عجل بشارة الأمـل لأم مفجوعة أو لأب مرهون للانتظار.

يعرف أنّ لا رسالة ستصله من جابر؛ فهو قد أُستشـهد منـذ زمـن طويـل، لكنّه يخفي هذا الأمر عن زوجته لطفيّة كي لا يقتلها هذا الخبر المفجـع، ويخفيـه عن نفسه كذلك لا يعدم سببه الوحيد للبقاء على قيد الحياة.

يظلّ ينتظر رسالة تأتيه من جابر، ويرهف السّمع لصوت المذيعـة، وهـي تقرأ رسائل الشّوق، ولا يقفل مذياعه إلاّ عندما يسمع المقطع الكامل من أغنيـة فيروز وهي تشدو بأغنية "وسلامي لكم"، ويتجاهل من يتهامسون حوله محوقلون حزناً على عقله الذي غادره منذ أُستشهد ابنه الفدائيّ جابر.

طيران

دون سابق إنذار وجد نفسه معصوب العينين حافي القدمين بمنامة النّوم المخطّطة القديمة منفياً إلى دولة ما بعد البحر الأبيض المتوسّط، بعد رحلة طويلة، عرف أنّه -لسوء حظّه- قد حظّي بلقب مُبعد فلسطينيّ.

منذ ذلك اليوم الذي وجد نفسه فيه بعيداً عن فلسطين، وهو يعمل على مشروع حياتي واحد، وهو أن يعود إلى بيته هناك حيث أمّه وأهله وزوجته وطلبته في المدرسة الابتدائيّة.

جرّب أن يعود إليها بحراً، فانكشف أمره، وغرق زورقه، وكاد يقضي غرقاً، جرّب أن يعود براً عبر أكثر من جهة ففشل ذلك، جرّب الأنفاق الأرضيّة، فانهارت عليه، وكادت تدفنه حيّاً خارج وطنه.

لم يبقَ أمامه طريق للعودة إلى فلسطين إلاّ عبر السّماء، يحلّق في سقفها الحارّق المشّع، يلمح طائراً حرّاً في السّماء، يحسده على أقداره العلويّة، ويتساءل لو أنّه ركّب جناحين هل يمكنهما أن يحلقّا به إلى مبتغاه الأوحد بكلّ ما يحمل من أوزان ثقيلة من الأحزان والأشواق وخيبات الأمل؟

قطارات

التقوا على قارعة سفر ودروب افتراق كما يلتقي الفلسطينيون عادة، أتوا من كلّ وطن إلاّ من وطنهم الحقيقيّ، كي يقطعوا ساعات الانتظار في محطّة القطارات حكوا قصصهم التّي تبدأ جميعها بالانتساب الدّقيق إلى أرض ما من أراضي وطنهم الأمّ، وعندما أزف وقت الرّحيل، وأعلنت القطارات مواعيد

السّفر والافتراق قبض كلّ منهم على جواز سفره الذي يكرّس غربته، ويرسم أحزانه على شكل جنسيّة ما حصل عليها في آخر رحلة التّطواف والتّشرّد والضّياع، تراهنوا على عدم البكاء حزناً على فراقهم الجديد، وابتسموا على مضض، وتصنّعوا اللاّمبالاة، واتّفقوا على أن يلتقوا ذات فرح في وطنهم فلسطين، وتعاهدوا على أن يفترقوا على ابتسامة وضحك، وتراهنوا على أن لا أحد منهم سوف يبكي لوعة الفراق وبرودة الغربة.

علت في المحطّة الباردة أصوات ضحكاتهم الفلسطينيّة المغرقة في لهجاتهم المحليّة على الرّغم من دموعهم المتوارية خلفها بصعوبة.

كلّ منهم توّجه نحو قطاره الذي سيحمله من جديد نحو البعيد، لا أحد منهم نظر خلفه وهو يسير قدماً نحو مبتغاه القسريّ كي لا يكتشف الجميع أنّه قد بكى، وخسر الرّهان.

غداء

تحمل أخيها في كلّ ظهيرة تحت حرارة الغور السّالقة، وتسير إلى قلب مخيّم "الكرامة" كي تتناول وأخوها الصّغير طعام الغداء في مطعم وكالة "الأونروا" الذي يقدّم وجبة الغداء بشكل يوميّ لكلّ من يحمل بطاقة استخدام للمطعم، والدها دبّر لها ولأخيها بطاقتين للأكل في المطعم بشكل يوميّ، لكنّه عجز عن تأمين بطاقة ثالثة لأمّها.

تخبئ تحت ملابسها كيساً بلاستيكيّاً شفّافاً، تسكب فيه حصّتها من الطّعام لتعود بها إلى أمّها، فتشتركان في وجبة غداء واحدة، وتنامان دون عشاء

في حين تدّخر لأخيها الصّغير نصف برتقالة تُصرف لكلّ طفل صغير مع وجبة غدائه، فتمنعه من أكلها في الغداء لتكون وجبة عشائه.

حملت وجبة طعامها ووجبة طعام أخيها، فانزلقت الوجبتان من يديها، وانسكبتا على الأرض، وتدحرجت نصف حبّة البرتقال نحو البعيد متعفّرة بالتّراب وروث الدّواب.

رجت المسؤولة عن مطعم الوكالة أن تعطيها وجبة واحدة أخرى بدل عن الوجبتين المنسكبتين منها، لكنّ المسؤولة رفضتْ ذلك رفضاً قاطعاً، ونهرتها بشدّة، وأمرتها بأن تنتظر إلى اليوم التّالي كي تنال وجبتي غداء جديدتين.

حملت أخاها بحزن وندم على ما هدرتْ من طعام، وغادرت مطعم الوكالة كسيفة الخاطر، وظلّت طوال طريق العودة إلى البيت تفكّر بأمّها التّي تنتظرها جوعى أمام بوابة البيت لتأخذ حصتها من الغداء.

ولادة متعسّرة

اعتادت على الولادات المتعسّرة، لكن ذلك لم يثنها عن إنجاب ثلاثة عشر ابناً وابنة، فهذه ولادتها الرّابعة عشرة، هي الأصعب، وهي من تقدّم العمر بها، ولاكتها السّنون والهموم.

زجرتها الممرّضات وهن يرمقن ثوبها الفلسطينيّ القديم الذي يجهر بأنّها قادمة من البعيد، ولا تنتمي لهنّ، طالبنها بكتم صراخ ألمها الذي يتفتّق عن خروج جنينها من جسدها، قالتْ إحداهنّ: "اخرسي، ولا تصرخي أكثر؛ لقد أزعجت الجميع بصوتكِ. من تظّنين أنّك ستلدين؟"

ردّت الفلسطينيّة بفخر، وهي تكزّ على شفتيها، وتبلع ريقها، وتدفع كلماتها بصعوبة خارج نفسها الموجوعة: "سألد فدائيّ فلسطينيّ يا بنت الكلب".

موت

جدّته لأبيه حيّرته دائماً بشخصيتها المتذمّرة من كلّ شيء، لم يعجبها في يوم طعام أو شراب أو ماء أو هواء أو لباس أو معشر أو منظر أو بشر في مهاجرها التّي ساطت غربتها، وكوتْ نفسها ضياعاً ومعاناة ووحدة وقلقاً، وظلّت تقول جملتها الشّهيرة: "كلّ شيء في فلسطين أجمل".

عندما مرضتْ أقسمت على أبنائها وحفدتها وأنسبائها أن ينقلوها لتموت في فلسطين قائلة: "الموت في فلسطين أجمل".

عندما خاضتْ باستسلام سكرات الموت أوصت الجميع بأن يدفنوها في أرض فلسطين قائلة بثقة من رأى اليقين في لحظات النّزع: "الأرض في فلسطين أحنّ على أجساد أهلها".

قلادة

كلّ ما تملك من وطنها هو هذه القلادة المعدنيّة على شكل خارطة فلسطين معلّقة في رقبتها بخيط قنّب، تحرص على أن تخرج هذه القلادة من عنق سترتها كي لا تختفي في صدرها عن الأعين التّي تتفاخر أمامها بفلسطينيّتها.

سكنتْ مع أسرتها منذ وقت قريب في هذا الحيّ في ولاية أمريكيّة نائية بعد أن جاءت مع أسرتها للعيش هنا مع النّاجين من عمليّات الإبادة الجماعيّة

للفلسطينيين في مخيّمها، والتحقتْ حديثاً بهذه المدرسة الابتدائيّة الجميلة القابعة في غابة خضراء صغيرة، أجلستها المعلّمة بالقرب من تلك الشّقراء الصّغيرة التّي تعلّقتْ عينيها بالقلادة المعدنيّة التّي خطفتْ إعجابها بلونها القديم المشبّع بالخضرة المسودّة، استهدتْ القلادة من الطّفلة الفلسطينيّة التّي سخرتْ من هذا الاستهداء بابتسامة ميّتة، وقالتْ لها بحزم وإصرار: "لا أهدي فلسطين لأيّ أحد".

مطار

التقيا في صالة الانتظار في المطار، صمّم الصّهيونيّ الذي يلبس لوناً أسود يماثل لون داخله، ويهزّ جدائله ذات الرّائحة المتعفّنة على أن يدسّ رأسه بالكتاب الذي يقرؤه الرّجل الذي جلس صدفة إلى يمينه.

من السّهل على جاره في المقعد أن يدرك أنّه صهيونيّ من ملبسه وطاقيته وجدّائل شعره وترانيمه التّي تشبه نقر طائر الخشب في جذع شجرة، ورائحته صنانه هي برهان يقطع الشّك باليقين على أنّه صهيونيّ. في حين صعب على الصّهيونيّ المسافر أن يخمّن أن جاره هو فلسطينيّ مهجّر.

في محاولة فاشلة من الصّهيونيّ لاستدراج جاره لأيّ حديث كان لتزجية الوقت سأله بالإنجليزيّة التّي خمّن أنّه قد تكون لغته: "أنا إسرائيليّ، وأنا في طريق عودتي إلى موطنيّ إسرائيل. إلى أين تسافر أنت؟"

أجابه الرّجل بتقزّز: "إلى بولندا".

سأل الصّهيونيّ باهتمام مزوّر: "أهي وطنكَ؟"

أجابه الفلسطينيّ بتقزّز: "بل وطنكَ أنتَ. أمّا وطنيّ فهي فلسطين".

قرش

خرج مُهجّراً قهراً من فلسطين، لا يملك شيئاً إلاّ قرشاً فلسطينيّاً مثقوباً كان يدسّه في جيبه مفتخراً به منذ أن أهداه له عمّه الشّهيد في ثورة الفدائيين ضدّ الانتداب البريطانيّ في عام ١٩٣٦، كلّ ما آل إليه من وطنه هو قرش مثقوب منسيّ في جيب ثوبه الوحيد الذي خرج به بعد أن خسر أهله وبيته وأصدقاءه وعالمه كلّه، كما خسر الكتّاب الذي يدرس فيه والمصحف الشّريف المذهّب النّادر الذي أحضره عمّه له هديّة من الأراضي الحجازيّة عندما ذهب إلى الحجّ.

الآن لم يعد يملك شيئاً، فزهد بعقله الذي يذكّره بمأساته، عقد القرش الفلسطينيّ الوحيد الذي يملكه بخيط صوف أحمر اللّون وجده متروكاً مهملاً في الأرض، وعلّقه في رقبته، وانخرط يلاحق عوالمه الماضية الرّاحلة عنه في أحلام يقظة يطاردها ليل نهار في المهجر الذي دُفع إليه مع غيره من المدفوعين إليه من الفلسطينيين.

كلّما استوقفه أحدهم مشفقاً على خبله داسّاً في يده بعض المال كي يستعين به على كربه وشطحاته وجنونه المقيم يقفل كفّ يده بقوّة وإصرار، ويرفض أن تستلقي فيها أيّ نقود غريبة، ويقول لمن يتصدّق عليه رأفة به وإشفاقاً على حاله: "أريد قرشاً فلسطينيّاً".

بُقجة [1]

هي من أرسلتْ له هذه البقجة مع أخيها الأصغر، لا بدّ أنّه قد خاطر بنفسه ليوصلها إليه قبل أن تقلع السّفينة، وتحمله ورفاقه بعيداً عن لبنان ليكون أبعد عن فلسطينه، يمسك البقجة، ويضعها أرضاً متشائماً منها؛ فلطالما كره البقج؛ فأمّه هجُرت عن وطنها بواحدة مثلها، وطفولته اكتستْ من بقج الإعانات التّي ما أفرحته يوماً ببنطال جديد أو قميص يناسبه أو منامة دون ثقوب، البقجة كسرت خاطره كثيراً في طفولته، وأبكته مراراً على عيد يداهم طفولته دون ملابس جديدة، وها هي الآن تكسر خاطره عندما تكون آخر عهده بمن يحبّها، لا يسأل نفسه ماذا وضعت رباب فيها من ملابس وأشياء تخمّن أنّه قد يحتاجها، يرفعها من الأرض، ويقرّبها من أنفه، ويحاول أن يشمّ فيها عبق رباب دون أن تلمحه عيون الرّفاق المشغولة عنه بألم الفراق وقلق القادم ومتابعة الأفق المستلقي في أقصى البحر.

يقرّب البقجة من صدره، ويضمّها إليه لتنام رباب على صدره دون أن يعرف أنّها الآن وحدها دون حمايته تواجه الإبادة كما يواجهها أهالي مخيّم "صبرا وشاتيلا" بعد أن غادره الفدائيون الفلسطينيون مجبرين على ذلك، يضمّها أكثر إلى صدره، ويحلم بـرباب.

١- صرّة ثياب أو نحوها.

وحش

لا بدّ أنّ الجنديّ الصّهيونيّ ليس إنساناً، بل وحشاً كاسراً كي يقوى قلبه على قتل الأبرياء، وتهجيرهم، وسرقة فلسطينهم، لم يرَ في حياته جنديّاً صهيونيّاً، فقد وُلد في مخيّم "الكرامة" خارج وطنه، لكنّه يعلم من والديه أنّ الوحوش الصّهيونيّة تعسكر هناك غربيّ النّهر.

لقد تبعتهم الوحوش المطاردة إلى مخيّم "الكرامة" محصّنّة بدبّابات عملاقة وآليّات مدمّرة لتقضي على الفدائيين، سريعاً ما انهزموا شرّ هزيمة على يد المتصدّين لهم، ووقعوا في الأسر، سُمح له ولأطفال المخيّم الفضوليين الذي حاصروا الدّبابات الصّهيونيّة المأسورة بأن يطلّوا على الوحوش المحاصرة فيها.

كان أوّل من أطل من فوّهة الدبّابة ليلقي نظرة على من يقبع فيها، رأى جنديّاً صهيونيّاً مكبّلاً بالسّلاسل مثبّتاً في قاع الدبّابة لا يستطيع الحراك. أخبره الأبطال المنتصرون أنّ العدوّ الصّهيونيّ أرسل جنوده إلى حرب "الكرامة" مكبّلين بالسّلاسل كي يضمن أن لا يهربوا من ساحة المعركة لشدّة جبنهم.

تفاجأ بأنّ الجنديّ الصّهيونيّ هو رجل لا وحش كما كان يعتقد، ابتسم البطل المنتصر، وقال له: "لا، هو ليس وحشاً، هو مجرّد كلب جبان مقيّد بالسّلاسل".

دعم

قرّروا أن يدعموا القضيّة الفلسطينيّة دعماً قويّاً يشدّ من أزرها، أسّسوا منظمة عربيّة إسلاميّة عالميّة لذلك، جمعوا لها المال العرمرم، ووزّعوا المناصب الفخريّة والإداريّة وفق مبالغ المال المقدّمة من بلادهم ومؤسّساتهم، وعدوا الجماهير التّائقة للحرّيّة والكرامة العربيّة بأن يكون لهم إجراء داعم ومؤثّر وسريع، وأمّلوا الشّعب الفلسطينيّ في الأراضي المحتلّة والشّتات بحلول جذريّة لمعاناتهم، وبقرار واحد جريء منتظر مأمول قرّروا أن يستأجروا قرية سياحيّة في جزيرة نائية لتكون لهم فيها خلوة لمدّة غير محدودة كي يفكّروا بهدوء بما عليهم أن يفعلوه في سبيل تحقيق وعودهم، ورصدوا ميزانيّة عملاقة من التّبرّعات العربيّة لمنظّمتهم كي يرفّهوا عن أنفسهم بالنّساء والخمر والملذّات كي تتفتّق ذواتهم المظلمة عن فكرة منيرة لدعم الفلسطينيين، وطال اجتماعهم، وطال انتظار الفلسطينيين لحلّ لا يأتي.

دماء

هناك على سطح الأرض يتناحرون عرباً تحت مسميّات فلسطينيّ وغير فلسطينيّ، لا تعنيه هذه الحرب، يغلق على نفسه باب القبو، ويعتزل هناك بعيداً عن حمّام الدّم الرّهيب، فهو يعلم أنّ مؤامرة تقتيل الفلسطينيين هي جزء من مؤامرة إبادتهم وإقامة دولة كبرى للكيان الصّهيونيّ.

لا يريد أن يتورّط في هذه المهزلة، يضرب صفحاً دون الخوض في هذه المؤامرة، يهرب من فريقه الذي لا يفهم لِمَ يحارب، ويأخذ بيد صديقه

الفلسطينيّ، وينعزلان في القبو، هناك يتذكّران أيّام الطّفولة، ويتصفّحان صور اللّهو والبراءة، ويتركان العالم في الخارج يتناحر في دروب جهنّم.

منهاج جديد

يوبّخها والدها بشدّة كما يوبّخ سائر إخوتها إن لم تحصّل العلامة النّهائيّة الكاملة في المواد التّي تدرسها في مدرسة "الأونروا" التّي يدرسون فيها بالمجّان؛ ويكرّر على مسامعهم دون كلل أو ملل: "ليس للفلسطينيين ثروة سوى العلم، إيّاكم والجهل، عليكم جميعاً أن تواصلوا دراساتكم العلميّة حتى لو بعت ملابسي وملابسكم لأجل ذلك".

منهاج جديد قد أصدرته الدّولة العربيّة التّي يدرسون فيها، فرحوا لأنّهم سيحصلون جميعهم في الصّف على كتب جديدة غير مستعملة بخلاف ما ألفوا الحصول عليه من كتب مستعملة مهترئة.

حصلتْ على كتابي تاريخ وجغرافيا جديدين، تفوح منهما رائحة الورق الجديد الذي لم تعبث به الأيدي الآدميّة، في كتاب الجغرافيا بحثت عن خارطة فلسطين، فوجدتْ اسم إسرائيل يتربّع في وسطها، وفي مادّة التّاريخ وجدت اسم إسرائيل بوصفها دولة من دول الجوار.

أطبقت الكتابين دون اهتمام بأن يتمزّقا، وما عادت تبالي بأن تأخذ أصفاراً في مادتي الجغرافيا والتّاريخ لأنّهما مادتان خائنتان.

صهاينة

منذ كانتْ صغيرة علّمها أهلها أنّ اليهود الصّهاينة هم من اغتصبوا وطنها فلسطين، وطردوها وشعبها منه، كبرتْ وفلسطين معلّقة في صدرها عشقاً، وفي رقبتها خريطة من المعدن لا تفارقها أبداً.

ذلك الجنديّ العربيّ هو أوّل من قطع قلادتها الفلسطينيّة في مسيرة احتجاجيّة على استمرار الاحتلال الصّهيونيّ لفلسطين، وألقى بها على الأرض، وداسها بحذائه العسكريّ الغليظ، وقال لها: "الصّهاينة أحسن منكم! ما الذي أتى بكم إلينا؟"

بكت أيّاماً طويلة في طفولتها تأثّراً من هذا الموقف المخيّب للآمال.

لكنّها اكتشفت عندما كبرت أنّ هذا الموقف هو الأقلّ إيلاماً إذ قورن بتهجيرها وأهلها من موطنها إلى بلد آخر، واضطهادهم خبط عشواء مرّة تلو الأخرى لأنّهم كما تقول جدّتها: "حمّالين الأسى والإساءة".

اليوم طردها صاحب البيت وأهلها من بيتهم القنّ الذي يستأجرونه منذ عقدين من الزّمان في خضم الانفلات الأمنيّ وتغيير مراكز السّلطة في هذه البلد العربيّ الذي يعيشون فيه؛ فقد طمع صاحب البيت في المزيد من المال إذا ما ألقى بهم في الشّارع، وأجّر البيت لمن يدفع أكثر منهم. وقد غنم من هذا الانقلاب عليهم أثاثهم وملابسهم وكلّ ما يملكون بعد أن طردهم من بيتهم عراة حفاة خالي الوفاض، وما وجدوا أحداً ينتصر لهم.

من جديد وجدوا أنفسهم أسرة فلسطينيّة في مهبّ الضّياع. التفتتْ إلى أمّها التّي عضّها الحزن حتى نخر صبرها، وقالتْ لها معاتبة: "لقد قلتِ لي أن

الصّهاينة موجودين في فلسطين فقط"، ردّت الأمّ، وهي تجرّ جسدها وزوجها العجوز: "إنّهم هنا أيضاً".

شرف

"العربيّ شريف لا يُضام، ولا يقبل أن يُهان"، كتبت معلّمة محو الأمّية على السّبورة، استدارت لتقابل وجوه نساء المخيّم اللّواتي أتين لمحو أميّتهن، قرأت الجملة على مسامع الطّالبات أكثر من مرّة، وسألتْ: "من تقرأها لي من جديد؟"

سرتْ همهمة في الصّف، ثم زمزمة، ثم علت ضحكاتْ تقرقر مثل تداعي قربة ماء على الأرض، سألت المعلّمة صغيرة السّن على استحياء وبحرج بادٍ: "هل قلتُ شيئاً يدعو للضّحك؟!

أجابت أمّ محمود زعيمة نساء الصّف: "هذا كان زمان، والله جبر. انظري إلى حالنا الآن. أين العرب ممّا يحدث؟"

أضافت امرأة أخرى باستهزاء: "العرب الشّرّفاء موجودون فقط على السّبّورة".

عروبة

مطّ الثّري العربيّ كرشه الذي يتدلّى ليهرس عضوه التّناسليّ القزم الذي أغدق عليه دون انقطاع بالجواري والحسان اللّواتي ما استطعن لكسره جبراً، ولا لعطبه دواء.

يحبّ أن يظهر مبتسماً في الصّحف، وهو يفيض بماله صداقات وعطايا على الغرباء المنكوبين والحيوانات الآيلة للانقراض والمباني الأثريّة في مجاهل بلاد العالم والنّساء الجميلات التّي يستدرجهنّ إلى قصر حريمه.

يحبّ لقب المحسن العربيّ، ويكثر من التّزيّن بالدّمقس والحرير والمعصفر والمفضّض والمذهب والمألمس من فاخر الثّياب ونادر الأحذية ونفيس الجلود والفراء.

لقد تبرّع بالمال للدّاني والقاصي، وظهرتْ صوره في استعراضات صدقاته في صحف عالميّة لا يجيد أن يقرأ كلمة من كلمات أخبارها بسبب جهله بلغاتها فضلاً عن جهله بلغته.

زعم في لقاء صحفيّ أنّ معاناة الشّعب الفلسطينيّ قد أحرقتْ قلبه الملبّد بالدّهون، وحرص على أن تبرز الوسائل الإعلاميّة دموعه الثّرة التّي أهداها بسخاء للشّعب الفلسطينيّ، وفرض على نفسه عمرة للدّعاء لهم، وعند الكعبة سأل الله إلحافاً أن يعينهم، وأن يهبهم من يكون في عونهم، ومطّ شفتيه طويلاً بالدّعاء لهم إلى حين تلتقط عدسات كاميرات التّصوير صورة مناسبة له تسجّل دعمّه المؤزّر للقضيّة الفلسطينيّة!

جنديّ

قبّلته أمّه، وقالتْ له على رؤوس الأشهاد من أسرته وأقاربه: "إيّاك أن تعود إلى البيت قبل أن تحرّروا فلسطين، لن أرضى عنك إنْ لم تفعل ذلك".

لقد تجنّد في هذه الجيش منذ سنتين، لكن هذا التّحرير هو مهمّته المقدّسة، يشعر بفخر عظيم لأنّه ضمن جيش عربيّ كبير جاء ليشارك في تحرير فلسطين من عصابات صهيونيّة استولت على جزء كبير منها.

بدأت الحرب مع شرذمة من الصّهاينة، يستطيعون أن يبيدوهم جميعاً مع غروب شمس هذا اليوم إن اجتهدوا بإخلاص لذلك، إلاّ أنّ أمراً بالانسحاب يأتيهم من قيادتهم هناك في العاصمة العربيّة، يتعجّب من هذا الأمر الذي جاء في قمّة انتصارهم، ينسحب الجيش الذي يأويه كاملاً، لكنّه يرفض أن ينسحب، ينطلق وحده عكس درب جيش الجباه المحنية والعيون المكسورة والبنادق الخاذلة، ويقرّر أن يقاتل العصابات الصّهيونيّة وحده.

مظاهرة

كان المخيّم الفلسطينيّ "صبرا شاتيلا" يُذبح من الوريد إلى الوريد على أيدي مجرمي العرب والصّهاينة، استنجد المخيّم بأبنائه الفدائيين، فلم يجد ملبّين منهم إلاّ القليل ممّن ظلّوا بعد رحيل الجميع، بذلوا أرواحهم رخيصة للدّفاع عنه، في حين كان البحر يحوش باقي الفدائيين الفلسطينيين، ويسرقهم نحو منافيه الجديدة بعيداً عن أهاليهم وذكرياتهم وأحلامهم وقبور رفاقهم في درب المقاومة.

أمّا العرب فكانوا جميعاً يقومون بدور من أدوارهم التّاريخيّة الحاسمة، إذ كانوا يتابعون بإخلاص واهتمام تصفيات العالم في كرة القدم، ويعدّون الأهداف، ويتحيّزون لخاسر أو فائز وفق أهوائهم.

في الصّباح كان مخيّم "صبرا وشاتيلا" نهراً من الدّم الفلسطينيّ، وكان العرب الأشاوس في كلّ شبر في الوطن العربيّ قد هبّوا هبّة واحدة جريئة

غاضبة في مظاهرات مليونيّة دعماً لفريق كرويّ عربيّ قد خسر، وآخر قد ربح، ولم يتذكّروا قتلى المخيّم التّعس بمظاهرة واحدة من مظاهراتهم التّاريخيّة المدوّية! فنام المخيّم على حزنه، ولم يستيقظ.

لطيم

هي عاقر، رحمها أجدب لا يستجيب لهاجسها بأن تصبح أغنى النّساء لا أمّاً راعية حانية، هي تريد طفلاً كي تتبّاه، فتحرق ماضيه كاملاً، وتنسبه لنفسها وزوجها كي يكون الوارث لثروته، فيؤول المال كلّه إليها بدل أن يذهب لأقارب زوجها بعد موته.

أخيراً وجدت مبتغاها في أيتام المخيّمات الفلسطينيّة في لبنان الذين هلك عنهم أهلوهم، وتركوهم أيتاماً لا شفيق عليهم، ولا رحيم بهم، حصلتْ بسهولة على طفل لطيم منهم دون أيّ شروط للتّبني، اختارته على هواها أشقر مسدل الشّعر ذهبيّ البشرة أخضر العينين، انتزعته من بين أختيه، ورفضت أن تتبنّاهما معه، إذ هي في حاجة إلى طفل ذكر يرث ثروة زوجها، وليستْ باحثة عن أجر أو إحسان أو ممارسة أمومة.

أخذته إلى بيتها يبكي بحرقة أختيه اللّتين أُنتزع منهما، وأعلنتْ أنّه ابنها، وغيّرتْ اسمه، ومنعته من أن يتذكّر المخيّم وأهله وأختيه.

بعد مدّة قصيرة نسي أنّه فلسطينيّ، وتاه في الزّحام بفضل العربيّة المحسنة التّي تبنّته، وبترته عن أصله.

تقاسيم العدوّ

زوجة سارق

منذ أن بدأت تراقب تلك الفلسطينيّة التّي تعيش في كوخ صفيحيّ في أرضها، وهي ترى العالم من زاوية أخرى، إدارة الكيان الصّهيونيّ أقطعت زوجها هذه الأرض، بعد أن صادرتها من عائلة تلك المرأة الفلسطينيّة التّي صمّمت على أن تظلّ في مزق صغيرة من أرضها في كوخ صفيحيّ صغير.

قبل أن تجاور هذه المرأة الفلسطينيّة كانت تعتقد أنّها زوجة سعيدة تعيش مع زوج مثاليّ في أرض الميعاد، لكن عندما راقبتْ حياة هذه المرأة الفلسطينيّة اكتشفت أنّهم مجرّد لصوص رعاع قد سرقوا أرضاً من أهلها، وأنّها ليست أكثر من زوجة مخدوعة تعيش مع عسكريّ عربيد يغتصب الأسيرات الفلسطينيّات في المعتقل في النّهار، ويعربد مع العاهرات في اللّيل، ويتركها خادمة حبيسة البيت.

هي متعاطفة مع تلك الفلسطينيّة، هذه الأرض هي حقّها الشّرعيّ، تطلب من زوجها أن يردّ الأرض التّي سرقاها إلى صاحبتها الفلسطينيّة، وأن يستقيل من عمله، وإن يعودا إلى فرنسا ليعيشان هناك في موطنهما الأصلي، لكنّه يرفض ذلك، ويواجهها بعاصفة من الغضب بعد أن يضربها ضرباً مبرّحاً.

تقرّر أن تنفّذ رغبتها رغم أنفه، تُعدّ له الفطر المشروم الذي يحبّه، تختاره بعناية من النّوع السّام، تطهوه له، وتقدّمه له مساء على العشاء اعتذاراً له عمّا صدر منها في حقّه في الصّبح، وتأكل معه ليواجها معاً الموت الذي يستحقّه كلّ لص.

صمت

كانت هزيمة نكراء لهم أمام الفدائيين الفلسطينيين، لقد تجرّع مع زملائه المجنديّن معنى الخوف والموت والهزيمة، كانوا في كلّ مكان، لم يكونوا بشراً، بل أشباح طاردتهم، وقتلتهم، ودمّرت ذخيرتهم، لم ينجُ من تلك المصيدة الإبليسيّة سواه وبعض من الجنود الجرحى.

أمضى شهراً في العلاج النّفسيّ كي تسمح إدارة الجيش الصّهيونيّ لأسرته بمقابلته بعد أن لقّنوه الكثير من الأكاذيب عن نصر كاسح لم يحدث إلاّ في خيال الكاذبين الذين أجبروه على ترديد هرفهم كي لا يعرف الصّهاينة أنّهم مهزومون حتى النّخاع.

قرّر أن لا يردّد أيّ كلمة من هذه الأكاذيب، وحرّم الكلام على نفسه، وتظاهر بالخرس، ولزم الصّمت إلى الأبد.

أغنية عربيّة

بسرّيّة تامّة تداعب وجدانها وأحلامها بسماع الأغاني العربيّة ذات اللّهجة المصريّة، فمن الممنوع عليها أن تظهر تعاطفاً وحبّاً لأيّ شيء عربيّ، ولو كان أغنية.

جاءت إلى هنا بخدعة اسمها أرض الميعاد، وعندما علقت في شباكها أدركت أنّ الأرملة السّوداء الصّهيونيّة ستأكلها لأنّها يهوديّة شرقيّة كما يسمّونها.

أمثالها كثر من اليهود الشّرّقيّين الذين جاءوا مخدوعين إلى هذه الأرض راكضين وراء وهم كبير، ليست يهوديّة شرقيّة، هي يهوديّة مخدوعة تركتْ أهلها في مصر كما ترك غيرها أهله في المغرب واليمن والعراق، وجاءوا ليُحرقوا جميعاً في هذا المكان.

هناك من حيث جاءتْ لم يكونوا يعيّرونها بلقب اليهوديّة، لكن هنا في هذه المستوطنة الصّهيونيّة فهي تُعيّر بسبب أو دون سبب بأنّها شرقيّة قادمة من مصر، وتحصل على أدنى الاستحقاقات، في حين أنّ اليهود الغربيّ يحصل على الامتيازات كلّها.

لا تستطيع أن تعبّر عن غضبها من خديعتها، وعن ندمها النّاخز لأنّها تركتْ شاطئ الإسكندرية حيث المرح والحبّ والجيران والصّحبة الحلوة، وجاءت لتُخزّن حتى تموت في صندوق معدنيّ في مستدمرة معزولة في أعلى صلد الجبال.

هي تنتقم كلّ يوم ممّن أتى بها إلى هنا بأن تسمع سرّاً الأغاني العربيّة المصريّة، وتطرب لها، وتترنّم بكلماتها العربيّة بحبّ وفرح وتعلّق، وتحلم بقدميها يُغمران برمال شاطئ الإسكندريّة بعيداً عن هذه المستدمرة الملعونة.

السّوط

يدرك من أعماقه كم هو مجرّد من الأخلاق والقيم والنّبل، ويلقّب نفسه باعتزاز في ساعات سكره بـ"المنحطّ"، أمّا عندما يستيقظ فيهمس لنفسه بهذا اللّقب دون توقّف.

هو ابن زنا بشهادة كلّ من يعرفه، لا يعرف له أباً أو أمّاً على وجه التّحدّيد والجزم، لكن تلك المدرسة الدّينيّة الصّهيونيّة المتشدّدة في القدس هي من كفلته مذ لفظ والداه، وربته حتى خرج وفق ما تشاء وتشتهي مجرّداً من الأخلاق والقيم والإنسانيّة، ينفّذ كلّ جريمة تُسند إليه بأعصاب باردة وضمير ميّت.

في أوقات العمل يمارس مهنته القميئة كفرد من أفراد قوّات "النّحشون" التّي تحترف تعذيب الأسرى الفلسطينيين في المعتقلات ومراكز التّحقيق وغرف الإعدام.

يعجبه أن يبدأ وجبات التّعذيب بضرب الأسير الفلسطينيّ بالسّوط حتى يدمي ظهره ووجه وكتفيه وبطنه وفخذيه، ثم ينقضّ عليه مستغلاً تقيد يديه وقدميه كي ينتش لحمه بفكّه الثّعليّ.

أمّا في أوقات عطله الرّسميّة فيكتري بـ"شواكله" الكثيرة أشرس بنات اللّيل جسداً وطبعاً، ويطلب منها أن تقيّد رجليه ويديه، وأن تنهال عليه ضرباً بالسّوط ذاته الذي يضرب بها ضحاياه في المعتقل، حتى تهدّ صوته صراخاً واستغاثة دون مجيب.

هو لا ينام حتى تبصق إحدى بائعات الهوى في وجهه، وتنعته بابن الزّنا، عندئذ يستريح، وينام بعد أن ينال ما يستحقّه من الاحتقار والتّعذيب.

ثوب

دفع لها الموساد الصّهيونيّ الكثير من المال كي تسخّر مهنتها بوصفها عارضة أزياء متقاعدة وصاحبة أكبر دار أزياء في لندن لأجل أن تروّج لصورة المرأة الصّهيونيّة وهي تلبس الثّوب الفلسطينيّ، مهمّتها أن تسرق هذا الثّوب من المرأة الفلسطينيّة، وأن تزرع في مخيال العالم وذاكرته أنّه من تراث الصّهاينة.

راق لها أن تكسب الكثير من المال الذي تعبده مقابل هذه المهمّة السّهلة، وإن لم يعجبها منظر الثّوب الفلسطينيّ الذي يستر الجسد، ويغلق أبواب الطّمع دونه، وهي من اعتادت على أن تكون بضاعة جسد رخيصة تسوّق الدّعارة في العالم كلّه، وتعرض جسد المرأة لكلّ مشترٍ.

لكنّها ما استطاعتْ أن تستمرّ في هذه الصّفقة؛ فهذه الأثواب الفلسطينيّة تصيبها بمرض عجيب، كلّما لبستها شعرت بأنّها فلسطينيّة، وسرتْ في جسدها قشعريرة الغضب على العدوّ الصّهيونيّ، وانتابتها حمى الهتاف بجملة "فلسطين حرّة"، وأحياناً تستبدّ بها هذه اللّعنة، فتلتقط حجارة الطّريق تلقمها لكلّ صهيونيّ تعرفه في لندن، أو تلتقيه صدفة أو بترتيب مسبق.

هذه اللّعنة طالت كلّ عارضة من عارضات الأزياء التّي تعمل في دارها عندما لبستْ الثّوب الفلسطينيّ، لم تعد تطيق أن ترى الثّوب الفلسطينيّ أمامها.

أرسلت رسالة اعتذار عن مهمّتها لرئيسها الأعلى في الموساد، شرحتْ له فيها لعنة هذه الثّوب، وختمتها بقولها: "إنّه لهم، لا فائدة من سرقته، دعوه عنكم فإنّه لعنة علينا".

لصّ

هناك في إسبانيا سجنوه لأكثر من مرّة لأنّه لصّ يهوى سرقة المحافظ والحقائب النّسائيّة، عندما هاجر إلى أرض الميعاد الخديعة أصبح لصّاً برتبة جنديّ صهيونيّ يخدم كياناً لصّاً قد سرق وطناً كاملاً من أهله، كلّ عهدة ماليّة كانت في ذمّته اختلسها دون أدنى شعور بالذّنب، انكشف أمره سريعاً، فحوّل إلى محكمة عسكريّة قضت بسجنه خمس سنوات مع الأعمال الشّاقة وردّ ما سرقه من أموال عسكريّة، تفاجأ من هذا الحكم الجائر عليه وفق رأيه، وقال للقاضي باستهتار وتحدٍ وغمزة ذات معنى: "لكم مالكم المسروق الذي سطوت عليه إن أعدتم فلسطين التّي سرقتموها إلى أهلها، أُعيد نزير ما سرقتُ مقابل أن تعيدوا عظيم ما سرقتم".

بعد جلسة مداولة استئنافيّة عاجلة ابتسم القاضي ابتسامة ذات معنى مريع، وحكم ببراءة الجنديّ اللّص!

رأفة

المذيع الصّهيونيّ كان يعرض في برنامج إعلاميّ يُبثّ بثّاً مشتركاً بين عدّة فضائيّات عالميّة تقريراً مصوّراً عن هدم بيت لذوي فدائيّ فلسطينيّ، المذيع أسماه مخرّباً لأنّه يدافع عن وطنه.

الجنود الصّهاينة في الفيلم حاصروا بيتاً فلسطينيّاً على رأس جرف صخريّ، لم يعطوا فرصّة لأهله كي يهربوا منه لولا أن أدركت أصوات الجرّافات أسماعهم لما خرجوا مسرعين حفاة مذعورين من طوابق البناء

الأربعة، اندفعوا مثل سيل بشريّ خارجه، كانوا عائلة كبيرة، الكبير يتكئ على الشّاب، والصّغير يركض وراء أم أو أب يحمل أخاً أصغر منه وهم جميعاً يسابقون الزّمن كي لا يُدفنوا تحت ردم بيتهم، بعض النّسوة تعلّقن في طريق خروجهنّ بياقات بذلات بعض الجنود الصّهاينة ليدفعوهم بعيداً عن بيوتهنّ في محاولة أخيرة يائسة لإنقاذة، لكنّ سعيهنّ ذهب أدراج الرّيح والجرّافات تهمر مقتربة بسرعة ذئبيّة لتنشب أظافرها الفولاذيّة في جسد البيت.

فجأة تقترب "كاميرا" التّصوير من جنديّ صهيونيّ في المكان ينحني على عتبة البيت ليلتقط قطّة صهباء من أمامه، "الكاميرا" اقتربت من هذا المشهد حتى كاد يلتصق زجاج عدستها بيدي الجنديّ المشعوعرتين وهما تلتقطان القطّة، وترفعانها عن أرض العتبة.

رفع المذيع عقيرته مثمّناً رأفة الجنديّ الصّهيونيّ بالحيوان، وطالب العالم بأن يقف احتراماً لأخلاق الجنديّ الصّهيونيّ الذي يبعد حيواناً أليفاً عن مكان هدم بيت فلسطينيّ.

صوت تصفيق كادر"الاستوديو" علا بتصفيق مزلزل لهذه الرّأفة المزوّرة، العالم كلّه هدر بالتّصفيق والتّصفير لرحمة هذا الجنديّ الصّهيونيّ، وهتف سعادة لإنقاذ القطّ الأليف الذي نجا دون أهله، ولم يلمح في الفيلم المصوّر بيتاً فلسطينيّاً يُدفع بأسنان الجرّافات ليتداعى في قاعة هاوية الجبل، ويترك أهله يندبونه، ويندبون تشرّدهم أمام عيون العالم الذي يتعاطف مع قطّ أصهب أكثر من تعاطفه مع شعب أسود الحياة.

خديعة

انتفض المستوطن الصّهيونيّ غاضباً مثل ديك ينتفش فوق مزبلة، وتهيّأ لينقر مسؤول المستوطنة بكلماته السّائبة من معدن نفسه الخسيسة الغاضبة. تجمّع حشد من المستوطنيّن حوله، خمّن مدير المستوطنة أنّهم متّفقون على موقف ما.

سأل المستوطن الدّيك: "أين هما العسل واللّبن اللّذان هاجرنا إلى هنا من أجلهما؟ إنّنا لا نرى حولنا غير الموت والخراب والتّدمير والخوف".

عدّل مدير المستوطن طاقيّته الصّغيرة الهابطة فوق رأسه مثل براز طائر، وردّ دون مبالاة وهو يشير بسبابته إلى الأعلى حيث السّماء: "العسل واللّبن ليسا هنا، بل هما هناك في الجنّة".

رجل

علّمها العمل العسكريّ في الجيش الصّهيونيّ أن تكون عاهرة بدرجة عسكريّة، فليس لها إلاّ أن تقبل بمضاجعة كلّ مسؤول عسكريّ يستهويه جسدها الممشوق، وشعرها الأحمر الطّويل السّائب، ومع مرور الوقت اعتادت على أن تبيع جسدها لكلّ من يدفع ثمنه امتيازات وهدايا وحفلات ورحل وترقياتٍ في العمل من منطلق أنّ جسدها أفضل سلعة تستطيع المتاجرّة بها.

سعارها الجنسيّ وروحها الرّخيصة وإصابتها بمرض "الإيذر" جعلتْ قائد المعتقل الصّهيونيّ ينفر من جسدها، ويهجره دون عودة، وينتدبها لتعذيب الأسرى الفلسطينيين بأعتى طرق التّعذيب الجنسيّ، وعندما تملّ من تعذيبهم تحقنهم ببعض دمائها المعلول لتنقل لهم مرضها لتحمّلهم عار المرض أمام الأهل والوطن قبل الموت بعذاب طويل.

لكن ذلك الأسير الفلسطينيّ المتديّن ذا الوجه الملائكيّ البشوش لم يستسلم لها، وظلّ ينعتها بالعاهرة القبيحة، ورفض جسدها الرّخيص المهدور أمامه، ولم يتأوه للحظة في تعذيبها الجنسيّ له كي لا تقرّ نفساً بعذابه، ولا تشعر بانتصار بطشها على جسده، لقد ظلّ صامداً أمامها مثل جدار صلد أصمّ، فتّتت عضوه الذّكريّ بضربات الصّاعق الكهربائيّ، لكنّها لم تسمع منه استجداء لرحمته، زادتْ من ضربات الكهرباء كي تنتزع توسّلاته، فانتزعتْ روحه.

أغاظها أن يهرب إلى الأبد من بطشها وانتقامها، لقد هرب من جسدها الذي حقّره، ونفر من رائحة صنانه، بكتْ قهراً من صدّه لها، سألتها الجنديّة الصّهيونيّة شريكتها في تعذيبه عن سبب بكائها، أجابتها بيأس: "لقد رفضني، هو الرّجل الوحيد الذي رفض جسدي، هو الرّجل الحقيقيّ الذي قابلته في هذه الحياة؛ لذلك قتلته".

آر. بي. جي

من جديد يراهم أمامه أطفالاً فلسطينيين صغار بأجساد هزيلة يحملون مدافع "الآ. ربي. جي"، جميعهم يملكون وجهاً واحد، كلّما قتل أحدهم بقذيفة أو خرّقه بعشرات الطّلقات رأى طفلاً بالوجه ذاته يهاجمه من جديد.

إنّهم في كلّ مكان ها هنا في هذا المخيم الفلسطينيّ في لبنان، لقد قيل لهم إنّها ستكون نزهة سريعة، يقضون فيها على الفلسطينيين في ساعة لاغير، ثم يعودون أدراجهم مكلّلين بورق الغار المسروق من جبال لبنان، لكن هذا لم يكن، بل هم من فرّوا من أمام الأطفال المقاتلين مهزومين مذعورين لا يلون على شيء وراءهم.

إنه يرى الوجه نفسه يحدّق فيه، العينـان ذاتهمـا تواجهانـه دون خـوف، لا يفرّ الطّفل من أمامه، بل يطلق قنبلة مـن مدفعيّتـه، فتفتـك بزميـل مـن زملائـه الجنود الصّهاينة، ثم قبل أن يسـتطيع أن يفـرّ بعيـداً بمدفعيّـة (الآ. ربـي. جـي) يعاجله بقذيفة من فوّهة الدّبابة التّي يحتمي بها، فتناثر الفتى أشلاء وقطـم لحـم صغيرة.

إنّهم في كلّ مكان، الوجه ذاته يهاجمه في حلمه، يستيقظ مفزوعاً وقد تبـوّل في فراشه، تنهره زوجته بقرف، وقد عامتْ في بوله، وتقول له: "عليك أن تراجـع الطّبيب النّفسيّ من جديد".

يجيبها وعيناه تتربصان الوجه الطّفوليّ الكابوسـيّ الـذي يطـارده في نومـه ويقظته: "إنّه لا يستطيع أن يمنع ذلـك الوجـه الصّـغير مـن أن يطـاردني في كـلّ مكان، لا توجد قوّة تستطيع أن تمنع هذا الوجه من مطاردتي، إنّه وجه يطاردني حتى يدفعني إلى الجحيم".

شارون

هو رقيق حسّاس الطّبّاع! ويخدم وطنـه المزعـوم إسـرائيل ولـو داس علـى البشريّة جمعاء! هو يكره اللّون الأحمر؛ لأنّه يكـره رؤيـة الـدّماء؛ لـذلك هـو لا يمارس هوايته الآثمة، وهي قتل الفلسطينيين، إلاّ مغمض العينين والـرّوح كـي لا يرى دم ضحاياه!

عَبْد

جاء من أثيوبيا راكضاً خلف أطماع وأوهام، زعم أنّه يهودي كي يظفر بحياة رغيدة كما وعده الحاخام الصّهيونيّ الذي حزمه وأهله والكثيرين من أهل مدينته الأثيوبيّة، وأطلقهم كقطيع أجرب في مستدمرة صهيونيّة يعزّ فيها الأمن والرّاحة والمعاملة الإنسانيّة الرّاقية.

عامله أبناء جلدته من الصّهاينة معاملة عبد آبق من سيّده، كلّ ما وهبوا له على كره واحتقار هو بعض الطّعام وصندوق إسمنيتي ليعيش فيه مع أسرته ومكنسة حقيرة يكنس فيها المؤسّسة التّي عيّنوه خادماً فيها. الآن هو عبد حقيقيّ، عبد من يهود "الفلاشا"، يسخر منه اليهود البيض لأنّه أسود اللّون والحظّ.

هو يتوق للحرّيّة، يقرّر أن يستعيد ذاته المسروقة، يحزم أبناءه بسرّيّة، ويعود إلى وطنه الحقيقيّ، ويبتعد عن فلسطين التّي لا وطن له فيها، عندما يهبط وزوجته وأسرته على ثرى أثيوبيا يعود حرّاً من جديد.

كتاب

كتابه "التّطهير العرقي في فلسطين" هو أقدس ما أنجزت نفسه، يتأبّطه باعتزاز وحرص وإجلال، ويهرب على عجل وحذر من عنصريين صهاينة يرجمونه بسبّة الخيانة، ويرشقونه ببصاقهم، ويجلدونه بقولهم: "إيلان بابيه يا خائن، ياعميل العرب".

لا يبالي بما يكابد، فأخيراً كتب قلمه الجريء الحقيقة كاملة وبإنصاف كامل بعد أن أدرك وحشيّة شعبه. أخيراً يستطيع أن يعيش بسلام، وأن يموت برضا؛ فقد كتب الحقيقة التّي أراد شعبه أن يطعمها للنّسيان.

متحف

الحاخام الصّهيونيّ كان يتجوّل في متحف الإنسان في باريس، ويسمع استعراض طالبه للأمم والأقوام التّي انقرضت عن بكرة أبيها بهجمات إبادة وحشيّة من أعدائها المحتلّين، فيهزّ رأسه ابتهاجاً كلّما وقف أمام استعراض لأمّة منقرضة علي يدي محتلّ آثم.

الحاخام في نهاية الجوّلة انزوى جانباً في آخر العرض، وأخذ ينهق باكياً بحسرة خنزير يندب طعاماً في مزبلة لا يستطيع الدّخول إليها، سأله طالبه الخجول بقلق وارتباك عمّا يبكيه، أجاب الحاخام وهو يمسح مخاطه بكمّه: "إنّهم الفلسطينيون، لقد أحرجونا أمام العالم والتّاريخ عندما رفضوا أن نبيدهم، فنرتاح منهم، ويدخلوا هذا المتحف للعرض لا غير".

هواية صهيونيّة

هوايته الصّهيونيّة الفضلى هي أن يرى رؤوس الأطفال الفلسطينيين تتدحرج بسرعة بعيداً عن أجسادها. يمارس هوايته في المخيمات الفلسطينيّة جميعها، يجد لذّة خاصّة في مطاردة الرّؤوس الرّاكضة قهراً بعيداً عن أجسادها في

مخيّم "صبرا وشاتيلا"، يتلذّذ طويلاً بالرّؤوس العربيّة الصّغيرة الذّبيحة في مدرستي "بحر البقر" و"قانا".

عندما تلتهب هوايته، وتسيط روحه بعطش حارق يدنو من رأس ابنه، ويهوي عليه بساطوره، فيدحرجه بعيداً عن جسده، ويشرع يراقب نافورة الدّم الصّهيونيّ الدّبق النّجس وهي تتعالى متقاذفة في فضاء سرير ابنه.

يضحك بشرٍ ورضا وامتداد، لكنّه ما يزال في عطش محموم متأجّج لاصطياد رأس طفل فلسطينيّ!

وسام

نال وسام البطولة في الجيش الصّهيونيّ من الدّرجة الثّالثة تقديراً لدوره المهمّ في إبادة مدرسة أطفال فلسطينيّة عن بكرة أبيها.

لقّبوه ببطل، أطلقوا اسمه على بعض المواليد الجدد، نشرتْ الصّحف الصّهيونيّة صورته بوصفه بطلاً وطنيّاً.

سرعان ما نسيه المحتفلون، وهجرته الصّحف، وأدار الإعلام ظهره له، وصدئ وسامه في درج من أدراج مكتبه، وظلتّ وجوه الأطفال الفلسطينيين الذين قتلهم بصاروخ جويّ واحد تطارده ليل نهار، وتنشب أظافرها في تلابيب روحه التّي تعيش في جحيم أرضي لا ينقضي.

خُرافة

بعد أن اجتاز الـدّورة المكثّفـة، التّـي خاضـها جـبراً بتكليـف مـن إدارة جيشه، صدّق أنّه جنديّ في جيش أسطوريّ لا يُهزم، لقد غذّتـه الـدّورة بخرافـة الشّعب المختار والجيش الذي لا يُقهر. الآن هو مسـتعدّ للخـروج في أيّ مهمّـة يُكلّف بها لأجل أن يسحق العرب أجمعين بل العالم كلّه مادام هو جنديّ في هذا الجيش الأسطوريّ.

مهمّته الأولى كانت سحق الفدائيين الفلسـطينيين في لبنـان، شـرب ليلـة التّكليف بمهمّته الكثير من الخمر، وضاجع مراراً عاهرة صهيونيّة منخرطة معهم في العمل في الجيش، فلا بأس من تبديد طاقاته، فهولا يحتاجها في هـذه المعركـة النّزهة، فهي لن تستغرق منه الكثير من الوقـت قبـل أن يحصـد النّصـر، ويبيـد الفلسطينيين، ويعود إلى وكره ليكمل عربدته.

أخيراً خرج في نزهته الحربيّة الموعودة، لم يقابل أيّ رجل فدائيّ كان، فقد تصدّى لـه ولجيشـه الفـدائيون الصّـغار الـذي رأوا أنّـه وجيشـه أحقـر مـن أن يستدعي أن يخرج الكبار لهم، أمطروا الموت عليه وعلى مجموعتـه عـبر قـذائف "الآر. بي. جي"، في ساعات قليلة غدا جنديّاً أسـيراً في أيـدي صـغار جبـابرة، لم يقتلوه كما تخيّل، بل عرّوه من بنطاله ومن ملابسه الدّاخليّة، ولمزوه بأسـلحتهم، فأطلق قدميه للرّيح التّي تسخر من عريّه، وطار في درب الهروب لعلّه يعود حيّاً إلى أولئك الخادعين الذين أقنعوه بأنّه جنديّ في جـيش أسـطوريّ لا يقهـر كـي يبصق في وجوههم.

نسيان

قالوا له قبل أكثر من نصف قرن وهم يعلّمونه مبادئ الصّهيونيّة: "إنّ الكبار الفلسطينيين سيموتون، وأنّ صغارهم سينسون".

كان يستعرض الوجوه الفلسطينيّة الصّغيرة وهو يأمر بدسّها في المعتقل عقاباً لها على رجم الجنود الصّهاينة بالحجارة، أمر بتغليظ العذاب لهم، شتمهم، وشتم من أنجبهم، وبصق في وجوههم حتى جفّ ريقه، وكاد يختنق بجفافه، صفق الباب في إثر خروجهم وهم يُساقون بالسّلاسل إلى العذاب والجحيم معصوبي الأعين، بات يترنّم على صوت استغاثاتهم تزلزل السّماء، فرح بعذاباتهم، تشمّت بهم، ثم أخذ يشخر وهو يبكي بقهر، وهو يبتلع دموعه السّخيّة، وهو يقول: "إنّهم لا ينسون".

نبتة عطريّة

هي تسكن الطّابق الثّاني من بيت مقدّسيّ أثريّ انتزعه الاحتلال الصّهيونيّ من أهله، وملّكوه لها ولزوجها ولابنتها، كان من المفروض أن تمارس كلّ ما يتفّتق ذهنها عنه من شرور وإيذاء لتزعج العائلة المقدّسيّة التّي تسكن الطّابق التّحتي، وتجبرها على الرّحيل، لكنّها كانت تعجز عن ذلك بسبب طبيعتها النّفسيّة الخيّرة التّي يكرهها زوجها وأهله، فيحثّونها دون انقطاع على أن تتخلّى عن شمائلها الطّيّبة لصالح مطامعهم وولائهم لكيانهم الصّهيونيّ.

وضعت يديها على حوض نبتة عطريّة لصاحبة البيت ضمن ما سطتْ عليه من أثاث وملابس في الطّابق الثّاني من البيت المقدّس المغتال، أحبّت هذه النّبتة

العطريّة التّي لها رائحة فوّاحة طيّبة حنونة، لكن النّبتة في ذبـول مسـتمرّ منـذ أن استولتْ عليها.

خمّنت أنّ النّبات يحبّ أهله، وأنّ هذه النّبتة تفتقد صاحبة البيت المقدّسـيّة التّي زرعتها واعتنت بها، زمّت الحـوض الصّغير، وهبطـت بـه أدراج البيـت، فألفت المرأة المقدّسيّة في فسحة الحديقـة الصّغيرة تضـفّر شـعر إحـدى بناتهـا، وضعتْ حوض النّبتة العطريّة أمامها، وقالتْ لها بلهجة فلسطينيّة تكـاد تتقنهـا: "هذه النّبتة تريدكِ".

ردّت المرأة المقدّسيّة دون أن تلتفت إليهـا: "هـذا طبيعـيّ، فالشّـجر يعـرف أهله، ويرفض الغرباء".

طالب

يجب أن يكون سرّ معلّمه، وهذه فرصته الكبرى ليكـون تلميـذه المخلـص السّائر على دربه، هو من علّمـه أنّ البحـث العلمـيّ والتّعلـيم الميـدانيّ غايتـان تستبيحان الوسائل جميعها أكانت إنسانيّة أم وحشيّة، وهمـا المقـدّمتان علـى أيّ أخلاقيّات أو أدبيّات؛ لذلك كان يستسيغ أن يشرح أمامهم جسد أسير فلسطينيّ وهو على قيد الحياة؛ لأنّه يريد أن يريهم كيف تعمل الأعضاء الحيويّة وصاحبها على قيد الحياة.

لقد أُغمي عليه عندما حضـر الـدّرس الأوّل مـن هـذه الـدّروس الميدانيّـة المطبّقة على أجساد الأسرى الفلسطينيين، ولم يحضـر منـه إلاّ توغّـل المشـرط في صدر الأسير وصراخه الذي يمزّق أوتاره الصّوتيّة لشدّة ألمه، بعدها دخل في عالم

من الغيبوبة اللّزجة القاتمة إلى أن أيقظه معلّمه الطّبيب الصّهيونيّ بصفعة خلعت سناً من أسنانه.

لم يغمَ عليه أبداً بعد هذه الصّفعة، وظلّ يتابع مشرط معلّمه الطّبيب يعيث فساداً وتعذيباً في أجساد الأسرى الفلسطينيين، وما عاد بعدها يعبأ بألم بشر، وتمنّى دائماً أن يلهو مشرطه في جسد معلّمه ليثبت له أنّ الطّالب قد يفوق معلّمه في الفعل الإبليسيّ.

الآن سيحقّق اللّهو الذي يحلم به، فقد جاءته الفرصة المنتظرة على طبق من ذهب؛ معلّمه أمامه مشلول الحركة والنّطق، ويعاني من مرض نادر يستحقّ الاكتشاف، وهو المسؤول عنه في هذه المستشفى؛ لذلك يستطيع أن يُعْمِل مشرطه فيه دون أن ينبس ببنت شفة أو يطُلق زفرة احتجاج حتى لو قدّده الألم، لن يضيّع هذه الفرصة أبداً، يغلق باب الحجرة بالمفتاح، يضع المفتاح في جيبه الذي يُخرج منه مبضعه، ويشرع يسيّره في جسد معلّمه ابتداء من رقبته حيت تتبدّى الحنجرّة نزولاً مثلّماً حتى أسفل بطنه.

أوزون

اجتمعوا جميعاً، وشكروا الله لأنّه خلق الفلسطينيين ليكونوا كبش الفداء في المصائب والمحن والشّدائد جميعها، في جلسة واحدة أسندوا لهم الجرائر كلّها: فهم من أفسدوا العالم، وسرقوا الخزائن العامرة، وحاربوا الآمنين، وبثّوا الأمراض والأحزان والمآسي والنّكبات في الأرض، وأشعلوا نيران الحروب العالميّة الماضية والآنيّة والمستقبليّة، وهم سبب المنازعات والتّناحر في كلّ مكان، بل هم من

اخترعوا الموت، وقدّروه على البشر، لذلك وجب عليهم أن يُعذّبوا، وأن يقتّلوا، وأن يُشرّدوا.

في آخر قائمة الجرائم المسندة للفلسطينيين، الأحياء منهم والأموات الذين ما يزالون عدماً في غامض الغيب، وجدوا أنّهم لم يستطيعوا أن يفسّروا سبب حدوث خرق الأوزون الذي سيكلّف البشريّة عناء لا حدّ له.

ابتسم أقصر الموجودين في هذه القمة الكونيّة لأجل إسناد جرائم الكون إلى الفلسطينيين، كان يلبس طاقيّة سوداء جوفاء نتنة تخيم على نافوخ رأسه، وقال بفرح وارتياح يسمح لكرشه بأن يتمطّى بتهدّل: "هذه جريمة سهلة وبسيطة، لا بدّ أنّ الفلسطينيين هم من خرقوا طبقة الأوزون في لحظة تهوّر".

هلّل المجتمعون فرحاً وارتياحاً بهذا الاقتراح، وصوّتوا جميعاً على الموافقة على إسناد هذه التّهمة البيئيّة الخطيرة -إن وقعت حقيقيّة- للفلسطينيين المشاكسين الذين يفسدون كلّ ما تمتدّ أيديهم إليه، حتى أنّ عبثهم قد امتد إلى طبقة الأوزون المسكينة، فقاموا بثقبها.

تمثال

الفلسطينيّ الأوّل الذي خلقه الله في مبتدئ تاريخ البشريّة كان مثّالاً ماهراً، يصنع تماثيله على شاكلة جمال وطنه.

في يوم وليلة جاء غاصب يهودي، وسرق وطنه، وحطّم تماثيله، وطرده منها مع بنيه الكُثر الذين كانوا جميعاً مثّالين مهرة مثله.

الفلسطينيّ الأوّل الموغل في القدم جاب الدّنيا في انتظار العودة إلى وطنه، أبناؤه وبناته تفرّقوا في مشارق الأرض ومغاربها، جميعهم دأبوا على صنع تماثيل تشبه وطنهم فلسطين، ثم بعد ذلك طفقوا يبنون الأماكن كلّها على شاكلة فلسطين كي لا ينسوها أبداً، ولذلك نقلوها إلى كلّ مكان ذهبوا إليه.

بعد زمن طويل عاد الفلسطينيّ الأوّل وبنوه إلى وطنهم فلسطين بعد أن طردوا اليهوديّ الغاصب منه، لكن ظلّ من عادة الفلسطينيّ أن يعمّر الأرض ويبني الأماكن والبلدان على شاكلة وطنه إلى أن يعود إليه في آخر المطاف، وبات تاريخ الفلسطينيّ يُختزل في الرّحيل والبناء والعودة إلى الوطن مهما طال التّطواف.

الرّيح والكلاب

استطاعوا أن يقتلوا عدداً عملاقاً من الفلسطينيين، مثّلوا بأجسادهم، أحرقوا جماجمهم، طحنوا عظامهم، نثروا رمادهم في مهبّ الرّيح كي يرتاحوا من ذلك الشّبح الذي اسمه عودة الشّعب الفلسطينيّ إلى وطنه.

علت أصواتهم نابحة بنشوة داعرة وهم يقولون: "نحن إسرائيل، والفلسطينيون غدوا عدماً".

سخرت الرّيح من نباحهم الأجشّ، ولملمت رماد الفلسطينيين الذي بعثرته نسائمها، وعجنته بماء الخلود، ونفخت فيه، فبُعث الفلسطينيون مرّة أخرى ينسلون من طائر فينيق لا يموت أبداً، كانوا جميعاً يحملون ابتسامة عريضة واحدة يلوّحون بها للرّيح العاتية الباعثة لهم؛ لأنّها لا تصدّق نباح الكلاب مهما علا.

المنجل

هبط الفلسطينيّ على الأرض يحمل منجلاً، ولا شيء أكثر، لم يعشق منجله إلاّ الأرض التّي يحصد كنوزها بشهوة وارتضاء.

جاء الغرباء ليسرقوا الأرض من المنجل المتيّم بها، فعشق الدّم يسقيه لنفسه من دماء أعناقهم التّي يحصدها بكره وقرف.

بعد أن رحل الغرباء النّاجون من سطوة منجل الفلسطينيّ، عاد المنجل من جديد يتفرّغ لعشق الأرض، ويغنّي في أيدي الزّرّاع العاشقين.

وحام

سرقوها، شرّدوا أهلها، أسموها إسرائيل، فحملت الأرض من فؤوس من شقّوها لآلاف السّنين ليزرعوها، توّحمتْ بهم، بملامحهم، بأصواتهم، بـروائحهم، بصبرهم، بأحلامهم، وأنجبتْ فدائيين فلسطينيين بملامـح أمّهـم فلسـطين، ومـن جديد عاد اسمها فلسطين، وظلت تحبل وتتوّحم، وتلد فدائيين يهتفون باسمهـا السّماويّ الخالد.

القيامة

يُنفخ في الصّور نفخة ثانية، فيبُعث البشر أجمعون كرهـاً وطوعـاً، البشـر في محشر عظيم، الجميع يحملـون أعمـالهم فـوق أعنـاقهم، إلاّ الفلسـطينيين فـإنّهم يحملون فلسطين علـى رؤوسـهم، يقفـون بهـا أمـام الـرّبّ ليتشـفّعوا بهـا لهـم وللأهلين ولكلّ من ضحّى لأجلها.

انتهى الجزء الأول

د. سناء شعلان

أديبة وأكاديميّة وإعلاميّة أردنيّة من أصول فلسطينيّة، ومراسلة صحفيّة لبعض المجلات العربيّة، وناشطة في قضايا حقوق الإنسان والمرأة والطّفولة والعدالة الاجتماعيّة، تعمل أستاذة للأدب الحديث في الجامعة الأردنية/ الأردن، حاصلة على درجة الدّكتوراه في الأدب الحديث ونقده بدرجة امتياز، عضو في كثير من المحافل الأدبية والأكاديميّة والإعلاميّة والجهات البحثيّة والحقوقيّة المحليّة والعربيّة والعالميّة.

حاصلة على نحو٦٣ جائزة دوليّة وعربيّة ومحليّة في حقول الرّواية والقصّة القصيرة وأدب الأطفال والبحث العلميّ والمسرح، كما تمّ تمثيل الكثير من مسرحيّاتها على مسارح محليّة وعربيّة.

لها نحو ٦٥ مؤلفاً منشوراً بين كتاب نقديّ متخصّص ورواية ومجموعة قصصيّة وقصّة أطفال ونصّ مسرحيّ مع رصيد كبير من الأعمال المخطوطة التي لم تنشر بعد، إلى جانب المئات من الدّراسات والمقالات والأبحاث المنشورة، فضلاً عن الكثير من الأعمدة الثّابتة في كثير من الصّحف والدّوريات المحليّة والعربيّة.

لها مشاركات واسعة في مؤتمرات محلّية وعربيّة وعالميّة في قضايا الأدب والنّقد وحقوق الإنسان والبيئة والعدالة الاجتماعيّة والتّراث العربيّ والحضارة الإنسانيّة والآداب المقارنة، إلى جانب عضويّتها في لجانها العلميّة والتّحكيميّة والإعلاميّة.

هي ممثّلة لكثير من المؤسّسات والجهات الثّقافيّة والحقوقيّة، كما أنّها شريكة في الكثير من المشاريع العربيّة والعالميّة الثّقافيّة.

تُرجمت أعمالها إلى الكثير من اللّغات، ونالت الكثير من التّكريمات والدّروع والألقاب الفخريّة والتّمثيلات الثقافيّة والمجتمعيّة والحقوقيّة.

مشروعها الإبداعيّ حقل للكثير من الدّراسات النّقديّة والبحثيّة ورسائل الدّكتوراه والماجستير في الأردن والوطن العربيّ والعالم.

من أعمالها المنشورة:

١- الرّوايات:

١. أعشقني.
٢. السّقوط في الشمس.
٣. أدركها النّسيان.

٢- روايات الفتيان:

١- أصدقاء ديمة.

٣- المجموعات القصصيّة:

١. قافلة العطش.
٢. تراتيل الماء.
٣. الجدار الزّجاجيّ.
٤. حدث ذات جدار.
٥. الذي سرق نجمة.
٦. تقاسيم الفلسطينيّ.
٧. عام النّمل.
٨. رسالة إلى الإله.
٩. أرض الحكايا.
١٠. مقامات الاحتراق.
١١. ناسك الصومعة.
١٢. قافلة العطش.
١٣. الكابوس.
١٤. الهروب إلى آخر الدّنيا.
١٥. مذكّرات رضيعة.

١٦. أكاذيب النّساء.

١٧. الأعمال القصصيّة الكاملة، جزء١

١٨. الأعمال القصصيّة الكاملة، جزء٢

١٩. الأعمال القصصيّة الكاملة، جزء٣

٤- مجموعات قصصيّة مشتركة مع أدباء عرب وعالميين:

١. مجموعة قصصيّة مشتركة مع قاصّين أردنيين بعنوان "القصّة في الأردن: نصوص ودراسات".

٢. مجموعة قصصيّة بعنوان "الضّياع في عيني رجل الجبل".

٣. مجموعة قصصيّة مشتركة مع قاصّين عرب بعنوان "في العشق".

٤. مجموعة قصصيّة مشتركة مع قاصين أردنيين بعنوان "مختارات من القصّة الأردنيّة".

٥. مجموعة قصصية مشتركة مع أدباء مصريين مجموعة نجوم القلم الحرّ في سماء الإبداع.

٥- مسرحيّات للكبار:

١. دعوة على شرف اللّون الأحمر.

٢. "سيلفي" مع البحر.

٣. وجه واحد لاثنين ماطرين.

٤. محاكمة الاسم (×).

٥. السّلطان لا ينام.

٦. خُرّافيّة سعديّة أمّ الحظوظ.

٦- مسرحيّات للفتيان والفتيات:

١.اليوم يأتي العيد.

٢.رحلة مع المعلّمة فرحة.

٧- قصص أطفال:

١. قصّة للأطفال بعنوان "زرياب: معلّم الناس والمروءة".
٢. قصّة للأطفال بعنوان "هارون الرّشيد: الخليفة العابد المجاهد".
٣. قصّة للأطفال بعنوان "الخليل بن أحمد الفراهيديّ: أبو العروض والنّحو العربيّ".
٤. قصّة للأطفال بعنوان "ابن تيمية: شيخ الإسلام ومحيي السّنّة".
٥. قصّة للأطفال بعنوان "اللّيث بن سعد: الإمام المتصدّق".
٦. قصّة للأطفال بعنوان "العزّ بن عبد السّلام: سلطان العلماء وبائع الملوك".
٧. قصّة للأطفال بعنوان "عبّاس بن فرناس: حكيم الأندلس".
٨. قصّة للأطفال بعنوان "زرياب: معلّم النّاس والمروءة".
٩. قصّة للأطفال بعنوان "صاحب القلب الذّهبيّ".
١٠.مئات القصص المصورة للأطفال المبثوثة والمنشورة في مجلاّت الأطفال المحليّة والعربيّة.

٨- المقالات والنّصوص النّثريّة:

١- أبي سيّد الكلمات.

٢- الذين لا ينامون.

٣- قالت النّساء.

٤- غصون وتخوم.

٥- الدّرب إليهم.

٦- الأعمال النّثريّة الكاملة.

٩ – لقاءات حواريّة:

١. الهدهد والخاتم: لقاءات مع مبدعين عراقيين، سلسلة حوارات إبداعيّة وفكريّة (١)
٢. العرّافة والجبل: لقاءات مع مبدعين عرب، سلسلة حوارات إبداعيّة وفكريّة (٢)
٣. لقاءات حواريّة: لقاءات مع مبدعين عالميين، سلسلة حوارات إبداعيّة وفكريّة (٣)

١٠ – كتب نقديّة متخصّصة:

١. الأسطورة في روايات نجيب محفوظ.
٢. السّرد الغرائبيّ والعجائبيّ في الرّواية والقصّة القصيرة في الأردن١٩٧٠-٢٠٠٢م
٣. دور جلالة الملك في مكافحة الإرهاب: تفجيرات عمان في قصص بالشّراكة مع المؤلّف وائل الفاعوريّ.
٤. الدّواني والغواني: غصون في الأدب المعاصر ونقده.
٥. السّراب وأهزوجة النّور: دراسات نقديّة في تجسيد الذّات والآخر في الأدب المعاصر.
٦. ترنّم الصّوت وثورة الصّدى: دراسات في إبداعات معاصرة.

١١- المشاركة في فصول نقديّة في كتب نقديّة محكّمة متخصّصة:

١. المشاركة بفصل بعنوان "السّرد الجميل لتأثيث عالم قبيح" في كتاب بعنوان "حنون مجيد في منجزه القصصيّ"، جمع وإعداد وتحرير د. سمير الخليل.
٢. مشاركة بفصل بعنوان "لقاء مع العلامة علي القاسميّ: أبو المعاجم العربية الحديثة" في كتاب "الدّكتور علي القاسميّ سيرة ومسيرة: مجموعة بحوث ودراسات مهداة إليه بمناسبة عيد ميلاده الخامس والسّبعين"، جمع وإعداد د. منتصر أمين عبد الرّحيم.

٣. المشاركة بفصل بعنوان "عبد الكريم غرايبة العملاق الذي ينير الدّرب للجميع" في كتاب "عبد الكريم غرايبة مؤرّخاً عربيّاً".

٤. المشاركة بفصل بعنوان "مساحة التّوتّر بين الانتظار والخيبة عند القاصّ العراقيّ فرج ياسين في مجموعته القصصيّة "واجهات برّاقة" في كتاب" في آفاق النّص القصصيّ: مقاربات في الهويّة والنّص والتّشكيل عند فرج ياسين".

٥. المشاركة بفصل بعنوان "البطل في قصص زياد أبو لبن" في كتاب "القصّة القصيرة في الوقت الرّاهن".

٦. المشاركة بفصل بعنوان "الذين لا يموتون" في كتاب "المبدع الرّاحل محيي الدّين زنكنه بأقلام أصدقائه".

٧. المشاركة بفصل بعنوان "الفنتازيا رداء للتّشوير في التّجربة القصصيّة عند محيي الدّين زنكنة" في كتاب نقديّ بعنوان "نظرات نقديّة في عالم محيي الدّين زنكنه الإبداعيّ".

٨. المشاركة بفصل بعنوان "شهادة إبداعيّة للأديبة الأردنيّة سناء شعلان" في كتاب "دراسات نقديّة عن الأدب الكرديّ".

١٢- الكتب المنهجيّة:

١- كتاب بعنوان "تعليم اللّغة العربيّة للنّاطقين بغيرها: المستوى الخامس"، كتاب مشترك مع مجموعة من المؤلّفين الأكاديميين.

عنوان المؤلّفة: د. سناء شعلان

الأردن – عمان– الرّمز البريدي١١٩٤٢

ص. ب ١٣١٨٦

خلوي وواتس وفايبر: ٠٠٩٦٢٧٩٥٣٣٦٦٠٩

البريد الالكتروني

Selenapollo@hotmail. com

العنوان على الفيس بوك

Sanaa shalan

9789957545468